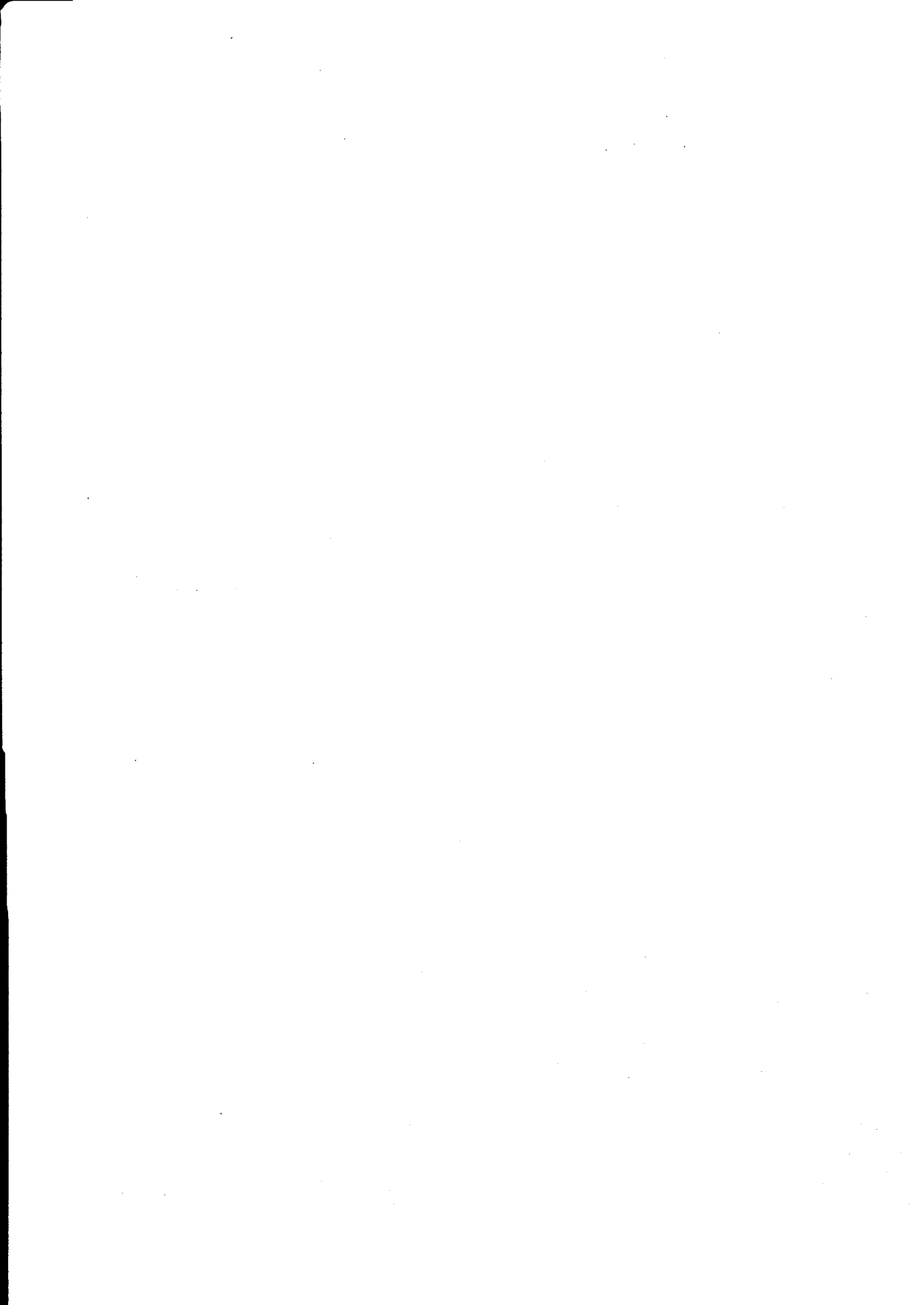


نفس الظهري



تفسير المظهر

تأليف

القاضي محمد شفاء الله العثماني الحنفي المظهر

النقشبندي

١١٤٣ - ١١٦٥

تحقيق

أحمد عز و سناء

الجزء العاشر

دار الحياة التراث العربي

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناسر

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright @

All rights reserved

All rights of this publication are reserved exclusively to DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, photocopied, photographed, taped on audio cassettes, or stored in a data base or saved on a retrievable system distributed in any form or by any means, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

جميع الحقوق محفوظة في باكستان للمكتبة الحقانية

جلال الدين حقاني

بشار بازار كتبخانه

تلفون: 091/220493 - موبيل: 0300/5902280 - باكستان

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache
P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250
Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش
ص.ب: 11/7957 الرمز البريدي: 1107 2250
هاتف: 540000 - 544440 فاكس: 850717

سورة الحاقة

مكية وهي اثنام وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُفْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَيمَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَصْبَارٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ ٧ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكِئْتِ بِالْحَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ آخِذَةً رَّابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكِئِزًا فِي لَيَالِيَةٍ ١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَنَعْيًا أَدْنَىٰ ١٢ وَرِعَةً ١٣ ﴿

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ ١ أي القيامة لأنها حق وثابت وقوعها لا ريب فيه أو لأنها يحق فيها الأمور أي يعرف حقيقتها أو لأنها يحق الجزاء على الأعمال يقال: حق عليه الشيء إذا وجب قال الله تعالى: ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) والإسناد مجازي مبتدأ وخبره ﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ٢ والرابط المظهر في مقام المضمرة والاستفهام لتفخيم شأنها والتهويل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ ٣ مبتدأ وأدراك خبره والاستفهام للإنكار ﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ٤ جملة الاستفهامية للتهويل مفعول لأدراك معنى الآية الحاقة ما هي أي شيء عظيم الهول إنك لا تعلم كونها فإنها أعظم من أن يبلغها إدراك أحد ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودٌ ﴾ قوم صالح ﴿ وَعَادٌ ﴾ هود ﴿ بِالْقَارِعَةِ ﴾ أي بالساعة التي تفرع الناس بالإقراع والإحرام بالانفطار والانتثار وهي القيامة التي مر ذكرها بلفظ الحاقة فهنا وضع المظهر موضع المضمرة بلفظ مرادف لما سبق مع زيادة فيوصف شدتها بياناً لذلك الزيادة والجملة خبر للحاقة الأولى بعد خبر، أو الجملتان السابقتان معترضتان للتهويل أو هذه الجملة مستأنفة مؤكدة بعنوان المبتدأ الأولى أي تحققها وثبوتها فإن مضمون هذه الجملة مع ما عطف عليها أن إنكارها وتكذيبها يوجب

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.

الهلاك والاستئصال ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَقْبَلُوا بِالطَّائِغَةِ ۝﴾ أما تفصيل لما أجمل والجمله معطوفة على كذبت الفاء للسببية تقديره كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأهلكوا بسبب تكذيبها أما ثمود فأهلكوا بالطاغية أي بالصيحة التي جاوزت مقادير الصياح فأهلكتهم كذا قال قتادة وهو الصحيح، وذلك أن جبرئيل ﷺ صاح صيحة واحدة فهلكوا وقيل: أتهم صيحة من السماء وفيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطفت قلوبهم في صدورهم وقيل الطاغية مصدر كالعافية بمعنى الطغيان أي أهلكوا لطيغيانهم من التكذيب وقتل الناقة وغير ذلك، وقيل: المراد بالطاغية قدار بن سالف عاقر ناقة صالح والتاء للمبالغة أو الجماعة التي اتفقت على عقر الناقة وبعثت قذاراً لعقرها فإنها كانت سبب هلاكهم وذلك أن الله تعالى بعث صالحاً إلى ثمود فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا وطلبوا منه أن يخرج ناقة عشاء من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة آية حتى يؤمنوا به فدعا صالح ربه فخرجت منها ناقة عظيمة مسافة ما بين جنبئها مائة وعشرون ذراعاً عشاء وولدت في الحال ولداً مثلها فلم يؤمنوا وقالوا هذا من سحره فجعل الله تعالى تلك الناقة نعمة لهم حيث كانوا قليل الماء فكانت الناقة تشرب ماءهم يوماً وتترك الماء لهم يوماً وكذا الكلاء فأجمع جماعة منهم على قتلها فبعثوا أشقى الناس وهو قدار بن سالف ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ آثِنًا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾^(١) فقال صالح تمتعوا في داركم بعد قتلها ثلاثة أيام تصفرو وجوهكم في اليوم الأول وتحمر في اليوم الثاني وتسود في الثالث ويصبحكم العذاب في الرابع فكان كذلك وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها لكن هذه التأويلات أي القول بأن المراد طاغة المصدر أو عاقر الناقة لا يصاعده العطف بأما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ﴾ فإن فيه الباء للاستعانة فلا بد أن يكون فيما قبله أيضاً كذلك حتى يكون الجملتان تفصيلاً لمجمل ﴿صَرَصِرٍ﴾ شديد البرد أو شديد الصوت كذا في القاموس ﴿عَائِيَةً سَخْرَهَا﴾ أي سلطها الله سبحانه بقدرته، استئفاف أو صفة جيء به لنفي ما يتوهم من أنها كانت من اتصالات فلكية ونحو ذلك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على عاد ﴿سَجَّ لِيَالٍ وَكَمَنِيَّةَ أَيَّارٍ﴾ من صبيحة الأربعاء إلى غروب الشمس من الأربعاء الآخر قال وهب في الأيام التي تسميها العرب الأيام العجوز ذات برد ورياح شديد سميت عجوزاً لأنها عجز الشتاء إلى آخره، وقيل: سميت بذلك لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرياً فتبعها الريح فقتلها في اليوم الثامن نزول العذاب وانقطع العذاب ﴿حُسُومًا﴾ حال من مفعول

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

سحر بمعنى متتابعات جمع حاسم من حسام الكي وهو أن يتتابع على موضع الداء بالمشكاة حتى يبرأ كذا قال مجاهد وقتادة أو نحسات كما في قوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ مَّجْسَاتٍ﴾^(١) أي حسمت كل خير واستأصله من أصله كذا قال عطية أو قاطعات قطعن دابره كذا قال الزجاج والنضر بن شميل ويجوز أن يكون مصدراً منصوباً على العلية أو على المصدرية من فعل مقدر أي يحسمهم حسوماً ﴿فَتَرَى﴾ أي المخاطب الغير المعين حكاية عن الحال الماضية ﴿الْقَوْمِ﴾ أي عاداً ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الليالي والأيام أو في بينهما ﴿صَرَخَتْ﴾ جمع صريع بمعنى مصروع مفعول ثان لتري إن كان من رؤية القلب وإلا فهو حال من المفعول ﴿كَلَّهْمُ أَعْجَازُ﴾ أصول ﴿تَخَلَّ خَاوِيَةٌ﴾ متأكلة الأجواف جملة كأنهم حال بعد حال مفرد ولذلك أيضاً لكونها مصدرة بكان ترك الواو ﴿فَهَلْ تَرَى﴾ استفهام تقرير أي حمل المخاطب على الإقرار ﴿لَهُمْ﴾ أي لعاد ﴿مِنُ بَاقِيَةِ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ قرأ أبو عمر والكسائي بكسر القاف وفتح الباء بمعنى الجانب أي من معه من جنوده وأتباعه والباقون بفتح القاف وسكون الباء أي من تقدمه من الأمم الكافرة ﴿وَالْمُرْتَفِكَةِ﴾ أي قرى قوم لوط قلبت عليهم من إفك بمعنى قلب والمراد بها أهلها أو المعنى الأمم الذين أبتفكوا يعني قوم لوط ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ والمعصية يعني الشرك أو بفعلة أو أفعال خاطئة ذات خطأ ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يعني عصى فرعون موسى ﷺ وكل أمته كافرة نبيها عطف تفسيري على جاء ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ معطوف على ما سبق والفاء للسببية ﴿أَخَذَهُ رَأْيَهُ﴾ زائدة في الشدة على كل أخذة مفعول مطلق لبيان النوع ﴿إِنَّا لَنَّا طَعْنَا أَلْمَاءَ﴾ أي جاوز حده حتى على كل شيء وارتفع فوقه في زمن نوع ﷺ لما ظرف متعلق بما بعده ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي حملنا آبائكم وأنتم في أصلابكم ﴿فِي الْبَارِيَةِ﴾ في سفينة نوح ﷺ جارية في الماء ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ السفينة أو الفعلة وهي إنجاء المؤمنين الذين في السفينة مع طغيان الماء وتجاوزه عن حده ﴿لَكُمُ نَذِيرَةٌ﴾ عبرة وعظة لدلائها على قدرة الصانع وحكمته وكما قهره ورحمته ﴿وَقَبِيحًا﴾ أي تحفظها وتعقلها وتفكر فيها قرأ الجمهور بكسر العين وفتح الياء وروي عن ابن كثير باختلاس العين قال صاحب التيسير لا يصح ذلك ﴿أُذُنٌ﴾ قرأ نافع أذن بالتخفيف والجمهور بالضميتين ﴿وَأَعْيَتْ﴾ الوعي صفة القلب والنفس وإنما أسند إلى الأذن مجازاً للتسبب أو المراد أصحاب أذن واع حذف المضاف وأجرى على المضاف إليه ما كان يجري على المضاف، والتكثير في واعية للدلالة على قتلها وإن من هذا شأنه فهو مع قلته سبب الإنجاء الجم الغفير وإدامة نسلهم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه

(١) سورة فصلت، الآية: ١٦.

القلوب أوعية فخيرها أوعاها^(١)» رواه الطبراني لما بالغ في تهويل القيامة وذكر مآل المكذبين بها عاد إلى شرحها فقال:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهَا يَوْمَئِذٍ وَاهِبَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَائِكَةُ عَلَيْهَا رُكْبَاتٌ وَعِشْرَتٌ ﴿١٧﴾ وَالسَّمَاءُ كَالرَّيِّبِ الْهَائِلِ ﴿١٨﴾ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُكَذِّبُونَ ﴿١٩﴾ فَتَوَلَّىٰ مُدَبِّرَاتٍ لَّا تَحْصِيَنَّ مِنْكُمْ خَافِيَةً ﴿٢٠﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوثِقَ كِلْتَابَهُ بِسَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُوا مِنِّي كِتَابِيَةً ﴿٢١﴾ إِنَّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةً ﴿٢٢﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢٣﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قَطُوفُهَا دَائِمَةٌ ﴿٢٤﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «الصور قرن ينفخ فيه»^(٢) رواه الترمذي وأبو داود والدارمي ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أحسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقديده حسن تذكيره للفصل والمراد بها نفخة الصعق. واختلفوا في عدد النفخات؟ فقيل: ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾^(٣) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾﴾^(٤) واختار هذا القول ابن العربي وكذا ورد صريحاً في حديث طويل عن أبي هريرة بلفظة «فينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين» رواه ابن جرير في تفسيره والطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وغيرهم. وقيل: بل نفختان فقط ونفخة الفزع نفخة الصعق لأن الأمرين متلازمان أي فزعوا فزعاً ماتوا عنه وهذا القول صححه القرطبي واستدل بأنه استثنى في نفخة الفزع كما استثنى في نفخة الصعق فدل على أنهما واحد في أكثر الأحاديث ذكر اثنتين فقط وما بينهما أربعون عاماً والحديث الطويل في إسناده من تكلم

(١) رواه الطبراني وفيه بشير بن ميمون الواسطي وهو مجمع على ضعفه.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأدعية، باب: «ادعوا وأنتم موقنون بالإجابة» (١٧٢٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: ذكر البعث والصور (٤٧٢٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠).

(٣) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

فيه واختلف الناس في تصحيحه فصححه ابن العربي والقرطبي وضعفه البيهقي وعبد الحق ومدار هذا الحديث على إسماعيل بن رافع قاضي المدينة وقد تكلم فيه قال السيوطي في بعض سياقه نكارة وقد قيل إنه جمعه من طرق وأماكن متفرقة مسلمة سياقاً واحداً والله تعالى أعلم. والمراد بالظرف أعني قوله تعالى: إذا نفخ الزمان الطويل الذي سماه الله تعالى في كتابه بالحاقة والقارعة والقيامة والواقعة وغيرها من الأسماء الكثيرة وابتداء ذلك الزمان النفخة الأولى وانتهائه دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أخرج ابن عساکر عن زياد ابن مخراق قال: سأل الحجاج عكرمة مولى ابن عباس عن يوم القيامة أمن الدنيا هو أو من الآخرة قال صدر ذلك من الدنيا وآخرة من الآخرة فعلى هذا جاز إضافة ذلك الزمان إلى النفخ في الصور النفخة الأولى وإلى كل ما وقع في ذلك اليوم من الصعق والنشور والحسنات والشقاق السماوات وانتشار الكواكب ودخول الجنة والنار وغير ذلك فقله تعالى: ﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْعَةٌ وَجِدَّةٌ ﴿١٣﴾﴾ بيان لابتداء ذلك الوقت وقوله تعالى: ﴿نَهْوٍ فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةً ﴿١٦﴾﴾ إلى آخره وقوله تعالى: ﴿عَذْوُهُمْ فُتُوهُ ﴿٢٠﴾﴾ إلى آخره كلاهما بيان لانتهاء به ﴿وَجَلَّتْ﴾ أي رفعت ﴿الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من أماكنها ﴿فَدَكَّكَ﴾ أي الأرض والجبال ﴿دَكَّةً وَجِدَّةً﴾ الدك الدق والهدم كذا في القاموس وقال الجوهري أصله الكسر كذا ذكر البغوي، وقال الجوهري أيضاً الدك الأرض اللينة السهلة قوله تعالى: ﴿دَكَتِ الْجِبَالُ دَكَاً﴾ أي جعلت بمنزلة الأرض اللينة، والحاصل أن الأرض جعلتنا مستوية دفعة واحدة لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً وأخرج البيهقي عن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدَكَّكَ دَكَّةً وَجِدَّةً ﴿١٤﴾﴾ قال: يصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين وذلك وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها فترة وجزاء الشرط محذوف أي إذا نفخ في الصور وحملت الأرض انقضت الدنيا وحقت الحاقة ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ عطف على وقعت ﴿فَنَهَى﴾ الواقعة الواجبة الوقوع من الحسنات والجزاء ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ عطف على وقعت ﴿فَنَهَى﴾ أي السماء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لما بعده ﴿وَأَهِيَّةً﴾ ضعيفة مسترخية ليست على الشدة والقوة التي كانت عليها قال الفراء وهيها تشققها وفي القاموس الوهي الشق في الشيء يقال وهي إذا انشق واسترخى رباطها ﴿وَأَلْمَلَكُ﴾ أي الجنس المتعارف بالملك ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي جوانب السماء وأطرافها التي بقيت بعد الانشقاق ﴿وَيَجْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ إضافة العرش إلى الله تعالى لتعظيمه ولاختصاصه بتجلي مخصوصة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ الضمير يعود إلى الثمانية لتقدمها في المرتبة أو إلى الملائكة الذين هم على أرجاء السماء ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أي ثمانية أفلاك.

روى أبو داود والترمذي عن العباس بن عبد المطلب زعم أنه كان جالساً في البطحاء في عصابة ورسول الله ﷺ جالس فيهم فمرت سحابة فنظروا إليها فقال رسول الله ﷺ ما تسمون هذه؟ قالوا: السحاب، قال: والمزن؟ قالوا: والمزن، قال: والعنان؟ قالوا: والعنان، قال: هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري، قال: إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنان أو ثلاث وسبعون سنة والسماء التي فوقها كذلك حتى عد سبع سماوات ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء إلى السماء ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهن ودركهن مثل ما بين سماء إلى سماء ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه ما بين سماء إلى سماء ثم الله فوق ذلك»^(١) وروى البغوي هذا الحديث نحوه غير أنه ذكر «ما بين السماء والأرض وكذا ما بين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكذا ما بين أعلى البحر وأسفله» وإطلاق الأوعال ودركهن واختلاف المسافة باختلاف اعتبار السائرين والله تعالى أعلم، قال البغوي جاء في الحديث أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرون على صورة أوعال ما بين أظلافهم ودركهم كما بين سماء إلى سماء، وجاء في الحديث أن الواحد منهم وجه رجل والآخر وجه أسد والآخر وجه ثور والآخر وجه نسر وروي عن ابن عباس أنه قال: يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية أي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أيها الناس كافة على الله تعالى للحساب وهذا بعد نفخة البعث والجملة مستأنفة كأنها في جواب ما يفعل بنا ذلك اليوم ﴿لَا تَحْفَى﴾ قرأ الجمهور بالتاء نظراً إلى تأنيث الفاعل وحمزة والكسائي بالياء للفصل ﴿مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي فعله سريرة وجملة لا يخفى إما بدل اشتمال من تعرضون أو حال من فاعله قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات أما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تتظاهر الصحف في الأيدي فأخذ يمينه بشماله»^(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري والبيهقي عن ابن مسعود، قال الحكيم الترمذي الجدال للأعداء يجادلون لأنهم لا يعرفون ربهم فيظنون أنهم إذا جادلوه نجوا وقامت حجبتهم والمعاذير لله تعالى يعتذر إلى آدم وأنبيائه ويقيم حجة عندهم على الأعداء

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحاقة (٣٣٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: الجهمية (٤٧١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرفائق والورع، باب: ما جاء في العرض (٢٤٢٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر البعث (٤١٧٧).

ثم يبعثهم إلى النار وأما العرضة الثالثة للمؤمنين وهو العرض إلا أن يخلو بهم فيعاتب مزيد عتابه في تلك الخلوة حتى يذوق الحياء والخجل ثم يغفر لهم ويرضى منهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَتْ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وذلك هو المؤمن والجملة معطوفة على تعرضون تفصيل للعرض أي العرضة الثالثة ﴿فَيَقُولُ﴾ ذلك المؤمن تحجاً بحجج خبير لمن ﴿هَآؤُمْ﴾ اسم لخذ يقال هاء يا رجل ويا رجلاً ويا امرأة ويا امرأتان وهآؤم يا رجال وهآؤن يا نساء ﴿أَفَرَأَوْا كِتَابِيَةَ﴾ تنازع الفعلان هآؤم وقرأوا في مفعولية كتابيه فأعمل الثاني لقربه وحذف المفعول الأول ولو كان الأمر على العكس لقل أقرأوه والهاء فيه وفي حساييه وماليه وسلطانيه للسكت تثبت في الوقف وتسقط في الوصل واستحب الوقف لثباتها في الأيام الخالية ولذلك قرئء بإثباتها في الوصل أيضاً ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ أي علمت وأيقنت ولما كان اليقين بالحساب مستلزماً للإتيان بأعمال الصالحة كني به عنه كأنه قال إنني عملت صالحاً وإنما لم يقل كذلك هضماً لنفسه ولأجل ذلك عبر عن العلم بالظن استحقاقاً لنفسه عن دعوى العلم بحضرت ذي الجلال علام الغيوب، قال البيضاوي لعله عبر عنه بالظن إشعاراً بأنه لا يقدر في الاعتقاد الهجس في النفس من الخطرات التي لا ينفك عنها العلوم النظرية ﴿أَنْفٍ مُّثْقِي حِسَابِيَةَ﴾ مفعول لظننت قائم مقام المعقولين، أخرج ابن المبارك عن أبي عثمان النهدي قال: إن المؤمن ليعطى كتابه في ستر من الله تعالى فيقرأ سيئاته فيتغير لونه ثم يقرأ حسناته فرجع عليه لونه ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات فعند ذلك يقول هآؤم اقرأوا كتابيه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ قال في القاموس أي مرضية يقال رضيت لعيشة بالبناء للمفعول ولا يقال رضيت بالفتح على البناء الفاعل قال البيضاوي أي ذات رضاء على النسبة بالصيغة أو جعل الفعل لها مجازاً ﴿فِي جَنَّةٍ﴾ متعلق بظرف مستقر قبله ﴿عَالِيَةٍ﴾ رفيعة الرتبة عند الله تعالى من حيث القرب الذي كيف له أو رفيعة المكان فإنها في السماء أو رفيعة الدرجات والأبنية والأشجار ولما كان رفعة الأشجار موهماً لبعد الثمار وكونها غير سهل للأخذ عقبة الله تعالى بصفة أخرى بعد صفة فقال ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثمارها جمع قطف ﴿دَائِيَةٍ﴾ قريبة بحيث يدون منا تناولها قائماً وقاعداً وراقداً ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي أكلاً هنيئاً وشرباً هنيئاً والهنيء كل ما لا يلحق به مشقة ولا تعب أو المعنى يهنئهم هنيئاً وهذه الجملة بتقدير القول خبر بعد خبر بهو وجمع الضمير نظراً إلى المعنى أي هو في جنة وهم يقال لهم كلوا واشربوا أو مستأنفة في جواب ما يقال لهم فيها ﴿يَمًّا أَسْلَفْتُمْ﴾ متعلق بكلوا واشربوا على التنازع أي بما قدمتم من الأعمال الصالحة والسلف المتقدم من الشيء ﴿فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَةِ﴾ الماضية من الأيام الدنيا فإن الخالي في الزمان والمكان ما لا يكون لهم شاغل

فهو من الزمان ما لم يبق أهله ويلزمه المضي والذهاب فيعبر عن الماضي بالخالي قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (١).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلِّغْتَنِي لَوْ أُوْتِ كِتَابِي﴾ (٢٥) ﴿وَلَوْ أَدْرِمَا حِسَابِي﴾ (٢٦) ﴿بَلِّغْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ (٢٧) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٨) ﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (٢٩) ﴿خُدُوهُ فَعَلُوهُ﴾ (٣٠) ﴿قُرَّ الْحَجِيمَ صَلْوُهُ﴾ (٣١) ﴿تَرَىٰ فِي سَبِيلِهِ دَرَعًا مَّسْبُوعًا﴾ (٣٢) ﴿وَإِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣) ﴿وَلَا يَخْضَعُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ (٣٤) ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ (٣٥) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَنِيٍّ﴾ (٣٦) ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (٣٧) ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصَرُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٢) ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٣) ﴿لَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَابِلِ﴾ (٤٤) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٤٦) ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ﴾ (٤٧) ﴿وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ (٤٩) ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٥١) ﴿فَسَجِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥٢)

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ وهو الكافر يجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه كذا أخرج البيهقي عن مجاهد، قال ابن السائب يلوي يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطي كتابه وقيل ينزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ﴿فَيَقُولُ﴾ لقبيح ما يرى فيه من الأعمال وسوء العاقبة ﴿بَلِّغْتَنِي﴾ المنادى محذوف أي يا قوم ليتني ﴿لَوْ أُوْتِ كِتَابِي﴾ ﴿وَلَوْ أَدْرِمَا حِسَابِي﴾ (٢٦) جملة استفهامية في محل المفعول للم أدر وجملة لم أوت كمنع ما عطف عليه خبر ليت ﴿بَلِّغْتَهَا﴾ الضمير عائد إلى النفخة أو إلى غير مذكور أي يا قوم ليت الموتة التي في الدنيا أو الحالة التي كنت عليها من العدم بعد الوجود ﴿كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة للحياة مطلقاً بحيث لم أحيى بعدها، قال قتادة يتمنى الموت ولم يكن عذره في الدنيا شيء أكره من الموت ولما كانت جملة يا ليتني متمني عدم الحساب وإيتاء الكتاب وهو من حيث المعنى كناية عن تمني عدم البعث وجملة يا ليتها كانت القاضية تمني لعدم البعث صريحاً فلأجل كون الجملتين متحدتي المعنى معنى لم يعطف إحداهما على الأخرى وجعلت الثانية تأكيداً للأولى ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار مفعول لأغنى ﴿مَالِي﴾ أي مالي من المال والتبع ﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (٢٩) ملكي وتسلطي عن الناس أو حجة التي كنت

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

أحج بها في الدنيا، قرأ حمزة عني مالي وعني سلطاني بحذف الهائين في الوصل والباقون بإثباتهما في الحالين فيقول الله عز وجل لخزنة جهنم ﴿خُذُوهُ فَذُلُّوهُ﴾ أي أجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ثُمَّ لَنَجِمْ صَلْوَتَهُ﴾ وكلمة ثم لتفاوت ما بينهما في الشدة وكذا فيما بعده وقدم المفعول للحصر أي لا تصلوه إلا الجحيم هي النار العظمى وكذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ الفاء في فاسلكوه زائدة لتحسين النظم وليست عاطفة حتى يلزم اجتماع العاطفتين ومعنى فاسلكوه أي أدخلوه فيها، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق العوفي عن ابن عباس قال يسلك في دبره حتى يخرج من منخربه حتى لا يقوم على رجليه، وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق ابن جرير عنه قال: السلسلة تدخل من أسته ثم يخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم يشوى، قال نوف البكائي الشامي سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وكان في رحبة الكوفة أخرجه هناد وابن المبارك قال سفيان كل ذراع سبعون ذراعاً قال الحسن الله أعلم أي ذراع هو، قلت: لعله أراد ذراع الملك من خزنة النار أو ذراع الكافر في النار وقد ورد في الحديث: «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث»^(١) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً، وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رضاضة هذه وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن يبلغ أصلها أو قعرها»^(٢) وأخرج ابن المبارك عن كعب قال: إن حلقة من السلسلة مثل جميع حديد الدنيا وأخرج أبو نعيم عن محمد بن المنكدر قال: لو جمع حديد الدنيا كله ما خلى وما بقي ما عدل حلقة من حلق جهنم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ استئناف لبيان سبب ذلك العذاب وذكر العظيم للإشعار بأنه تعالى هو المستحق للعظمة فمن تعظم غيره استوجب العذاب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار»^(٣) رواه مسلم ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَشْكِينِ﴾ أي لا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبير (٤٠٨٥).

أما رواية مسلم فهي «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبتة» أخرجه في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبير (٢٦٠٣).

يحث على إطعامه فضلاً أن يبذل من ماله ويجوز أن يكون ذكر الحض للإشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف تارك الفعل، وفيه دليل على أن الكفار يعذبون على فروع الأعمال أيضاً، ولعل تخصيص الأمرين بالذكر لأن أقبح القبائح الكفر بالله وأشنع الشنائع البخل وقسوة القلب ﴿فَلَيْسَ لَهُ﴾ الفاء للسببية ﴿الْيَوْمَ هَهُنَا﴾ ظرفان للظرف المستقر ﴿حَمِيمٍ﴾ قريب يحمه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ مستثنى مفرغ صفة للطعام ولا زائدة والقصر إضافي والغسلين غسالة أهل النار صديدهم فعلين من الغسل كذا أخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين صديد أهل النار وقال الضحاک والربيع شجر يأكله أهل النار وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن طريق مجاهد عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ مستثنى مفرغ في محل الفاعل والجملة صفة لغسلين أي أصحاب الخطايا من خطى الرجل إذا تعدد الذنب لا من الخطأ ضد الصواب ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم أو يقال لا زائدة ومعناه أقسم أو المعنى فلا أي فليس كما يقول الكفار من أن محمداً ﷺ تقول القرآن على الله تعالى من نفسه وهو شاعر أو كاهن ولا بعث ولا نشور أقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ بالبصر أو البصيرة من المظاهر والمعالي لصفات الله تعالى سبحانه ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ ما لا يدركه الأبصار والبصائر من مراتب الصفات والشيونات وذات الله سبحانه، وقيل: ما تبصرون الدنيا وما لا تبصرون الآخرة، وقيل: ما تبصرون وما لا تبصرون الأجسام والأرواح أو الإنس والجن والملائكة أو النعم الظاهرة والباطنة وقيل: ما تبصرون ما أظهره الله من العلم على خلقه من الملائكة والجن والإنس وما لا تبصرون ما استأثر الله تعالى بعلمه فلم يطلع عليه أحد ﴿إِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلغه من الله سبحانه لا يقول عن نفسه ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى وهو محمد ﷺ أو جبرئيل ﷺ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمونه تارة ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ منصوب على المصدرية أو الظرفية وما زائدة لتأكيد القلة متعلق بما بعده ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ أي تؤمنون إيماناً قليلاً أو زماناً قليلاً لما يظهر لكم صدقة وقلة إيمانهم المستدعي نفي الإيمان كثيراً مبني على العناد والتعننت فإنهم لا يؤمنون إيماناً كاملاً تعنتاً وعناداً لا غير، وقيل: أراد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً كقولك لمن لا يزورك فلما تأتينا أصلاً والجملة معترضة لمذمة الكفار ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ لا زائدة وما بعده معطوف على خبر ما هو ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية والتذكر مع عدم الكاهنية لأن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بين لا ينكرها إلا معاند وإما مباينته لكهانة فهو

يظهر عند تذكر أحوال الرسول ومعاني القرآن المنافية لأحوال الكهنة ومعاني أقوالهم، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يؤمنون ويذكرون بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿نَزِيلٌ﴾ مصدر يعني المفعول خبر مبتدئ محذوف أي هو منزل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على لسان جبرائيل جملة مستأنفة في جواب ما يقال فما هو ﴿وَلَوْ نَقُولُ﴾ أي لو افترى وتكلف وتصنع في القول ﴿عَلَيْنَا﴾ من غير وحي منا ﴿بَعْضَ الْأَقْوَابِلِ﴾ جمع أقولة من القول كالأضاحيك سمي بها الأقوال المفتراة ﴿لَاخْذَنَا مِنْهُ﴾ أي من المفترى ﴿بِالْيَمِينِ﴾ متعلق بأخذنا أي بيمينه لا ذلالة أو بيميناً وعلى التقدير الثاني من زائدة واليمين من المتشابهات وقد يأول بالقوة والقدرة لأن قوة كل شيء في يمينه قال ابن عباس لأخذناه بالقوة والقدرة ويحتمل أن يكون من في قوله تعالى: لأخذنا منه هو للسببية والضمير عائد إلى القول أي لأخذنا من أجل القول بيمينه أو يميناً ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ وهو عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه ﴿فَمَا مِنْكُمْ﴾ من بيانية لأخذ ظرف مستقر حال منه ﴿مَنْ أَحَدٌ﴾ اسم ما ومن زائدة ﴿عَنْهُ﴾ أي عن القتل أو المقتول المفترى متعلق لما بعده ﴿حَاجِرِينَ﴾ جزءاً وحمله على أحد لعمومه معنى وجملة فما منكم معطوف على جزء الشرط أي لأخذنا والشرطية معترضة بين المعطوف عليه وهو إنه لقول رسول كريم والمعطوف أعني ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَلذِّكْرُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم المنتفعون.

فائدة: ومقتضى هذه الآية قال المجدد إن تلاوة القرآن سبب للترقي بعد فناء النفس وزوال العين والأثر فإن التقوى لا يتصور إلا بعد الفناء وكون القرآن تذكرة مختص بالمتقي يدل عليه لام التخصيص وأما قبل الفناء فالتلاوة داخل في عملاً لأبرار دون المقربين المتقين عن رذائل النفس ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ فنجازيهم على تكذيبهم وعدم تذكرهم به ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ﴾ أي سبب للحسرة ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ حين يرون ثواب المؤمنين المتذكرين به ﴿وَإِنَّكُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ اليقين إزاحة الشك كذا في القاموس وفي الصحاح اليقين من صفة العلم فوق المعرفة وحمله على القرآن من قبيل زيد عدل أي متيقن كمال اليقين كأنه نفس اليقين يعني أن القرآن لوضوحه وسطوع برهانه بحيث يتيقن به العاقل ولا يرتاب فيه والحق ضد الباطل، قال صاحب البحر يعني أنه اليقين الحق لا اليقين الباطل الذي هو الجهل لمركب فهو إضافة صفة إلى موصوفه بالتجريد على طريقة جرد قطيفة. فإن قيل المراد باليقين ها هنا ما يجب أن يكون متيقناً للعاقل لوضوح أمره وسطوع برهانه فاليقين بهذا المعنى هو الحق لا ما يعم اليقين الباطل الذي هو الجهل المركب فلا فائدة في إضافة

الحق إليه؟ قلنا: نعم لكن أضيف الحق إليه للتأكيد وزيادة التوضيح، وقال البغوي إلى نفسه لاختلاف اللفظين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) أي فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه وعن كل ما لا يليق به وشكراً له على ما أوحى إليك قيل: معناه فصل بذكر ربك وأمره وقيل: الباء زائدة ولفظ الاسم مقحم ومعناه فسبح ربك العظيم، عن عقبة بن عامر الجهني قال لما نزلت على رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»^(١) رواه أبو داود وابن ماجه والدارمي، وعن حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ كان يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الأعلى وما أتى آية رحمة إلا وقف وسأل وما أتى على آية العذاب إلا وقف وتعوذ^(٢) رواه الترمذي وأبو داود والدارمي قال الترمذي حديث حسن صحيح ورواه النسائي وابن ماجه إلى قوله الأعلى، وعن عون بن عبد الله عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ركع أحدكم فقال في ركوعه سبحان ربي العظيم ثلاث مرات فقد تم ركوعه وذلك أدناه وإذا سجد فقال في سجوده سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات فقد تم سجوده وذلك أدناه»^(٣) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وقال الترمذي ليس إسناده بمتصل لأن عوناً لم يلق ابن مسعود، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»^(٤) متفق عليه وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة»^(٥) رواه الترمذي.

مسألة:

تسيبحات الركوع والسجود سنة عند الجمهور وأدنى الكمال ثلاث تسيبحات وقال

- (١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: التسيب في الركوع والسجود (٨٨٧).
- (٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في التسيب في الركوع والسجود (٢٥٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٩).
- (٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في التسيب في الركوع والسجود (٢٥٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: مقدار الركوع والسجود (٨٨٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: التسيب في اركوع والسجود (٨٩٠).
- (٤) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسيب (٦٤٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسيب والدعاء (٢٦٩٤).
- (٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٤).

أحمد واجب وكذا الخلاف في تكبيرات انتقالات والتسميع والتحميد في القومة دون رب اغفر لي في الجلسة فلم يقل أحد بوجوبه احتج أحمد بقوله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» قال: الأمر للوجوب وفي حديث ابن مسعود علق تمام الركوع به والجمهور يحملون الأمر على الندب والله تعالى أعلم بالصواب.

تمت سورة الحاقة

سورة المعارج

مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا حَبِيلاً ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالذَّهَبِ الْمُكَرَّمِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصِرُونَ يَوْمَ الْوَعْدِ أُولَ الَّذِينَ كَانُوا يُعْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَصَحْبِهِ وَآخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبَعُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾

﴿سَأَلَ﴾ قرأ نافع وابن عامر سال بالألف ساكنة بدلاً من الهمزة والباقون بهمزة وحمزة يجعلها في الوقف بين بين ﴿سَائِلٌ﴾ أخرج النسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: هو النضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذا أليم، وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: وكان عذابه يوم بدر فالمراد بالسؤال على هذا الدعاء وبدل على ذلك تعديته بالباء ويحتمل أن يكون سأل على قراءة نافع من السيلان والمعنى سأل واد بعذاب معنى الفعل لتحقق وقوعه إما في الدنيا وهو قتل بدر أو في الآخرة وهو عذاب النار قال البغوي سائل وأد من أودية جهنم يروى ذلك عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، وأخرج بن المنذر عن الحسن قال: نزلت ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ فقال الناس على من يقع العذاب؟ فأنزل الله عز وجل ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ الخ يكون السؤال للاستفهام فالباء في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن أو يكون تعديته بالباء لتضمن سأل معنى أهم ﴿وَاقِعٍ﴾ صفة لعذاب ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب أو صلة الواقع وإن كان السؤال عن من يقع به العذاب كان جواباً ليس له دافع صفة أخرى للعذاب أو هو في حيز الجواب أي واقع للكافرين ﴿لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ﴾ من جهة الله لتعلق إرادته ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ صفة لله تعالى أي ذي المصاعد قال سعيد بن

جبير ذي الدرجات، قلت: وهي درجات القرب التي لا كيف لها التي تبلغ إليها الأنبياء والملائكة والأولياء ودرجات القبول يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح أو المصاعد في دار الثواب ودرجات الجنة، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله تعالى فسألوه الفردوس»^(١) رواه الترمذي، وعن أبي هريرة نحوه وفيه «ما بين الدرجتين مائة عام» وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من بينهم كما تراءون الكواكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله ﷺ «تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٢) متفق عليه، وقال ابن مسعود في السموات سماها معارج لأن الملائكة يعرج فيها وقال قتادة ذي الفواضل ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ قرأ الكسائي يعرج بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث والجملة صفة للمعارج على طريقة ولقد أمر على اللثيم يسبني والرابط محذوف أي تعرج فيها الملائكة والروح إليه والروح جبرائيل ﷺ وأفرده لفضله أو أعظم خلق من الملائكة، قلت: ويحتمل أن يكون المراد بالروح روح البشر الذي هو من عالم الأمر فإن أرواح البشر من الأولياء والأنبياء تعرج من خفض البعد والغفلة إلى معارج القرب والحضرة ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله سبحانه أو إلى عرشه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الظرف متعلق بمحذوف دل عليه واقع أي يقع العذاب بهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة يعني يوم القيامة كذا أخرج البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس وقال يمان يوم القيامة فيه خمسين موطناً كل موطن ألف سنة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاة الكنز إلا أحي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت تستن عليه لا يفقد منها فصيلاً واحداً يظأ بأخفافها وتعض بأفواها كلما مر عليه أو لاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة درجات الجنة (٢٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: تراثي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١).

فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح له بقاع فرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولاغضباء تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كما مر عليه أولاً رد عليه أخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حين يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(١) وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي بسند حسن عن أبي سعيد قال: سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا» قلت: فعلى هذا التأويل لا تصادم بين هذه الآية وبين قوله تعالى في تنزيل السجدة ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٢) إذ معناه يحكم الله تعالى بالأمر وينزل به جبرئيل من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه جبرئيل في يوم من أيام الدنيا وكان قدر سيره ألف سنة خمسمائة سنة نزوله وخمسمائة عروجه لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام يعنى لو سار تلك المسافة واحد من بني آدم لم يقطعه إلا في ألف سنة لكن الملائكة يقطعون في يوم واحد بل في أدنى زمان. أخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة وفي قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هذا يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، وقيل: المراد من الآيتين يوم القيامة يكون على بعضهم أقول وعلى بعضهم أقصر حتى يكون على المؤمنين أهون من الصلاة المكتوبة كما مر، وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً يكون على المؤمنين كمقدار ما بين الظهر والعصر، ومعنى قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مدة أيام الدنيا ثم يعرج أي يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الأمراء وحكم الحكام في يوم كان مقداره ألف سنة، وقيل: الظرف في هذه الآية أعني قوله تعالى في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة متعلق بيعرج كما هو متعلق في سورة التنزيل ووجه الجمع بين الآيتين أن المراد في آية سورة التنزيل أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه من الأرض إلى السماء في يوم وقدر مسيره ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام فصار نزوله وعروجه ألف سنة والمراد في هذه السورة مدة المسافة من منتهى الأرض السابعة إلى منتهى أعلى السموات فوق

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة (٩٨٧).

(٢) سورة السجدة، الآية: ٥.

السماة السابعة، قال البغوي روى ليث عن مجاهد أن مقدار هذا خمسين ألف سنة وقال محمد بن إسحاق لو سار ابن آدم من الدنيا إلى موض العرش سيراً طبيعياً له سار خمسين ألف سنة ومن ها هنا قالت الصوفية العلية: إن فناء القلب الذي يحصل للصوفي بال جذب من الله تعالى بتوسط النبي ﷺ والمشايخ لو أراد واحد أن يحصله بالعبادات والرياضات من غير جذب من الشيخ فإنما يحصل له في زمان كان مقداره خمسين ألف سنة وإذا لم يتصور بقاء أحد بل بقاء الدنيا إلى هذه المدة ظهر أن الوصول إلى الله تعالى من غير جذب منه تعالى بتوسط أحد من المشايخ كما هو المعتاد وبلا توسط روح رجل كما يكون لبعض الآيسين من الأفراد محال والله المستعان ﴿فَأَمِيرٌ﴾ يا محمد على تكذيبهم ﴿صَبْرًا جَبِيلًا﴾ لا يشعر به استعجال واضطراب وجزع والفاء للسببية متعلق بسأل فإن السؤال عن تعنت واستهزاء وذلك مما نضجر به فالمعنى فاصبر ولا تضجر عن سؤالهم ولا تستعجل في عقوبتهم أو متعلق بسأل على قراءة نافع أو بمحذوف متعلق به في يوم على معنى فاصبر فقد سأل بهم العذاب وقرب وقوعه يقع ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الكفار ﴿يُرَوْنَهُ﴾ أي العذاب ﴿بَعِيدًا﴾ من الإمكان أو مستبعداً في العقل محتملاً احتمالاً ضعيفاً ﴿وَرَنَّهُ قَرِيبًا﴾ في الوقوع فإن كل ما هو آت قريب والقرب في الوقوع يستلزم على تقدير كونه متعلقاً بمحذوف وإن كان هو متعلقاً بيجرج فهذا متعلق بمضمرة دل عليه واقع ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ﴾ المذاب من النحاس وغيره من الفلزات أو دردي الزيت، أخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: السماء يكون ألواناً تكون كالمهل وتكون ورداً كالدهان وتكون واهية تشقق فيكون حالاً بعد حال ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي كالصوف المصبوغ ألواناً لأن الجبال مختلفة الألوان فإذا بسطت وطيرت في الهواء اشتبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿وَلَا يَسْتَلُّ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ لا يسأل قريب لشدة ما يقع على نفسه معطوف على تكون أضيف إليه يوم بواسطة حرف العطف، قرأ البراء عن ابن كثير لا يسأل بضم الياء على بناء المفعول أي لا يطلب حميم من حميم أو لا يسأل منه حاله وهذا لاختلاف ليس في المشهور ولم يذكره في التيسير ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ أي يرونهم صفة لحميم أو استئناف يدل على أن المانع من السؤال ليس الخفاء بل إما تشاغل كل عن السؤال عن غيره لشدة على نفسه أو الغيبة عن السؤال بمشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده ونحو ذلك وجمع الضميرين لعموم الحميم لوقوعه نكرة في حيز النفي، قال البغوي ليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس فيكون للرجل أباه وأخاه وقرابته ويبصر حميمه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه، وقيل: معنى يبصرونهم يعترفونهم أما المؤمن فببياض

الوجه وأما الكافر فسواد الوجه ﴿يُودُّ﴾ يتمنى ﴿الْمُجْرِمُ﴾ المشرك الجملة حال من فاعل يبصرونهم أو من مفعوله والعائد وضع المظهر موضع الضمير أو مستأنفة في جواب ما يصنع المجرم يعني أن المجرم يشتغل بنفسه عن غيره بحيث يتمنى أن يفترق بأقرب الناس وأحبهم إليه في الدنيا فضلاً أن يهتم بحاله ويسأله وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذُ حِمِيًّا حَمِيًّا﴾ مختص بالكفار وأما المؤمنون فيسألون أحمامهم ويشفعون لهم وقد تواتر في ذلك الأحاديث بالمعنى قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد من أشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين لله تعالى يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا»^(١) الحديث متفق عليه، وفي حديث طويل عن أبي سعيد الخدري ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾ أي المجرم أو المتمني والجملة بيان للوداد ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ متعلق بيفتدي مضاف إلى ﴿يَوْمِيذٍ﴾ قرأه الجمهور مجروراً بالإضافة وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم لاكتسابه البناء من المضاف إليه ﴿بَيْنِهِ﴾ مع ما عطف عليه متعلق بيفتدي ﴿وَصَحْبِيهِ﴾ زوجته ﴿وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي عشيرته الذين فصل عنهم ﴿أَلَّتِي تُوِيهِ﴾ عند الشدائد ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ثُمَّ يَنْجِيهِ﴾ ذلك الافتداء معطوف على يفتدي عطف بثم للاستبعاد ﴿كَلَّا﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء ردع المجرم عن الوداد ﴿إِنهَا﴾ الضمير لغير مذكور وهي النار يدل عليه العذاب أو ضمير مبهم ﴿لَطَى﴾ وهو خبر أو بدل أو الضمير للقصة ولطى مبتدأ وخبره ما بعده على تقدير كونه مرفوعاً واللظى اللهب الخالص، قال البغوي هو اسم من أسماء الجهنم، وقيل: هي الدرعة الثانية سميت بذلك لأنها تتلظى أي تلهب، أمال الهمزة والكسائي لظى وللشوى وتولى وفأوعى وورش وأبو عمر بين بين والباقون بالفتح ﴿نَزَاعَةَ لِلشَّوَى﴾ أي الأطراف اليدان والرجلان أو جمع شواة وهي لجلدة الرأس كذا قال مجاهد وروى إبراهيم بن مهاجر عنه اللحم دون العظام، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس العصب والعقب وقال الكلبي يأكل الدماغ ثم يعود كما كان، قرأ حفص عن عاصم نزاعة بالنصب على الاختصاص أو الحال المؤكدة مرادف أو المنتقلة على أن لظى بمعنى ملتظية والباقون بالرفع ﴿تَدْعُوا﴾ أي النار خبر بعد خبر لأن أو للظى ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَقَوْلًا﴾ عن الطاعة فيقول النار إلي يا مشرك إلي يا منافق إل إلي، قال ابن عباس يدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ثم يلتقطهم كما يلتقط الطير

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣)، وأخرجه البخاري في كتاب

التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ نَارُهُمْ﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَارُهُمْ ﴿٢٢﴾ (٧٤٣٩).

الحب ﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَى﴾ أي جعله في وعاء وأمسكه ولم يؤد حق الله تعالى عنه :

﴿٥٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا
الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِينَ
وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ عِزٌّ مَأْمُونٌ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْؤُسِهِمْ حَفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ
مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿٥٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ حال مقدره إن أريد اتصافه بالهلع بالفعل ومحققة إن أريد اشتماله على مبدأ تلك الصفة فإنها من أمور الجبلية التي هي من رذائل النفس المقتضى للاتصاف به بالقوة، وجملة إن الإنسان في محل التعليل لقوله أدبر الخ، والهلع الحريص على ما لا يحل له رواه السدي عن أبي صالح عن ابن عباس وقال سعيد بن جبير الشحيح، وقال عكرمة الضجور وقال قتادة الجزوع، وقال مقاتل ضيق القلب والهلع شدة الحرص وقلة الصبر، وقال عطية عن ابن عباس تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ لا يصبر ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ لا ينفق في سبيل الله ولا يشكر، عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا ابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»^(١) متفق عليه، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر»^(٢) متفق عليه ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي المؤمنين الكاملين عبر بالمصلي عن المؤمن أي المؤمن الكامل كما عبر بالإيمان عن الصلاة في قوله تعالى: «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فَإِنَّ الصَّلَاةَ أَعْلَىٰ مَقَامَاتِ الْمُؤْمِنِ وَهِيَ مَعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ وَعِمَادُ الدِّينِ قَالَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: مايتقى من فتنة المال (٦٤٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديان لا يبتغي ثالثاً (١٠٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٧).

(٣) الآية هي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

المجدد حقيقة الصلاة فوق سائر المقامات التي يمكن حصولها للبشر والاستثناء متصل إن كان اللام في الإنسان للجنس أو للاستغراق فهو مفرد في معنى الجمع أو المعنى أن المجرم أدبر وتولى الخ لأن جنس الإنسان أو كل فرد من خلق مقدرًا منه الهلع إلا المؤمنين الكاملين الموصوفين بالصفات المذكورة الدالة على الاستغراق في طاعة الله تعالى والإشفاق على الخلق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وعدم إثارة العاجل على الآجل فإنهم لم يخلقوا هلوياً بل خلقوا مقدرًا منهم الصبر على الضراء والشرك على السراء الموجبين للإكرام في الجنات، روى مسلم عن حبيب قال قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن إن أصابته السراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً»^(١) فعلى هذا التأويل وزان هذه الآية وزان قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٢) الخ ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً إن كان اللام في الإنسان للعهد والمعنى المجرم الذي أدبر وتولى الخ خلق هلوياً لكن المؤمن الموصوف بتلك الصفات لم يخلق كذلك بل خلق مستعداً للإكرام في الجنات وعلى كلا التأويلين تدل هذه الآية على أن استعدادات الإنسان مختلفة في أصل الخلقة كما قال به المجدد أن مبادي تعينات المؤمن جزئيات للاسم الهادي ومباديء تعينات الكفار جزئيات لاسم المضل وقال رسول الله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام»^(٣) وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»^(٤) رواه مسلم في الباب أحاديث كثيرة جداً ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝﴾ أي مقبلون في الصلاة بقلوبهم إلى الله تعالى وبأبصارهم إلى موضع السجود دائماً ما داموا في الصلاة فهل بمعنى أورد في سورة المؤمنين ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝﴾^(٥) فلا يلزم التكرار بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرفائق، باب: المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٢) سورة العصر، الآية: ٢ - ٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ (٣٤٩٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: خيار الناس (٢٥٢٦).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٦٢).

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٢١.

يَحْفَظُونَ ﴿٤٦﴾ إذ المراد بالدوام دوام الحضور بالمحافظة التحرز عن فواتها وفوات شرائطها وأركانها وآدابها روى البغوي بسنده عن أبي الخير أنه قال: سألتنا عقبه بن عامر عن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الذين يصلون أبداً؟ قال: لا ولكنه إذا صلى لا يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه، وروى أحمد وأبو داود والنسائي والدارمي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله عز وجل مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه»^(١) وروى البيهقي في السنن الكبير عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يا أنس اجعل بصرك حيث تسجد»، وروى الترمذي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الالتفات في الصلاة هلكة»^(٢).

فائدة: في جعل البصر حيث يسجد تأثير عظيم لدفع الخطرات وحضور القلب ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ كالزكاة والصدقات الموظفة ﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمَحْرُورِ﴾ الذي لا يسأل فيحرم عن العطاء غالباً قوله للسائل الخ صفة لحق بعد صفة ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ فإن التصديق بيوم الدين لو كان على حقيقة لا يكون الإنسان جزوعاً في الشرب صابراً تحسباً ولا منوعاً في الخير فتقف طالباً للثواب ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ خائفون على أنفسهم فإن متقضى التصديق والإيمان الخوف والرجاء ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ لا يقدر على منعه أحد ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ قدم المفعول لرعاية الفواصل وزيدت اللام لتقوية عمل المشتق والفرج اسم سوأة الرجل والمرأة وحفظ الفرغ عدم استعماله فيما يشتهي ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ استثناء مفرغ وإنما صح في الإثبات لتضمن الحفظ معنى النفي وعلى صلة للحافظين من قولك احفظ على عنان فرسي أي يحفظون فروجهم على النساء إلا على أزواجهم فهي حينئذ بمعنى من أو حال أي حفظوها في كافة الأحوال إلا في حال التزوج أو التسري، ويحتمل أن يكون الاستثناء من فعل منفي مقدر دل عليه الحفظ أي يحفظون فروجهم لا يبذلونها على امرأة إلا على أزواجهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي سرياتهم وإنما قال ما بإجراء المماليك مجرى غير العقلاء فإن الشرع ألحقهم بها عقاباً على كفرهم فأجاز بيعهم واستخدامهم، والمراد بما ملكت أيمانهم السرايا دون العبيد فإنه لا يجوز للرجال إتيان العبد في دبره لما بيّنا حرمة

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الالتفات في الصلاة (٩٠٨)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: التشديد في الالتفات في الصلاة (١١٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما ذكر في الالتفات في الصلاة (٥٨٥).

في سورة البقرة بالسنة والقياس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾^(١) فإن قيل: كيف يقدم السنة والقياس على نص الكتاب الوارد ها هنا لعموم قوله تعالى ما ملكت أيمانهم العبيد والإماء؟ قلنا: ليس على هذه إجماعاً فإنه لا يجوز وطئ امرأة في حالة الحيض والظهار ولا وطئ أمة محرمة عليه بالرضاع فيجوز تخصيص هذا النص بخبر الآحاد والقياس ولا يجوز للمرأة الاستمتاع بفرج عبده فإن كلمة على في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ وكلمة ما التي هي لغير العقلاء تدلان على جواز استعمال المماليك استعمال المفترش لا على عكس ذلك في وطئ الأمة دون تمكين العبد ﴿فَأَيُّهُمْ عِبْرٌ مُّؤْمِنِينَ﴾ تعليل لمضمون الاستثناء فإن عدم حفظ الفرج عن الزوجة والسرية وإتيانهن على وجه مشروع لا يلام عليه فإنه مباح ضرورة إبقاء النسل، وسياق الكلام يدل على أن الأصل في الجماع الحرمة كما ذكرنا في سورة البقرة وإنما صح بشرائط من النكاح أو ملك اليمين وعدم الجزئية والطهارة من الحيض والنفاس والإتيان في محل الولد دون الدبر ﴿فَمَنِ الْفَاءِ لِلسَّبِيَةِ﴾ أي طلب الإتيان ﴿وَرَأَىٰ ذَلِكَ﴾ أي وراء الزوجات والسرايا ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المبتغين وراء ذلك ﴿هُمُ الْغَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان حيث أتى بفعل حرام مع الكفاية بما أحل الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «أیما رجل رأى امرأة تعجبه فليقم إلى أهله فإن معها مثل الذي معها» رواه الدارمي عن ابن مسعود.

مسألة: وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز متعة النكاح فإن المرأة لا تدخل بالمتعة في الزوجات حتى أن القائلين بإباحتها لا يقولون بجريان التوارث بالمتعة، وقال البغوي وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام وهو قول العلماء، قال ابن جريج سألت عطاء عنه فقال مكروه سمعت أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى فأظن أنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبیر قال عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم، قلت: وفي الباب حديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ملعون من نكح يده» رواه الأزدي في الضعفاء وابن الجوزي من طريق الحسن بن عرفة في جزئية المشهور بلفظ «سبعة لا ينظر الله إليهم فذكر الناكح يده» وإسناده ضعيف ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير لأماناتهم ها هنا وفي المؤمنين بغير ألف على التوحيد والباقون على الجمع ﴿وَعَهْدِهِمْ رُؤُوسٌ﴾ حافظون أي يحفظون الأمانات ويؤدونها إلى أهلها فمنها ما هي بينه وبين الله تعالى كالصلاة والصوم والغسل من الجنابة وغير ذلك والفرائض الواجبة حقاً لله تعالى، ومن هذا الباب إضافة الكمالات من الوجود وتوابعها

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

والنعماء الظاهرة والباطنة كله إلى الله تعالى فيجب العلم والإقرار بأنها كلها من عواري الله المستودعة حتى يجد نفسه فقراً خالياً عنها حين وجودها كلابس ثوب العارية عاري في الحقيقة فيعلم أن الكبرياء والعظمة رداء الله تعالى وإزاره لا يجوز لأحد التنازع فيه ويشكر عند وجود النعم ويصبر عند سلبها ولا يجزع، ومنها ما هي بين العباد كالودائع والبضائع والعواري فعلى العبد الوفاء لجميعها ويحفظون العهود التي عاهدوا الله تعالى يوم الميثاق وغير ذلك كما أن الله تعالى أخذ العهد من أهل الكتاب إن بينوا نعت النبي ﷺ ولا يكتُمونه والعهود التي عاهدوا فيما بينهم في المعاملات والمعاشرات فإبقاء كلها واجب، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث - زاد مسلم - وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» ثم اتفقا «إذا حدث كذب وإذا وعد خلف وإذا ائتمن خان»^(١) وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عهد غدر وإذا خاصم فجر» وروى أبو داود عن عبد الله بن أبي الحسماء قال: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعده أن آتية بها في مكانه فنسيت فذكرت بعد ثلاث فإذا هو في مكانه فقال: «لقد شققت علي أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك»^(٢) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ﴾ قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بشهادات على الجمع والباقون بالإنفراد ﴿قَائِمُونَ﴾ أي يقومون فيها بالحق فلا يكتُمونها ولا يغيرونها ولا يخافون لومة لائم سواء كانت الشهادة قط خالصاً لله تعالى كالشهادة على التوحيد والرسالة وشهادة أهل الكتاب على ما في التوراة من نعت النبي ﷺ والشهادة بهلال رمضان وبالحدود ونحو ذلك أو كانت الشهادة حقاً للعباد بالمداينات ونحوها على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يراعون أوقاتها وأركانها وسننها وآدابها ويحترزون عن فواتها وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخرها بوجيهن مختلفتين للدلالة على فضلها على غيرها من أركان الإسلام ﴿أُولَئِكَ﴾ أي أهل هذه الصفات ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمَاتٍ﴾ خبر لأولئك وفي جنات ظرف متعلق به قدم عليه لرعاية الفواصل.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِتْلِكَ مَهْطَعِينَ﴾ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ

- (١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٩).
- (٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في العدة (٤٩٨٨).

أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا إِنَّآ خَلَقْنَهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا أُقِيمُ رَبِّىَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْتُوفِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى بُوعِدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ بِؤُوفُونَ ﴿٤٣﴾ حَشِشَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكِ الْيَوْمِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الفاء للسببية وما استفهامية للتوبيخ مبتدأ خبره ما بعده، قال البغوي نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه ويستهزئون به ويكذبونه فقال الله تعالى توبيخاً ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك ولا ينتفعون بما يستمعون من ﴿وَلَكَّ﴾ ظرف متعلق بما بعده ﴿مُهْطِعِينَ﴾ حال من الذين كفروا وعامله معنى الفعل أي ما يصنع الكافرون مهطعين قبلك أي مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم ومد النظر إليك متطلعين إليك كذا قال البغوي، وفي القاموس هطع كمنع هطؤها وهطعاً أسرع مقبلاً خائفاً وأقبل يبصره على الشيء لا يقلع عنه وأهطع مد عنقه وصوب رأسه ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ متعلق بمهطعين ﴿عِزِينَ﴾ جماعات في تفرقة واحداثها عزة كذا في الصحاح وفي القاموس عزة كعدة العصابة من الناس ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان وعمل صالح استفهام إنكار رداً لقولهم مع زعمهم كون البعث مستحيلاً لو كان كما يقول محمد لتكون فيها أفضل حظاً منهم كما في الدنيا ﴿كَلَّا﴾ ردع من ذلك الطمع الباطل ﴿إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ استدلال بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية وبطلان دعوى استحالة البعث وتعليل لبطلان طمعهم في دخول الجنة بلا إيمان والمعنى إنا خلقناهم من نطفة مستقدرة ثم من علقه كذلك ثم من مضغة لا يقتضي شيء منها للإكرام ولا يناسب عالم القدس فمن لم يستكمل نفسه بالإيمان والطاعة ولم يتخلق بالأخلاق المرضية لله سبحانه لم يستعد دخولها، روى البغوي بسنده عن بسر بن جحاش قال: قال رسول الله ﷺ: وبصق يوماً في كفه ووضع عليها أصبعه فقال: «يقول الله ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وتريد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت الصدق فإنني أوان الصدق» أو المعنى إنا خلقناهم من أجل ما تعملون حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾^(١) أي ليعرفون فمن لم يستكمل نفسه بالعلم والعمل كيف يطمع منازل الكاملين ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّىَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يعني مشارق الكواكب ومغاربها ومشرق

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

الشمس والقمر كل يوم من أيام السنة ومغربها ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نَبْدِلَ خَيْرًا نِّيَّتَهُمْ﴾ أي نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم أو نعطي محمداً ﷺ بدلکم من هو خير منکم وهم المؤمنون الأنصار لله ولرسوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بمغلوبين إن أردنا أن نهلكهم معطوف على إنا لقادرون وفي ذكره بوب المشارق والمغارب الاستدلال بقدرته تعالى على خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والكواكب واختلاف مشارق كل منها كل يوم ومغاريها على قدرته تعالى وعدم عجزه من تبديلهم عن من هم خير منهم ﴿فَذَرَهُمْ﴾ الفاء للسببية يعني إذا علمت قدرتنا على إهلاكهم فلا تهتم بهم فإنما أردنا استدراجهم وتعذيبهم أشد العذاب ﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم الفعلان مجزومان على جواب الأمر ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا﴾ متعلق بقوله ذرهم يعني ذرهم كي يلاقوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ العذاب فيه ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور بدل من يومهم ﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع ككراماً جمع كريم حال بما أسند إليه يخرجون ﴿كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ﴾ متعلق بما بعده أي ﴿يُوفُونَ﴾ أي يسرعون حال بعد حال، قرأ ابن عامر وحفص بضم النون والباقون بفتح النون وءسكان الصاد، قال مقاتل والكسائي يعني إلى أوثانهم الذي كانوا يعبدونها من دون الله يعني أنهم كما كانوا يسرعون إلى أوثانهم أيهم يستلمها أولاً كذلك يسرعون من الأجداث إلى المحشر ليروا جزاء أعمالهم وقال الكلب إلى علم وإرادته يعني كما أن أهل العسكر يسرعون إلى أعلامهم ﴿خَشَعَةً أَنْصَرُهُمْ﴾ حال أيضاً ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةً﴾ القليل للخشوع أو بيان له ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا وينكرونها تأكيد لما سبق أو استئناف والله أعلم.

سورة نوح

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِيهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿٣﴾ يَعْرِفَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِلاَ وَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْيِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِيءَ إِذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا فِيآبِهِمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَنَّتِ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدْكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجْكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَابًا ﴿٢٠﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِيهِ ﴾ جيء بأن في ابتداء الكلام لإظهار الاهتمام وتقيد إرساله إلى قومه على أنه ﷺ لم يكن مبعوثاً إلى الناس كافة كما يدل عليه حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(١) متفق عليه، وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم (٣٢٨)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

الأنبياء بست» فذكر نحوه غير أنه لم يذكر «وأعطيت الشفاعة» وذكر فيه «وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبوة» رواه مسلم ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ﴾ أن مفسره لتضمن الإرسال معنى القول ويحتمل أن يكون مصدرية بمعنى بأن قلنا أنذر لا بمعنى بأن أنذر قومك فإنه يختبئ الكلام بضمير الغيبة والخطاب ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة والظوفان إن لم يؤمنوا ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢) أنذركم وأبين لكم ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ﴾ فلا تشركوا به شيئاً ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به من التوحيد والطاعة لله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ مجزوم على جواب الأمر فإن الإيمان والطاعة سبب للمغفرة، عن عمرو بن العاص قال: أتيت النبي ﷺ فقلت ابسط يمينك فلأبائعك فبسط يمينه فقبضت يديه فقال: مالك يا عمر؟ قلت: أردت أن أشرط، قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي، قال: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله» (١) رواه مسلم، وعن معاذ قال كنت ردف رسول الله ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلموا» (٢) متفق عليه، وعن أنس هذه القصة نحوه وفيه فأخبر بها معاذ عند موته تائماً متفق عليه ﴿مَنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ من زائدة أو للتعويض أي بعض ذنوبكم يعني ما هو حق الله تعالى ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ أي يعافيكم فلا يعاقبكم ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو أقصى ما قدر لكم بشرط الإيمان والطاعة.

مسألة:

اعلم أن القضاء على نوعين قضاء مبرم ومعلق فالمعلق ما كتب في اللوح المحفوظ أن فلاناً إن أطاع الله تعالى عوفي إلى مدة كذا مثلاً وإن عصى الله يرسل عليه الطوفان مثلاً أو غير ذلك وهذا النوع من القضاء يجوز تبديله بفقدان الشرط وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣) وعن سلمان الفارسي قال: قال

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣٠).

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

رسول الله ﷺ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»^(١) رواه الترمذي، والمبرم وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يُدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾^(٢). ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ أي الأجل الذي قدره الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ﴾ على الوجه المقدر به ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فأما المبرم فلا يؤخر قط أما المعلق فلا يؤخر إن جاء على ما علق به فبادروا بالطاعات في أوقات الإمهال والتأخير قبل الأجل المبرم ولا ترتكبوا المعاصي الموجبة للتعذيب المفضية إلى الأجل المعلق. فإن قيل مذهب أهل السنة أن الأجل واحد لا يزيد ولا ينقص حتى قالوا المقتول ميت بأجله وما ورد في الحديث «لا يزيد في العمر إلا البر» تأويله عندهم أن البر يزيد بركات العمر بكثرة الثواب وما ذكرت يشبهه مذهب المعتزلة؟ قلنا: ليس كذلك بل المعتزلة ينكرون القدر ويجعلون القاتلون خالقاً لموت المقتول ما ذكرت هو مذهب أهل السنة فإن معنى قولهم الأجل واحد لا يزيد ولا ينقص هو الأجل الثابت بالقضاء المبرم لا تبديل فيه لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون والمقتول ميت بأجله المبرم وإن كان التعليق في اللوح المحفوظ أنه إن قتله فلان مات وإلا لم يموت لكنه المبرم في القضاء أنه يقتله فلان البتة وأنه يموت في ذلك الوقت بقتله البتة ولا يوجد شرط بقاءه بعد ذلك الوقت البتة لا حاجة إلى تأويل الحديث، عن أبي خزيمة عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله ﷺ أرأيت رقى نسترقها ودواء نتداوى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»^(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه يعني أن الله تعالى قدر أنه يتداوى فيحصل له الشفاء بالدواء ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني لو كنتم من أهل العلم والنظر لمصلحتهم وفيه أنهم لانهماكهم في الشهوات كأنهم كانوا شاكين في الموت، قال ابن عباس بعث نوح وهو ابن أربعين وعاش بعد الطوفان ستين سنة، وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة وقيل: ابن خمسين سنة وقيل: مائتين وخمسين سنة وكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة ولا شك في أنه لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وروى الضحاك عن ابن عباس أن قوم نوح كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط فيلقونه في بلد ويلقونه في بيت أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، وحكى محمد بن إسحاق عن

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩).

(٢) سورة يونس، الآية: ٦٤.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطب، باب: ما جاء في الرقى والأدوية (٢٠٦٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٧).

عبيد بن عمر الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون بنوح عليه السلام فيخفقونه حتى تغشى عليه فإذا أفاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. حتى إذا عادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء انتظر النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذين قبلهم حتى كان الآخرون منهم ليقولن قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً فشكى إلى الله عز وجل ﴿وَقَالَ﴾ وفي الكلام حذف اختصاراً تقديره قال نوح كذا فكذبوه فلم يزل نوح على دعوتهم والقوم على إنكاره حتى قال نوح ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائماً ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي﴾ قرأ الكوفيون دعائي بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ عن الإيمان والطاعة وإسناد الزيادة إلى الدعاء على السببية كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^(١) ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾^(٢) ﴿وَرَأَى كُلَّمَا دَعَوْتَهُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لَتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسبب الإيمان ﴿جَعَلُوا أَصْنِعَهُمْ فِي مَا دَانَاهُمْ﴾ سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ يغطوا بها لئلا يروا ﴿وَأَصْرُوا﴾ على الكفر والمعاصي ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ عظيماً ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾^(٣) منصوب على المصدرية لأنه أحد نوعي الدعاء أو صفة مصدر محذوف أي دعاء جهاراً أي مجاهرأ به أو عن الحال بمعنى مجاهرأ ﴿ثُمَّ إِنِّي﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ وكلمة ثم لتفاوت الوجوه فإن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بينهما أغلظ من الأفراد والتراخي بعضها عن بعض ﴿فَقُلْتُ﴾ بيان لقوله دعوتهم، وقال البغوي إن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أولادهم وأموالهم ومواشيهم فحينئذ قال لهم نوح ﷺ ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر والندم عن المعاصي وتركها فيما يستقبل ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين تعليل لقوله استغفروا ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ أي المطر تسمية الحال باسم المحل ﴿عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ حال من السماء أي كثير دره ويستوي في هذا البيان المذكر والمؤنث ويرسل مع ما عطف عليه مجزوم في جواب الأمر بالاستغفار فدل على أن الاستغفار سبب للمطر وغير ذلك من النعم الدنيوية ودفع البلاء إما عموماً أو في مادة مخصوصة حيث كان نزول البلاء نقمة الشؤم المعاصي كما كان في قوم نوح عليه السلام وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾^(٣) أما إذا كان ذلك نعمة لرفع الدرجات فلا كما كان بأيوب ﷺ وغيره من

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٤،

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الأنبياء، وعن سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاؤه الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلماً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه دقة ابتلي حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(١) رواه أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه، ورواه البخاري في التاريخ عن بعض أزواج النبي ﷺ بلفظ «أشد الناس بلاء في الدنيا نبي أو صفي» روى الحاكم في المستدرک وابن ماجه وعبد الرزاق عن أبي سعيد نحوه وفيه «ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء» ويمكن أن يقال: قحط المطر بلاء عام لا يتصور إلا بشؤم المعاصي من العوام فالاستغفار سبب للمطر عموماً ومن ثم شرع الاستغفار في الاستسقاء، روى مطرف عن الشعبي أن عمر خرج يستسقي بالناس فلم يزد على الاستغفار حتى رجع فقليل له سمعناك استسقيت فقال: طلبت الغيث مجاري السماء الذي يستنزل بها القطر ثم قرأ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَتُذَكِّرُ بِالْمَوَالِ وَيُنَبِّئُ الْقَوْمَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢﴾ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٣﴾﴾ يعني كما كانت قبل تكذيب نوح ﷺ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ ما استفهامية مبتدأ ولكم خبره وجملة لا ترجون حال من ضمير المخاطب والعامل معنى الفعل أي ما تصنعون لا ترجون والله حال من وقاراً قدم على ذي الحال لنكارتة والوقار بمعنى العظمة اسم من التوقير بمعنى التعظيم، قال ابن عباس ومجاهد لا ترون لله عظمة في الرجاء بمعنى الاعتقاد عر عن الاعتقاد بالرجاء الذي يتبع أدنى الظن مبالغة، وقال الكلبي معناه لا تخافون لله عظمة فالرجاء على هذا بمعنى الخوف وقال الحسن لا تعرفون الله حقاً ولا تشكرون له نعمة، وقال ابن كيسان ما لكم لا ترجون في عبادة أن يثيبكم على توقيركم إياه جزاء ويحتمل أن يكون المعنى ما لكم لا ترجون في عبادة الله تعظيم إياكم والله بيان للموقر ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ أي تارات حالاً بعد حال خلقكم عناصر ثم مركبات أغذية للإنسان ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظماً ولحوماً ثم أنشأكم خلقاً آخر أي خلقاً إنساناً بنفخ الروح فتبارك الله أحسن الخالقين ثم يميتهم ويقبركم ثم يعيدكم أحياء تارة أخرى فيعظم المطيع منكم بالثواب ويعاقب العاصي، والجملة حال من فاعل ترجون أو من الله ثم أتبع ذكر آيات في الأنفس بآيات في الآفاق فقال ﴿أَلَمْ تَرَوْا ﴿١٥﴾﴾ مجاز عن التعجب ﴿كَيْفَ﴾ استفهام للاستعظام حال عن الفاعل أو المفعول من الجملة التالية قدم لاقتضاء

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء (٤٠٢٣).

صدر الكلام ﴿حَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضهن فوق بعض وبين كل من السافل والعالى مسيرة خمسمائة سنة كما دل عليه الأحاديث وذكر فيما قبل ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أى فى بعضهن وهى السماء الدنيا كما ياقل نزل رسول الله ﷺ فى دور بنى النجار، قال البغوي قال عبد الله بن عمرو إن الشمس والقمر وجوههما إلى السموات وضوء الشمس والقمر فيهن يعنى كليهن وأشعثهما إلى الأرض ويروى هذا عن ابن عباس ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ مثلها به لأنها تزيل الظلمة عما تقابله كما يربلها السراج عما حوله وإنما مثل الشمس بالسراج مع كون السراج أدنى منها ضياءً لظهور أمر السراج فى أذهان السامعين وفقد ما يمثل به غيره ولعله فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (١٦) إشعار بأن نور القمر مستفاد من الشمس فإن النور إنما يستفاد من السراج ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ﴾ كرر اسم الله تعالى ولم يكتف بالضمير التذاذاً باسم المحبوب وإظهاراً لمقصوده أى أنشأكم فاستعير الإنبات للإنشاء لأنه أدل على الحدوث ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ بأن خلق أباكم آدم منها أو بأنه خلقكم من النطف والنطف من الغذاء المنبت من الأرض ﴿نَبَاتًا﴾ مصدر من غير ما به نحو ﴿تبتل إليه﴾ (١١) وقيل اسم جعل موضع المصدر أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره والله أنبتكم فنبتم نباتاً فاقصر اكتفاء بالدلالة الالتزامية ﴿ثُمَّ يُبْدِكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ بالحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ أكده بالمصدر كما أكد به الأول للدلالة على تحقيق البعث كالبدأ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (١٧) تنقلبون عليها ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (٢٠) واسعة جمع فج ومن لتضمن الفعل معنى الاتخاذ.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالٌ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢١) ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ (٢٢) ﴿وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ مَا الْعَثَمُ وَلَا نَدْرَأُ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَفُوتُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا﴾ (٢٣) ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا صَلَلا﴾ (٢٤) ﴿مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمَّا يَجِدُوا هُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (٢٥) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيًّا﴾ (٢٦) ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٢٧) ﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتُنَا مُؤْمِنًا وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (٢٨)

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم وهذه الجملة بمنزلة التأكيد لما سبق من قوله

تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١٠﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿١١﴾﴾ الخ قال مآل الجملتين واحد إذ الفرار عن الدعاء وسد المسامع وتغطية الأبصار هو عين العصيان أو من موجباته ولذا لم يذكر العاطف بين قال وقال وإنما كرر القول بالعصيان مع ذكره فيما سبق لأن سوق الكلام الأول لبيان أدائه فريضة التبليغ على أبلغ الوجوه وسوق هذا الكلام ليكون تمهيداً للدعاء عليهم ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي السفلة منهم ﴿مَنْ لَوْ يَزِدُّهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي رؤسائهم البطرين بأموالهم المغترين بأولادهم بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة، قرأ نافع وعاصم وابن عامر ولده بفتح الواو واللام والباقون بضم الواو وسكون اللام على أنه لغة كالحزن أو جمع كالأسد ﴿وَمَكْرُوا﴾ عطف على من لم يزدّه والضمير لمن وجمعه المعنى أو على اتبعوا ﴿مَكْرًا كَبِيرًا﴾ هو أشد مبالغة في الكبر من الكبار بلا تشديد وهو من الكبير يعني مكروا مكرًا كبيراً في غاية الكبر وذلك احتيالهم في الدين، والمكر من الرؤساء تحريش الناس على أذى نوح والكفر بالله ومن السفلة القيام على أنواع إيذائه ﴿وَقَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض عطف على مكروا على الوجهين ﴿لَا نَذَرَنَّا الْهَيْكَلُ﴾ أي عبادتها ﴿وَلَا نَذَرَنَّا وَدًّا﴾ قرأ نافع وداً بضم الواو والباقون بفتحها ﴿وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَاقُونَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ تخصيص بعد التعمم لزيادة الاهتمام، قال البغوي قال محمد بن كعب هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون لهم ويأخذون بعدهم مأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ففعلوه ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم فابتدأ عبادة الأوثان كان من ذلك وسميت تلك الصور بهذه الأسماء. وقال عطاء عن ابن عباس صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب بعد أما وُد فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يعوق فكانت لمرو ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع فهذه أسماء رجال صالحين من إسلام قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك عبدت، وروي عن ابن عباس أن تلك الأوثان رَفَنَهَا الطوفان وطمها التراب فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي مكة ﴿وَقَدَّ أَضْلُؤًا﴾

أي الأوثان أو رؤساء قوم نوح ﴿كثيراً﴾ من الناس والإسناد إلى الأوثان مجاز كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِيْتَهُنَّ أَضْلَلَنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾^(١) حيث أضلهم الشيطان بسببها والجملة إما حال من فاعل قالوا أو من مفعول لا تذرن وإما معترضة ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿إِلَّا ضَلَالاً﴾ أي هلاكاً وضياعاً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾^(٢) أو المراد بالضلال عدم اهتدائهم إلى ما أرادوا بمكرهم أو إلى مصالح دنياهم والجملة معطوفة على مقولة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مَنعَصَونِي﴾ يعني قال نوح هذا القول فهو في المعنى من قبيل عطف المفرد على المفرد لا عطف إلا نشاء على الخير ﴿وَمِمَّا خَطَبْتَهُمْ﴾ على قراءة الجمهور وقرأ أبو عمر وخطاياهم ما مزيدة للتأكيد والتفخيم ومن للسببية متعلق بأغرقوا أي من أجل خطاياهم ﴿أَغْرَقُوا﴾ بالطوفان ﴿فَأَدْخَلُوا نَاراً﴾ في عالم البرزخ المسمى بالقبر فإنه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفرات النيران فهذه الآية دليل على إثبات عذاب القبر لأن الفاء للتعقيب وصيغة أدخلوا للماضي خلافاً للمعتزلة وغيرهم من أهل الهواء قالوا في تأويل هذه الآية أنه أورد بفاء التعقيب لعدم اعتداد لما بين الإغراق والإدخال أو لأن المسبب كالمتعقب للسبب وصيغة الماضي لأن المتيقن كالواقع، قلنا: الأصل في الكلام الحقيقة وهذه التأويلات على المجاز فلا يجوز بلا دليل كيف وقد دلت من الأحاديث ما لا يحصى على عذاب القبر وانعقد عليه إجماع السلف. عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً، وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال: لا دريت ولا تليت ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»^(٣) متفق عليه، وعن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ إلا تعوذ بالله من عذاب القبر متفق عليه، وعن عثمان أنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته فليل له تذكر الجنة فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال إن

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (١٣٧٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٠).

رسول الله ﷺ قال: «إن القبر أول منزلة من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه» وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظرأ قط إلا والقبر أظلم منه»^(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وعن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: «يسلط على الكافر في قبره تسع وتسعين تيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تيناً منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراء» رواه الدارمي، وروى الترمذي نحوه وقال: «سبعون» بدل تسعة وتسعون، وتنكير ناراً للتعظيم أو لأن المراد نوع من النيران غير نار جهنم وجملة أغرقوا مع ما عطف عليه استئناف كأنه في جواب ما فعل لهم إذ اشتكى نوح إلى الله عصيانهم ﴿فَلَمَّا يَجِدُوا هُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أي لا يجد أحد منهم أحداً ينصرهم فإن مقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد على الآحاد واحد نكرة في حيز النفي يعم والجملة تعريض لهم باتخاذ آلهة من دون الله لا يقدر على نصرهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ عطف على قال نوح رب إنهم عصوني ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي أرض قومه واللام للعهد ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ أحداً يسكن داراً وهو نكرة في حيز النفي فيعم فيقال أصله ديوار أدغم الياء بالواو بعد قلبه ياء على طريقة سيد لإفعال وإلا فكان دواراً ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ﴾ تعليل للدعاء عليهم ﴿يُضِلُّوْا﴾ أي يريدوا إضلال ﴿عِبَادَكَ﴾ المؤمنين ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَفَّارًا﴾ قال محمد بن كعب ومقاتل والربيع إنما قال نوح هذا الدعاء على قومه حين أخرج كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم ويأس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة وقيل: تسعين سنة فأخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً ولم يكن فيهم صبر وقت العذاب لأن الله تعالى قال: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾^(٢) ولا يوجد التكذيب من الأطفال وبهذا يستدل على أن الطوفان لم يستغرق الأرض كلها بل قومه فقط كيلا يلزم التعذيب من غير تكذيب ﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ كان اسم أبيه ملك بن متوشخ واسم أمه سمجار بنت أتوش وكانا مؤمنين ﴿وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ قرأ بفتح الياء حفص وهشام والباقون بالإسكان أي منزلي وقال الضحاك مسجدي وقيل: سفيتي ﴿مُؤمناً﴾ قبل خرج بهذا إبليس فإنه كان دخل في سفينة ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى يوم القيامة ﴿وَلَا نُزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿إِلَّا نَارًا﴾ أي هلاكاً واستجاب الله تعالى دعاءه.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٣٠٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٧.

سورة الجن

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ. وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَخَذَ صَاحِبُهُ وَلَا وَلَدًا ﴿٤﴾ وَأَنْتُمْ كَانُوا يَقُولُونَ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ سَطَطًا ﴿٥﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٦﴾ وَأَنْتُمْ كَانُوا رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُودُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٧﴾ وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٨﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَ تَبْحَالٍ تَنْسُجًا ﴿٩﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعَدًا لِلشَّمْسِ فَحَمَلْنَا عَلَيْهَا لُبَابًا حَرَّةً كَذِبًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١١﴾﴾

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ النفر من الثلاثة إلى العشرة ف قيل : كانوا تسعة من جن نصيبين وقيل : كانوا سبعة ، والجن أجسام ذات أرواح كالحيو ان عاقلة كالإنسان خفية عن أعين الناس ولذا سميت جنًا خلقت من النار كما خلق آدم من طين ، قال الله تعالى : ﴿وَلَبَّائًا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾﴾^(١) تتصف بالذكورة والأنوثة ، ووجود الجن والشياطين والملائكة ثابت بالشرع وأنكره الفلاسفة وليست العقول العشرة التي اخترعها الفلاسفة من الملائكة من شيء حيث يزعمونها مجردات بخلاف الملائكة فإنها أجسام ذات أرواح والله تعالى أعلم . وسوق هذا الكلام يقتضي أن النبي ﷺ لم ير الجن وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فاستمعوها فقص الله ذلك على رسوله فيما أُوحي إليه . أخرج الشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ولكنه انطلق مع طائفة من أصحابه عائدين إلى سوق بعاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فقالوا ما هذا إلا بشيء قد حدث

(١) سورة الحجر ، الآية : ٢٧ .

فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا هذا الذي حدث فانطلقوا فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن اسمتعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً الخ فأنزل الله تعالى على نبيه قل أوحى^(١) إلى قول الجن. وقال أكثر المفسرين لما مات أبو طالب خرج رسول الله ﷺ وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد القرظي أنه قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف وهم يومئذ سادات ثقيف وأشرفهم وهم أخوة ثلاثة عبد يا ليل ومسعود وحبیب بنو عمير وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة إن كان أرسلك الله وقال الآخر أما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال الثالث والله ما أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله فلا ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ وقد يسئ من خير ثقيف وقال لهم إذ فعلتم ما فعلتم فاكنتموا عني وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيزيد ذلك في تجرئهم عليه فلم يفعلوا وأغروا به سفهائهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه فرجع عند سفهاء ثقيف ومن كان تبعه فعمداً إلى ظل جنة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف وقد لقي رسول الله ﷺ تلك المرأة من بني جمح فقال لها ماذا لقينا من أحمائك فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس وأنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين فأنت ربي إلى من تكلمي إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتيبي حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك» فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس فقالا له خذ قطفاً من هذا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الجهر بالقراءة صلاة الفجر (٧٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤٤٩)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الجن (٣٣٢٣).

العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فلما وضع ومد رسول الله ﷺ يده قال: باسم الله ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه فقال: والله إن هذا الكلام ما يقول أهل هذه البلدة قال: رسول الله ﷺ من أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال: وما يدريك يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ فقبل رأسه ويديه وقدميه قال: فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك فلما جاءهما عداس قال له: ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما على الأرض خير من هذا الرجل فقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا بني، فقال: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف حتى إذا قام بنخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به نفر من جن نصيبين اليمن فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا فقصّ الله سبحانه وتعالى خبرهم عليه. وأخرج ابن الجوزي في كتاب الصفوة بسنده عن سهل بن عبد الله قال: كنت في ناحية وزاعا وإذا رأيت مدينة من حجر منقور في وسطها قصر من حجارة تأويه الجن فدخلت فإذا شيخ عظيم الخلق يصلي إلى الكعبة وعليه جبة صوف فيها طراوة فلم أتعجب من عظم خلخته كنتعجبي من طراوة جبته فسلمت عليه فرد علي السلام وقال: يا سهل إن الأبدان لا يخلق الثياب وإنما يخلقها روائح الذنوب ومطاعم السحت وإن هذه الجبة عليّ منذ سبع مائة سنة لقيت بها عيسى ومحمداً ﷺ فأمنت بهما فقلت له ومن أنت؟ قال: من الذين نزلت فيهم: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ نفر من الجن وقال جماعة بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله يقرأ عليهم القرآن فصرفوا إليه نفر من الجن من نينون وجمعهم له فقال رسول الله ﷺ: «إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فأيكم يتبعني» فأطرقوا ثم استتبعهم فاتبعه عبد الله بن مسعود قال عبد الله ولم يحضر معنا غيري فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل نبي الله ﷺ شعباً يقال له شعب الحجون وخط لي خطأً ثم أمرني أن أجلس فيه قال: لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فجعلت أرى مثل النسور تهوي وسمعت لفظاً شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ وغشيتة أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم طفقوا ينقطعون مثل قطع السحاب الذاهبين ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر فانطلق إلي فقال: أنمت؟ قلت: لا والله

يا رسول الله ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرع بعصاك تقول اجلسوا، قال: لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم، ثم قال: رأيت شيئاً؟ قلت: نعم رأيت رجلاً أسود مشتفري ثياب بيض قال: أولئك جن نصيين سألوني المتاع - والمتاع الزاد - فمنعهم لكل عظم عابل وروث وبعرة، فقال: يا رسول الله يقدرها الناس فهى رسول الله ﷺ أن يستنجي بالعظم والروث قال: فقلت: يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم؟ قال: إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم يؤكل ولا روثه إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فقلت: يا رسول الله سمعت لغطاً شديداً، فقال: إن الجن تدارت في قتيل قتل منهم فتحاكموا إلي فقضيت بينهم بالحق قال: ثم تبرز رسول الله ﷺ ثم أتاني فقال: هل معك ماء؟ قلت: يا رسول الله معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر فاستدعاه فصببت على يديه فتوضأ فقال: ثمرة طيبة وماء طهور» وروى مسلم عن علي بن محمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن داود عن عامر قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود عنه فقلت هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة تفقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا استطير أو اغتيل، قال بشر ليلة بات بها قوم فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليه القرآن، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال الشعبي وسأله الزاد وكانوا من جن جزيرة، فقال رسول الله ﷺ لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أو ما يكون فيه لحم وذلك بعرة علف دوابكم فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم من الجن»^(١) وروى عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من الزط فقال: هؤلاء أشبه ما رأيت من الجن ليلة الجن، قلت: والظاهر عندي أن استماع الجن القرآن من النبي ﷺ عامداً إلى سوق عكاظ وقافلاً من الطائف كان أولاً وهو المحكي عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ﴾ وأما ليلة الجن التي رواها ابن مسعود فكانت بعد ذلك، قال البغوي في تفسير سورة الأحقاف أنه قال ابن عباس فاستجاب لهم أي نفر من الجن بعد ما استمعوا القرآن من النبي ﷺ بنخلة ورجعوا إلى قومهم منذرين من قومهم سبعين رجلاً من الجن فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافقوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم، وذكر الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ستة مرات وهذا يدل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس جميعاً، وقال مقاتل لم يبعث قبله نبي إلى الإنس والجن والله تعالى أعلم. ﴿فَقَالُوا﴾

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤٥٠).

هؤلاء النفر من الجن حين رجعوا إلى قومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ بديعاً مبيناً لكلام المخلوق مصدر وصف به للمبالغة ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ إلى الحق والصواب من التوحيد والإحسان الذي يقتضيه العقل والبرهان صفة أخرى للقرآن ﴿فَأَمَّا رَبٌّ﴾ أي بالقرآن ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ﴾ في العبادة ﴿رَبِّنَا أَحَدًا﴾ من خلقه حيث نهى الله سبحانه عنه ﴿وَأَنَّهُمُ﴾ الضمير عائد إلى ربنا أو للشأن قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بكسر الهمزة عطفاً على مقولة قالوا يعني إنا سمعنا وهكذا في أحد عشر موضعاً غيره إلى قوله: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ وهذا ظاهر غير أن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية التفات من المتكلم إلى الغيبة وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ أبو جعفر وأنه وأنهم في ثلاث مواضع بالفتح على أنه استمع نفر بمعنى أوحى إلى أنه تعالى جد ربنا وأوحى إلي أنه كان وأوحى إلي أنهم كانوا وفي تسعة مواضع الباقية بالكسر ولما ذكرنا وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بفتح الهمزة في المواضع كلها، قال المفسرون في توجيه هذه القراءات أنه معطوف على أنه استمع يعني أوحى إلي أنه تعالى جد ربنا وهذا لا يستقيم إلا إلى الثلاثة الذي قرأها أبو جعفر بالفتح دون البواقي وقيل: إنه معطوف على حمل الجار والمجرور في آمنة به يعني صدقنا أنه تعالى جد ربنا وهذا أيضاً لا يستقيم إلا في بعض المواضع كما هو الظاهر ولولا هذه القراءة في المتواترات لما احتجنا إلى تكلفات في توجيهها لكنها من المتواترات فوجب ارتكاب التكلفات والله تعالى أعلم ﴿تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ الجملة خبر لأن والعائد وضع المظهر موضع المضمرة على تقدير كون الضمير عائداً إلى تقديره أنه تعالى جده فوضع المظهر موضع الضمير للتصريح على الربوبية فإن الربوبية تقتضي أن يكون عظمته وشأنه أعلى وأرفع عن شأن المربوبين، ومعنى جد ربنا جلاله وعظمته كذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة ومنه قول أنس كان الرجل إذا قرأ بقرة وآل عمران جد فينا أي عظم قدره، وقال السدي جد ربنا أمر ربنا، وقال الحسن غنا ربنا وقال ابن عباس قدرة ربنا، وقال الضحاك فعل، وقال القرطبي آلاؤه ونعمائه على خلقه وقال الأخفش ملك ربنا ﴿مَا أَخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ خبر بعد خبر لأن كأنه تأكيد وبيان للجزء الأول يعني تعالى جلاله عن اتخاذ صاحبة والولد كما هو شأن المربوبين كأنهم سمعوا من القرآن ما نههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك في العبادة ونسبة صاحبة والولد إليه تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا، قال قتادة ومجاهد هو إبليس وقيل: المراد به مردة الجن ﴿عَلَى اللَّهِ سَطَطًا﴾ أي قولاً ذا شطط وهو أبعد أي قولاً بعيداً عن شأنه والجور في الحكم أو التجاوز عن الحد، في القاموس

شط عليه في حكم جار في سلعته جاوز القدر والحد وتباعد عن الحق أي كان يقول على الله تعالى ويحكم بالجور والتباعد عن الحق وهو نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى ﴿وَأَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٥﴾ اعتذار عن اتباع بعضهم السفه في ذلك بظنهم أنه لا يكذب على الله أحد وكذباً منصوب على المصدرية لأنه نوع من القول أو على المفعولية على أنه مقولة تقول أو على أنه وصف لمحذوف أي قولاً مكذوباً، وقرأ أبو جعفر تقول بفتح الواو والتشديد وعلى هذا المصدر البتة لأن التقول لا يكون إلا كذباً وأن بعد الظن مصدرية أو مخففة، ومعنى الآيتان على تقدير فتح همزة أن وكونها معطوفة على به في آمنة به أنه تيقنا أنه كان قول سفهنا بعيداً عن الحق جوراً في الحكم وإن زعمنا بعدم كذب الجن كان باطلاً. فإن قيل: كان الجن قبل مبعث النبي ﷺ يقعدون من السماء مقاعد السمع فيستمعون كلام الملائكة من التسبيح وغير ذلك فما الوجه في اتباعهم سيفههم وظنهم أنهم لا يقولون كذباً وعدم إيمانهم مع استماعهم كلام الملائكة كثيراً وإيمانهم لما سمعوا القرآن من النبي ﷺ واحداً؟ قلت: الإيمان أمر وهبي لا يتصور وجوده فهذه تلقى الهداية من الله الهادي على الإطلاق وذلك التلقي لا يكون إلا بواسطة يأخذ الفيض من الله تعالى لمناسبة المعنوية به تعالى بعلو استعداده ويفيض على العالمين لمناسبة بهم صورية وذلك بالواسطة هي من الأنبياء ﷺ فإن لهم مع الله مناسبة معنوية لأجل كون مبادي تعيناتهم ومربياتهم الصفات العاليات ولهم على قدر كما لهم في مراتب النزول مناسبة صورية بالأسفلين وأما الملائكة الأعلى من الملائكة فلهم مناسبة مع الله كهيئة الأنبياء ولا مناسبة لهم بالأسفلين لكونهم متصاعدين مراتب غير محصلين كمالات النزول وكذلك لم يتأثر الجن منهم هداية ولا إيماناً وإن سمعوا منهم كلمات الهداية وتأثروا من سفهاء الجن والشياطين لكمال المناسبة وكذا لم يتأثر من المكلفين من نوح ﷺ وغيره من الأنبياء الذين لم يبلغوا في مراتب النزول غاية وتأثروا عن سيد الأنبياء فإنه كان هادياً لكمالات الفروع والأصول محدد الدرجات العروج والنزول لأجل ذلك بعثه الله تعالى إلى الناس كافة بل إلى الجن والإنس عامة فاستنار بنور هداية العالمين واستضاء بضوء إرشاده جماهير المكلفين إلا من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله حيث لم يخلق فيه استعداد قبول الحق والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وهذا معنى قول الشيخ الأكبر أنكروا دعوة نوح لما كان من الفرقان وأجابوا دعوة محمد لما كان من القرآن ﷺ وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين وبارك وسلم ﴿وَأَنْتُمْ﴾ الضمير الشأن ﴿كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَمُودُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم

وابن أبي الشيخ عن كروم بن السائب الأنصاري قال خرجت مع أبي المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ فأوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك فنأدى منادي لا نراه يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم ولم تصبه كدمته فأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ﴾ الآية، وأخرج ابن سعد عن أبي رجاء العطاردي قال: بعث رسول الله ﷺ وقد رعيت على أهلي وكفيت فبهتهم فلما بعث النبي ﷺ خرجنا هراباً فأتينا على فلاة من الأرض وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا إنا نعوذ بعزير هذا الوادي من الجن الليلة فقال ذلك فقيل لنا: إنما السبيل لهذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من أقربها أمن على دمه وماله فرجعنا في الإسلام، قال أبو رجاء إني لأرى هذه الآية نزلت في أصحابي ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ﴾ الآية، وأخرج الجزائفي في كتاب هواتف الجن بسنده عن سعيد بن جبير أن رجلاً من بني تميم يقال له رافع بن عمير يحدث عن بدأ إسلامه قال: إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذ غلبني النوم فنزلت على راحلتي وأنختها ونمت وقد تعوذت قبل نومي فقلت: أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن فرأيت في منامي رجلاً بيده حربة يريد أن يضعها في نحرنا فانتبهت فرعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً، فقلت: هذا حلمهم ثم عدت، فغفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً فإذا ناقتي ترعد ثم غفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب والتفت فإذا أنا برجل شاب رأيت في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يرد عنها فبينما هما يتنازعان إذا طلعت ثلاثة أثار من الوحش فقال الشيخ للفتى قم فخذ أيها شئت فداء ناقة الإنسي، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً عظيماً وانصرف ثم التفت إلى الشيخ فقال: يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل: أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي ولا تعذب بأحد من الجن فقد بطل أمرها، قال: فقلت له من محمد هذا؟ قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي بعث يوم الإثنين قلت: فأين مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل، فركبت راحلتي حين برق الصبح وجددت السير حتى أتيت المدينة فرأيت رسول الله ﷺ فحدثني بحدِيثي قبل أن أذكر له شيئاً ودعاني إلى الإسلام فأسلمت، قال سعيد بن جبير وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعْزُونَ بِرِجَالِ مِّنَ الْجِنِّ﴾ ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي زاد الإنس الجن باستعاذتهم بقادتهم ﴿رَهَقًا﴾ قال ابن عباس إثمًا وقال المجاهد طغياناً وقال مقاتل غياً وقال الحسن شراً وقال إبراهيم عظمة، وذلك أن الجن كانوا يقولون سدنا الجن والإنس أو المعنى فزاد الجن الإنس غيابان

أضلوهم حتى استعاذوا بهم والرهق غشيان الشيء والمراد ها هنا غشيان المحارم والإثم وفي هذه الجملة أيضاً اعتراف بسوء عقيدتهم فيما قيل ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي الإنس ﴿ظَنُّوا﴾ ظناً ﴿كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ يا معشر الجن ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد موته أن لن يبعث قائم مقام المفعولين يعني نزل القرآن آمنوا بالغيب بعد فساد ظنهم فأنتم أيضاً أيها الجن آمنوا بالبعث كمايمانهم قال ذلك بعضهم لبعض هذا على قراءة كسر إن، وأما على تقدير فتحها فهذه الجملة وما قبلها أعني كان رجال الخ معترضات من كلام الله تعالى معطوفتان على أنه استمع يعني أوحى إلى هذين الأمرين وتأويل الآية على هذا التقدير أنهم أي الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكافر من قريش مكة عدم البعث فلما نزل القرآن واستمع الجن آمنوا بالبعث فعليكم أيها الكفار أن تؤمنوا كما آمنوا ﴿وَأَنَا لَمَسَّاءٌ﴾ أردنا المس ﴿السَّاءُ﴾ بعد مبعث النبي ﷺ والظاهر أن المراد بالسماء السحاب فإن السماء يطلق على ما هو فوقك، ويدل على هذا التأويل حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر الذي قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتتوجه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»^(١) رواه البخاري. فإن قيل: قد وقع في بعض الأخبار بلفظ يدل على حقيقة السماء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فرغ عن قولهم قالوا: ماذا قال ربكم: قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فسمعها مسترقوا السمع هكذا بعضه فوق بعض ووضع سفيان بكفه ليستمع الكلمة فيلقونها إلى من تحته ثم يلقونها الآخر إلى من تحته حتى يلقاها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقاها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معه مائة كذبة»^(٢) الحديث رواه البخاري وفي حديث ابن عباس «ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يحملون العرش ماذا قال ربكم: فيخبرونهم ما قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ هذا السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يغرقون فيه ويزيدون»^(٣) رواه مسلم، قلنا: ليس في هذين الحديثين وما في معناهما أن الجن يخطف

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ (٤٧٠١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩).

من السماء الدنيا ولعل معناه حتى يبلغ الخبر هذا السماء الدنيا ثم أهل السماء الدنيا ينزلون إلى العنان فتذكر الأمر الذي قضى في السماء فيخطف الجن مسترقوا السمع وهم بعض فوق بعض إلى العنان فحينئذ يدركه الشهاب الثاقب من نجوم السماء والله تعالى أعلم ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ أي السماء ﴿مُلْتَمِتًا حَرَسًا﴾ حراساً اسم الجمع كالخدم ﴿شَدِيدًا﴾ أقوياء من الملائكة الذين يمنعون هم عنها ﴿وَشُهَابًا﴾ جمع شهاب وهو شعلة نار انتشرت من النجوم ﴿وَأَنَا كُنَّا﴾ قبل ذلك ﴿نَقَعُدُّ مِنْهَا﴾ أي من السماء أي من السحاب حال من ﴿مَقْعُدًا﴾ خالية عن الحرس والشهب صالحة للترصد والاستماع ظرف لتقعد ﴿لِلسَّمْعِ﴾ متعلق بنقعد أو صفة لمقاعد ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ﴾ يعني بعد مبعث النبي ﷺ ﴿يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا﴾ أي رصداً له ولأجله يمنعه من الاستماع بالرجم أو ذوي شهاب راصدين على أنه جمع للراصد فصار هذا معجزة للنبي ﷺ لأجل الجن آمنوا به ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي﴾ يعني أنا كنا لا ندري قبل ذلك ﴿أَشْرُ أُرِيدُ يَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بحراسة ﴿أَمْرَ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فأما الآن إذا سمعنا القرآن أن الذي حال بينكم وبين خلو السماء هو بعث هذا النبي حتى يكون معجزة له يعجزه الكهنة عن إتيان خبر السماء مثله فظهر أن الله سبحانه وتعالى إنما أراد للعالمين هداية ورشداً، ففي هذه الجمل الثلاث احتجاج على حقيقة القرآن ورسول الله ﷺ والشر والخير وإن كانا جميعاً بخلقه تعالى وإرادته لكنهم أسندوا إرادة الخير إليه تعالى صريحاً وإرادة الشر كناية بذكره على صيغة المجهول رعاية الأدب.

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ ١١ ﴿وَأَنَا طَنَّتْنَا أَنْ لَنْ نُعْجِرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِرُهُ هَرَا﴾ ١٢ ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدْيَةَ ءَأَمْنَا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ رَبِّهِ فَلَا يَجْأَفُ بِجَسَا وَلَا رَهْقًا﴾ ١٣ ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ ١٤ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ١٥ ﴿وَالْوِ اسْتَقْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ ١٦ ﴿لِنَقِيْنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ١٧

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ عنوا بهم الذين كانوا منهم مؤمنين بالتوراة وغيره من الكتب السماوية والأنبياء السابقين ﷺ ﴿وَمِمَّا﴾ قوم ﴿دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ﴾ أي ذوي طرائق أي مذاهب أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال أو كانت طرائق ﴿قِدْدًا﴾ متفرقة مختلفة وهذه الجملة أعني قولهم كنا طرائق قديداً تأكيد لمضمون ما سبق من قولهم: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ الخ وقدداً جمع قدة بمعنى القطعة من الشيء، قال الحسن والسدي الجن أمثالكم فمنهم

قدرية ومرجئة ورافضية وغير ذلك وقولهم فيما بينهم أنا منا الصالحون الخ تمهيد لما سيأتي من قولهم ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ﴾ الآية، ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ الآية يعني أن الإيمان والتصديق ليس أمراً مبدعاً منا بل كان الجن قبل ذلك طرائق قدداً بعضهم كانوا صالحين وبعضهم دون ذلك وأنا إن اتبعنا السفيه في القول في الشطط لكننا لما سمعنا قرآناً ظننا أن لن نعجز الله وسمعنا الهدى وآمنا به كما كان بعض أسلافنا مؤمنين ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾ أي علمنا وتيقنا بتعليم الله تعالى في القرآن وهدايته والمعنى كنا نظن ذلك قبل هذا أو المعنى كنا نتيقن ذلك بعلمنا ما في التوراة ﴿أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ﴾ أي لن تفوته إن أراد بنا سوءاً كائناً ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي هاربين من الأرض إلى السماء إن طلبنا مهرباً وهذا على كونه حالاً من فاعل نعجز ويحتمل أن يكون مفعولاً مطلقاً بمعنى تهرب هرباً ومفعولاً له أي نعجزه للهرب أو ظرفاً أي نعجزه في المهرب أو تميزاً من نسبة الفاعل أي نعجزه هربها ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ أي القرآن فإنه موجب للهدى ﴿ءَأَمْنَا بِهِ﴾ فآمنوا به أنتم أيضاً يا قومنا شر الجن ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ شرط والفاء للنسبية والجزاء ما بعده ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي فهو لا يخاف ﴿بِمَسَا﴾ نقصاً في الثواب ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي ولا أن ترهقه تغشاه ذلة أو المعنى لا يخاف جزاء نقص في الطاعات ولا جزاء له رهوق ظلم أي غشيان ظلم لأن من حق الإيمان بالقرآن أن يحجب ذلك ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُتَسْلِمُونَ﴾ الأبرار ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي الجائرون عن الحق يقال أقسط الرجل إذا عدل وقسط إذا جار فهو قاسط، إنما ذكر هذه الجمل ومع ذكر مضمون فيما سبق بقوله: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُتَسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ ليكون تمهيداً لتفصيل حال الفريقين والمقصود ها هنا تفصيل الحال وفيما سبق التفرقة فحسب للدفع كون الإسلام أمراً مبدعاً ويحتمل أن يكون الذين يستمعون القرآن بعضهم أسلموا وبعضهم لم يسلموا وهذا مقولة المسلمين منهم لما رجعوا إلى قومهم ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ بالله ورسله ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ قصدوا طريقاً موصلاً إلى الفلاح ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ توقد بهم جهنم كما توقد النار بالحطب وهذه الجمل السبعة من قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُتَسْلِمُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ الخ لاشك أنها من كلام الجن فلا غبار على قراءة إنا بالكسر وأما على قراءة الفتح فلا بد ارتكاب تكلف بأن يقال إنها معطوفة بهاء به في آمنة به والمعنى آمنة بالقرآن ويتبعنا بمعجزاته في الآفاق من أن لمسنا السماء الآية وأنا كنا نقعد منها مقاعد الآية وأنا لا ندري ما أراد الله بالشهب حتى سمعناه وبمعجزاته تأثيراته في الأنفس وأنا كنا منا الصالحون ومنادون ذلك ولأن تيقنا أن لن نعجز الله وأنا لما سمعنا الهدى آمنة به وتيقنا

أن المسلمين منا تحروا رشداً وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً والله تعالى أعلم بمراده ولا يتصور عطف هذه الجملة السبعة على أنه استمع نفر من الجن كما لا يخفى.

مسألة: اتفقت الأئمة على أن الكفار من الجن يعذبون بالنار كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٥) واختلّفوا في ثواب المؤمنين منهم؟ فقال قوم: ليس لهم ثواب إلا نجاتهم من النار وتأولوا قوله تعالى: ﴿يَقَوْمًا أٰجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّمَ مِنْ عَذَابِ آٰلِ يٰسِرٍ﴾ (١٦) (١) قال البغوي وإليه ذهب أبو حنيفة وحكى سفيان عن ليث قال: الجن ثوابهم أن يجاروا من النار ثم يقال لهم كونوا تراباً مثل بهائم، وعن أبي الزبيد قال: إذا قضى بين الناس قيل لمؤمنين الجن عودوا تراباً فيعودون تراباً وعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً وقيل: مذهب أبي حنيفة فيه التوقف لقوله ﷺ: «أبهموا ما أبهم الله» (٢) وقد ذكر الله تعالى عذاب الكفار منهم ولم يذكر ثواب المطيعين منهم إلا المقر والجوار من النار، وقال الآخرون يكون لهم ثواب في الإحسان كما يكون لهم عذا في الإساءة كالإنس وإليه ذهب مالك وابن أبي ليلى وقال جرير عن الضحاك الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، أخرج أبو الشيخ وذكر النقاش في تفسيره حديثاً أنهم يدخلون الجنة فليل له هل يصيبون من نعمها؟ قال: يلهمهم الله تسبيحه وذكره فيصيبون من لذته ما يصيبون بنو آدم من نعيم الجنة، قلت: كأنه ألحق المؤمنين من الجن بالملائكة وقال الطاءة ابن المنذر سألت حمزة بن حبيب هل للجن ثواب قال نعم وقرأ: ﴿لَوْ يَطْمِئِنُّنَّ إِنْسٌ فَبَأْتَهُمْ وَلَا جَانَ﴾ (٣) قال: فلا نسيات للإنس والجنيات للجن، أخرج أبو الشيخ من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: الخلق بركة فخلق في الجنة كلهم وهم الملائكة وخلق في النار كلهم وهم الشيطان وخلقان في الجنة والنار وهم الجن والإنس لهم العذاب والشواب، وأخرجه عن ابن وهب أنه سئل هل للجن ثواب وعقاب؟ قال: نعم قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خٰسِرِينَ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ (٤) وقال عمرو بن عبد العزيز إن مؤمن الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها. احتج القائلون

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.

(٢) ذكر ابن الأثير أنه قول لابن عباس.

انظر: النهاية في غريب الحديث حرف الباء/ باب الباء مع الهاء.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ١٨ - ١٩.

بشواب الجن بالعمومات ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾^(١) ونحو ذلك بالخطابات الواردة في سورة الرحمن حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَأْتِي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾^(٢) ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾^(٣) قالت الحنفية في الجواب إن العمومات محولة على الإنس بدلالة العرف فإن أهل العرف لا يفهمون منه إلا الإنس وأما الخطابات في سورة الرحمن بقوله: ﴿فَأِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٢﴾﴾ توبيخ للجن وللإنس على مطلق التكذيب بآلاء الله سبحانه لإيما ذكر قبل تلك الآية خاصة كيف وذلك لا يتصور في مثل قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٢٥﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَّتِهِمْ فَيُؤَخَّدُ بِالنُّوَصَى وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾^(٤) ونحو ذلك وقد ذكر من الآلاء ما هي مختصة بالإنس دون الجن حيث قال: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾^(٥) فيحتمل أن يكون نعيم الجنة مختصة بالإنس خوطب الثقيلين بها توبيخاً على تكذيب الطائفتين مطلق الآلاء، والصحيح عندي ما قاله الجمهور وبه قال أبو يوسف محمد رحمهما الله تعالى قال: من أثبت الثواب فقله مبني على دليل وشهادة على الإثبات فيقبل بخلاف قول أبي حنيفة فإنه متوقف بناء على عدم بدليل فلا شك أن قول ابن عباس وأقوال عمر بن عبد العزيز ونحوه من ثقات الصحابة والتابعين لها حكم الرفع، وقد أخرج البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ مرفوعاً «إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألنا عن ثوابهم وعن مؤمنهم فقال: على الأعراف وليسوا في الجنة فسألنا وما الأعراف؟ قال: خارج الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيها الأشجار والأثمار» والله تعالى أعلم ﴿وَأَلَّوْاْ أَسْتَفْتَمُوْاْ﴾ أن مفتوحة بإجماع القراء مخففة من المثقلة واسمها ضمير الشأن محذوف وجملة الشرطية خبرها والجملة معطوفة على أنه استمع نفر من الجن والمعنى أنه أوحى إلي أنه لو استقاموا أي الجن والإنس ﴿عَلَى الطَّرِيفَةِ﴾ المرضية لله تعالى وهي دين الإسلام والفترة التي فطر الناس عليها ﴿لَأَسْفِنَهُمْ مَّاءَ عَذَقًا﴾ أي كثيراً، قال مقاتل نزلت هذه الآية بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين، وقيل المراد من الماء الغدق الرزق الواسع على

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦ - ٤٧.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٧٢ - ٧٥.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٤١ - ٤٢.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٢٤ - ٢٥.

التجوز لأن الماء سبب للرزق كما أريد من الرزق المطر في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضُ﴾^(١) والمعنى لأعطيناهم مالا كثيرا وعيشا رغداً وهذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَبِئْسَ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ مِنْ بَرَكَاتِ بَيْنِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) ﴿لِنُفِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلق بأسقيناهم أي لنختبرهم كيف شكرهم وهذا التأويل قول سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة ومقاتل والحسن، وقيل: معناه أن لو استقاموا على طريقة الكفر لأعطيناهم مالا كثيرا لنفنتهم فيه عقوبة لهم واستدراباً حتى يفتنوا بها فتذهب بهم نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَوَّأْنَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٤) وهذا قول الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان وهذا القول ليس بسديد وإلا يلزم أن يكون الكفر موجبا لسعة الرزق وحسن المعيشة ويأبى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٥) الآية وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا﴾^(٦) الآية وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ﴾^(٧) الآية فإن كلمة لولا لامتناع الثاني لا لأجل امتناع الأولى وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَوَّأْنَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾^(٨) واقعة حال ماضي لا يدل على العموم وإلا يلزم التعارض فيما لا يحتمل النسخ وأيضاً وقائع أهل مكة حالة على صحة التأويل الأول دون الثاني فإن أبا جهل وغيره من كفار مكة الذين لم يؤمنوا ابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا الروث لم قتلوا بيدر في أقبح حال والذين آمنوا مع النبي ﷺ واستقاموا على الطريق أعطاهم الله ملك كسرى وقبصر وغيرهما وأيضاً يدل على صحة التأويل الأول مقابلته بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ حيث حكم بلزوم العذاب بالإعراض عن الذكر وذلك يقتضي الحكم بضد ذلك أي بحسن العيش على هذا

(١) سورة الجاثية، الآية: ٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٧) سورة الزخرف، الآية: ٣٣.

(٨) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

الإعراض وهو المراد بالاستقامة على الشريعة كما هو عادة الله سبحانه في كتابه والله تعالى أعلم ﴿يَسْأَلُكَ﴾ قرأ أهل كوفة ويعقوب بالياء على الغيبة أي يدخله ربه وآخرون بالنون على التكلم ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذب ويغلبه صعد وصف به والمراد بالعذاب منها إما عذاب الدنيا أو عذاب القبر أو عذاب الآخرة وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١) والظاهر أن المراد ها هنا عذاب الدنيا بدليل المقابلة وكذلك من ضنك المعيشة هنالك لعطف قوله ونحشره كما أن المراد بالحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) روي عن ابن عباس أنه قال: كل مال قل أو كثر فلم معاشهم فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة وإن قوماً أعرضوا عن الحق وكانوا أول سعة من الدنيا مكشرين فكانت معيشتهم ضنكاً وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلف عليهم فاشتدت عليهم معاشهم من سوء ظنهم بالله، وقال سعيد بن جبير تسلبه القناعة حتى لا يشبع، قلت: وهذا الأمر ظاهر فإن أهل الدنيا لما سلب منهم القناعة فهم دائمون في جد واجتهاد لأجل اكتساب المال وحفظ خائفون على فواته متحاسدون متباغضون فيما بينهم لأجله غير آمنين على أنفسهم لكثرة الأعداء والحساد ولا شك أن هذا عذاب صعد ومعيشة ضنك ولو يعلمون ما للصفوية من الحياة الطيبة وطمأنينة القلب بذكر الله وشرح الصدور ورفع الحاجة بالقليل والاستغناء عن الخلق والشفقة على خلق الله تعالى كلهم أجمعين والشكر والسرور في الضراء رجاء لكفارة المعاصي وحسن الجزاء فضلاً عن الرخاء والسراء ليتحاسدوهم على ذلك والله يؤتي من يشاء من الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) وَأَنْتُمْ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِن أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

رَبِّ أَمْدًا ﴿١٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿١٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رِبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٨﴾

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ عطف على أن لو استقاموا على الوحي به قيل: المراد بالمساجد المواضع التي بنيت للصلاة ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قال قتادة كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا بيوتهم وكنائسهم أشركوا بالله فأمر الله تعالى المؤمنين أن يخلصوا لله الدعوات إذا دخلوا المساجد وأراد به المساجد كلها وأمر بتطهيرها فقال: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾^(١) الآية، وأمر رسول الله ﷺ فقال: «جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم وشركائكم وبيعتكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع»^(٢) رواه ابن ماجه عن واصلة مرفوعاً، ونهى عن تناشد الأشعار في المسجد وعن البيع والشراء فيه وأن يتحلق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة في المسجد^(٣) رواه أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وقال: «البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»^(٤) متفق عليه عن أنس قال: «عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد»^(٥) رواه أبو داود والترمذي عنه، وقال: «من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبين لهذا»^(٦) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وروى الترمذي والدارمي وزاد «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك» والله تعالى أعلم. وقال الحسن أراد بها البقاع

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المساجد والجماعات، باب: ما يكره في المساجد (٧٥٠).

في الزوائد: إسناده ضعيف فإن الحارث بن نبهان متفق على تضعيفه.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في كراهية البيع والشراء وإنشاء الضالة والشعر في المسجد (٣١٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: كفارة البزاق في المسجد (٤٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن البصاق في المسجد (٥٥٢).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كنس المساجد (٤٦٠).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد (٥٦٨).

كلها لأن الأرض جعلت كلها سجداً لهذه الأمة يعني لا تدعوا مع الله أحداً في شيء من البقاع، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت الجن أتأذن لنا فنشهد معك الصلاة في مسجدك فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١) وأخرج ابن جرير عن جبير قال: قالت الجن للنبي ﷺ كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن عنك أو كيف نشهد الصلاة ونحن ما دون عنك فنزلت، وقيل: المراد بالمسجد أعضاء السجود يعني أنها مخلوقة لله تعالى فلا تسجدوا عليها غيره، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا يكفت الثياب ولا الشعر» (١) ﴿وَأَنَّهُمُ الضَّمِيرُ لِلشَّانِ قَرَأَ نَافِعُ وَأَبُو بَكْرٍ بِكسر الهمزة على الاستثناف والباقون بالفتح عطفاً على الموحى به ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ محمد ﷺ إن ذكر لفظ العبد دون الرسول أو النبي أو غير ذلك للتواضع فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه والإشعار بما هو المقتضى لقيامه، وقال المجدد العبودية أقصى مراتب الكمال ﴿يَدْعُوهُ﴾ حال من عبد الله أي يعبده ويذكره ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ قرأ هشام لبد بضم اللام والباقون بالكسر وهو جمع لبدة وأصل اللبد الجماعات بعضها فوق بعض ومعناه على ما قال الحسن وقتادة وابن زيد أنه لما قام عبد الله بالدعوة إلى التوحيد كاد الجن والإنس يكونوا مجتمعين لإبطال أمره يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره وينصره على من عاداه، ويحتمل أن يكون معناه أنه لما قام عبد الله يدعوهم ويقرأ القرآن بنخلة كان الجن يكون عليه لبداً متراكبي من ازدحامهم عليه شوقاً لا سقماً عن القرآن ﴿قُلْ﴾ كذا قرأ عاصم وحزمة وأبو جعفر بصيغة الأمر موافقاً لما بعده والباقون بصيغة الماضي أي قال عبد الله ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ فما لكم تجتمعون على إبطال أمري أو المعنى قال عبد الله حين اشتاق الجن إلى كلامه إنما أدعوا ربي فادعوا أنتم أيضاً كدعائي ولا تشركوا به أحداً، وقال مقاتل قال كفار مكة للنبي ﷺ لقد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن بخيرك فنزلت هذه الآية وما بعدها ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (١) يعني ضراً ولا نفعاً أو غياً ولا رشداً عبر عن أحدهما باسم وعن الآخر باسم سببه أو مسببه إشعاراً بالمعنيين ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (١) متلجأ أميل إليه إن أراد في سوء وهذين الجملتين المستأنفتين كأنهما في جواب ما أقول حين يقول الكفار الذين اجتمعوا لإبطال أمري إنك إن كنت نبياً فائتنا بعذاب من عند

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس في الصلاة (٤٩٠).

الله أويقول الكفار ارجع عن دينك فنحن بخيرك، ويحتمل أن يكون الجملة الأولى في جواب ما أقول في وقت اشتياق الجن إلى رؤيتي ولقائي فإن ازدحامهم علي دل على زعمهم بأن النبي ﷺ يملك لهم ضراً ورشداً أو الجملة الثانية تأكيد لمضمون السابقة على عجز النبي ﷺ، وأخرج ابن جرير عن حزمي أنه ذكر له أن جنياً من الجن من أشرفهم إذ اتبع قال: إنما يريد محمد أن نجيره وأنا أجيره فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي﴾ الآية ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ كائناً ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ﴾ عطف على بلاغاً والاستثناء إما من قوله لا أملك فإن التبليغ إراشد وإنفاع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة فلا يلزم الفصل بأجنبي يعني لا أملك لكم من رفع الضر أو إيصال الرشد إلا التبليغ والرسالة فإن أملكه وإما من قوله أحداً وملتحداً على سبيل التنازع وإعمال الثاني يعنيلا يجيرني من الله أحد من دونه ملتحداً إلا التبليغ والرسالة فإن التبليغ والرسالة فريضة من الله تعالى يجيرني من عذاب الله ويعذبني الله إن لم أفعل كذلك، قال الحسن ومقاتل قيل المعنى لا أملك لكم خيراً ولا شراً ولا رشداً ولكن بلاغاً من الله ورسالة ثابت وقيل: إلا مركب من أن الشرطية ولا النافية وجزاء الشرط المحذوف اكتفاء بما مضى يعني أن لا أبلغكم بلاغاً كائناً من الله ورسالاته لن يجيرني من الله أحد ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر بالتوحيد ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أفرد ضمير يعص الله وضمير له نظراً إلى لفظة من وجمع ضمير خالدين نظراً إلى معناه وجملة ومن يعص الله معطوفة على مقدر يعني أبلغ لك بلاغاً من الله ورسالاته فمن يطع الله ورسوله فأولئك تحروا رشداً ومن يعص الله ورسوله الآية حتى إذا رأوا أي الكفار غاية لقوله تعالى: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ إن كان المراد به اجتماع الكفار لإبطال أمر النبي ﷺ وإلا فهو غاية لحذوف دل عليه الحال من استضعاف الكفار له وعصيانهم له كأنه قيل لا يزالون يعصونه ويستضعفونه ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَاءً﴾ إما العذاب في الدنيا في الدنيا كوقعة بدر وإما الساعة ساعة الموت فإن من مات فقد قامت له القيامة المشتملة على جهنم والساعة أدهى وأمر ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حين حلوله بهم ﴿مَنْ أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ أهم أم النبي ﷺ جملة استفهامية قائمة مقام المفعولين لقوله تعالى فسيعلمون قال بعض الكفار متى هذا الوعد فنزل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ أدرى﴾ لا أدري ﴿أقرب﴾ خبر مبتدأ بعده أو مبتدأ من القسم الثاني وما بعده فاعله ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب أو الساعة ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَحْمَةً﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ﴿أمداً﴾ غاية وأجلاً لتطول مدتها لا يعلمه إلا الله والجملة الاستفهامية قائم مقام مفعولي إن أدري ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ﴾ صفة ربي أو خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم الغيب لا

غيره فكانه تعليل لقوله لا أدري، والمراد بالغيب ما لم يوجد بعد كأخبار المعاد أو انعدام بعد الوجود كأخبار المبدأ والقصاص الماضية التي انقطعت الرواية عنها وإما ما غاب عن العباد من أسماء الله تعالى وصفاته التوقيفية التي لا يدل عليه البرهان، وأما ما قام عليه الدليل والبرهان كوجوده تعالى وجوبه وتوحيده وكونه متصفاً بصفات الكمال منزهاً عن سمات النقص والزوال فليس من الغيب من الشهادة لشهود ما يدل عليه من العالم وكذا مسألة حدوث العالم مثلاً ليس من الغيب بل من الشهادة لمشاهدة قابلية التغير الدال على الحدوث وهذه الأقسام من الغيب لا يمكن العلم بها إلا بتوفيق من الله تعالى، ومن الغيب ما هو غيب بالنسبة إلى بعض دون بعض كأحوال الجن وأحوال بعض أشياء البعيدة غيب بالنسبة إلى الإنس دون الجن ومن ثم زعم الإنس أن الجن يعلمون الغيب وهم لا يعلمون إلا ما يشهدونه قال الله تعالى في قصة سليمان ﷺ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(١) وكأحوال السماوات بالنسبة إلى أهل الأرض دون أهل السماء وأحوال المشرق بالنسبة إلى أهل المغرب وهذا القسم من علم الغيب قد يحصل بالوحي والإلهام وقد يحصل برفع الحجب وجعلها مثل الحجب الزجاجي، روى مسلم عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «لقد رأيتني في الحجر وقريش سألتني عن مسراي فسألتنني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله فرفعه الله إلي لأنظر إليه ما يسألني عن شيء إلا أنبأتهم»^(٢) وروى البيهقي عن عمر أن عمر بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً يدعى سارية فبينما عمر يخطب فجعل يصيح يا سارية الجبل، وروى أبو داود عن عائشة قالت: لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور^(٣)، وعند رفع الحجب لا يكون هذا من علم الغيب بل من علم الشهادة وإن كان من قبيل المعجزة أو الكرامة ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من الخلق ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ﴾ العائد إلى الموصول محذوف فإنه يطلع من ارتضاه أحياناً ليكون معجزة ويبشر المطيعين ومنذر العصاة ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ أعم من البشر والملائكة ويشتمل لفظة الرسول الأنبياء أيضاً قال الله تعالى أرسلهم إلى الناس لتبليغ الأحكام وتخصيص لفظ الرسول بمن أرسله الله بشريعة جديدة وكتاب اصطلاح وقيل: بل يشتمل الأولياء أيضاً بعموم المجاز، قال رسول الله ﷺ:

(١) سورة سبأ، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النور يرى عند قبر الشهيد (٢٥٢١).

«العلماء ورثة الأنبياء»^(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي في حديث عن كثير بن قيس وابن البخاري عن أنس وابن عدي عن علي بلفظ «العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء أو ورثتي وورثة الأنبياء» وابن عقيل عن أنس بلفظ «العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان ويداخلوا الدنيا» الحديث وقال أهل السنة والجماعة كرامات الأولياء معجزة لنبيهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾^(٢) وقد بعث الله تعالى خاتم النبيين إلى كافة فاعتبر أهل السنة أتباعه ﷺ من العلماء والأولياء لساناً له ﷺ حتى يستقيم الحصر واستغراق الإضافة في لسان قومه فعلى تقدير شمول لفظ الرسول للأولياء لا يلزم نقص بحصول علم الغيب لهم على وجه الكرامة وعلى تقدير عدم شموله نقول المراد بالعلم العلم القطعي والعلم الحاصل للأولياء بالإلهام وغيره ظني ليس بقطع، ومن ثم قالت الصوفية العلية إنه لا بد من عرض العلوم الحاصلة للصوفية على الكتاب والسنة فإن طابقت قبلت إذ المطابق للقطع قطعي وإن خالفت ردت قالوا: كل حقيقة رده الشرع فهو زندقة وإن كانت الشريعة عنها ساكتة قبلت مع احتمال الخطأ فاندفع ما قال صاحب الكشاف بناء على اعتزاله إن في هذه الآية إبطال لكرامات لأن الذين يضاف إليهم الكرامات وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا الرسل الخ، وكفى التكذيب أهل الهواء قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾^(٥) وَهَزَيْتُ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ سَنَقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾^(٦)

فإن أم موسى وأم عيسى والحواريين لم يكونوا أنبياء واعلم أن ما ذكرت لك أن العلم الحاصل للأولياء ظني، المراد به العلم الحاصل علماً حصولياً وذلك قد يكون بالإلهام

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٣).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٢٦.

بتوسط الملك وبغير توسطه وقد يكون بكشف الحجب كما ذكرنا في حديث عمر يا سارية الجبل ومن هذا القبيل ما قيل: إنه قد ينكشف على بعض الأولياء في بعض الأحيان اللوح المحفوظ فينظرون فيه القضاء المبرم والمعلق وقد يكون بمطالعة عالم المثال في المنام أو المعاملة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة»^(١) متفق عليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة» رواه البخاري، وهذه الأنواع من العلم قد يقع فيه الخطأ بغير الأنبياء لوقوع الغلط وتخليط الشيطان في الإلهام فإن في قلب بني آدم بيتان في أحدهما الملك وفي الآخر الشيطان فأحياناً يلتبس لمة الملك بلمة الشيطان ووقوع تخليط الوهم وتلبيس الشيطان في الكشف ورؤية عالم المثال، عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان»^(٢) متفق عليه، وقال محمد بن سيرين قال: «الرؤيا ثلاث حديث النفس وتخويف الشيطان وبشرى من الله» متفق عليه ووقوع الغلط في تأويل الرؤيا لكن ووقع الخطايا في علوم الأولياء نادر لتشبههم بالأنبياء فالأنبياء معصومون والأولياء محفوظون غالباً وأما العلم الحاصل للأولياء علماً حضورياً بل فوق الحضورى وهو العلم المتعلق بذات الله تعالى وصفاته المسمى بالعلم اللدني فهو لا يحتمل الخطأ وهو قطع وجداني بل فوق القطعي لأن علم المرء بنفسه علم حضورى وجداني فإنه بحضور نفس المعلوم عند العالم من غير حصول صورة فيه وعلم الصوفي بالله فوق هذا العلم لأن الله تعالى قرب من نفسه بنفسه قال الله تعالى: ﴿وَيَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣) أيها العوام ويبصره من أبصره الله تعالى وهذا العلم اللدني يحصل للأولياء بتوسط الرسول ﷺ ولو بوسائط. فإن قيل: نحن أقرب إليكم منكم خطاب لسائر الناس ويلزم منه أن يكون لسائر الناس علماً بالله تعالى حضورياً فوق علمه بنفسه؟ قلنا: نعم لكن العلم تابع للحياة لا يتصور بدونها وقد ذكر في تفسير سورة الملك أن الحياة على أربعة أقسام منها ما يستتبع المعرفة وتلك الحياة بالتجليات الذاتية والصفاتية ولأجل حصول هذه الحياة الاكتساب والتصوف. فإن قيل لو

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٦٩٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا من الله (٦٩٨٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦١).

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٨٥.

كان هذا العلم الثاني قطعياً لما أخطأه فيه ولما تعارض أقوالهم وقد يخطئون كما يدل عليه تعارض أقوالهم المقتضى خطأ أحد المتنافيين فإنه يقول بعضهم بالتوحيد الوجودي وبعضهم بالتوحيد الشهودي ونحو ذلك؟ قلت: هذا الخطأ إنما يقع في علم العلم الذي من قبيل العلم الحسولي دون نفسه وقد يقع في بيانه وتصويره حيث لم يوضع لهذه المعاني ألفاظ في اللغات قال الشاعر:

المراد بالكفر في هذا الشعر كفر الطريقة المسمى بالتوحيد الوجودي وبالدين الشريعة، وفذلكة الكلام في هذا المقام أن بين الخالق والخلق نسبة ليست بين أي الشيتين فرضتا من الأشياء إذ لا خالق إلا هو فلا يمكن أن يشتبه تلك النسبة بما عداها من النسب لا يقال: ليس نسبة الخالق مع المخلوق كنسبة النقش مع النقاش أو نسبة القدح مع الفجار لأنه ليس كذلك فإن القدح مادته الخشب والنقش مادته اللون ونحو ذلك مخلوقة لله تعالى والصورة الخاصة بعد فعل النجار أيضاً مخلوقة لله تعالى وفعل النجار أيضاً مخلوق لله تعالى رغم أنف المعتزلة، والنجار إنما هو كاسب لبعض من المعاملات فما لكم لا تعقلون ولما كانت النسب التي تدرك في العقل بين أي الشيتين الموجودين في الخارج أو الذهن من العينية والغيرية والظلية وغيرها مسلوقة من تلك النسبة وهي وراء النسب ولم يوضع لها لفظ يدل عليها فقد يعبر عنها بأنه تعالى ليس عين خلقه فيوهم أنه غيره أو أن الخلق ظله وقد يعبر بأنه ليس غير الخلق وليس هناك نسبة الظلية فيوهم أنه عين الأشياء ثم قد يطلق بالمجاز باعتبار الملازمة بين العينية وسلب الغيرية في الأذهان بأنه تعالى عين الأشياء كلها كذا قد يقال بأنه غيرها، وقد يقال إنها ظل وليس ذلك الاختلاف والتعارض إلا في مراتب العلم الحضورى في تعبيراتهم لضيق العبارات وأحسن التعبيرات في هذا المقام قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) والمقصود من التصورات هو هذا العلم اللدني دون العلوم الحاصلة في الظنون فإنه لا اعتداد بها وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً والله تعالى أعلم. فإن قيل: سلمنا أن علوم الأولياء داخله في المستثنى أو خارجه من المستثنى منه لكونها ظنية فما قولكم في علوم الكهنة والمنجمين وعلم الأطباء بالأمراض وبما فيه شفاء المريض وبخواص النباتات ونحوها فإن الأخبار والتجربة تشهد على صدق بعض أخبارهم. روى البخاري عن ابن الناطور حديث صاحب إيليا وقد أسلم يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوماً خبيث

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

النفس فقال بعض بطارفته قد استنكرنا هيئتك، وقال ابن الناطور وكان هرقل ينظر في النجوم فقال لهم حين سألوه إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر الحديث^(١)، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برؤيته وكان نظيره في العلم فأتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي وقد صح أن الكهنة والمنجمون أخبروه الخروج بموسى لفرعون وبزوال ملكه على يد غلام من بني إسرائيل حتى كان فرعون يذبح أبنائهم ويستحي نساءهم قلنا: أما علم الكهنة فما كان منها مطابقاً للواقع فذلك. استراق السمع من الملائكة والملائكة رسل الله لكن الكهنة والشياطين يختلطون فيه أكاذيب ولذلك نهى الشرع عن تصديقهم ثم قد منع الجن بعد مبعث النبي ﷺ عن الاستراق إما مطلقاً أو غالباً فبطل الكهانة، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الكهان وقيل: إنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة»^(٢) متفق عليه، وأما علم الطب والنجوم فمبناهما إما التجارب وذلك من علم الشهادة دون الغيب والأظهر أن ذينك العلمين أعني العلم بخواص الأدوية والطبائع وكذا بخواص النجوم من السعادة والنحوسة وغيرها مقتبسان من علوم الأنبياء فبقي العلمان في الكتب ونسجت عناكب النسيان على سلاسل المرواة واكتفوا بشهادة التجارب في معرفتها قال الله تعالى في قصة إبراهيم ﷺ ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾^(٣) أي ساقم، وذكر البغوي في تفسير سورة سبأ أن سليمان ﷺ ما يأتي عليه يوم إلا تثبت في محراب بيت المقدس شجرة فيسألها من اسمك؟ فتقول: اسمي كذا فيقول: لأي شيء أنت؟ فيقول: لكذا وكذا فأمر بها فينقطع فإن كانت بنت الغرس غرس لها: وإن كانت الدواء كتب حتى تثبت الخروبة فقال لها ما أنت؟ قالت: الخروبة، قال: لأي شيء أنبتت؟ قالت: لخراب مسجدك، كذا ذكر الإمام حجة الإسلام محمد الغزالي ﷺ في رسالة المنقذ من الضلال ثم إن علم الطب والنجوم ليسا بوجبان للقطع فإن التأثيرات المودعة في الأدوية والكواكب أمر عادي جرت العادة الإلهية على خلق تلك الآثار بعد استعمال تلك الأدوية وبعد طلوع تلك النجوم ويتخلف تلك الآثار عنها كثيراً إن شاء الله

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: قول الرجل للشيء ليس بشيء وهو ينوي أنه ليس بحق (٦٢١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٨).

(٣) سورة الصافات، الآية: ٨٨.

ومن ههنا يعلم أن من استدل بالنجوم على شيء وزعم أن الله تعالى يفعل كذلك بعد طلوع ذلك النجم جرياً على عادته فلا يكفر كمن زعم أن الله تعالى يخلق الشفاء بعد شرب الدواء ويخلق الموت بعد شرب السم وأما من زعم أن حدوث ذلك الشيء بذلك النجم فيكفر كما زعم أن الدواء علة تامة على الشفاء. عن زيد بن خالد الجهني قال صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قد أصبح قوم من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي والكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر ومؤمن بالكواكب^(١) متفق عليه، فهذا الحديث إنما يدل على كفر الثاني دون الأول غير أن الاشتغال بالنجوم مطلقاً مكروه لكونه مما لا يعنيه قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد وما زاد»^(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس، وكذلك علم النقاط والخطوط الذين يسمونها إملاء فهو أيضاً مقتبس من الأنبياء ويفيد ظناً لا قطعاً وأما الطيرة فليس بشيء، عن معاوية بن الحكم قال قلت يا رسول الله أمور كما نصنعه في الجاهلية كنا نأتي الكهان، قال فلا تأتوا الكهان، قال قلت كنا نتطير قال ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم، قال قلت ومنا يخطون قال: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن كان وافق خطه فذاك»^(٣) رواه مسلم، وكذلك علم السحر منزل من السماء لكنه كفر قال الله تعالى: ﴿السَّحَرُ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾^(٤) وقد مر في سورة البقرة. فإن قيل قد يظهر علم الغيب على أهل الجوع والرياضة من الكفار استدراجاً؟ قلنا: منشأ ذلك العلم الكشف أو مطالعة عالم المثال والكشف ومطالعة عالم المثال يكون إذا تجلى للوصفي مشاركة الظاهرة والباطنة إما باتباع الريغة ونور السن ويسمى بفراصة المؤمن وإما بالجوع والرياضة ومخالفة النفس فحينئذ تنكشف الحجب عن بعض المغيبات في بعض الأحيان أو عن الصور المثالية فيرى ذلك عياناً فهو من العلم بالشهادة وليس من الغيب في شيء على أنه لما كان

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الكهانة والتطير، باب: في النجوم (٣٩٠٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: تعلم النجوم (٣٧٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

العلم الحاصل لأولياء الله تعالى بالكشف والمثال كشفاً ظنياً محتملاً للخطأ فكيف العلوم الحاصلة للكفار فإنهم تلامذة للشياطين ﴿يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۗ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾^(١) ولكن الله يفعل ما يريد ومما يدل على أن المراد بظهور الغيب في تلك الآية هو العلم القطعي الذي لا يكون للشيطان إليه سبيل قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُ﴾ الفاس للسببية لأن الله تعالى ﴿يَسْأَلُكَ﴾ أي يجعل ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ي الرسول ﴿وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ ذكر بعض الجهات وأراد جميعها ﴿رَصَدًا﴾ جمع راصد أي حفظة من الملائكة يحفظونه من الشيطان أن يسترق السمع ويخلطوا في الوحي بما ليس منه، قال مقاتل وغيره كان إذا بعث الله رسولا أتاه إبليس في صورة ملك يخبره فبعث الله من بين يديه ومن خلفه رسداً من الملائكة يحرسونه ويتردوا الشياطين فإذا جاء الشيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان فاحذره وإذا جاء ملك قال له هذا رسول ربك ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٢) ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الله، أي ليتعلق علمه به موجوداً نظيره قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ ۖ وَرَسُولُهُ بِالْقَيْبِ﴾^(٣) متعلق بقوله تعالى يسلك علة للحفظ من الشياطين ﴿أَنْ﴾ مخففة من المثقلة اسمها ضمير الشأن محذوف ﴿فَدَّ أَبْلَغُوا﴾ أي الرسل ﴿رَسَلْتِ رَبَّهُمْ﴾ كما هي والمعنى ليوجد من الرسل تبليغ رسالات بهم بلا تغيير وتخليط، وقيل: ضمير ليعلم عائد إلى الرسول أي ليعلم الرسول قطعاً ولا شك أنه قد أبلغ هو وإخوانه من الرسل رسالات ربهم ولم يقع فيه تغيير وتخليط من الشيطان أو ليعلم الرسول أنه قد أبلغ الملائكة رسالات ربهم ولم يتطرق فيه شيطان، وقرأ يعقوب ليعلم بضم الياء على البناء للمجهول أي ليعلم الناس قطعاً أن الرسل قد بلغوا ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي ما علم الله عند الرسل لا يخفي عليه شيء ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ عدد مثاقيل الجبال وميكائيل البحار وعدد قطرات الأمطار وعدد ورق الأشجار وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليها النهار ونصب عدداً على الحال أو على المصدر أي عدد عدداً أو التمييز أي أحصى عدد كل شيء والله أعلم.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) الآية هي: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَضُرُّهُ ۖ وَرَسُولُهُ بِالْقَيْبِ﴾ سورة الحديد، الآية: ٢٥.

وربما كان يقصد الآية في سورة المائدة ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْقَيْبِ﴾ رقم ٩٤.

سورة المزمل

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ﴿١﴾ فُرُ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ
وَرَكَلَ الْفَرْعَانِ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ
فِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرْ أَنْتَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الشَّرْقِ
وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾

﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ﴿١﴾﴾ التزمل من تزمل ثيابه إذا تلفف بها فأدغم التاء في الزاء ومثله المدثر تدثر بثوبه إما القطع كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في أول الوحي قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعده بالنبي والرسول وقد تزمل رسول الله ﷺ ثيابه في بد، والوحي خوفًا منه لهيبته، عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي «فبينما أنا أمشي سمعت صوتًا فرفعت السماء بصري فإذا الملك الذي جاء في حراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فخشيت منه رعباً حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلي فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ ﴿١﴾﴾ إلى قوله ﴿فَاهْجُرْ﴾ ثم حمي الوحي وتتابع^(١) متفق عليه، وفي حديث عائشة في الصحيحين في حديث طويل أنه ﷺ دخل على خديجة فقال: زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع وسنذكر هذا الحديث إن شاء الله تعالى في سورة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وأخرج البزار والطبراني بسند ضعيف عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت: سمو هذا الرجل اسماً يصدر الناس عنه، قالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس مجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فبلغ النبي ﷺ فتزمل ثيابه وتدثر فيها فاتاه جبرائيل قال: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ﴿١﴾﴾ ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ ﴿١﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿وَأَلْجَزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ (٤٩٢٦)، وأخرجه مسلم في

كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦١).

﴿قُرْ﴾ أي صلّ، عبر عنها بالقيام تسمية بالشيء باسم جزئه وركنه وهذا يقتضي كون القيام ركناً للصلاة وعليه انعقد الإجماع ﴿أَيْلِ﴾ ظرف زمان وحذف حرف الجر يدل على الاستيعاب كما يقال: صمت شهر الخلاف صمت في الشهر ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ بهذا الاستثناء بقي الحكم بقيام بعض الليل ولما كان الاستثناء مبهماً طرق الإيهام في المستثنى منه فصار المحكوم به محمداً لا بد من بيان نبيه الله تعالى بقوله ﴿يَصْفَهُ﴾ فهو بدل من الليل المستثنى منه القليل بدل الكل فإن الاستثناء تكلم بالباقي بعد الثنيا فتقدير الكلام قم بعض الليل أي نصفه، وقيل: هو بدل من القليل وبيان له وبيان المستثنى تبين الباقي ويزول الإيهام وحينئذ تقدير الكلام قم الليل إلا نصفه والمعنى واحد وإطلاق القليل على النصف بالنسبة إلى الكل ولأن عدم القيام أي النوم في نصف الليل قليل من النوم المعتاد فإن الله تعالى جعل الليل لتسكنوا فيه ولأنه إذا قام نصف الليل للتهجد بقي نصف الآخر وفيه صلاة المغرب والعشاء وحوائج البشر من الأكل والشرب والخلاء فلم يبق لأجل النوم إلا قليل من النصف، وقيل: نصفه بدل من الليل والاستثناء منه أي من النصف وتقديره قم نصف الليل إلا قليلاً فحينئذ يلزم الاستثناء من النصف قبل ذكره مع أن كلمة نصفه حينئذ بدل البعض من الليل وحكم بدل البعض في القصر حكم الاستثناء فمقتضى الكلام تقديم القصر بالاستثناء على القصر بالبدل وأيضاً يلزم حينئذ كون الكلام مجملاً بعد البيان ﴿أَوْ أَنْقَضَ﴾ عطف على قم الليل ﴿مِنْهُ﴾ أي من النصف الباقي بعد الاستثناء ﴿قَلِيلاً﴾ أي زماناً قليلاً أو نقصاناً قليلاً وذلك أن يكون القيام أكثر من نصف النصف أي الربع ﴿أَوْ زِدَ عَلَيْهِ﴾ أي على النصف ما شئت فالمأمور به في هذه الآية القيام أكثر من الربع لو ساعة والظاهر أن الأمر بالقيام في هذه الآية للوجوب كما هو مقتضى الأمر في الأصل فمقتضى الكلام البغوي وهو المستفاد من قول عائشة وغيرها أن قيام الليل بهذه الآية كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته ثم نسخ، قال البغوي كان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على هذه المقادير فكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى النصف ومتى الثلثان فكان يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله تعالى وخفف عنهم ونسخها بقوله: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْسَرُ مِنْهُ﴾^(١) وكان بين أول السورة وآخرها سنة. عن سعيد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألسنت تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قالت: فإن خلق نبي الله كان القرآن، قلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين قالت: ألسنت تقرأ: ﴿يَأْتِيهَا

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

﴿وَرَتَّلِ الْمُزْمِلُ﴾ قلت: بلى قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله تعالى فأتمتها اثني عشر شهراً في السماء ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة^(١) رواه أبو داود والنسائي والبخاري وكذا أخرج الحاكم وأخرج ابن جرير مثله عن ابن عباس وغيره قال مقاتل وابن كيسان كان هذا بمكة قبل أن يفرض الصلوات الخمس ثم نسخ ذلك بالصلاة والخمس والظاهر عندي أن الوجوب كان مختصاً بالنبى ﷺ بدليل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضَمُّهُ وَيُطَافِئُهُ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾^(٢) فإن كلمة من للتبعيض صريح في أن الصحابة بعضهم كانوا يقومون دون بعض. فإن قيل: لو كان وجوبه مختصاً بالنبى ﷺ فكيف يصح تعليل التخفيف لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًىٰ وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِتُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٣) فإن هذه الآية يقتضي رعاية حال الأمة وضعفهم؟ قلنا: خفف الله سبحانه عن النبي ﷺ لرعاية ضعف الأمة وأعدارهم لأن الناس بما واظب عليه النبي ﷺ مسنون للأمة مطلوب الإتيان منهم من غير إيجاب بحيث يلام تاركه قال الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٤) وما قيل: إن المسنون ما واظب عليه النبي ﷺ على سبيل التطوع احترازاً عن صوم الوصال ونحوه فليس بشيء لأن الأصل التأسى والافتداء مطلقاً فلا يترك إلا إذا كان ذلك الأمر ممنوعاً محرماً أو مكروهاً في حق الأمة كصوم الوصال ووصل النكاح فوق الأربعة وغير ذلك ولا وجه لتخصيص التأسى بما واظب النبي ﷺ على سبيل التطوع ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ رَتِيلًا﴾ عطف على قم الليل وما قيل الترتيل مندوب إجماعاً فعطفه على القيام يقتضي كون الأمر بالقيام أيضاً للندب فليس بشيء. عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٥) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي، والترتيل عبارة عن إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة كذا في الصراح وفي القاموس نحوه، وعن

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في صلاة الليل (١٣٤٠).

(٢) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيل في القراءة (١٤٦٣).

ابن عباس معناه بينه بياناً وعن الحسن نحوه، وقال مجاهد ترتيل فيه ترسلاً عن قتادة قال: سئل عن أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بيسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم^(١) رواه البخاري، قلت: معنى قوله يمد بيسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم أنه يظهر فيه الألف من الله بعد اللام ومن الرحمن بعد الميم بقدر حركة وأما مد الرحيم فيجوز فيه المد بقدر الحركتين وأربع وست عند الوقف وفي الوصل لا يجوز إلا بقدر حركة أجمع عليه القراء. وعن أم سلمة أنها سئلت عن قراءة النبي ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً^(٢) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي، وعنهما قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته يقول الحمد لله رب العالمين ثم يقول الرحمن الرحيم ثم يقف رواه الترمذي، قلت: ويتضمن الترتيل تحسين الصوت بالقرآن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»^(٣) متفق عليه، وفي رواية عنه «ما أذن الله ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به» متفق عليه وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» رواه البخاري، وليس المراد إلا تحسين الصوت كما خرج به في بعض الروايات دون إخراجها على وجه الغناء فإنه حرام ممنوع عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» رواه البيهقي في شعب الإيمان.

فائدة:

والحكمة في الترتيل التدبر في معاني القرآن والألفاظ بموعظة والخوف عند آية الوعيد والرجاء عند آية الوعد ونحو ذلك، روى البغوي عن ابن مسعود قال: لا تنتشروه نثر الدقل ولا تهزوه هز الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة، وعن حذيفة قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الليل فما مر بآية فيها ذكر

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: مد القراءة (٥٠٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء كيف كان قراءة النبي ﷺ (٢٩٢٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيل في القراءة (١٤٦٥)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت (١٠١٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن (٥٠٢٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٢).

الجنة إلا وقف وسأل الله الجنة وما مر بآية فيها ذكر النار إلا وقف وتعوذ من النار، وعن عبيد المليكي - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار وافشوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلكم تفلحون ولا تعجلوا هرابه فإن له ثواباً» رواه البيهقي في الشعب، وعن سهل بن سعد الساعدي قال: بينا نحن نقرأ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله كتاب الله واحد وفيكم الأخيار وفيكم الأحمر والأسود والأبيض اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرأونه يقيمون حروفه كما يقام السهم ولا يجاوز تراقيهم يتعجلون أجره ولا يتأجلونه»^(١) ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ قيل: المراد بالقول الثقيل الأمر بقيام الليل فإنه ثقيل شاق على النفس فهذه الجملة على هذا التأويل تذييل وتأکید لما سبق والسين حينئذ للتأكيد دون الاستقبال وقيل: المراد به القرآن قال محمد بن كعب القرآن ثقيل على المنافقين، قلت: فهو نظير قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ﴾^(٢) وقال الحسن بن الفضل ثقيل في الميزان قلت: نظير قوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحانه الله ويحمده سبحان الله العظيم»^(٣) متفق عليه عن أبي هريرة، وقال مقاتل ثقيل لما فيه من الأمر والنهي والحدود كذا قال قتادة وقال أبو العالية ثقيل بالوعد والوعيد وحاصل هذه الأقوال أنه لما فيه من التكاليف الشاقة والوعد والوعيد وذكر القيامة ثقيل على المكلفين لاسيما على الرسول الله ﷺ إذ كان عليه أن يتحملها ويحملها أمته ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «شيبتي سورة هود وأخواتها» رواه الطبراني عن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة، يعني لما فيه من قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾^(٤) أو لما فيه من ذكر القيامة وعذاب الأمم الماضية يدل عليه ما رواه الحاكم عن أبي بكر بلفظ «شيبتي سورة هود والواقعة والمرسلات وعم يساءلون وإذا الشمس كورت»^(٥) رواه الترمذي عن ابن عباس والحاكم عن أبي بكر وابن مردويه عن سعد ونحوه عن أنس رواه عبد الله بن أحمد بلفظ «شيبتي هود وأخواتها» لما فيها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم، وقيل: ثقيل

(١) رواه أحمد والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان. انظر: كنز العمال (٢٩٠٨١).

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).

(٤) سورة هود، الآية: ١١٢.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (٣٢٩٧).

على التأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفيته للسر وتجريد للنظر لرزاقته ومتانة معناه وهذا أوفق لما سبق وما لحق فإن الترتيل لأجل التدبر والتفهم وناشئة الليل أشد لمواطأة القلب اللسان، وقيل: ثقیل على باطن الصوفي وعظيمة فإن الخالق العظيم المتعالي يتجلى على قلب المخلوق يحقر السافل كذا قال الفراء حيث قال: ثقیل ليس بالخبيف ولا بالسفساف لأنه كلام ربنا، قال الشيخ الأجل الأكرم الهادي سبيل اليقين محبوب رب العالمين سيف الملة والدين أبد الأبدین إن علامة انكشاف حقيقة القرآن ورود ثقل عظیم على باطن السالك ومن ثم قال الله تعالى: ﴿سَلِّقْ عَلَيَّ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١) قلت: ويؤيده هذا المعرفة قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٢) وهذا معنى ما قيل ثقیل تلقیه رواه مسلم عن عبادة بن الصامت قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتريد وجهه^(٣) وفي رواية نكس رأسه وكس أصحابه رؤوسهم فلما أتلى عنه رفع رأسه، وفي الصحيحين عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً تأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً^(٤) متفق عليه. ويحتمل أن يقال: إنه ثقیل لما فيه من الأمر بالتوجه إلى الخلق لأجل الدعوة والتبليغ والإرشاد والتكميل بقوله تعالى: ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾^(٥) وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٦) بعدما كان متوجهاً إلى الله تعالى مشتغلاً به تعالى حيث كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو تعبد الليالي ذوات العدد وقبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها كذا في الصحيحين في حديث عائشة، ودرجة الإرشاد والتكميل وإن كان أفضل من درجة الاستكمال والخلوة لكنه قد

(١) سورة المزمل، الآية: ٥.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب حد الزنى (١٦٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: طيب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٣).

(٥) سورة المدثر، الآية: ٢.

(٦) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

يكون عند الصوفي على خلاف الطبع فيثقل عليه ويزعمها الصوفي في باديء الرأي أن هذا أحط مرتبة من التوجه إلى الله تعالى والخلوة به ولهذا قيل: الولاية به أفضل من النبوة يعني ولاية النبي أفضل من نبوة ذلك النبي زعماً من القائل أن في الولاية التوجه إلى الله سبحانه وفي النبوة التوجه إلى الخلق، وقال المجدد ألف ثاني عليه السلام ليس هذا القول مبنياً على التحقيق بل النبوة مطلقاً أفضل من الولاية وهي عبارة عند الصوفية عن السير في الذات والولاية عن السير في الصفات وشتان ما بينهما والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى يسمى في الاصطلاح بالعروج وإلى الخلق يسمى بالنزول وكلاهما يعترضان للصوفي في كلا السيرين غير أن النازل في مقام الولاية وإن كان له توجهاً إلى الخلق لكنه لم يبلغ في العروج غاية فهو ملتفت إلى الأعالي طمعاً لغاية الكمال والنازل في مقام النبوة لا يكون نازلاً إلا بعد ما يبلغ الكتاب في الكمال أجله فهو بكلية يتوجهه إلى الخلق للتكميل على مراد الله سبحانه وتعالى وإن كانت على خلاف مراده وطبعه فهو أفضل وأكمل وهذا الجهاد باق ما دامت هذه النشأة الثانية الباقية وبعد فراغ منها يتأدى بأملهم إلى الرفيق الأعلى فحينئذ يتوجه بكلية إلى الدرجات العلى وأجر من اهتدى به على سبيل الأكمل وبالأوفى والله تعالى أعلم. وجملة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي﴾ إما تذييل وتأکید لما سبق كما ذكرنا أو معترضة لبيان الحكمة في الأمر بقيام الليل فإن في القيام تمرين النفس على المشقة ومشق مخالقات الطبع أو لأن الصلاة كانت قرة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «جعلت قرة عيني في الصلاة»^(١) رواه أحمد والنسائي والبيهقي عن أنس، وقال: «أقم الصلاة يا بلال أرحنا بها»^(٢) رواه أبو داود عن رجل صحابي من خزاعة فحينئذ يكون في التهجد تحصيل ما يعالج به ثقل التوجه إلى الخلق أو لأن لقيام الليل تأثير التأثير نفسه لشريعة في نفوس الأمة كي يجيبوا دعوته حين يستمعوا قوله كما أجاب الجن دعوته حين يستمعوا القرآن أو لأن لقيام الليل مدخل في قيامه مقام الشفاعة لأنه حيث قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^(٣) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي مقام الليل مصدر جاء على فاعلة كعافية بمعنى العفو كذا قال الأزهري وقالت عائشة الناشئة قيام الليل بعد النوم فهو بمعنى التهجد، وقال ابن كيسان هي القيام من آخر الليل، وقال سعيد بن جبير وابن زيد أي ساعة قام من الليل فقد نشأ وهو بلسان الحبش نشأ فلان أي قام، وقال

(١) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في صلاة العتمة (٤٩٧٧).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

عكرمة هي القيام من أول الليل، قال البغوي روي عن علي بن الحسين عليهما السلام أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء الآخرة يقول: هذا ناشئة الليل والظاهر أن هذين القولين لا يلائمان هذا المقام فإنه عليه السلام كان مأمور القيام آخر الليل، وقال الحسن كل الصلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة وقيل: صفة الفاعل بمعناه والمراد النفس التي تنشأ من مضجعتها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض ساعات الليل كلها وكل ساعة منه ناشئة لأنها منشيء أي مبتدأ ومن نشأت السحابة وأبدت فكل ما حدث بالليل وبدأ فقد نشأ وهو ناشيء والجمع ناشئة، وقال ابن أبي ملكية سألت عن ابن عباس وابن الزبير عنها فقالا: الليل كلهما ناشئة فالإضافة حينئذ بيانية ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا﴾ قرأ ابن عامر وأبو عمر وبكسر الواو وفتح الطاء والمد بمعنى الموافقة أي هي أشد موافقة للقلب مع اللسان فإن ذلك يكون بالليل أكثر منه بالنهار وقرأ الجمهور بفتح الواو وسكون الطاء أي أشد ثقلاً من صلاة النهار لأن الليل للنوم والراحة منه قوله عليه السلام: «اللهم اشدد وطأتك على مضر»^(١) وإذا اعتاد المرء بأشد العبادات ثقلاً هان عليه مشقة سائر التكليف وكلما هو أشد وأثقل على النفس مع مراعاة السنة كان أكثر ثواباً وأثقل في الميزان وأشد تأثيراً في النفوس، وقال ابن عباس كانت صلواتهم أول الليل هي أشد وطأً بمعنى أجدر أن يحصوا ما فرض الله عليكم من القيام لأن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ، وقال قتادة أثبت في الخير وأحفظ للقراءة، وقال الفراء أثبت وطأً للقيام وأسهل للمضي من ساعات النهار لأن النهار خلق لتصرف العباد والليل للخلوة والعبادة، وقيل: أشد نشاطاً فإن من كان أشد على النفس ثقلاً كان ألد للصوفي وقال ابن زيد أفرغ له قلباً من النهار لأنه لا تعرض له بالليل حوائج وموانع وقال الحسن أشد وطأً في الخير وأمنع من الشيطان ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أثبت قراءة وأصح قولاً لهدأة وسكون الأصوات ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ والسبح سرعة الذهاب ومنه السباحة في الماء يعني إن لك بالنهار ذهاباً في مهامك ولدعوة الخلق وتبليغ الأحكام واشتغالاً بها فعليك بالتهجد فإن الليل أفرغ لها فهذا بمنزلة التعليل لما سبق.

فصل في فضائل صلاة الليل

عن أبي هريرة قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر»

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (٨٠٤).

له^(١) متفق عليه، وفي رواية لمسلم «ثم يبسط يديه ويقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم» وعن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله فيها خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ذلك كل ليلة»^(٢) رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الصلاة إلى صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثة وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً»^(٣) متفق عليه، وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة لكم إلى ربكم ومكفر للسيئات ومنهيات للإثم»^(٤) رواه الترمذي، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم الرجل إذا قام بالليل يصلي والقوم إذا صفوا في الصلاة وإذا صفوا في قتال العدو»^(٥) رواه البغوي في شرح السنة، وعن عمرو بن عيينة قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون الرب إلى العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»^(٦) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل» رواه البغوي في الشعب ﴿وَأَذْكُرْ أَنْتَ رَبَّكَ﴾ عطف على قم الليل والمراد به دوام الذكر ليلاً ونهاراً بحيث يطرق إليه الفتور ولا يلحقه الذهول وذا لا يتصور بالسلان فإن كل ما كان باللسان والجوارح من التسبيح والتحميد والصلاة والقراءة ونحو ذلك يتطرق إليه فتور النية فليس هو إلا ذكر القلب وهو حقيقة الذكر فإن الذكر عبارة عن طرد الغفلة كما يقتضيه المقابلة في قوله ﷺ: «ذاكر الله في الغافلين بمنزلة الصابرين في الغازين»^(٧) فكل صلاة وتسبيح وقراءة كان عن

- (١) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب والذكر في آخر الليل (٧٥٨).
 - (٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٧).
 - (٣) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: من نام عند السحر (١١٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً (١١٥٩).
 - (٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٤٩).
 - (٥) رواه أحمد وأبو يعلى، وقال عنه السيوطي. صحيح انظر الجامع الصغير (٣٥٥٥).
 - (٦) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٧٩).
 - (٧) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبخاري والأوسط وثقوا.
- انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: ذكر الله تعالى في الغافلين (١٦٧٩٣).

قلب لاه فلا يعتد به ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾^(١) وَإِنَّمَا قَلْنَا
 إن المراد عوام الذكر لأن العطف يتقضي المغايرة ومطلق الذكر يتضمنه قيام الليل وترتيل
 القرآن وحمل الكلام عليه أولى منه على التأكيد وقيل: معناه أن قل بسم الله الرحمن
 الرحيم عند ابتداء تلاوة القرآن.

مسألة:

أجمعوا على قراءة البسملة في أول الفاتحة وأول كل سورة ابتداء القارئ القراءة
 بها ولم يصلها بما قبلها سنة، واختلفوا في التسمية بين السورتين فكان ابن كثير وقالون
 وعاصم ييسملون بين كل سورتين في جميع القرآن ما خلا الأنفال وبراءة فإنه لا خلاف
 في ترك البسملة هناك والباقون لا ييسملون بين السور فأصحاب حمزة يصلون آخر كل
 سورة بأول الأخرى والمختار من مذهب ورش وعن أبي عمرو وابن عامر السكتة من غير
 قطع، وأما عند الابتداء بما بين السورة والقارئ فيه مخير بين التسمية وتركها في مذهب
 الجميع هذا في القراءة خارج الصلاة وأما إذا قرأه في الصلاة فقال الشافعي هي آية من
 الفاتحة ومن كل سورة فيجب قراءتها مع الفاتحة ويسن قراءتها مع غيرها ويسمل جهراً
 وقال الأئمة الثلاثة ليست هي جزءاً من شيء من السور، قال أبو حنيفة هي آية من القرآن
 نزلت للفصل فلا يقرأ البسملة وعند مالك في الصلاة أصلاً ولا مع الفاتحة ولا مع
 غيرها، وعند أبي حنيفة وأحمد يسن قراءتها مع الفاتحة سراً ولا يقرأ مع غيرها من السور
 وفي رواية عن محمد يستحب أن يقرأ سراً مع كل سورة وقد ذكرنا في تفسير سورة الفاتحة
 الحجة على أنها ليست من الفاتحة ولا من شيء من السور وأن النبي ﷺ والخلفاء
 الراشدين لم يجهروا بها في الصلاة، وقد ذكر الشافعية في الجهر بالتسمية تسعة أحاديث
 رواه دارقطني والخطيب أورد كلها ابن الجوزي، وقال ابن الجوزي قال الدارقطني كل ما
 روي عن النبي ﷺ في الجهر بالتسمية فليس بصحيح فأما عن الصحابة فمنه صحيح ومنه
 ضعيف، وقد روى أبو داود أن النبي ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وكان
 مسيلمة يدعى رحمن اليمامة فقال أهل مكة إنما يدعوا محمد الله يمامة فأمر الله رسوله
 فأخفاها حتى مات. وهذا يدل على أن يجهر بها، وقدم الجهر بالبسملة مروى عن أبي
 بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعمار بن ياسر وعبد الله بن مغفل وابن الزبير وابن
 عباس ومن كبار التابعين منهم الحسن والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وعمر بن
 عبد العزيز والأعمش والثوري وإنما يرون خلاف هذا عن معاوية وعطاء وطاوس ومجاهد

(١) سورة الماعون، الآية: ٤ - ٥.

كذا قال ابن الجوزي ﴿وَبَتَّلْ﴾ أي انقطع عما سواه ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى ﴿تَبْتِيلًا﴾ مصدر من غير بابه وضع موضع تبتلأ لرعاية الفواصل والإشارة إلى أن التبتل في الغالب أمر كسبي يحتاج إلى تعمق واجتهاد فالتبتيال مقدم على التبتل ومن ثم قال الحسن في تفسيرها اجتهد، وقال ابن زيد التبتل رخص الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله فكأنه قال: تبتل قلبك عما سوى ربك تبتيلاً فتبتل لله تعالى وليس المراد بالتبتل ترك الملاقاة بالناس أو التقصير في أداء حقوق العباد أو قطع نحو ذلك مما أمر الله به أن يوصل إذ لا رهبانية في الدين وإن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ولضيفك عليك حقاً بل المراد به قطع العلاقة الحسية والعلمية عن القلب وهو معنى القلب، قالت الصوفية العلية الطريق الذي نحن بصدهه قطعه خطوتان الخطوة الأولى الانقطاع عن الخلق والثانية الوصول إلى الحق وأحدهما لازم للآخر ومن ثم ذكر الله سبحانه كلا الخطوتين بالعطف بالواو الذي هي للجمع وقدم قوله: ﴿وَأَذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ﴾ الذي هو عبارة عن الوصول إلى الحق على التبتل لأنه هو المقصود بالتبتل وإنما قلنا إنه عبارة عن الوصول لأن الذكر الذي لا يتطرق إليه الفتور ولا يستعقبه الذهول هو العلم الحضوري إذ لا يتصور ذلك في العلم الحسولي بدهاءة والعلم الحضوري عبارة عن حضور نفس المعلوم عند العالم وذلك يعبر بدوام الحضور والوصول والاتصال والاتحاد والبقاء ونحو ذلك بألفاظ شتى وكانت الأوائل يعبرون عنها بالإخلاص قال ابن عباس وغيره في تفسير هذه الآية أخلص الله إخلاصاً وإنما قال: ﴿وَأَذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ﴾ ولم يقل واذكر ربك لأن الملازم للتبتل الذي هو المعبر بالفناء وإنما هو علم الأسماء والصفات دون العلم المتعلق بالذات فإنه بعد وراء وراء، ويحتمل أن يكون المراد بالذكر بالذكر باللسان بموافقة القلب وبدوام الذكر الدوام العرفي بمعنى الإكثار بقدر الطاقة البشرية وذلك يفضي إلى التبتل ووسيلة إليه بشرط الاجتناب عن الله تعالى كما يكون للأنبياء والأفراد من الأولياء أو جذب من الشيخ وعلى هذا وجه التقديم على التبتل أظهر تقدم طبعاً، واعلم أن على هذا التأويل في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى تكرير اسم الذات وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على قراءة الجبر إشارة إلى التصور إحاطته تعالى بالممكنات ذكر النفي والإثبات وكلا التكريرين أساسان بطريقة أرباب كمالات الولايات وعلى هذا التأويل يثبت المغايرة بين المعطوف عليه أعني قم الليل ورتل القرآن واذكر اسم ربك ويظهر أن كلاً من الأمور الأربعة الصلاة وتلاوة القرآن وذكر اسم الذات والنفي والإثبات مدار لحصول مراتب القرب والدرجات غير أن الأولين لأهل الانتهاء والآخرين لأهل الابتداء وإنما قدم الأولين على الآخرين لأن المخاطب أولاً هو النبي ﷺ وهو أكمل أهل الانتهاء والله تعالى أعلم ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو رب المشرق

والمغرب أو مبتدأ وخبره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ الباقون بالجر على البدل من ربك وقيل بإضمار حرف القسم وجوابه لا إله إلا هو ﴿فَاتَّخَذَهُ وَكَيْلًا﴾ الفاء للسببية فإن كونه رباً لجميع المخلوقات وتوحده بالألوهية يقتضي أن يوكل إليه الأمور كلها، وفي هذه الآية دفع توهم أن التبتل عن الخلق يوشك أن يخل في أموره المعاشية فإن الإنسان مدني الطبع لا يستغني بعضهم عن بعض فأبطل هذا الوهم بأنه تعالى رب المشرق والمغرب وما بينهما من العباد والبلاد وأفعالهم ومنافعهم والقلوب كلها بيده يصرفها كيف يشاء لا إله إلا هو لا يتصور النفع ولا الضرر من أحد إلا بإذنه وإرادته فاتخذته وكيلاً حسبك عن غيره ونعم الوكيل.

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وقال: قال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لم تمت حتى تستكمل رزقها ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» رواه البغوي في شرح السنة والبيهقي في الشعب، وعن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليس بتحريم الحلال وإضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا يكون بما في يديك أوثق مما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك»^(٢) رواه الترمذي، قال الشيخ الأجل إمامنا وقلبتنا يعقوب الكرخي إن من أول السورة إلى هذه الآية إشارة إلى مقامات السلوك من الخلوة بالليل والاشغال بالقرآن وذكر الرحمن ونفي ما سواه والتوكل به ثم أشار إلى أعلى مقامات السلوك وهو أبصر على جفاء الأعداء فقال:

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٧﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ﴿١٨﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَحَجِيبًا ﴿١٩﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٠﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّهِيلًا ﴿٢١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿٢٢﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿٢٣﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿٢٤﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۗ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿٢٥﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي الكفار من الخرافات فإنهم كانوا يقولون كاهن شاعر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين (٤١٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الزهادة في الدنيا (٢٣٤٠).

مجنون ﴿وَأَهْرَجَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأن تجانبهم ولا تكافئهم وتكل أمرهم إلى الله هذه الآية نسختها آية القتال ﴿وَدَّرَنِي﴾ أي دعني ﴿الْمَزِيلُ﴾ أي مع المكذبين فإن الواو بمعنى مع ولا يجوز أن يكون للعطف والمعنى كل أمرهم إلى فإن لي غنية عنك في مجازاتهم ولا يحزنك أقوالهم ﴿أُولَى النَّعْمَةِ﴾ أرباب النعمة يريد صناديد قريش ﴿وَمَهْلِكُ قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً أو إمهالاً قليلاً إلى أن يموتوا أو يأتي أمر الله بالقتال فيعذبهم بالله بأيديكم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم، قال مقاتل بن حبان: نزلت فيمن هلكوا بيدك فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى قتلوا بيدك ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ تعليل للأمر ﴿أَنْكَالًا﴾ النكل القيد الثقيل، أخرج البيهقي عن الحسن قال: الأنكال قيود من النار ﴿وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ غير مبالغة تأخذ بالحلقة لا تنزل ولا تخرج، أخرج ابن جرير وابن أبي الدنيا في صفة النار والحاكم والبيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال: شجرة الزقوم، وأخرج عبد الله بن أحمد عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الضريع شيء يكون في النار شبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار إذا أطمع صاحبه لا يدخل البطن ولا يرفع إلى الفم فيبقى بين ذلك لا يسمن ولا يغني من جوع» ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أخرج ابن أبي الدنيا عن حذيفة مرفوعاً «إنها لتسقط عليهم أي على أهل النار وحيات من النار وعقارب من نار ولو أن حية منها نفخت بالمشرق أحرق من في المغرب ولو أن عقرباً منها ضربت أهل الدنيا أحرقوا من آخرهم وإنها لتسقط عليهم فيكون بين لحومهم وجلودهم» وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب هو متعل بنعلين يغلي منهما دماغه»^(١) وأخرج مسلم عن النعمان بن بشير: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً» وأخرج الحاكم عن أبي هريرة نحوه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ ظرف لما في لدينا أنكالا من معنى الفعل والظاهر أن رجفة الأرض والجبال يكون قبل النفخة الأولى وعذاب الكفار بالأنكال والجحيم بعد البعث فوجه الظرفية أن يوم القيامة زمان ممتد مما قبل النفخة الأولى أن يدخل أهل الجنة وأهل النار النار ﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ عطف على ترجف، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أي رملاً سائلاً قال الكلبي هو الرمل الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿رَسُولًا﴾ في الكلام التفات فإن فيما سبق من الكلام كان الخطاب مع النبي ﷺ وذكر الكفار في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الخ إلى الغيبة وهذا خطاب مع الكفار وذكر

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أهون أهل النار عذاباً (٢١٢).

النبي ﷺ على الغيبة وفي هذا الكلام تأكيد لما سبق قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ومضمون هذه الآية إنا أرسلناك فمضمون الآيتين واحد.

﴿شَهَدًا عَلَيْكَ﴾ بالإجابة أو الامتناع ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ صفة لمصدر محذوف أي إرسالاً كإرسالنا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعن موسى ﷺ ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ موسى ﷺ ﴿فَأَخَذَتْهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ شديداً ثقيلاً بعد طعام وبيل أي ثقيل لا يستمرىء ومنه الوابل المطر العظيم أغرقه الله تعالى في البحر ثم أدخله في النار فكذا يفعل بكم إن تعصوا رسولكم ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾ يا أهل مكة برسولكم ﴿يَوْمًا﴾ أي عذاب يوم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وأعرب بإعرابه وظرف متعلق بتتقون أي كيف تتقون العذاب في يوم ويحتمل أن يكون مفعولاً لكفرتم أي كيف تتقون العذاب إن كفرتم يوماً أي بيوم ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ من شدة هوله وطول زمانه فإنه هذا على الغرض أو التمثيل وأصله إن بالهموم يضعف القوي يسرع الشيب وشيباً جمع أشيب كما أن بيضاً جمع أبيض عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله تعالى يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك قال: أخرج بعث النار قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف، ثم قال: والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»^(١) متفق عليه، وهذه الجملة صفة ليوم والعاثد ضمير الفاعل على المجاز كما في قولهم صام نهاره والعاثد محذوف لقديره يوماً يجعل الله فيه الولدان شيباً ﴿السَّمَاءَ﴾ عظمتها وإحكامها ﴿مُنْفِطِرًا﴾ منشق والتذكير على تأويل الشفق أو إضمار كلمة شيء أي شيء منفطر ﴿بِهِ﴾ أي بذلك اليوم أي بشدته فكيف غير السماء الجملة صفة ثانية ليوماً ﴿كَانَ وَعَدُّهُ مَفْعُولًا﴾ هذه الجملة صفة ثالثة ليوماً والوعد مصدر مضاف إلى ضمير المفعول العائد لى اليوم أو العائد محذوف والمصدر مضاف إلى الفاعل أي كان وعد الله بالعذاب فيه مفعولاً أو رد الجملتين معطوفتين بغير العطف على طريقة: ﴿الرَّحْمَنُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون هذه الآية نصف أهل الجنة (٢٢١).

﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الآيات نلقيه عليك ﴿تَذَكُّرَةً﴾ تذكر العباد المبدأ والمعاد وتوضيح السبيل الموصل إلى الله تعالى إلى جوده وإلى إنعامه ورضوانه والرشاد ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ التذكر وسلوك السبيل إلى ربه ﴿أَتَّخَذَ لَكَ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ الفاء للسببية أي ليس السبيل إلى الله تعالى إلا التذكرة فإنه سبحانه أقرب إلينا من أنفسنا وليس الحجاب بيننا إلا حجاب الغفلة وحجاب العظمة والكبرياء منه تعالى، وإلى تلك الحجب أشار النبي ﷺ: «إن الله تعالى سبعون ألف حجاباً من نور» وظلمة فحجب العظمة والكبرياء حجب نورانية قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»^(١) وحجب الغفلة العباد حجب ظلمانية لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وكشف تلك الحجب يتيسر بالتذكير فإن التذكير يذيل الغفلة ويستوجب المحبة للمعية كما قال رسول الله ﷺ «المرء مع من أحب»^(٢) فالمحبة يفضي المحب إلى المحبوب بحيث الأتقنة سرادقات العظمة والكبرياء وإحراق سبحات الوجه كناية عن الفناء والبقاء وإن كان ذلك في مرتبة العلم، قيل: الجملة مضمونها التحير وهو مجاز عن التهديد.

﴿٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي الثَّلَاثِ وَيَضَعُكَ وتُلْتَمِهُ وَطَافِقُهُ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَأَنَّكَ يُقَدِّرُ الثَّلَاثَ وَالْثَمَانَةَ عَلِيمٌ أَن لَّنْ نُّحْضِرَهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا نَتَسَّرُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمٌ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَصْرِيحُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مَن فَضَّلَ اللَّهُ وَءَاخِرُونَ يَقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا نَتَسَّرُ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ تَابُوا عِنْدَ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أي أقرب ﴿مِن ثُلُثِي الثَّلَاثِ﴾ قرأ هشام بسكون اللام والباقون بضمها ﴿وَيَضَعُكَ وتُلْتَمِهُ وَطَافِقُهُ﴾ قرأ ابن كثير والكوفيون بنصبهما عطفاً على أدنى يعني تقوم أقرب من الثلثين وتقوم النصف وتقوم الثلث والباقون بجرهما يعني أقرب من النصف ومن الثلث وهذه القراءة تدل على القيام أقل من الثلث فوق الربع وإنما قلنا فوق الربع لما ذكرنا فيما قبل إن قوله تعالى: ﴿أَوْ أَتَقَسَّ مِنْهُ قَلِيلًا﴾^(٣) يقتضي أن يكون القيام فوق الربع ﴿وَطَافِقُهُ﴾ عطف على فاعل تقوم ﴿مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي جماعة أصحابك يقومون على ذلك

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨).

(٣) سورة المزمل، الآية: ٣.

المقدار اقتداء لستك كذا قال البيضاوي، قال البغوي في تفسيره يعني المؤمنين كانوا يقومون معه وهذا التأويل بعيد جداً فإن الذين معه هم المؤمنون دون الكفار وكما في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(١) فكلمة من للتبعيض يدل على أن القائمين كانوا بعض الصحابة دون كلهم ﴿وَاللَّهُ يُعَذِّبُ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ﴾ عطف على أن ربك فيه وضع المظهر موضع المضممر تقديره وهو مقدر الليل والنهار أي يعلم مقاديرهما كما هي وأنتم لا تعلمون كما هي، قال البيضاوي تقديم اسم الله مبتدأ مبنياً عليه يقدر يشعر بالاختصاص وهي مذهب عبد القاهر والزمخشري دون السكاكي ﴿عَلِمَ أَنَّ﴾ مخففة واسمها ضمير الشأن محذوف ﴿لَنْ تُخْصَوْهُ﴾ أي تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ومن ثم ربط وجوب الصلاة الخمس بأمور ظاهرة كطلوع الصبح والشمس وزوالها وغروبها وقدر الظل وغروب الشفق ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي رجع عليكم من التشديد إلى التخفيف فأسقط عنك ذلك القدر كيلا يشق على أمتك التأسى به ﴿فَأَقْرَأُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ الفاء للسببية ومعناه صلوا ما تيسر من الصلاة بالليل عبر الصلاة بالقرآن ها هنا كما عبر بالقيام فيما سبق تسمية الكل باسم الجزء، فهذه الآية يقتضي كون القراءة ركناً للصلاة كما يقتضي تلك الآية بركنية القيام وعلى هذا العقد الإجماع أيضاً فهذه الآية نسخ قيام الليل ذلك المقدار وبقي مطلق القيام بالليل واجباً ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس فصار تطوعاً بعد فريضة يدل على ذلك ما ذكر من قول عائشة وابن عباس ومقاتل وابن كيسان قلت: على تقدير كون القيام بالليل واجباً في الابتداء على النبي ﷺ وعلى أمته فكون ذلك منسوخاً في حق أمته أمر مجمع عليه، وأما كونه منسوخاً في حق النبي ﷺ سواء كان في الابتداء واجباً عليه خاصة أو عليه وعلى أمته عامة فقد اختلف فيه فقيل لم ينسخ في حق النبي ﷺ بل كان قيام الليل واجباً عليه ﷺ خاصة إلى آخر عمره وقيل: بل نسخ عنه ﷺ أيضاً وكان عليه الصلاة نافلة وهو الصحيح المختار عندي ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾^(٢) فإنه صريح في كونه نافلة. فإن قيل: معنى النافلة الزائدة يعني زائدة في الوجوب عليك لا على أمتك؟ قلت: لو كان كذلك يقال عليك فإن صلة الوجوب تكون على دون اللام. فإن قيل: في وجه تخصيصه به عليه الصلاة والسلام فإنها نافلة لجميع الناس غير ممنوعة عن أحد؟ قلنا: وجه التخصيص على ما روي عن مجاهد والحسن وأبي أمامة أن تسميتها نافلة في حقه ﷺ خاصة باعتبار كونها عامة في رفع الدرجات بخلاف غيره فإنها في حق

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

غيره نافلة في تكفير السيئات غالباً ويدل أيضاً على كون قيام الليل تطوعاً في حق النبي ﷺ حديث المغيرة قال قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه فقيل له لم تصنع هذا وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١) ولم يقل إنها فريضة علي خاصة وحديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلي في السفر على راحلته حيث توجهت به يومئذ إيماءً صلاة الليل إلا الفرائض ويوتر على راحلته متفق عليه.

مسألة:

اختلفوا في أن صلاة الليل في حق الأمة من سنن الهدى المؤكدات أو من المستحبات؟ فقيل: هي مندوب في حقنا وهذا قول من قال هي كانت فريضة على النبي ﷺ حتى مات قالوا: الأدلة القولية تفيد الندب والمواظبة الفعلية لم يكن على سبيل التطوع والسنة ما واظب عليه النبي ﷺ من التطوع والمختار عندي أنها من سنن الهدى كما ذكرنا أن مواظبته ﷺ كان على وجه التطوع وعلى تقدير تسليم كون المواظبة على سبيل الوجوب فمواظبته ﷺ أي وجه كان يقتضي كون الفعل مسنوناً ما لم يكن ممنوعاً في حق غيره كصوم الوصال مثلاً، ومما دل على كونه سنة مؤكدة حديث ابن مسعود قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل فقيل له ما زال نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة قال: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه أو قال: في أذنيه»^(٢) متفق عليه، فإن ترك المندوب لا يستحق عليه اللوم والعتاب والله تعالى أعلم. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْسَرُ مِنْ الْقُرْآنِ﴾ القرآن في الصلوات الخمس، وقال الحسن يعني في صلاة المغرب والعشاء، قال البغوي قال قيس بن حازم صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة ثم قام في الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة ثم ركع فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: «إن الله عز وجل يقول فاقروا ما تيسر منه» ويحتمل أن يكون المراد منه فاقروا القرآن بعينه كيف ما تيسر لكم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (٤٨٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه (١١٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (٧٧٤).

مسألة:

اختلفوا في مقدار القراءة التي لا يجوز الصلاة إلا بها ومقدار الواجب منها في الصلاة؟ فقال أبو حنيفة في إحدى الروايات عنه إن ما هو ركن للصلاة ولا يصح الصلاة إلا به هو أدنى ما يطلق عليه اسم القرآن ولم يشبه قصد الخطاب واحداً ونحوه وتقتضي هذه الروايات الجواز بدون الآية وبه جزم القدوري وفي رواية عنه وعن أحمد هو آية تامة لا يجوز الصلاة بما دون ذلك واختاره صاحب الهداية وفي رواية عنه وبه قال أبو يوسف ومحمد أنه ثلاث آيات قصار مثل سورة الكوثر أوية طويلة تساوي الثلاث لكن يجب عند أبي حنيفة وصاحبيه قراءة الفاتحة وقدر سورة معه فإن ترك شيئاً منها يجب سجدة السهو إن كان ترك سهواً فإن لم يسجد وترك عمداً يأثم ويجب عليه الإعادة من غير افتراض، وقال مالك والشافعي وأحمد لا تصح الصلاة إلا بفاتحة الكتاب وسن عندهم ضم السورة ولا يجب احتجوا بقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(١) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت ورواه الدارقطني بلفظ «لا تجوز صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وقال: إسناده صحيح رواه ابن خزيمة وابن حبان بهذه اللفظ من حديث أبي هريرة وفيه قال الراوي قلت: إن كنت خلف الإمام؟ قال: فأخذ بيدي وقال: اقرأ بها في نفسك، وروى مسلم وأحمد عن أبي هريرة بلفظ «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج هي خداج غير تمام» فقلت: يا أبا هريرة أحياناً أكون وراء الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي، وروى الحاكم من طريق أشهب عن أبي عتبة عن أبي هريرة عن محمد بن الربيع عن عبادة مرفوعاً «أم القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها عوضاً عنها» وبما ذكرنا من اختلاف ألفاظ الحديث ظهر لك اندفاع ما قيل إن معنى قوله: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» صلاة كاملة كما في قوله ﷺ: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»^(٢) لأن هذا التأويل لا يجري في أكثر ما ذكرنا من الألفاظ على أن متعلق الجار والمجرور الواقع خبراً لا يقدر إلا عاماً أي لا صلاة كائنة وعدم الوجود شرعاً هو عدم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (٧٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤).

(٢) رواه الدارقطني والحاكم والطبراني بأسانيد ضعيفة. وقال الصنعاني: موضوع، ورواه الشافعي وابن أبي شيبة موقوفاً.

انظر: كشف الخفاء (٣٠٧٣).

الصحة غير أن في حديث لا صلاة إلا في المسجد لما قام الدليل عليه وهو الإجماع، قلنا: المراد هناك كون خاص أي كاملة فهو من باب حذف الخبر لا من باب وقوع الجار والمجرور خبراً وما مرفي تفسير سورة الفاتحة حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»^(١) الحديث يدل على أن الصلاة لا يكون إلا بفاتحة الكتاب وأبو حنيفة أخذ بهذا الحديث قال: بوجوب الفاتحة في الصلاة ووجوب ضم السورة أيضاً لما روي في بعض الروايات «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب فصاعداً»^(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن حبان وروى ابن ماجه عن أبي سعيد بلفظ «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها» وإسناده ضعيف ولأبي داود من طريق همام عن قتادة عن أبي بصر عن أبي سعيد قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر^(٣) وإسناده صحيح ولم يقل أبو حنيفة بكون الفاتحة ركناً للصلاة بحيث لا يجوز الصلاة إلا بها عملاً بهذه الآية: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ قال صاحب الهداية الزيادة على الكتاب القطعي غير الواحد لا يجوز لكنه يوجب العمل فقلنا بوجوبها والصحيح عندي أن الفاتحة وكذا ضم السورة ركن للصلاة لا يجوز الصلاة إلا بهما الاستدلال بهذه الآية على نفي الركنية لا يصح لأن الظاهر في تأويل الآية كما ذكرنا أن المراد بالقراءة نفس الصلاة بالليل ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ﴾ أنه خفف عنكم في قيام الليل فصلوا ما تيسر لكم الصلاة فلا دلالة بهذه الآية على قدر القراءة وما لا بد منه، وما قيل في تأويله أنه ما تيسر من القرآن في الصلوات الخمس فتأويل بعيد واحتمال ضعيف والاحتمال لا يتصور كونه حجة للوجوب فكيف يحكم عليه بكونه قطعياً لا يجوز الزيادة عليه بخبر الواحد كيف والحديث تلقته الأمة بالقبول وانعقد الإجماع على العمل به وتوارث النقل وتواتر المعنى أن النبي ﷺ واحد من السلف والخلف لم يصل بغير الفاتحة وبمثل هذا الخبر والنقل المتوارث يزداد على الكتاب إجماعاً على أن الصلاة مجمل وأحاديث الآحاد يحتمل أن يكون بياناً للمجمل ويبين أركاناً لها ولقد قالت الحنفية القعدة الآخرة واستدلوا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في تحريم الصلاة وتحليلها (٢٣٦).
أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب (٨١٦).

عليه بحديث ابن مسعود رضي الله عنه في التشهد «إذا قلت هذا أو فعلت هذا فقد تمت صلاتك إن شئت أن تقوم فقم وإن شئت أن تقعد فاقعد»^(١) قالوا: علق التمام بأحد الأمرين فهو فرض مع أن الحديث من الأحاد أيضاً والله تعالى أعلم. وقد يستدل الحنفية على عدم ركنية الفاتحة بحديث أبي هريرة في قصة المسيء صلاته أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر من القرآن»^(٢) الحديث متفق عليه، والجواب أن هذا الحديث وجوب القراءة مطلقاً وما مر من قوله ﷺ: «إلا بفاتحة الكتاب» يدل التعمين فالعمل بالحديثين بحمل المطلق على المقيد قلنا بركنية الفاتحة وقد ورد في بعض طرق حديث المسيء صلاته بلفظ «فكبر ثم اقرأ بأمر القرآن ثم اقرأ بما شئت به» الحديث رواه أحمد من حديث رفاعة بن رافع ورواه الدارقطني من حديثه بلفظ «ثم يكبر الله ويثني عليه ثم يقرأ بأمر القرآن وما أذن له فيه وما تيسر» الحديث.

مسألة:

هل يجب القراءة على المقتدي أم لا؟ فقال الشافعي يجب عليه قراءة الفاتحة كالإمام والمنفرد قال كذا روي عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس ومعاذ وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد لا يجب، ثم اختلفوا فقال أبو حنيفة يكره مطلقاً وقال مالك وأحمد يكره في الجهرية فقط وقال أحمد يستحب في السرية وكذا في الجهرية عند سكتات الإمام إن سكت لا مع قراءته وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك ويروى ذلك عن ابن عمر وعروة بن الزبير وأبو القاسم بن محمد، وجه القول بسقوط القراءة عن المقتدي حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام قراءة له» رواه أحمد والدارقطني من طريق جابر الجعفي وضعفه الدارقطني وقال ابن الجوزي وثقه الثوري وشعبة ورواه الدارقطني من طريق آخر وفيه ليث وقال: ضعفه ابن عليه وقال أحمد حدث عن الناس ومن طريق آخر يحيى بن سلام بلفظة «كل صلاة لا يقرأ فيها بأمر الكتاب فهي خداج إلا أن يكون وراء الإمام» قال الدارقطني يحيى بن سلام ضعيف وقال ابن الجوزي لم تر أحداً ضعفه قال الدارقطني والبيهقي وابن عدي الصحيح أنه مرسل فإن الحفاظ كسفيانين وأبي الأحوص وشعبة وإسرائيل وشريك وابن خلد الدالاني وجريز وعبد الحميد وزائدة وزهير

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود (٨٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (٧٦٠)،

وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة

رووه عن موسى عن عائشة عن عبد الله بن شداد عن النبي ﷺ مرسلًا، قلنا: المرسل عندنا حجة وما ذكر في الطرق المتصلة قد سمعت أن ابن الجوزي أنكر تضعيفه على أنه قد رواه أبو حنيفة بسند صحيح على شرط الشيخين روى محمد في موطأه أنا أبو حنيفة ثنا أبو الحسن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر عن النبي ﷺ وروى أحمد بن منيع في مسنده بسند صحيح على شرط مسلم قال: أنا إسحاق الأزرق ثنا سفيان وشريك عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر وفي الباب أحاديث أخر ضعيفة لم نذكرها كراهة الإطناب. فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ عام في المصلين فلا يجوز تخصيصه بخبر الآحاد على أصل أبي حنيفة؟ قلنا: هي عام خص منه البعض وهو المدرك في الركوع إجماعاً فجاز تخصيصها بعده في المقتدي ووجه القول بالاستحباب في السرية حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقرآن أحد منكم شيئاً من القرآن إذا جهرت بالقراءة إلا أم القرآن» رواه الدارقطني وقال: رجاله كلهم ثقات فتخصيص المنع بالجهرية يقتضي الاستحباب في السرية واستثناء أم القرآن يقتضي قراءتها عند السكّات جمعاً بين الأحاديث وعملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(١) والله تعالى أعلم. وروي عن جماعة من الصحابة ترك القرآن خلف الإمام رواه مالك في الموطأ عن نافع عن ابن عمر أنه كان لا يقرأ خلف الإمام وروى الطحاوي عن زيد بن ثابت وجابر قالوا: لا تقرأ خلف الإمام في شيء من الصلاة، وروى محمد في الموطأ أنه سئل ابن مسعود عن القراءة خلف الإمام قال أنصت فإن في الصلاة شغلاً ويكفيك الإمام، وروى محمد بن سعد قال: وددت الذي يقرأ خلف الإمام في فيه جمرة وروى نحو عبد الرزاق إلا أنه قال: في فيه حجر، وروى محمد عن داود بن قيس عن عجلان أن عمر بن الخطاب قال: ليت في فم الذي يقرأ خلف الإمام حجراً وروى ابن أبي شيبه في مصنفه عن جابر قال: لا يقرأ خلف الإمام إن جهر ولا إن خفت وهذه الأقوال وجه الكراهة في الجهرية بل في السرية أيضاً بإطلاقها وأيضاً ترك القراءة في الجهرية مقتضى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(٢) وقوله ﷺ: «إذا قرأ فانصتوا»^(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وسنذكر تفسير تلك الآية إن شاء الله تعالى.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: التشهد (٩٧٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تأويل قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ (٩١٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: إذا قرأ الإمام فانصتوا (٨٤٦).

مسألة:

هل يجب القراءة في كل ركعة من فرض ونفل؟ فقال الشافعي وأحمد ومالك يجب في كل ركعة مطلقاً لأن الأمر بالقراءة كالأمر بالركوع والسجود وغير أنه في رواية عن مالك إن ترك القراءة في ركعة واحدة من الفرض الثلاثي والرباعي ينجر بسجود السهو، وقال أبو حنيفة في الوتر والنفل يجب في كل ركعة ولا يجبر بالسجود فإن كل شفعة من صلاة وأما في الفرض فلا يجب إلا في الركعتين وكان القياس وجوبها في ركعة واحدة لأن الأمر لا يقتضي التكرار ولكن قلنا القراءة وقدرها فلا يلتحقان بهما وهذا الكلام يتوقف على كون المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَقْرئُوا مَا نَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ في القراءة في الصلاة وذلك ممنوع. وللجمهور حديث أبي هريرة قال: دخل رجل المسجد فصلى والنبى ﷺ في المسجد ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه فرد عليه السلام وقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» ففعل ذلك ثلاث مرات فقال: والذي بعثك بالحق نبياً ما أحسن غير هذا فعلمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن حتى تطمئن راعياً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً» وفي رواية «ثم ارفع حتى تستوي قائماً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»^(١) متفق عليه، حديث رفاة نحوه رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وحديث أبي قتادة أن النبي ﷺ كان يصلي فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين وفي الركعتين الأخريين بأم القرآن وكان يطيل أول ركعة من صلاة الفجر وأول ركعة من صلاة الظهر متفق عليه، وهذا الحديث مع قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٢) التحق بياناً بمجمل الكتاب وحديث أبي الدرداء أن رجلاً قال: يا رسول الله أفي كل صلاة قرآن؟ قال: نعم، فقال رجل من الأنصار وجبت هذه^(٣) فإن قيل: هذه الأحاديث من الآحاد ولا يجوز به الزيادة على الكتاب؟ أجيب: بأنه على تقدير تسليم هذه المسألة الأصولية نقول بأن هذا الحكم إنما هو إذا كان الكتاب قطعي الدلالة وقوله تعالى فاقروا ليس بل يحتمل

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة (٧٩٣)، باب: حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (٧٦٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة (٦٠٥).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: اكتفاء المأموم بقراءة الإمام (٩١٧).

وجوه التأويل وإن القراءة المأمور بها في الصلاة مجمل يجوز أن يلتحق أحاديث الآحاد بها بياناً والله تعالى أعلم ﴿عَلِمَ﴾ الله ﴿أَنَّ﴾ مخففة من المثقلة وضمير الشأن محذوف ﴿سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى﴾ بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ وتكرار فاقروا للتأكيد وقيل: استئناف لبيان حكمة أخرى مقتضية للتخفيف ولذلك كرر الحكم مرتباً عليه ﴿وَأَخْرُونَ﴾ عطف على اسم يكون ﴿يَضْرِبُونَ﴾ أي يسافرون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للتجارة أو لتحصيل العلم والحجج ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من ضمير يضربون ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الريح في التجارة أو العلم والثواب ﴿وَأَخْرُونَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا يطيقون هؤلاء الأصناف سنة قيام الليل، ذكر البغوي عن إبراهيم عن ابن مسعود قال: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشهداء ثم قرأ عبد الله ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْتَرِ مِنْهُ﴾ أي من القرآن. فإن قيل: كلمة ما عام شامل يشتمل جميع ما تيسر فيلزم أن يكون المأمور به ذلك؟ قلنا: سوق الكلام يقتضي تخيير المكلفين في جميع أفراد ما تيسر فأبي فرد منها أتى به فقد أتى بالمأمور به.

مسألة:

ويستحب القصد في العمل والتوسط دون الإفراط والتفريط ويستحب المواظبة على المتوسط دون الإفراط تارة وترك أخرى وأدنى المتوسط يقرأ خمسين آية ومائة وأكثره ألف آية حتى يكون الختم في الأسبوع أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ فاقروا ما تيسر منه قال: مائة آية قال ابن كثير غريب جداً، وروى البغوي بسنده عن أنس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ خمسين آية في يوم وليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر»^(١) وروى الدارمي عن الحسن مرسلأ أن النبي ﷺ قال: «من قرأ في ليلة مائة آية لم يحاجه القرآن تلك الليلة ومن قرأ في ليلة مائتي آية كتب له قنوت ليلة من قرأ خمسمائة آية إلى ألف له صحيح فله قنطار من الأجر، قالوا: وما القنطار؟ قال: اثني عشر ألف درجة» وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر قال: قلت إنني أجد قوة قال فاقراه في عشرين ليلة قال: قلت: إنني

(١) رواه محمد بن نصر وابن السني في عمل اليوم والليلة. انظر كنز العمال (٢١٤٦٥).

أجد قوة قال: فاقراً في سبع ولا تزد على ذلك»^(١) وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(٢) وفيهما عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا» وفيهما عن أنس قال رسول الله ﷺ: «ليصل أحدكم نشاطه وإذا فتر فليقعد» وفيهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعت أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه»^(٣) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة الجملة مع ما عطف عليه معطوفة على فاقروا وكلمة الواو للجمعية فهذا العطف يقتضي أن قيام الليل بما تيسر من القرآن لم ينسخ بالصلوات الخمس كما قيل فثبت أن الأمر كان للندب دون الوجوب والله تعالى أعلم ﴿وَعَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ﴾ قال ابن عباس المراد به الإنفاق سوى الزكاة من صلة الرحم وقرى الضيف، قلت: ويحتمل أن يكون المراد به مطلق الطاعات لله تعالى وأن يكون المراد به الزكاة على أحسن الوجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَرَضًا﴾ مفعول مطلق من قبيل أنبته الله نباتاً ﴿حَسَنًا﴾ صفة للصمدر وفيه ترغيب لوعده العوض ﴿وَمَا تَقْلِبُوا لَأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ﴾ عبادة بدنية أو ما فيه شرط جزاءه ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت ومن متاع الدنيا وخيراً ثاني مفعولي تجدوه وهو الضمير الفصل لا محل له من الإعراب لأن أفعل من حكمه حكم المعرفة فلذلك يمتنع من حرف التعريف، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟ قالوا: ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال: اعلمو ما تقولون قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله قال: ما منكم رجل إلا مال وارثه أحب إليه من ماله قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر^(٤) رواه البغوي ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ لذنوبكم، الجملة معطوفة على أقيموا الصلاة

- (١) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً (١١٥٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في كم يقرأ القرآن (١٣٨٧).
- (٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (٧٨٣).
- (٣) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً (٢٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: أمر من نعت في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك (٧٨٦).
- (٤) أخرجه النسائي في كتاب: الوصايا، باب: الكراهة في تأخير الوصية (٣٦٠٥).

الخ، وفيه إشارة إلى أن الإنسان لا يعتبر بأعمال البر ولا يتكل عليه بل لا بد مع ذلك من الاستغفار فإن ما صدر منه من الطاعات قلما يخلو من التقصيرات، ثم كلها صدر من العبد وإن جل فهو بالنسبة إلى جناب قدسه وجلالته وعظمته لا يليق به تعالى ما لم ينضم معه الاعتراف بالعجز والقصور والذل ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ عن تقصيراتكم ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل.

سورة المدثر

مكية وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَذِّبْ ﴿٣﴾ وَيُنَادِيكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَسْنَنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نَفَرْنَا فِي السَّمَاءِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَيْدٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَيْدٌ يُبْصِرُ ﴿١٠﴾﴾

روى الشيخان في الصحيحين عن يحيى بن كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ قلت يقولون: ﴿أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ قال أبو سلمة سألت جابراً عن ذلك وقلت: له مثل الذي قلت لي، فقال لي: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء شهراً فلما قضيت هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت عن خلف فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني وصبوا علي ماء بارداً فنزلت: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَذِّبْ ﴿٣﴾ وَيُنَادِيكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ وذلك قبل أن تفرض الصلاة^(١). قلت: والمرفوع من الحديث لا يدل على نزول هذه السورة قبل اقرأ والصحيح أن نزول اقرأ قبل ذلك كما سنذكر في شأن نزوله في تلك السورة إن شاء الله تعالى، ويدل على هذا ما رواه الشيخان عن جابر أيضاً أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي نبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاء في بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئت فيه رعباً حتى هويت الأرض فجئت أهلي فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَذِّبْ ﴿٣﴾ وَيُنَادِيكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ ثم حمي الوحي وتتابع. فإن هذه الرواية

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المدثر (٤٩٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦١).

صريحة في أن نزول سورة المدثر بعد فترة الوحي وكان رؤية الملك بحراء قبل ذلك، وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا قالوا: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم ساحر وقال بعضهم ليس بساحر وقال بعضهم كاهن وقال بعضهم ليس بكاهن وقال بعضهم شاعر وقال بعضهم ليس بشاعر وقال بعضهم سحر يوثر فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن ورفع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الْمَدْيَنَ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ ﴿يَأْتِيَا الْمَدْيَنَ ﴿١﴾﴾ ﴿قُرْ﴾ من مضجعك أو قم قيام عزم وجد ﴿فَأَنْذِرْ﴾ حذف المفعول ليدل على التعميم يعني أنذر الناس أجمعين بعذاب العالمين لمن أشرك به ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ الفاء فيه وفيما بعده لإفادة معنى الشرط تقديره أما ربك فكبر يعني مهما يمكن من شيء وكنت على أي حال فكبر ربك، قلت: ويحتمل أن يكون تقديره وكبر ربك فكبره والغرض بالتكرار استمرار نفسه عليه ومعنى كبر عظمه عن الحديث وعن سمات النقص والزوال وعن التشريك في وجوب الوجود والألوهية والتشريك في العبادة والتشبيه بشيء من الممكنات في شيء من الذات والصفات والأفعال وصفه بأوصاف الكمال ما لا يتصف به غيره وهذا أول ما يجب على الإنسان وأهم من جميع الواجبات ولا يختص العفو والسقوط ويحكم به العقل قبل النقل لكن العقل غير كاف في دركه كما ينبغي.

مسألة:

احتج الفقهاء لهذه الآية على فرضية التكبير لتحريم الصلاة لكن قال أبو حنيفة ومحمد إنها تنعقد بكل لفظ يوجب التعظيم نحو الله أجل والله أعظم ولا إله إلا الله والرحمن أكبر وغير ذلك لا بلفظة الله أكبر وحدها لأن المأمور به التكبير وهو التعظيم، وقال أبو يوسف إن كان يحسن أن يقول الله أكبر فلا يجزئه إلا ذاك أو الله الأكبر أو الله الكبير لأن الألف واللام أبلغ في الثناء وأفعل وفعل في أوصافه سواء، وقال الشافعي لا يجوز إلا الله أكبر والله الأكبر وقال مالك وأحمد لا يجوز إلا الله أكبر فقط، والصحيح أن هذه الآية ليست في تكبير التحريم كما في الصحيحين أن أول القرآن نزولاً وذلك قبل أن تفرض الصلاة والقول بأن التكبير لم يجب خارج الصلاة وأصل الأمر للوجوب بالثابت بهذه الآية وجوبها في الصلاة ممنوع بل التحقيق أن التكبير هو التوحيد أول ما يجب على الإنسان ولا يحتمل السقوط والتحقيق في باب التحريم أن الصلاة مجمل الحق بها فعل النبي ﷺ بياناً وقد تواتر صيغة الله أكبر للتحريم ولم ينقل عنه ﷺ ولا عن أحد من الصحابة شروع الصلاة بغير ذلك ولو كان الشروع بغير ذلك جائزاً لفعل ذلك للجواز فظهر

أنه بعينه هو الفريضة لا غير وقد ورد في بعض طرق حديث رفاة عن النبي ﷺ قال: «لا يقبل الله صلاة أمرىء حتى يسبغ الوضوء ثم يستقبل ويقول الله أكبر» ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال قتادة ومجاهد نفسك فطهرها من الذنب كنى عن النفس بالشوب وهو قول إبراهيم والضحاك والشعبي والزهري وقال عكرمة سأل عن ابن عباس عن قوله: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: لا تلبسها على معصية وعلى عذرة ثم قال: سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من عذرة أتقنع وكذا قال أبي بن كعب، وروي عن الضحاك معناه عملك فأصلح، وقال السدي يقال للرجل إذا كان صالحاً إنه طاهر الثياب وإذا كان فاجراً إنه لخبيث الثياب، وقال سعيد بن جبير وقلبك وبيتك فطهر، وقال الحسن وخلفك فحسن، وقال ابن سيرين وابن زيد أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا يجوز الصلاة معها وذلك أن المشركين لا يتطهرون ثيابهم، وقال طاووس وثيابك فقصر لأن تقصير الثوب طهارة لها، قلت: والظاهر عندي أنه أمر بتطهير الثياب فالواجب بالمنطوق وعبارة النص إنما هو تطهير الثوب وبدلالة النص يجب تطهير البدن بالطريق الأولى فإن الله سبحانه القدوس المطهر الطاهر لما لم يرض بنجاسة الثوب فكيف يرضى بنجاسة البدن وهو فوق ذلك وأقرب منه وبنجاسة النفس أو القلب فإنه أقرب من البدن إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

مسألة:

احتج الفقهاء بهذه الآية لاشتراط طهارة الثوب والمكان والبدن عن النجاسة الحقيقية للصلاة والصحيح عندي أنه لا دلالة على اشتراطها للصلاة بل على وجوب الطهارة الثلاث في جميع الأحوال لكن انعقد الإجماع على اشتراطها للصلاة، والسند للإجماع أنه ثبت بحكم التنزيل الطهارة من الأحداث فيجب الطهارة عن الأخباث بالطريق الأولى قال الله تعالى في آية الوضوء ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾^(١) وقال الله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكِنِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٢) والله تعالى أعلم، عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنما يعذبان وما يعذبان في كبيرة أما أحدهما فكان لا يستتر من البول» وفي رواية لمسلم «لا يستنزه من البول وأما

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

الآخر فكان يمشي بالنميمة»^(١) الحديث متفق عليه ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْبِجْ﴾ ﴿٦﴾ قرأ أبو جعفر وحفص عن عاصم ويعقوب الرجز بضم الراء والباقون بكسرها وهما لغتان ومعناهما واحد، قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد وأبو سلمة المراد بالرجز الأوثان قال فاهجرها ولا تقربها، وروي عن ابن عباس أن معناه اترك لإثم، وقال أبو العالية والربيع الرجز بضم الراء الصنم وبالكسر النجاسة والمعصية، وقال الضحاك يعني الشرك، وقال الكلبي يعني العذاب يعني اهجر ما يوجب العذاب من العقائد والأعمال ﴿وَلَا تَمُنَّ بِشَيْءٍ طَمَعًا لِمَجَازَاةِ الدُّنْيَا بَلْ لُجْهَ اللَّهِ خَالصًا وَجَمَلَةً تَسْتَكْثِرُ حَالٍ مِنْ فَاعِلٍ لَا تَمُنُّ قِيلَ هَذَا نَهَى تَنْزِيهِي، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَمَجَاهِدٌ كَانَ هَذَا الْحُكْمُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ خَاصَّةٌ قَالَ الضَّحَّاكُ بِهِمَا رَبْوَانٌ حَلَالٌ وَحَرَامٌ أَمَا الْحَلَالُ فَالْهَدَايَا أَمَا الْحَرَامُ فَالرِّبَا، وَقَالَ الْحَسَنُ مَعْنَاهُ لَا تَمُنُّنَّ عَلَى اللَّهِ بِعَمَلِكَ فَتَسْتَكْثِرُنِي مَسْتَكْثِرًا عَمَلِكَ وَقَالَ لَا تَسْتَكْثِرُونَ عَمَلَكُمْ فِي عَيْنِكَ فَإِنَّهُ فِيمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ قَلِيلٌ، وَرَوَى خَصِيفٌ عَنْ مَجَاهِدٍ وَلَا تَضَعْفُ أَنْ تَسْتَكْثِرَ مِنَ الْخَيْرِ عَنْ قَوْلِهِمْ جَهْلٌ مَنِينٌ أَيْ ضَعِيفٌ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ مَعْنَاهُ لَا تَمُنُّنَّ بِالنَّبِوَةِ عَلَى النَّاسِ فَتَأْخُذَ عَلَيْهَا عَوْضًا وَأَجْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تَمُنُّنَّ عَلَى الْفَقِيرِ إِذَا أَعْطِيته مَسْتَكْثِرًا إِعْطَاكَ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ﴿٧﴾ تَقْدِيرُهُ وَأَمَا لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ عَلَى طَاعَاتِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَالْمَصَائِبِ لِأَجْلِ ثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ وَالتَّقْدِيرِ وَاصْبِرْ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ كَرَّرَ لِلتَّأْكِيدِ أَوْ لِتَنْوِيعِ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ، وَقَالَ مَجَاهِدٌ فَاصْبِرْ إِلَيْهِ عَلَى مَا أَوْذَيْتَ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ مَعْنَاهُ حَمَلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا مُحَارَبَةَ الْعَرَبِ وَالْعَجْمِ فَاصْبِرْ عَلَيْهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقِيلَ فَاصْبِرْ تَحْتَ مَوَارِدِ الْقَضَاءِ لِأَجْلِ اللَّهِ ﴿فَإِذَا نُفِرَ﴾ أَيْ نَفَخَ ﴿فِي النَّافِرِ﴾ فِي الصُّورِ فَاعُولٌ مِنَ النَّقْرِ بِمَعْنَى التَّصْوِيتِ وَأَصْلُهُ قَرَعَ الشَّيْءَ الْمَفْضِي إِلَى النَّقْبِ وَمِنَهُ الْمَنْقَارُ لِلطَّائِرِ كَذَا فِي الصَّحَاحِ، قَالَ أَبُو الشَّيْخِ بَنِ حِيَانَ فِي كِتَابِ الْعَظِيمَةِ عَنْ وَهَبِ بْنِ مَنِبِهِ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الصُّورَ مِنَ اللَّوْلُؤِ الْبَيْضَاءِ فِي صَفَاءِ الزَّجَاجَةِ ثُمَّ قَالَ لِلْعَرْشِ خُذِ الصُّورَ فَتَعَلَّقْ بِهِ ثُمَّ قَالَ: كُنْ فَكَانَ إِسْرَافِيلُ فَأَمْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ الصُّورَ فَأَخْذُهُ وَبِهِ نَقْبٌ بَعْدَ وَكُلِّ رُوحٍ مَخْلُوقَةٍ وَنَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ لَا يَخْرُجُ رُوحَانٌ مِنْ نَقْبٍ وَاحِدٍ وَفِي وَسْطِ الصُّورِ كُوةٌ كَاسْتِدَارَةِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَإِسْرَافِيلُ وَاضِعٌ فِيهِ عَلَى تِلْكَ الْكُوةِ ثُمَّ قَالَ لَهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ وَكَلْتِكَ فَأَنْتَ بِالنَّفْخَةِ وَالصَّيْحَةِ فَدَخَلَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: ما جاء في غسل البول (٢١٥)، وأخرجه مسلم في

كتاب: الطهارة، باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

في مقدم العرش أدخل رجله اليمنى تحت العرش وقدم اليسرى ولم يطرف قد خلقه الله ينتظر متى يوم يؤمر أخرج أحمد والترمذي والطبراني بسند جيد عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى بالسمع متى يؤمر فشق ذلك على الصحابة فقال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل»^(١) وأخرج أحمد والحاكم عن ابن عباس نحوه بزيادة على الله توكلنا، والفاء في فإذا نفر لسببية كأنه قال اصبر على أذاهم فبين أيديهم زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وإذا ظرف لما دل عليه قوله ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ معناه يعسر الأمر على الكافرين يومئذ لتضمن إذا معنى الشرط دخل الفاء في قوله فذلك وذلك إشارة إلى وقت النقر مبتدأ وخبره يوم عسير ويومئذ بدله فهو في محل الرفع مبني الإضافة إلى غير متمكن ﴿عَيْدٌ يَسِيرٌ﴾ تأكيد بمنع أن يكون عسيراً من وجه ويسيراً من وجه وفيه إشارة إلى كونه يسيراً على المؤمنين، ذكر البغوي أن الله تعالى أنزل على النبي ﷺ ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَزِيلُ الْكَلْبِ مِنَ اللَّهِ الْفَزِيرُ الْحَكِيمُ غَافِرِ الدَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرُ﴾ قام النبي ﷺ بالمسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه قراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد أنفأ كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا هو من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد والله ليصبأ قريش كلهم، وكان يقال للوليد ريحانة قريش فقال أبو جهل أنا أكفيكموه، فانطلق فقعده إلى جنبه حزينا فقال: مالي أراك حزينا يا ابن أخي؟ فقال: ما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك بقية يعينونك على كبر سنك يزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن كثير وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم فغضب الوليد فقال: ألم تعلم قريش أنني من أكثرهم مالا وولداً؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه ينطق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط يكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: اللهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة من صدقه فقالت قريش للوليد فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلا ساحر من رأيتموه تفرق بين الرجل

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٢٤٣).

وأهله وولده ومواليه فهو ساحر بقوله سحر يؤثر، وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس نحوه وقال: فحينئذ نزلت:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ
لَمْ تَهَيْدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّكَ كَانَ لِأَيْنِنَا عَمِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ
فَكَرَّ وَفَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ
أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُضْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا بُعْثِي وَلَا تَنْدُرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاعِمٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْنَا نِصْعَةٌ عَشْرٌ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق آخر نحوه والواو بمعنى مع كما مر في قوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾^(١) أي ذرني معه ﴿وَوَحِيدًا﴾ حال من مفعول ذرني يعني لا تهتم به وذرني وحدي معه فإني أكفيكم أو من فاعل خلقت أي خلقتة وحيداً لم يشاركني في خلقه غيره رد من ضمير مفعول العائد المحذوف أي من خلقتة وحيداً فريداً لا مال ولا ولداً والمعنى خلقتة وحيداً في الشراة ووحيداً غير منسوب إلى أب لأنه كان زنيماً، قال البغوي إنه كان يسمى في قومه وحيداً فسماه الله به تهكماً واستهزاء وما على تسمية نفسه وحيداً ﴿وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا﴾ ميسوطاً كثيراً أي ممدوداً بالنماء كالزرع والضرع والتجارة، قال مجاهد وسعيد بن جبير ألف دينار، وقال قتادة أربعة آلاف دينار، وقال سفيان ألف ألف، وقال ابن عباس تسعة آلاف مثقال فضة، وقال مقاتل كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره شتاء وصيفاً، وقال عطاء عن ابن عباس كان له بين مكة والطائف إبل وخيل وغنم وكان له عين كثيرة وعبيد وجواري ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ حضوراً بمكة بلقائهم لا يحتاجون إلى السفر بطلب المعاش وكاوا عشرة، وقال مقاتل كانوا سبعة وهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد الشمس أسلم منهم خالد وهشام وعمارة ﴿وَمَهَّدْتُ لَمْ﴾ أي بسطت له الرياسة والجاه العريض حتى يقال ريحانة قريش والتوحد باستحقاق الرياسة والتقدم أو مهدت له في طوال العمر ﴿تَهَيْدًا﴾ بسطاً ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ يرجو ﴿أَنْ أَرِيدَ﴾ له مالاً وولداً وتمهيداً ﴿كَلَّا﴾ ردع أي لا أفعل ذلك لكفرانه قال البغوي قالوا فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله وولده حتى هلك

(١) سورة المزمل، الآية: ١١.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِتِبَتًا عَيْنًا﴾ معانداً حيث أنكر وقال سحر يؤثر تعليل للردع فإن الكفران ومعاندة آيات النعم زوال النعمة ويمنع الزيادة ﴿سَأْرَهُمْ﴾ سأغشيه ﴿صَعُودًا﴾ عذاباً شاقاً يغلبه ويعلو كل عذاب عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَأْرَهُمْ صَعُودًا﴾ (٧) قال: «هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت فإذا رفعها عادت فإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت» رواه البغوي عنه، وعن عمر بن الخطاب ورواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «إنه جبل في النار يتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي وهو كذلك فيه أبداً»^(١) وقال الكلبي الصعود صخرة ملساء في النار يكلف أن يصعدها لا يترك نفس في صعوده بجذب سلاسل الحديد ويضرب من خلفه بمقامع من حديد فيصعدها في أربعين عاماً فإذا بلغ ذروتها أحد إلى أسفلها ثم يكلف أن يصعدها يجذب من أمامه ويضرب من خلفه فذلك دأبه أبداً ﴿إِنَّهُمْ فَكَّرُوا﴾ فيما تخيل طعناً في القرآن ﴿وَقَدَّرُوا﴾ في تفسير ما يقول هذه الجملة بيان لعناده وتعليل لما يستحقه من العذاب ﴿فَقِيلَ﴾ لعن وقال الزهري عذب ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تقدير استهزاء به وفيه إنكار وتوبيخ وكيف حال من فاعل قدر والجملة تعليل لقوله قتل وجملة فقتل معترضة دعائية والفاء فيه للاعتراض ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (١٠) كرر للتأكيد وكلمة ثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (١١) عطف فكر وقدر أي فكر وقدر ثم نظر في أم القرآن متراخياً مرة بعد أخرى ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ وجهه لما لم يجد فيه طعناً ولم يدر ما يقول أو نظر إلى رسول الله ﷺ وعبس وجهه عداوة ﴿وَسَرَّ﴾ بمعنى عبس وقهر تأكيد له ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾ عن الحق والإيمان به أو الرسول ﷺ ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعه ﴿فَقَالَ﴾ الفاء للدلالة على أنه لما خطرت هذه الكلمة بباله تقولها من غير تلبث وتفكر ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ يروي عن غيره ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (١٥) تأكيد للجملة الأولى ولذا لم يعطف ﴿سَأْصَلِيهِ سَقَرًا﴾ (١٦) بدل اشتمال من سأرهقه صعوداً وسقر اسم من أسماء جهنم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ (١٧) تفخيم لشأنها وجملة ما سقر بتأويل المفرد مفعول لأدراك ﴿لَا تَبْقَى﴾ شيئاً يلقي فيها ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تدع حتى تهلكه، قال مجاهد معناه لا تبقي حياً ولا تذر من فيها ميتاً كلما احترقوا جددوا، قال الضحاك لكل شيء ملال وفترة إلا سقر، هذه الجملة والجملتين بعدها مستأنفات لبيان تفخيم شأن سقر وأحوال من سقر ﴿لَوَآمَةٌ﴾ أي هي لواحة ﴿لَلْبَشَرِ﴾ جمع بشرة مغيرة للجلد من البياض إلى السواد فقال ابن عباس وزيد بن أسلم محترقة للجلد وقيل: معناه لائحة للناس قال الحسن وابن كيسان يلوح لهم حتى يردها

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة قعر جهنم (٢٥٧٦).

عياناً نظيره ﴿وَبُرِّزَتْ لِالْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١) ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على النار ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة وهم خزنتها مالك مع ثمانية عشر، أخرج ابن المبارك والبيهقي أحدهم عن أبي العوام قال: هم تسعة عشر ملكاً بين منكبي كل منهم مسيرة كذا وكذا وأخرج ابن وهب عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة نزلت عنهم الرحمة يرفع أحد منهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم» قال البغوي قال ابن عباس وقتادة والضحاك وكذا أخرج البيهقي عن ابن إسحاق أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم الشجعان أفيعجز كل عشر منكم أن تبطشوا الواحد من خزنة جهنم؟ قال أبو الأسد بن كلده الجهني أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهري وسبعة على بطني واكفوني أنتم اثنين، وأخرج البيهقي عن السدي لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (٩٢) قال رجل من قريش يدعى أبا الأسدين يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا آخِزَاتِ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۖ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا يَعْلَمُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۗ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلنَّبِيِّينَ﴾ (٩٣) ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ (٩٤) ﴿وَأَلَيْلِ إِذْ أُنزِرَ﴾ (٩٥) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (٩٦) ﴿إِنهَا لِأَحَدَى الْكَافِرِ﴾ (٩٧) ﴿نَذِيرًا لِلنَّبِيِّينَ﴾ (٩٨) ﴿لِيَمَن شَاءَ مَسْئَرًا أَن يَقْدَمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (٩٩)

﴿وَمَا جَعَلْنَا آخِزَاتِ النَّارِ﴾ يعني خزنتها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ لا رجالاً آدميين حتى يمكن من الكفار تدافعهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي عددهم في القلة ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ عدد الذي اقتضى فتنتهم أي ضلالتهم وكفرهم لاستقلالهم والاستهزاء بهم واستبعادهم أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب جميع الكفار ﴿لِيَسْتَيْقِنَ كَفَرُوا﴾ حتى قالوا ما قالوا ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ متعلق بفعل محذوف دل عليه السياق أي نبأناك بعددهم ليستيقن ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ نبوتك وصدق القرآن حين يوافق ذلك في التوراة والإنجيل ﴿وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالإيمان أو بتصديق أهل الكتاب له ﴿إِيمَانًا﴾ مصدراً وتميز من النسبة ﴿وَلَا يَرْثَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ في عددهم تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان فعطف لا يرتاب عطف تفسيري، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في

البعث عن البراء بن عازب أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم فجاؤوا النبي ﷺ فنزلت عليه ساعتئذ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝﴾ ﴿٣٠﴾ فصار هذا سبباً لاستيقان الذين أتوا الكتاب وازدياد المؤمنين إيماناً ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك أو نفاق عطف على ليستيقن وهذا إخبار بمكة بما سيكون في المدينة بعد الهجرة من المنافقين ولم يكن بمكة منافق ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ المستغرب استغراب المثل وقيل لما استبعدوه حسوا أنه مثل مضروب فكلمة مثلاً إما حال من هذا وعامل فيه معنى الإشارة أو تنبيه أو تمييز وهذا اسم تام بتنوين مقدر ﴿كَذَلِكَ﴾ متعلق بما بعده أي كما أضل الله تعالى إضلاله ﴿وَوَهَّدَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ الله هدايته ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ﴾ يعني كنههم وكيفية قوتهم وأما عددهم فقد ذكر أنهم تسعة عشر لا يحتمل الزيادة والنقصان ﴿إِلَّا هُوَ﴾ قال مقاتل هذا جواب أبي جهل حين قال ما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر، قال عطاء وما يعلم جنود ربك إلا هو يعني الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله يعني أن تسعة عشر خزنة النار ولهم من الأعوان والجنود ما لا يعلم إلا الله، أخرج هناد عن كعب قال يؤمر بالرجل إلى النار فيبتدر مائة ألف ملك قال القرطبي المراد بقوله تسعة عشر رؤوسائهم أما جملة خزنة فلا يعلم عددهم إلا الله ﴿وَمَا يَهْدِي﴾ وما سقراً وعدة الخزية أو السورة ﴿إِلَّا ذِكْرًا﴾ أي تذكرة ﴿لِلْبَشَرِ كَلًّا﴾ ردع لمن أنكرها أو إنكار لأن يتذكر بها وإن كان في نفسه ذكرى ﴿وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ قرأ نافع وحفص وحمزة ويعقوب بإسكان الذال وأدبر على وزن أفعل والباقون إذا بالالف بعد الذال دبر على وزن فعل ومعنى دبر وأدبر واحد كقبل بمعنى أقبل يقال دبر الليل وأدبر إذا ولى ذاهباً، وقال أبو عمر وبلغه قريش وقال قطرب دبر بمعنى أقبل تقول العرب دبرني فلان أي جاء خلفي والليل يأتي خلف النهار ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝﴾ أي أضاء ﴿إِنِّهَا﴾ أي سقر ﴿لَا تَحْدَى الْكَبْرَى﴾ أي أحد البلايا الكبرى فإنها كثيرة والسقر واحد منها أو المعنى أنها أي إحدى البلايا الكبرى جهنم وجهنم ولظى والحطمة والسعير والجحيم والهاوية وإنما جمع كبرى على كبر إلحاقاً لها بفعله تنزيلاً للألف منزلة التاء كما ألحقت قاصعاً بقاصعة فجمعت على قواصع والجملة جواب القسم أو تعليل لكلا والقسم معترض للتأكيد ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝﴾ تميز عن إحدى الكبرى إنذاراً أو حال عما دلت عليها الجملة أي كبرت منذرة، قال الحسن والله ما أنذر بشيء أدهى منها، وقال الخليل النذير مصدر كالنكير والمذكر وصف به المؤنث يعني جعل حالاً للمؤنث، وقيل: نذيراً حال من فاعل وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة منذراً للبشر وقيل: معناه يا أيها المدثر قم نذير البشر فأنذر ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ بدل من قوله للبشرى أي

نذيراً للفريقين وحينئذ قوله ﴿أَنْ يَبْقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ مفعول لشاء أي من شاء أن يتقدم في الخير والطاعة ومن شاء أن يتأخر في الشر والمعصية ويحتمل أن يتقدم أو يتأخر مبتدأ ومن شاء منكم خيراً مقدماً عليه والمعنى لأن يتقدم من شاء منكم ويتأخر من شاء نظيره قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾^(١) فهو توبيخ وإنذار.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْجُزِيِّينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُتَصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِقِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْهَاطِئِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُرَىٰ وَاهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من السيئات ﴿رَهِينَةٌ﴾ مصدر كالتشيمة بمعنى رهن لا بمعنى المفعول أي مرهون ولو كان صفة لقليل رهين لأن الفعليل بمعنى المفعول يستوي فيه المؤنث والمذكور والمعنى كل نفس بما كسبت من السيئات بكفرها محبوسة في النار أبداً ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي الذين يعطون كتبهم بأيمانهم كذا روي عن ابن عباس، أخرج ابن المبارك عن رجل من بني أسد قال: قال عمر لكعب قل من حديث الآخرة قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة وضع اللوح المخطوط فلم يبق أحد من الخلائق إلا هو ينظر إلى عمله ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتنشر من حول العرش ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه، وقال مقاتل هم أهل الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق قال لهم الله هؤلاء للجنة ولا أبالي، وعن ابن عباس أنهم الذين كانوا ميامين على أنفسهم ومآل هؤلاء الأقوال واحد يعني إلا المؤمنين فإنهم غير محبوسين في النار أبداً بل ينجون إما بالمغفرة بعد العذاب بقدر ذنوبهم أو بلا تعذيب بالشفاعة أو بمحض الفضل، وقال الحسن هم المسلمون المخلصون، وقال القاسم كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر إلا من اعتمد على الفضل فإن كل من اعتمد على

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

الكسب رهين ومن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ وعلى هذين القولين معنى الآية كل نفس مرهونة أي مأخوذة بأعمالها وأوفي الجملة إلا المسلمين الكاملين فإنهم غير مأخوذين أصلاً لكن إطلاق أصحاب اليمين على هؤلاء المخلصين لا دليل عليه، وكذا روى سعد بن منصور وابن أبي حاتم والحكيم في نوادر الأصول عن علي أنهم أطفال المسلمين وزاد الحكيم لم يكسبوا فيرتهنوا بكسبهم وما روى أبو ظبيان عن ابن عباس أنهم الملائكة فما لم يصح الأثر به لا يمكن حمل أصحاب اليمين عليه ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هم في جنات والجملة في مقام التعليل للاستثناء ويحتمل أن يكون حالاً من أصحاب اليمين أو من ضميرهم في قوله ﴿يَسَاءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً أي يسأل غيرهم والتفاعل لأجل تشاركهم في السؤال ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤١) أي عن حال المجرمين الكفار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤٢) هذا الاستفهام مع جوابه حكاية لما جرى بين المسؤولين والمجرمين وما أجاب المجرمون به السائلين المسؤولين، وأيضاً إن في الكلام حذف للاختصار تقديره يتساءلون عن المجرمين فيقولون المسؤولون ما سلككم في سقر الخ، وقيل كلمة عن زائدة تقديره يتساءلون المجرمين بقولهم ما سلككم في سقر ﴿قَالُوا﴾ أي المجرمين في جوابهم ﴿لَرُبَّ نَفْسٍ﴾ سقطت النون بالجزم لمشابهته بحرف العلة في امتداد الصوت فإن النون غنة في الخيشوم كما أن حرف العلة مدة في الحلق ﴿مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ الصلاة الواجبة ﴿وَلَرُبَّ نَفْسٍ لَّمْ يُعَلِّمِ الْيَسْكَينَ﴾ (٤٣) ما يجب إعطائهم فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الأعمال لأجل المؤاخذة في الآخرة وإنما سقط عنهم الخطاب في الدنيا لفقد شرط أدائه وهو الإيمان ولا وجه بسقوط التكليف فإن الكفر موجب للتشديد دون التخفيف لكن حقوق الله تعالى من العبادات والعقوبات تسقط بالإسلام فلا يؤخذ من أسلم على ما فات عنه في حالته الكفر قال رسول الله ﷺ: «الإسلام يهدم ما كان قبله» (١) وقد مر هذا الحديث فيما قبل ﴿وَكُنَّا نَحْوُ﴾ في اللهو والباطل ما نهى الله تعالى عنه ﴿مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾ فيه ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٤٤) آخرة لتعظيمه أي وكنا بعد ذلك كله مكذبين يوم الجزاء ﴿حَتَّىٰ أَتْنَا الْيَقِيْنَ﴾ (٤٥) يعني الموت ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ (٤٦) ولو شفَعُوا جميعاً، هذه الجملة إما متصلة بقوله كل نفس رهينة أو بقوله قالوا لم نك من المصلين، ومفهوم هذه الآية تقتضي أن المؤمنين وإن كانوا فساقاً تنفعهم شفاعة الشافعين. أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده عن أم حبيبة أو أم سلمة قالت كنا فيبيت عائشة فدخل رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد أطفال لم يبلغوا الحلم إلا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

جيء بهم حتى يوقفوا على باب الجنة فيقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون إن دخل أبونا فيقال في الثانية والثالثة ادخلوا الجنة وآباءكم فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ (٤٨) وقال ابن مسعود ويشفع الملائكة والنيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلى ﴿قَالُوا لَرَبِّكَ مِنَ الْمَصْلِينَ﴾ (٤٩) إلى قوله: ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ وقال عمر أن بن حصين الشفاعة نافعة دون هؤلاء الذين تسمعون فقول ابن مسعود وعمران هذا مشعر بأن الشفاعة لا تنال لتاركي الصلاة وما نعي الزكاة والخائضين في اللهو والباطل وإن كانوا مؤمنين ومبنى قولهما هذه الآية فإن تعقبها بالفاء للسببية وترتبها على الأربعة المذكورة يدل على كونها سبباً لعدم نيل الشفاعة والصحيح أنها معقب على مجموع الأمور الأربعة فيها التكذيب بيوم الدين لا على كل واحد منها فلا تمنع الشفاعة إلا المجموع دون كل واحد منها وقد انعقد الإجماع على جواز الشفاعة لكل مؤمن فبعض من يستحق النار من المؤمنين لا يدخلها بالشفاعة وبعض من يدخلها يخرج منها بالشفاعة، وأنكر الشفاعة أهل الهواء من المعتزلة والخوارج وغيرهم قبهم الله تعالى وقد تواترت في ذلك الأحاديث تواتراً معنوياً ولو ذكرنا الأحاديث كلها لطال الكلام ولنذكر منها طائفة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «أشفع لأمتي حتى ينادي ربي أَرْضِيَّتْ يَا مُحَمَّدُ؟ فأقول: أي ربي رضيت» رواه البزار والطبراني وأبو نعيم، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(١) رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وأحمد وأبو داود وعن جابر نحوه رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وابن ماجه وعن ابن عباس نحوه رواه الطبراني، وعن ابن عمر وكعب بن عجرة نحوه رواه الخطيب. عن عثمان بن عفان عن النبي ﷺ: «يجاء بالعالم والعائد فيقال للعائد أدخل الجنة ويقال للعالم قف حتى تشفع» رواه الأصبهاني، وعنه عن النبي ﷺ: «نعم الرجل الأشرار أمتي قيل: كيف يا رسول الله؟ قال: أما أشرار أمتي فيدخلهم الله الجنة بشفاعتي وأما خيارهم فيدخلهم الله الجنة بأعمالهم» رواه الطبراني وأبو نعيم وعن ابن عمر موقوفاً يقال للعالم اشفع في تلامذتك ولو بلغت عدد النجوم السماء رواه الديلمي وعن أبي الدرداء مرفوعاً «الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته»^(٢) رواه أبو داود، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يصف الناس يوم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: ذكر الشفاعة (٤٧٢٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: الشهيد يشفع (٢٥٢٠).

القيامة صفوفاً ثم يمر الرجل من أهل الجنة على الرجل من أهل النار فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استسقيتني فأسقيتك شربة فيشفع له فيمر الرجل على الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهوراً فيشفع له ويمر الرجل على الرجل فيقول يا فلان أما تذكر يوم يمشي لحاجة كذا وكذا فذهبت لك فيشفع له»^(١).

مسألة: لا تنال الشفاعة لحديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب بالشفاعة فلا نصيب له ومن كذب بالحوض فليس له فيه نصيب» رواه سعيد بن منصور وعن زيد بن أرقم وبضعة عشر من الصحابة قوله ﷺ: «شفاعتي يوم القيامة حق فمن لم يؤمن بها لم يكن من أهلها» رواه ابن منيع وعن عبد الرحمن قوله ﷺ: «شفاعتي مباحة إلا لمن سب أصحاب» رواه أبو نعيم في الحلية، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة المرجئة والقدرية» رواه أبو نعيم.

مسألة: وقد ورد في بعض المعاصي أنها مانعة للشفاعة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من غش العرب لم ينله شفاعتي» رواه البيهقي بسند جيد، وعن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «رجلان لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة إما ظلم غشوم عسوف وآخر غال في الدنيا مارق منه» رواه البيهقي والطبراني بسند جيد، وعن الدرداء وغيره قال رسول الله ﷺ: «ذروا المرء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة» رواه الطبراني ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ﴾ يعني عن القرآن أو ما يعمه من المذكرات ﴿مُعْرِضِينَ﴾ الفاء للسببية وما استفهامية مبتدأ ولهم خبره وعن التذكرة استفهام للإنكار عن شفاعة حالهم في الدنيا المفضي إلى العذاب في الآخرة فإن عذاب الآخرة سبب للإنكار ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿٥٠﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء والباقون بكسرها فمن قرأ بالكسر فمعناها نفرة يقال نفروا استنفر كما يقال عجب واستعجب ومن قرأ بالفتح فمعناها منفرة مدعورة ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿٥١﴾ الجملة صفة لحمرة وجملة كأنهم بعد حال وضمير لهم في مالهم وكلمة كأنهم أغنى عن واو الحال شبههم في إعراضهم ونفورهم عن استماع الذكر بحمر نافرة من قسورة فعولة من القمر بمعنى القهر، قال أبو هريرة هي الأسود وهو قول العطاء والكلبي، وقال مجاهد وقتادة والضحاك القسورة الرماة ولا واحد لها من لفظها وهي رواية عن عطاء عن ابن عباس، وقال زيد بن أسلم عن رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسورة وعن أبي المتوكل لغط القوم وأصواتهم، وروى عكرمة عن ابن عباس

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل صدقة الماء (٣٦٨٥).

قال: هي حبال الصيادين قال سعيد بن جبير هي القناص يعني الصياد، أخرج ابن المنذر عن السدي قال: قالوا: لئن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار فنزلت ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ ﴿٥١﴾ بل ابتدائية وليست للإعراض عن التوبيخ بل هو انتقال من شيء أي أمر أهم منه، وقال المفسرون إن كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من أنك لرسوله تؤمر فيه باتباعك والمنتشرة جمع منشورة ﴿كَلَّا﴾ ردع عن اقتراح الآيات بعد وضوح الأمر ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة واقترحوا الآيات قيل ابتدائية كما سبق وليس إضراباً عن الردع ويحتمل أن يكون إضراباً دل عليه السياق وتقديره أنه لو أوتوا صحفاً منشورة لا يؤمنون فإن طلبهم ذلك ليس لأن يتضح الأمر عندهم بل الأمر عندهم واضح وليس إلا ذلك الاقتراح إلا لأنهم لا يخافون الآخرة ووضوح الأمر لا يستلزم الخوف والخشية بل هو أمر وهبي ﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار على عدم الخوف وتأکید للردع السابق أو هو بمعنى حقاً ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿تَذَكَّرُ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى بصفاته الجمالية والجلالية والرحمة والعذاب ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ التذکر ﴿ذَكَرُ﴾ الفاء للسببية وتعليق الذكر بالمشيئة تخيير لفظاً وتوبيخ معنى ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ قرأ نافع بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا﴾ وقت ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ مشيئتهم وذكرهم فيه تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله وإرادته ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ حقيق بأن يتقي عقابه بالتقوى عما نهى عنه ﴿وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ حقيق بأن يغفر عباده المؤمنين عن أنس أن رسول الله قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ قال ربكم عز وجل أنا أهل أن أتقى الشرك ولا يشرك بي غيري وأنا أهل لمن اتقى ولا يشرك بي أن أغفر له»^(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم نحوه. والله تعالى أعلم تمت سورة المدثر.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المدثر (٣٣٢٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٩).

سورة القيامة

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُؤْيَى بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَكَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا رُفِّقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَنْ الْكَفَرُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنْفِئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْفَى مَعَادِرُهُ ﴿١٥﴾

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١) ﴿١﴾ قرأ قنبل لأقسام بغير الألف بعد اللام تأكيد القسم وكذا روى النقاش عن أبي ربيعة عن البزي والباقون بالألف بما بعد اللام فقيل لا زائدة كما في قوله ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ (٢) والمعنى فيهما القسم وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده أي لتبعثن ولتحاسبن وليجزين كل نفس بما كسبت إن خير فخير وإن شر فشر، وقال أبو بكر بن عياش هو تأكيد للقسم، قال البيضاوي إدخال لا النافية على فعل القسم للتأكيد شائع في كلام العرب، قلت: وفيه إشعار بأن هذا الأمر ظاهر مستغن عن التأكيد بالقسم وذلك لأن من له عقل وفهم لو تأمل بعد ما يرى من الناس من هو كافر للنعم ظالم على الخلق قاطع للرحم مرتكب الأمور بجزم العقل بقبحها وهو في نعمة ورغد من العيش ومن هو شاكر لله تعالى راض عنه الخلق في محبته وبلاء يحكم أن للجزاء داراً غير هذه الدار وإلا يلزم من الله تعالى ترجيح الشنيع على المليح وذلك شنيع يستحيل إنصاف الصانع به تعالى عن ذلك علواً كبيراً. والنفس اللوامة المراد بها إما الجنس قال الفراء ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها يعني في الآخرة إن كانت عملت خيراً قالت هلا زدت وإن عملت سوءاً قالت ليتني لم أفعل، وقال الحسن هي النفس المؤمنة قال إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه يعني في الدنيا ما أردت بكلامي وما أردت بأكلي وإن الفاجر لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها، وقال مقاتل النفس الكافرة تلوم نفسها في

الآخرة على ما فرط في أمر الله تعالى في الدنيا وقيل: المراد به الذي يقول لو فعلت كذا ولو لم أفعل كذا لكان كذا ولا يرضى بالقضاء قائلاً ما شاء الله ويقدر الله، وقالت الصوفية النفس أمارة بالسوء ثم إذا اجتهد في الذكر وتداركه الجذب من الله تعالى يظهر له قبائح نفسه ويرى مشتغلاً لغير الله سبحانه ولا يقدر على القطع عنه بالكلية فحينئذ تلوم نفسها ويقال لها النفس اللوامة ثم إذا حصل له الفناء والبقاء وانخلع عما سوى الله واطمئن بذكره فحينئذ يقال له النفس مطمئنة ﴿يَحْسَبُ﴾ استفهام إنكار على التوبيخ ﴿الْإِنْسَانَ﴾ المراد به الجنس لأن فيهم من يحسب والمراد الذي نزل فيه واللام للعهد، قال البغوي نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الأحنس بن شريق الثقفي وكان النبي ﷺ فقال: يا محمد حدثني عن القيامة متى تكون وكيف أمرها وحالها فأخبره النبي ﷺ لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك لم أؤمن بك أو يجمع الله العظام فأنزل الله تعالى أychسب الإنسان ﴿أَلَّن نَجْعَ عِظَامِهِ﴾ بعد التفريق والبلى ونكر جمع العظام والغرض منه إنكار البعث فإن العظام قلب الروح وإعادة الروح متفرع على جمعها وأن مخففة أو مصدرية مفعول يحسب قائم مقام مفعوليه ﴿بَلَى﴾ يجمعها فينجيه ﴿قَادِرِينَ﴾ حال من فاعل الفاعل المقدر ذكرها للترقي على ما أنكر كما يقال أychسب أن لن نقدر عليك بلى نقدر عليك قادرين على أقوى منك والمعنى بل نجمعها ونقدر على جمعها قادرين ﴿عَلَى أَنْ سُئِلَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي أنامله أو أطراف أنامله لجمع سلامياته وضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانَ﴾ عطف على يحسب فيجوز أن يكون استفهاماً وأن يكون إيجاباً بالجواز أن يكون الإضراب عن المستفهم أو عن الاستفهام ﴿لِيَفْجُرَّ أَمَامَهُ﴾ يفجر منصوب بأن مقدرة واللام زائدة، قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدي معناه لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على جمع عظامه لكنه يزيد أن يفجر أن يكفر أمامه أي ما يأتي عليه من الزمان المستقبل فيدوم على الكفر لا ينزع عنه ولا يتوب، وقال سعيد بن جبير معناه يقدم الذنب ويؤخر التوبة ويقول سوف أتقرب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على شر حاله، وقال الضحاك هو الأمل يقول أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت، وقال ابن عباس وابن زيد يكذب بما أمامه من القيامة والبعث والحساب والفجور الميل سمي فاجراً لميله عن الحق ﴿يَسْتَلُّ﴾ حال من فاعل يفجر أي سائلاً واستبعاداً واستهزاء ﴿إِنَّا﴾ متى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا يكون ذلك ﴿فَإِذَا بَرَقَ الضُّرُّ﴾ قرأ نافع بَرَقَ بفتح الراء والباقون بكسرها وهما لغتان قال في القاموس برق كفرح ونصر برقاً وبروقاً تحير حتى لا يظرف أو دهش فلم يبصر، وقال الفراء والخليل برق بالكسر أي

تحير وفتح لا يرى من العجائب التي كان يكذبها في الدنيا قيل ذلك عند الموت والصحيح أنه يوم القيامة بقريئة ما عطف عليه ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ (٨) أي أظلم وذهب ضوؤه ﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ﴾ (٩) أسودين مكورين قيل: معناه إنهما يطلعان معاً من المغرب آية للقيامة والخسوف مستعار للمحاق، وقال عطاء بن يسار يجمعان يوم اليامة ثم يقذفان في البحر فتكون ناراً له الكبرى وقيل: يجمع بينهما في ذهاب الضوء وعن جمل برق البصر الخ على ما قيل الموت لقسر الخسوف بذهاب ضوء البصر والجميع باستتباع الروح الخاصة في الذهاب أو لوصوله إلى مكان يقتبس منه نور العقل من سكان القدس وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف وإذا مضاف إلى البرق والخسف والجمع ظرف لقوله ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ والجملة الكاملة معطوفة على مضمون قوله بلى قادرين أي بلى نجمة العظام فيقول الإنسان الكافر أين المفر يقول ذلك إذا برق البصر الخ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا برق الخ ﴿أَيْنَ الْمَفْرُغِ﴾ مقول ليقول ﴿كَلَّا﴾ ردع من طلب المفر بيانه ﴿لَا وَرَّزَّ﴾ أي لا مجلاً ولا حصن مستعار من الجبل فإنهم كانوا يلجؤون بالجبل واستقامة من أنوار بمعنى الثقل ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (١٧) المصير والمرجع وإلى مشيئته وحكمه موضع قرارهم ﴿يَلْبَسُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ مِمَّا قَدَّمُ وَأَخَّرَ﴾ (١٨) قال ابن مسعود وابن عباس بما قدم قبل موته من عمل صالح أو شيء وما أخر بعد موته من سنته حسنة أو سيئة بعمل، وقال قتادة بما قدم من طاعة الله وما أخر منه فضيعة، وقال مجاهد بأول عمله وآخره، وقال زيد بن أسلم بما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته وقيل: بما قدم وأخر بمعنى بل قدم أمور الدنيا على أمور الآخرة أو بالعكس ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٩) أي يبصر بتذكير ما عمل في الدنيا لا يحتاج إلى الأنبياء والهاء للمبالغة نظيره قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(١) كذا قال أبو العالية وعطاء ورواه البغوي عن ابن عباس، ويحتمل أن يكون بصيرة صفة لمحذوف تقديره بل الإنسان عين بصيرة على نفسه وعلى التقديرين على نفسه متعلق ببصيرة وهو خبر الإنسان، والبصيرة بمعنى الحجة كما قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢) أي الإنسان هو حجة بينة على نفسه شاهد عليها وحينئذ على نفسه ظرف مستقر خبره بصيرة والجملة خبر للإنسان ويحتمل أن يراد بالبصيرة ذا الحجة الملك الموكل، وقال مقاتل والكلبي معناه بل الإنسان على نفسه بصيرة رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله وهو سمعه وبصره وجوارحه وحينئذ دخول الهاء في البصيرة لأن المراد الإنسان جوارحه ويحتمل أن يكون معناه بل

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

الإنسان على نفسه بصيرة يعني جوارحه فحذف حرف الجر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَسْتَرِيحُوا أَوْلَادَكُمْ﴾^(١) أي لأولادكم ﴿وَلَوْ أَلْقَى الْإِنْسَانَ مَعَاذِيرُهُ﴾ قال الضحاك والسدي معناه ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب عند فعل المعصية ليخفي ما يعمل فلا ينفع فإن نفسه عليه شاهد وكذا الموكل به والله على كل شيء شهيد وأهل اليمن يسمون الستر معذاراً وجمعه معاذيره، وقال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير معناه يشهد عليه الشاهد من الجوارح والملائكة ولو اعتذر وجادل عن نفسه كما قال لا ينفع الظالمين معذرتهم قال: الفراء ولو اعتذر فعليه من نفسه من يكذبه ومعنى القاء القول كما قال الله تعالى: ﴿قَالِقُوا إِلَيْهِمْ أَلْقَوْلَ إِيَّاكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٢) وعلى هذا معاذير جمع معذار بمعنى العذر وجمع معذرة على غير قياس كمناكير في المنكر، والظاهر أنه اسم جمع وجمعها معاذر وكذا المناكير والله تعالى أعلم.

﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١١) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (٢١) ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٥) ﴿وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (٢٦) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٣) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ (٢٤) ﴿تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (٢٥)

أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبرائيل بالوحي يحرك لسانه وشفثيه فيشند عليه وكان يعرف عنه يريد أن يحفظ ما أنزل الله فأنزل الله تعالى^(٣) ﴿لَا تُحْرِكْ﴾ يا محمد ﴿بِهِ﴾ بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ قبل أن يتم وحيه ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي لتأخذه على عجلة، في الصحيحين عن ابن عباس كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه إذا نزل يخشى أن ينفلت ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ إثبات قراءته على لسانك لتعليل للنهي ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ أي القرآن بلسان جبرائيل أضاف قراءة جبريل إلى نفسه مجازاً لأنه بأمره ورسالته ﴿فَأَنبَحْ قُرْآنَهُ﴾ قراءته يعني فاقراً بعد قراءة جبريل حتى يرسخ في ذهنك كذلك لا بد للتلميذ أن يقرأ بعد قراءة الشيخ ولا يقرأ معه كيلا يقع المزاحمة والتشويش في القراءة والحفظ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي القرآن أي إظهار المراد منه إذا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٥)،

وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الاستماع للقراءة (٨٤٤٨)

أشكل شيء من معانيه، قلت: الآية على أن بيان القرآن محكمه ومتشابهه من الله تعالى للنبي ﷺ لا يجوز أن يكون شيء منها غير مبين له عليه الصلاة والسلام وإلا يخلو الخطاب من الفائدة ويلزم الخلف في الوعد كما ذكرنا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١) وكلمة ثم تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب لكن لا يجوز عن وقت الحاجة، وجملة لا تحرك به لسانك معترضة على طريقة من يتكلم فطفق المخاطب يتكلم ويقع كلامه فقال اسكت ولا تقطع الحديث إنما لك حق التكلم بعد تمام الاستماع ثم عاد إلى ما كان يتكلم فيه فقال ﴿كَلَّا﴾ ردع على إنكار البعث أو الفجور أمهم أو على إلغاء المعاذير الباطلة ﴿بَلْ تُحِيزُونَ﴾ الضمير راجع إلى الإنسان المذكور سابقاً وجمع الضمير نظراً إلى المعنى لأن المراد به الجنس أو الذي الكلام فيه ومن في معناه ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا وشهواتها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي الإنسان على ما مر هذا على قراءة ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالياء للغيبة فيهما وقرأ الكوفيون ونافع بالتاء على الخطاب فيهما على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿الْآخِرَةَ﴾ وتعميها يعني أنهم لا يعلمون أن الله تعالى لا يقدر على البعث والإعادة أو أن معاذيره ينفعهم بل يحبون العاجلة ويتبعون الشهوات الدنيا فأعمى الشهوات بأبصارهم وأعمه قلوبهم ويذرون الآخرة ثم ذكر أحوال الآخرة فقال ﴿وَجُودٌ﴾ مبتدأ إما معترضة بتقدير الإضافة أي وجوه المؤمنين المقربين وإما نكرة مخصصة بصفة مقدرة أي وجوه كثيراً وجوه منهم أي من جنس الإنسان الذي مر ذكره ﴿بَوْمِيذٍ﴾ ظرف لما بعده يعني يوم إذا كان ما سبق من برق البصر وغيره أو يوم إذا كانت الآخرة ﴿نَاضِرَةٌ﴾ خبر ناعمة حسنة متهللة ﴿إِنَّ رَبَّهَا﴾ متعلق بما بعده ﴿نَاطِرَةٌ﴾ برؤية البصر بلا كيف ولا جهة ولا ثبوت مسافة ولا بقياس الغائب على الشاهد خبر ثان لوجوه، وأخرج الآجري والبيهقي في كتاب الرؤية من طريقين عن ابن عباس قال وجوه يومئذ ناضرة قال: حسنة إلى ربها ناظرة نظرة إلى الخالق وأخرجوا عن الحسن نحوه، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجه غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَجُودٌ بَوْمِيذٍ نَاضِرَةٌ﴾ (٢) ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٣) رواه أحمد والترمذي والدارقطني واللالكائي والآجري نحوه وفي لفظ الآجري «أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام يرى أقصاه» كما يرى أدناه وفي الباب حديث أنس رواه

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى (٢٥٥٣).

البزار والطبراني والبيهقي وأبو يعلى بطوله وفيه «يوم الجمعة يزداد فيها نظراً إلى وجهه تعالى ولذلك دعي يوم المزيّد» رواه البزار والأصفهاني عن نحوه، وأخرج الآجري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يرون ربهم كل جمعة» وعن الحسن مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم كل جمعة» الحديث أخرجه يحيى بن سلام وعن أنس مرفوعاً «قال الله تعالى من سلبت كريمته جزائه الحلول في داري والنظر إلى وجهي» رواه الطبراني وغيره، وحديث جرير البجلي قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»^(١) متفق عليه وكذا روى اللالكائي عن حذيفة وفي الصحيحين عن أبي هريرة نحوه، وعن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يدعو «اللهم إني أسئلك برد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضرار مضره ولا فتنة مضلة» رواه اللالكائي، وعن عبادة بن صامت «لن تروا ربكم حتى تموتوا». رواه الدارقطني وكذا رواه اللالكائي عن أبي هريرة وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال: قال الله تعالى يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تغرق وإنما يراني أهل الجنة لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم» وعن علي في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ قال: من أراد أن ينظر إلى خالقه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك به أحداً رواه البيهقي. وبالجملة صح تفسير هذه الآية وتفسير قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَذَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(٣) وغيره من الآيات برؤية الله تعالى مسنده عن النبي ﷺ وأصحابه التابعين بحيث بلغت مبلغ التواتر عند أهل الحديث كذا ذكر السيوطي وغيره وبما ذكرنا في هذا المقام كفاية ونذكر في تفسير كل رية منها ما يتعلق به إن شاء الله تعالى، وعلى رؤية الله تعالى انعقد إجماع أهل السنة والجماعة وخالفهم أهل الهواء من المعتزلة والخوارج وغيرهم بامتناعها زعماً منهم بأنها تتوقف على كون المرئي حسماً كثيفاً بلا حجاب وكون المسافة بين الرائي والمرئي متوسطة لا في غاية القرب ولا في غاية البعد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر (٥٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٣).

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٥.

وخروج شعاع البصر من الرائي ووصوله إلى المرئي المقتضى ثبوت الجهة له تعالى، واستدلوا على امتناع الرؤية من المنقول بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(١) وقالوا: تأويل هذه الآية أن ناظرة بمعنى منتظرة أمر ربها وإنعامه ويأبى عنه العربية فإن الانتظار يتعدى باللام دون إلى والنظر بالبصر يعدى بالي، وقال أهل السنة الرؤية لا تتوقف إلا على كون المرئي موجوداً وكذلك في جانب الرائي لا يشترط إلا الوجود والحياة والعلم والإبصار وأما توقف الرؤية على غير ذلك من الشرائط فأمر عادي في خصوص المادة ولا يجوز قياس الغائب على الشاهد ولا شك أن الله سبحانه وتعالى يرى خلقه من الماديات والمجردات من غير مسافة بينهما ولا خروج شعاع وهو السميع البصير كيف ينكر كونه مرئياً بعدما نطق به البشير النذير وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وإنما ينفي الدرك وهو يقتضي الإحاطة وحصول العلم بكنهه وذلك محال وأما العلم الحضوري بالكنهه بمعنى حضوركنه المعلوم عنه العالم فليس بمحال لكنه متعال عن درك الأبصار والله تعالى أعلم.

فائدة: هذه الآية تدل على أنهم يرون الله تعالى دائماً مستمراً لا ينقطع رؤيتهم كما يدل على دوام النضرة لهم أبداً فإن الجملة الاسمية للدوام والاستمرار ولا منافاة بينها وبين ما ثبت بالأحاديث أن من الناس من يرى الله تعالى كل جمعة منهم من يرى الله تعالى في كل جمعة أي أسبوع مرتين كذا أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة، ومنهم من يرى ربه في مقدار كل عيد لهم في الدنيا يعني في كل سنة مرتين كذا روى يحيى بن سلام عن أبي بكر بن عبد الله المزني، ومنهم من يرى في كل يوم مرتين غدوة وعشية كما مر من حديث ابن عمر لأن ثبوت دوام الرؤية إنما هو لجمع منكر وهي لا تدل على العموم أو بقدر ما هو خص من المؤمنين فيقدر المقربين فتقديره وجوه المقربين يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة دائماً أبداً، أخرج أبو نعيم عن أبي يزيد البسطامي قال: إن الله تعالى خواص من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤية لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار فظهر أن الناس في الرؤية على درجات لا تكاد تجمع، وليس المقصود من الأحاديث استيفاء رجائهم ومعنى قوله ﷺ: «أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية» أنهم من أكرمهم وهذا لا يقتضي أن لا يكون أحد أكرم منهم وإذا تقرر هذا فاعلم أن الذين يدومون النظر إلى الله تعالى أعلم بهم هم الأنبياء والمقربون من العباد الواصلين إلى الذات المجرد عن الشيون

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

والاعتبارات الذين كان حظهم في دار الدنيا من الذات التجلي الدائمي لا كالبرق الخاطف لأن من كان حظه في دار الدنيا دوام التجلي ولم يكن له الرؤية في الدنيا لعدم صلاحيته تعين هذه النشأة الرؤية كما أشير إليه في حديث ابن عباس عند أبي نعيم في الحلية فإذا زال المانع فلا جرم ينظر ذلك الرجل إلى الله دائماً وإلا لزم انعكاس الأمور ورجوعه القهقري ومن لم يكن في الدنيا دوام التجلي والحضور فيكون الرؤية لهم على تفاوت الدرجات فمن كان حظه تجلياً برقياً يرى في كل يوم مرتين أو مراراً من لم يكن كذلك ففي كل جمعة أو شهر أو سنة على ما شاء الله .

فائدة: قال المجدد رضي الله عنه في المکتوب المائة من المجلد الثالث في تحقيق سر اشتغال قلب يعقوب عليه السلام بمحبة يوسف عليه السلام : مع أن قلوب الخواص من الناس تكون فارغة عن حب غير الله تعالى أن جنة كل رجل عبارة عن ظهور اسم من أسماء الله تعالى الذي هو مبدأ التعيين ذلك الرجل وأن ذلك الاسم يتجلى بصورة الأشجار والأنهار والقصور والحدود والغلمان واستحکم هذا المكشوف بقوله ﷺ: «إن الجنة طيبة التربة عذبة - أي أنهارها - قيعان وإن غراسها هذه يعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»^(١) ثم قال المجدد رضي الله عنه إن تلك الأشجار والأنهار قد تصير في حين من الأحيان على هيئة الأجرام الزجاجية فتصير وسيلة إلى رؤية الله سبحانه غير متكيفة ثم تعود إلى حالها الذي كانت عليه فيشتغل المؤمن بنفسها وهكذا إلى أبد الأبدین، وقال: كما أن التجلي الذاتي للصوفي في الدار الدنيا تكون من وراء حجب الأسماء أو الصفات وقد يرتفع تلك الحجب فيحصل له التجلي الذاتي كالبرق الخاطف كذلك حال الرؤية في الآخرة لكل رجل يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى باعتبار اسم هو مبدأ الجنة وتجلي وتمثل لجنة وتلك الرؤية تكون كالبرق الخاطف في زمان يسير ثم تحجب عنه ويبقى نوره وبركته من واء نعيم الجنة وأشجارها، قلت: هذا تحقيق رؤية العوام من أهل الجنة وأما الخواص منهم فلما كان التجلي لهم في الدنيا دائماً فكذلك الرؤية تكون لهم دائماً. فإن قيل: قال المفسرون تقديم الجار المجرور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٣٢) يقتضي الحضر ويفيد أنهم إذا أراد ربهم يستغرقون في رؤيته تعالى لا ينظرون حينئذ إلى غيره ويؤيده حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قوله

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٢).

تعالى: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) قال: «فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم وما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم»^(١) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني فحينئذ لو كان لبعض الناس دوام الرؤية فكيف يتصور الحصر وعدم الالتفات إلى النعيم دائماً؟ قلنا: إفادة الحصر ممنوع وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل ولعل الالتفات إلى النعيم في حق ذلك البعض لا يزاحم الرؤية بل تكون نعيم الجنة في حقه مثل الأجرام الزجاجية أبداً مؤبدة للرؤية وذلك الصوفي يجمع له الرؤيتان رؤية حجاب ورؤية بتوسط النعيم ومع ذلك يرى النعيم ويلتذ به أيضاً وإن من هذا شأنه فلن يشغله شأن عن شأن وأما غيره من أهل الجنة فالالتفات إلى نعيم الجنة يشغلهم عن الرؤية وبالعكس لضيق استعدادهم، أو نقول معنى الحصر في حق من له الرؤية وأما ما روي من حديث جابر فهو حكاية عن حال عامة أهل الجنة، لا يقال: سلمنا أن التفاتهم النعيم لا يشغله عن الرؤية فكيف يجوز له التوجه إلى النعيم مع حصول شرف الرؤية لما ذكرنا أن نعيم الجنة أسماء الله تعالى فلا محذور في الالتفات إليها مع الرؤية.

فائدة: وقع في بعض كلام الأئمة أن رؤية الله خاصة لمؤمن البشر وأن الملائكة لا يرونها ونص البيهقي على خلافه محتجاً بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: خلق الله تعالى الملائكة بعبادته أصنافاً وإن منهم الملائكة قياماً صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة تجلى لها تبارك وتعالى فنظروا إلى وجه الكريم وقالوا: ما عبدناك حق عبادتك، وأخرج نحوه من وجه آخر عن عدي بن أرطان عن رجل من الصحابة وبما ذكرنا رؤية كل رجل على حسب مبدأ تعيينه يظهر فضل الملائكة على عوام مؤمني البشر لكون مبادي تعييناتهم فوق مبادي تعيينات البشر كما حققه المجدد رضي الله عنه وبما ذكرنا أن رؤية الخواص لبشر دائمة غير منقطعة يظهر فليل: خواص البشر أفضل على خواص الملائكة كما بين في كتب العقائد ﴿وَوُجُوهُ﴾ أي وجوه الكافرين أو وجوه كثيرة ﴿يَوْمَئِذٍ بِأَسْرَةٍ﴾ كالحة عابسة شديد العبوس ﴿نَظُنُّ﴾ تستيقن أربابها خبر ثاني ﴿أَنْ يُعَلَّ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ واهية عظيمة فقار الظهر، قال ابن زيد هي دخول النار، وقال الكلبي هي أن يحجب عن رؤية الرب عز وجل.

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٤)، وفيه رجل يغلب عليه الوهم.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِيَ ﴿٢١﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٢﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٣﴾ وَاللَّيَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٤﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٢٥﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٢٦﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٢٨﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٠﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَحَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٣﴾ فَعَمَلَ مِنهُ الرَّجُلِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٤﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٣٥﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة كأنه قيل ارتدعوا عن ذلك واذكروا الموت الذي عنده ينقطع الدنيا وتقبل الآخرة مخلدة ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس كناية عن غير المذكور دل عليه الكلام وإذا شرطية جزاءه إلى ربك يومئذ المساق أو ظرف متعلق بفعل دل عليه المساق أي يساقون إلى ربكم إذا بلغت ﴿النَّارِقِيَ﴾ العظام المكتنفة لشجرة النحر عن يمين وشمال ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ يسكت حفص على من ويدغم غيره أي قال حاضر والمحتضر من يرقيه مما به من الترقية كذا قال قتادة، أو قالت الملائكة الموت أيكم يورجه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب من الرق كذا قال سليمان التميمي ومقاتل بن سليمان ﴿وَوَظَنَّ﴾ المحتضر ﴿أَنَّهُ﴾ أي الذي نزل به ﴿الْفِرَاقُ﴾ أي سبب للفراق من الدنيا ومما يحبه ﴿وَاللَّيَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي إلتوت ساقه بساقه فلا يقدر تحريكهما كذا قال الشعبي والحسن ونحوه، وقال ابن عباس التوت أمر الدنيا بأمر الآخرة فكان آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فيجتمع عليه شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، وقال الضحاك معناه أن الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره ﴿يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي سوق ومرجعه يحكم فيه ما يشاء ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ الرسول والقرآن أو لا صدق ماله أي لم يترك ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لله ما فرض عليه قوله فلا صدق عطف على مضمون أيحسب الإنسان فإن التوبيخ يستلزم الوقوع تقديره حسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه ولا نبعثه فلا صدق ولا صلى والضمير فيهما راجع إلى الإنسان فالسياق يقتضي أن يكون ذلك حكاية عن عدي بن ربيعة المذكور، وقال البغوي المراد أبو جهل ولو حمل الإنسان على الجنس لكان شاملاً لهما ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ النبي ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان به ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ أي يسرع في سيره، في القاموس مطى جد في السير والسرع، في الصحاح معناه يمد مطاه أي ظهره ومنه يقال لا يركب ظهره مطيه كالبعير، وقيل: أصله يتمطط أبدلت الطاء ياء اجتماع ثلاثة أحرف مماثلة والطاء هو المد، وحاصل المعنى يتبختر لأن المتبختر يمد عنقه ويمد

خطاياهم ﴿أُولَٰئِكَ لَكَ﴾ جملة دعائية بمعنى ويل لك أو تهديد ووعيد وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَأُولَٰئِكَ نُمِّ أُولَٰئِكَ لَكَ فَأُولَٰئِكَ﴾ كرهه للتأكيد ويحتمل أن يراد به ويل لك في الدنيا بالقتل واللعن وذكر السوء والتعذيب وويل لك يوم الموت وويل لك إذ بعثت وويل لك إذا دخلت النار فهو نقيض ما قيل في يحيى عليه السلام ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١) ﴿٢٥﴾ فهو أفعال من الويل بعد القلب كأدنى من دون وقيل: أصله أولئك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما في قوله ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾ (٢) أي ردفكم وقيل: أصله أولى لك الهلاك وقيل هو فعل من آل يؤل أمرك إلى الشرك، وقيل هو اسم فعل بمعنى وليك ما تكرهه في القاموس أولى لك تهدد ووعيد أي قاربك الهلاك فهو من الولي بمعنى القرب، قال قتادة ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى فقال أبو جهل أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت وربك أن تفعلوا بي شيئاً وإنني أعز من مشى بين جبلها فلما كان يوم بدر صرعه الله أشد مصرع وقتله سوء قتل، وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن لكل أمة فرعوناً وإن فرعون هذه أبو جهل» (٣) وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (٢٥) قال أبو جهل لقريش ثلكتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى الله تعالى إلى رسوله أن يأتي أبا جهل فيقول له: ﴿أُولَٰئِكَ لَكَ فَأُولَٰئِكَ﴾ (٢٥) ثم ﴿أُولَٰئِكَ لَكَ فَأُولَٰئِكَ﴾ (٢٥) وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَكَ فَأُولَٰئِكَ﴾ (٢٥) قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزل الله ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٢٦) أمال حمزة والكسائي مهمللاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يجازي حيث ينكر البعث فإن إنكار البعث يقتضي كونه مهمللاً مع أن الحكمة في خلقه ليس إلا التكليف قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) (٤) وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبُودُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (٥) وكيف ينكر الإنسان البعث ويستحيله ﴿الَّذِيكَ نُطْفَعُ مِنْ مَنِيٍّ يُنْتَنَى﴾ (٢٧) يصب في الرحم قرأ حفص بالياء على التذكير راجعاً إلى المنى والباقون بالتاء رداً إلى النطفة ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ الإنسان بعد كونه نطفة ﴿عَلَقَةً﴾ بعد أربعين يوماً ثم مضغة كذلك ثم عظاماً

(١) سورة مريم، الآية: ١٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

فكسيت لحماً ﴿فَمَلَقَ﴾ الله تعالى إياه وإيانا بنفح روحه فيه ﴿فَسَوَّيْنَا﴾ وعدل خلقه بلا نقصان ﴿فَجَعَلْنَا﴾ الله سبحانه ﴿بِنُتْهُ﴾ أي من المنى الذي صار علقة ثم مضغة ثم عظماً ولحماً ﴿الرَّزَوِجِينَ﴾ الصنفين يجتمعان في الرحم تارة وينفرد كل منهما عن الآخر أخرى ﴿الذَّكَّرَ﴾ وَاللَّائِيَةَ أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ الله الذي يفعل ذلك ويوجد بلا سبق وجود ﴿يَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُونَ﴾ إنكار جواز البعث مع مشاهدة ما هو أعجب منه يقتضي كمال الحمق أو العناد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُونَ﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ والمرسلات فبلغ فبأي حديث بعده يؤمنون فليقل: آمنا بالله»^(١) وعن موسى بن عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى قال: سبحانك بلى فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ روى الحديثين أبو داود.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: مقدار الركوع والسجود (٨٨٥).

سورة الدهر

مكية وهي إحدى وثلاثون آية

قال قتادة ومجاهد مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ (٤) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (٥) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٦) ﴿يُفُونَ بِالَّذِينَ نَسُوا يَوْمًا كَانَ سُذُوذًا مِّنْ سُذُوبٍ﴾ (٧) ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ وَنِسَاءِ رَبِّكَ وَإِنَّا لَنَظْمَرُ لَهُمْ لَوْنَهُ اللَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٨) ﴿إِنَّا نَحْنُ غَنِيٌّ مِّنْ رَبِّكَ وَإِنَّا لَمُطْمَئِنُونَ﴾ (٩)

﴿هَلْ أَتَى﴾ استفهام تقرير ومعناه قد أتى ومضى ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ المراد به الجنس أو آدم ﷺ ﴿حِينٌ﴾ قال البيضاوي أي طائفة محدودة من الزمان، وفي القاموس الحين وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر وقيل يختص بأربعين سنة أو ستين سنة أو شهر أو شهرين ﴿مِنَ الدَّهْرِ﴾ أي من الممتد الغير المحدود، وفي القاموس الدهر الزمان الطويل أو ألف سنة، قلت: هو مدة عمر آدم ﷺ وفي الصحاح الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبتدأ وجوده إلى انقضائه وعلى ذلك قوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ الآية ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة دهر فلان مدة حياته ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ حال من الإنسان أي حال كونه لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد أو صفة لحين والعاقد محذوف أي لم يكن فيه شيئاً مذكوراً أو هذا الكلام يقتضي كونه شيئاً وإلا لم يوصف بأنه قد أتى عليه ويقتضي كونه غير مذكور بل منسياً فيه فقال المفسرون وذلك إن أريد به آدم ﷺ فذلك الحين حين صوره الله تعالى من الطين فكان ملقى بين مكة والطائف أربعين سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، وقال ابن عباس ثم خلقه الله تعالى بعد عشرين ومائة سنة وإن أريد به الجنس فذلك الحين أربعة أشهر حين كان نطفة أو علقة أو

مضغة إلى نفخ الروح وستة أشهر أقل مدة الحمل وستين أكثرها وقيل: أكثر مدة الحمل سبع سنين، وعلى التقديرين لا يخلو الكلام عن التسامح لأن ذلك الحين لم يأت على الإنسان بل على الطين المصور النطفة ونحوها والظاهر أن الكلام يقتضي كونه إنساناً لأن عقد الوضع قبل عقد الحمل فالأولى أن يحتمل ذلك الكون على كونه في مرتبة الأعيان الثابتة التي اهتدى إليها الصوفية ويدل على هذا التأويل تنكير حين فإنه للتكثير روي عن ابن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ فقال: ليتها تمت يريد ليتها بقي - على ما كان غير مذكور أبداً وهذا القول أولى بالتأويل الأخير دون ما سبق، وللصوفية ههنا تأويل آخر هل أتى على الإنسان أي على الصوفي حين من الدهر لم يكن لا شيئاً مذكوراً بعدما كان مذكوراً بالإنسانية وغيرها من الصفات وذلك حين الاستهلاك والفناء الأتم بحيث لا يبقى في علمه شيئاً مذكوراً، قال المجدد نعم ربّ قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً لا عيناً ولا أثراً ولا شهوداً ولا وجوداً ثم يصير بعد ذلك إن شئت حياً بحياتك وباقياً ببقائك ومتخلقاً بأخلاقك بل صار باقياً بك وبفضلك في عين الفناء وما ينافيك في عين البقاء، قلت: وقول المجدد ثم يصير بعد ذلك الخ كأنه تفسير لقوله تعالى، فمن ابتدائية والدهر يعد من أسماء الله تعالى الحسنى كذا في القاموس، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»^(١) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي ذريته إن كان المراد بالإنسان الأول آدم ﷺ وإلا فالمراد فيهما الجنس ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ جمع شيج أو شيج من الشجب الشيء إذا خلطته وصف النطفة بالجمع لأن المراد به مجموع مني الرجل والمرأة وكل منها مختلفة الأجزاء والأوصاف في الرقة والقوام والخواص، وقيل: أمشاج مفرد بمعنى مختلطة يختلط فيه مني الرجل والمرأة فهو حينئذ على وزن أعشار يقال برمة أعشار بمعنى يحمله عشرة، يقال يمان كل يومين اختلطا فهو أمشاج وقال قتادة معناه أطوار أي ذات أطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة أي تمام الخلق ﴿بِتَلْيِهِ﴾ حال من الإنسان ذكر الابتلاء وأراد به نقله من حال إلى حال مجازاً أو حال مقدرة أي مقدرين ابتلائه ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ لتمكن من استماع الدلائل ومشاهدة الآيات فهو كالمسبب للابتلاء ولذا عطف على ما قيد به ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ﴾ أي بيناه أي الإنسان ﴿السَّبِيلَ﴾ إلى الله وإلى مرضياته وجنته بنصب الدلائل وبعث الرسل وإنزال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا الذَّهْرَ﴾ (٤٨٢٦)، وأخرجه مسلم في

كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

الكتب والمراد بالهداية ههنا إراءة الطريق دون إيصال بخلاف قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان من الهاء أي هديناه السبيل مقدرين منه أحد الأمرين أمر الشكر على الهداية وقبولها أو الكفر والإنكار، وقيل حال من السبيل يعني هديناه السبيل حال كون السبيل سبيل الشكر أو الكفران وصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً، والترديد إنما هو حالتي السبيل من الشكر والكفران دون الإراءة تعلقت يقسمي السبيل وحالته معاً فلا يجوز يقال إن هذا التأويل غير مستحسن فإن إراءة طريق الحق حقاً وطريق الباطل باطلاً مستلزم أحدهما الآخر فلا يتصور هناك الترديد فالترديد يقتضي أن يكون معناه أريناه أحد الطريقين دون الآخر أرينه الحق أو الباطل حقاً فسلك تلك الطريق وحينئذ يلزم كون الإنسان مقدوراً على سلوك طريق الباطل وقيل معنى الكلام الشرط والجزاء فإما مركباً أن الشرطية وما الزائدة فمعناه إن كان شاكراً أو كفوراً فقد هديناه السبيل ولم نترك عذراً. وقال كفوراً ولم يقل كافراً حتى طابقت قسميه لرعاية الفواصل ولأن الشاكر قلما يخلو عن نوع من الكفران فقسمه هو المبالغ في الكفران، وجملة إنا هديناه السبيل مستأنفة فكأنه في جواب من قال فما فعل بالإنسان وما فعل هو بعد ما خلق وجعل له السمع والبصر ﴿إِنَّمَا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ في جهنم ﴿وَأَعْلَلْنَا﴾ قرأ نافع والكسائي وأبو بكر وهشام سلاسلًا بالتثنية للمناسبة وصلاً وقفوا بالألف عوضاً منه وقرأ الباقون بغير تثنية وصلاً وقف حمزة وقنبل وحفص بغير ألف وكذا روى عن البزي وابن ذكوان وقف الباقون بالألف صلة للفتحة ﴿وَأَعْلَلْنَا﴾ في أيديهم تغل إلى عنقهم ﴿وَسَعِيرًا﴾ وقوداً شديد أو هذه الجملة والتي بعدها مستأنفتين كأنهما في جواب ما نصيب الشاكرين وما نصيب الكافرين وقدم وعيد الكافرين مع تأخر ذكرهم لأن إنذارهم أنفع وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جمع بر بفتح الباء كأرباب أو بار كالشهادة يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم والمطيعين لربهم ومصدره البر كسر الباء بمعنى الصلة والخير والاتساع في الإحسان والصدق في الطاعة كذا في القاموس وكل ذلك صفات المؤمنين ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ قال في الصحاح الكأس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً يقال كأس خال ويقال شربت كأساً وكأساً طيبة، وفي القاموس الكأس الإناء يشرب فيه أو ما دام الشراب فيه ولا تخصيص في الشراب بخمر أو لبن أو عسل أو ماء وههنا يحتمل أن يكون الإناء أو من للابتداء والمعنى يشربون مشروباً خمرًا ولبنًا وماءً وعسلًا من كأس أي من ظرفه، ويحتمل أن يكون بمعنى المشروب إما حقيقة أو مجازاً تسمية الحال باسم المحل نحو جرى النهر

ومن حينئذ إما زائدة أو للتبعيض أو للبيان ويحتمل أن يكون الإناء بما فيه ويكون من للابتداء ﴿كَانَ مِرْآجُهَا﴾ ما تمزج الضمير عائد إلى كأس حقيقة إن كان بمعنى الشرب ومجازاً على طريقة إذا نزل السماء بأرض قوم وعيناً إن كان بمعنى الإناء يعني كان مزاج ما فيها ﴿كَافُورًا﴾ قال قتادة يمزج بهم بالكافور ويختم بالمسك، وقال عكرمة مزاجها طعمها كافوراً ككافور في طيب الطعم والريح كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾^(١) أي كنار، وقال عطاء والكلبي الكافور اسم لعين الماء في الجنة ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِرْآجُهُ مِنْ سُنْبُلٍ﴾^(٢) ﴿عَيْنًا﴾ بدل من كافور إن جعل اسم ماء أو بدل من محل من كأس على تقدير مضاف أي ماء عين أو منصوب على الاختصاص أو المدح أو بفعل يفسره ما بعده ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء زائدة أي يشربها أو صلة على تضمين يعني ملتذاً بها أو ممزوجاً بها أو بمعنى من الابتداء ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ الذين عبدوا الله وحده مخلصين له الدين ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يقودون تلك العين ويجرونها إجراء سهلاً حيث شاءوا من منازلهم وقصورهم، أخرج عبد الله بن أحمد في رواية الزهد عن ابن شوذب قال فهم قضيان من ذهب يفجرونها بها بتبع قضائها ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ جملة مستأنفة في جواب ما بالهم يثابون كذلك أو في جواب الأبرار ما هم فهو تعريف للأبرار بأنهم يؤدون الواجبات ويخافون الله فيجتنبون المكروهات ويرحمون العباد ويفعلون الحسنات خالصاً لله تعالى ابتغاء مرضاته هذا شأن الأبرار ويحصل ذلك المراتب بعد فناء النفس وزوال رذائله وأما المقربون فشأنهم أرفع من ذلك أو تعليل لما سبق يعني أن الأبرار يشربون الخ لأنهم يوفون النذر في الدنيا والنذر في اللغة أن توجب على نفسك ما ليس بواجب كذا في الصحاح وإيفائهم ما يوجبوا على أنفسهم ما ليس بواجب عليه يدل بالطريق الأولى على إيفائهم ما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد وغيرها، فلعله هو المراد بما قال قتادة يوفون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وغيرها من الواجبات للإيجاب.

فصل: ولما كان النذر عبارة عن إيجابه على نفس ما ليس بواجب ظهر أنه لا بد لانعقاده من شرطين أحدهما أن يكون طاعة فإن ما ليس بطاعة لا يصلح للإيجاب قال رسول الله ﷺ: «إنما النذر ما ابتغي به وجه الله»^(٣) رواه أحمد من حديث عبد الله بن

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٧.

(٣) رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد ضعفه بعضهم ووثقه آخرون. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأيمان والنذور، باب: لا نذر في معصية الله إنما النذر ما ابتغي به وجه الله (٦٩٥٣).

عمرو بن العاص والثاني أن لا يكون واجباً بإيجاب الله تعالى وقال أبو حنيفة ولا بد أيضاً أن يكون العبادة مقصودة بنفسها وأن يكون من جنسها واجب بإيجاب الله وعند الجمهور لا يشترط ذنك الشرطين والإجماع على وجوب الاعتكاف بالنذر يقتضي انتفاء هذين الشرطين فإنه عبادة لأجل انتظار الصلاة لا بنفسه وليس منه عينه واجب ومن ثم قال الشافعي يجب بالنذر كل قرينة لا تجب ابتداء كعبادة المريض وتشيع الجنابة والسلام ويدل على التعميم حديث عائشة «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»^(١) رواه البخاري، وزاد الطحاوي وفي هذه الوجه وليكفر عنه عن يمينه قال ابن العطاء عند الشك في رفع هذه الزيادة.

مسألة:

من نذر بطاعة وقيد بقيود للطاعة فيها يلغو تلك القيود وينعقد النذر بالطاعة كمن نذر بالصلاة في مكان معين وبالصوم قائماً ونحو ذلك فيجب الصلاة والصوم ويتأدى بكل مكان وعلى كل حال إجماعاً، إلا أن أبا يوسف والشافعي وغيرهما قالوا لو نذر أن يصلي في المسجد الحرام لم يجزه في غيره ولو نذر في المسجد الأقصى أو مسجد النبي ﷺ يجوز له الأداء في المسجد الحرام ولم يجزه فيما هو أقل منه فضلاً وقال أبو حنيفة في جميع الصور يجوز الأداء في كل مكان، وفي حديث جابر أن رجلاً قال يوم الفتح يا رسول الله ﷺ إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في البيت المقدس فقال له رسول الله ﷺ: «صل ههنا» فأعادها على النبي ﷺ مرتين أو ثلاثاً فقال النبي ﷺ: «شأنك إذا»^(٢) رواه أبو داود والدارمي فهذا الحديث ألغى أبو حنيفة تقييده بالمسجد الأقصى، قال أبو يوسف والشافعي تقييده الصلاة بمسجد من هذا المساجد الثلاثة كثرة الثواب والمعنى الطاعة فلا يلغى عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيها سواه إلا المسجد الحرام»^(٣) متفق عليه، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمسائة صلاة وصلاته في المسجد الأقصى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر في الطاعة (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من نذر أن يصلي في بيت المقدس (٣٢٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: فضل الصلاة، بمسجدي مكة والمدينة (١٣٩٤).

بألف صلاة وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة وصلاته في المسجد الحرام مائة ألف صلاة»^(١) رواه ابن ماجه، وقال: إنما ذلك على الصلاة المكتوبات لا على النوافل عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة»^(٢) رواه أبو داود والترمذي، وما يدل على إلغاء قيود لا طاعة وفيها حديث ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس فسأل عنه فقال: أبو إسرائيل نذر أن يكون ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ولا يصوم فقال: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»^(٣) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان ورواه البخاري وليس فيه في الشمس ورواه مالك في الموطأ مرسلًا وفيه فأمره بإتمام ما كان لله طاعة وتترك ما كان معصية قال مالك ولم يبلغني أنه أمر بكفارة وأخرجه الشافعي وفي آخره ولم يأمره بكفارة ورواه البيهقي من حديث محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس وفيه الأمر بالكفارة، ومحمد بن كريب ضعيف.

مسألة: من فاته ما وجب عليه بالنذر يجب قضاءه بمثله حقيقة أو حكماً فيقتضي الصلاة بالصلاة والصوم بالصوم والشيخ الفاني يطعم بكل صوم مسكيناً ومن نذر الحج ماشياً فركب بعذر يهدي هدياً وبه، قال الجمهور وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة وفي رواية الأصل عن أبي حنيفة لا يجب عليه المشي في الحج بالنذر فلا يجب عليه الهدى لحديث عقبة بن عامر الجهني قال: نذرت أختي أن تمشي إلى الكعبة حافية حاسرة فأتى عليها رسول الله ﷺ فقال: ما بال هذه؟ قالوا: نذرت أن تمشي إلى الكعبة حافية حاسرة قال «مروها فلتركب ولتخمر» متفق عليه، وحديث أنس أن رسول الله ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنين له فسأل عنه فقال: نذر أن يمشي فقال إن الله لغني عن تعذيب هذا وأمره بأن يركب»^(٤) متفق عليه، قلنا: أما حديث عقبة بن عامر فقد رواه أبو داود بسند جيد نذرت

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الصلاة في المسجد الجامع (٤١٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الصلاة، باب: ما جاء في فضل صلاة التطوع في البيت (٤٤٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الرجل المتطوع في بيته (١٠٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر في المعصية (٣٢٨٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من خلط في نذره طاعة بمعصية (٢١٣٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: جزاء الصيد، باب: من نذر المشي إلى الكعبة (١٨٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٢).

أختي أن تمش إلى البيت فأمر النبي ﷺ أن تركب وتهدى هدياً وروى داود من حديث زيد بن عباس بلفظ أن أخت عقبة بن عامر نذرت إن تحج ماشية وأن لا تطيق ذلك فقال النبي ﷺ: «إن الله غني عن مشي أختك فلتركب ولتهد بدنة»، وروى الطحاوي من حديث عقبة بن عامر نحوه بسند حسن فظهر أن ما في الصحيحين فيه اختصار على ذكر بعض المروري وما ذكرنا من الروايات يقتضي تخصيص البدنة بالهدى وروى عبد الرزاق عن علي بسند صحيح فيمن نذر أن يمشي إلى البيت قال: يمشي فإن عيي ركب وأهدى جزوراً وأخرج نحوه عن ابن عمر وابن عباس وقتادة والحسن.

مسألة:

ومن نذر بمعصية أو بأمر مباح لا يصلح للطاعة لا يجب ولا ينعقد النذر إجماعاً فيلغو عند أبي حنيفة وعند الجمهور يتعقد يميناً للتحرز عن إلغاء كلام العاقل وصيغته أكيد يصلح لكونه يميناً لفظاً لاشتماله على ذكر اسم الله تعالى ومعنى لأن فيه تحريم ضد المنذور فعندهم يجب أن يحنث ويكفر في المعصية وفي المباح يخير بين أن يفعل أو يكفر والحجة لهم أحاديث، حديث عقبة بن عامر «كفارة النذر كفارة اليمين»^(١) رواه مسلم وحديث عمران بن حصين مرفوعاً «لا نذر في معصية الله وكفارة اليمين»^(٢) رواه النسائي والحاكم والبيهقي ومداره على محمد بن زبير الحنظلي، وهو ليس بالقوي وقال الحافظ ابن حجر له طريق آخر إسنادها صحيح إلا أنه معلول ورواه أحمد وأصحاب السنن والبيهقي من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وهو منقطع لم يسمع أبو سلمة عن أبي هريرة ورواه أصحاب السنن عن عائشة وفيه سليمان بن أرقم متروك، ورواه الدارقطني عن عائشة مرفوعاً: «من جعل عليه نذراً في معصية الله فكفارته كفارة اليمين» وفيه غالب بن عبد الله متروك وروى أبو داود من حديث كريب عن ابن عباس وإسناده حسن قال النووي حديث لا نذر في معصية الله فكفارته كفارة يمين ضعيف باتفاق المحدثين، وقال الحافظ قد صححه الطحاوي وأبو علي بن السكن وحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً أطاقه فليف به»^(٣) رواه أبو داود وابن ماجه،

(١) أخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٥).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الأيمان والنذور، باب: كفارة النذر (٣٨٤٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من نذر نذراً لا يطيقه (٣٣٢٣)، وأخرجه ابن

ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من نذر نذراً ولم يسمه (٢١٢٨).

وحديث ثابت بن الضحاك أن رجلاً نذر أن ينحر إبلاً في موضع وفي رواية ببوانة فقال له رسول الله ﷺ هل كان فيه وثن من الأوثان الجاهلية تعبد؟ قالوا: لا، قال: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك»^(١) رواه أبو داود وسنده صحيح وروى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ونحوه روى ابن ماجه عن ابن عباس، وهذا الحديث يدل على جواز وفاء النذر بما ليس بطاعة ولا معصية وكذا حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة قالت يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف تعني عند قدومك قال: أوفي بنذرك رواه أبو داود، ولعل ذلك قبل تحريم الضرب بالدف والنذر المعلق عند وجود الشرط حكمه حكم المنجز مطلقاً عند أبي حنيفة في ظاهر الرواية وعند أبي يوسف وهي رواية عن الشافعي، وبه قال مالك غير أنه قال في صدقة جميع المال يلزمه التصديق بالثلث وفيما سوى ذلك فعنده يجب عليه الوفاء بما أوجب لا غير وروى عن أبي حنيفة أنه رجع عن هذا القول وقال: أجزأه عن المعلق كفارة يمين ويخرج عن العهدة بفعله وبه قال محمد واختار صاحب الهداية والمحققون عن علماء الحنفية أن المراد بالشرط الذي يجزئ عنه الكفارة عند أبي حنيفة الشرط الذي لا يريد وجوده نحو إن دخلت الدار وكلمت فلاناً أو فعلت كذا فعلي حج أو صوم سنة ويسمى هذا النذر الحاج وأما الشرط الذي يريد وجوده نحو إن شعبت أو قدم غائبي أو مات عدوي أو ولدت امرأتي ابناً فعلي كذا، قالوا وجب عليه الوفاء لا غير ويسمى هذا النذر نذر تبرر ولهذا التفصيل قال أحمد وهي الأظهر من الروايات عن الشافعي والرواية الثالث عن الشافعي أن الواجب في النذر الحاج الكفارة لا غير وهي رواية عن أحمد عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحب القسمة، فقال: إن عدت بشأنهما القسمة فكل ما لي في رباح الكعبة فقال له عمر إن الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب ولا في قطعة الرحم ولا فيما لا يملك» رواه أبو داود.

مسألة:

ومن نذر بعبادة لا يطيقها جاز له أن يكفر عنه وقال أبو حنيفة يستغفر الله ولا كفارة عليه لنا ما مر من حديث ابن عباس «من نذر نذر لا يطيقه فكفارته كفارة يمين» وحديث

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما يؤمر به من وفاء النذر (٣٣٠٣).

في قصة أخت عقبة قال النبي ﷺ: «إن الله لا يصنع بشقاء أختك مشياً فلتركب ولتحج راكبة وتكفر يمينها» رواه أبو داود، وعن عبد الله بن مالك عن عقبة بن عامر قال: نذرت أختي أن أحج لله ماشية غير مختمرة فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ قال: قل لأختك فلتخمر ولتركب ولتصم ثلاثة»^(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وروى الطحاوي نحوه، ووجه الجمع أن النبي ﷺ لعله أمره الكفارة بعد ما علم عجزها عن هذا والله تعالى أعلم ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شُرُومًا﴾ أي مكروهه في الصحاح الشر الذي يرغب عنه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ تنتشر غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر، قال مقاتل كان شره فاشياً في السموات فانشقت وتناثر كواكبها وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة وفي الأرض فنسفت الجبال وغار المياه فكسر كل شيء على الأرض من جبال وبناء فيه إشعار إلى حسن عقيدتهم واجتبابهم بهم عن المعاصي كما أن في يوفون بالندر دلالة على إتيانهم الواجبات وقوله تعالى: ﴿وَيَطْعَمُونَ أَطْعَامًا﴾ إلى آخره إشارة إلى ترحمهم على عباد الله وإتيانهم الحسنات النافلات خالصاً لله تعالى ابتغاء مرضاته ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي على حب الله تعالى أو على حبهم الإطعام وحاجتهم إليه ﴿مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: لم يكن النبي ﷺ يأسر أهل الإسلام ولكنها نزلت في أهل الشرك كانوا يأسرونهم في الله فنزلت فيهم فكان النبي ﷺ يأمر بالإحسان إليهم كذا قال قتادة وقال مجاهد وسعيد بن جبير هو المسجون من أهل القبلة والأول أظهر، وقيل: الأسير المملوك وقيل: المرأة قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله سبحانه في الضعيفين المملوك والمرأة»، رواه ابن عساكر عن أبي عمر وعن أم سلمة «اتقوا الله في الصلاة وما ملكت» رواه الخطيب وروى البخاري في الأدب عن علي مرفوعاً «اتقوا الله في ما ملكت إيمانكم» وروى البغوي «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان» قال البغوي اختلفوا في سبب نزول هذه الآية؟ قال مقاتل نزلت في رجل من الأنصار أطمع في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وروى مجاهد وعطاء عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب وذلك أنه عمل لليهودي بشيء من شعير فقبض الشعير فطحن منه ثلاثة، فأصلحوا منه شيئاً ليأكلوه

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأيمان والندور، باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير ملة الإسلام (١٥٤٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والندور، باب: من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية (٣٢٨٤)، وأخرجه النسائي في كتاب: الأيمان والندور، باب: إذا حلفت المرأة لتمشي حافرة غير مختمرة (٣٨١٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من نذر أن يحج ماشياً (٢١٣٤).

فلما تم انضاجه أتى مسكين فسأله فأخرجوا إليه الطعام ثم عمل الثلث الثاني فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأل فأطعموه ثم عمل الثلث الباقي فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه وطووا ليومهم ذلك وروى الثعلبي عن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا الحسن لو نذرت علي ولدك فنذر علي وفاطمة وقضة جاريته لهما أن يصوموا ثلاثة أيام إن برأ فشفيا وما معهم طعام فاستقرض علي من سمعون الخبيري ثلاث أصوع من الشعير فطحنت فاطمة ﷺ صاعاً وخبزت خمسة أقراص فوضعوا بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم مسكين فأثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم فوقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك، فنزل جبرائيل بهذه السورة وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك. قال: الحكيم الترمذي هذا حديث معضل لا يروح إلا على أحمق وجاهل وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وقال هذا لا يشك في وضعه قال السيوطي لأن السورة مكية ودخول علي فاطمة بعد الهجرة بسنتين، قلت: وهذا الاعتراض ملحق بما قال مقاتل وما قال مجاهد وعطاء أيضاً فإن نزول الآية في رجل من الأنصار يقتضي كون الآية مدنية وكذا عمل علي لليهودي بشيء من الشعير أيضاً لا يتصور إلا في المدينة لأن اليهود لم يكونوا بمكة بل نفس الآية يقتضي كونها مدنية لأن الأسارى لم تكن إلا بالمدينة لم يكن بمكة جهاد ولا أسر فالظاهر أن بعض هذه السورة مدنية وإن كانت بعضها مكية وعلى كون كلها مكية ففي الآية إخبار بالغيب عن حال المسلمين بعد الهجرة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ حال من يطعمون بتقدير القول أي قائلين نطعم لهم هذا القول إما تحقيقاً أو تقدير القول بلسان الحال، قال مجاهد وسعيد بن جبير أنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله ذلك من قلوبهم فأثنى عليهم ﴿لِيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ لفظ الوجه مقحم أي الله وطلب مرضاته ثوابه ﴿لَا تُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً﴾ عوضاً بدنيا ولا مالياً ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ مصدر كالدخول والجروح والقبول روى عن عائشة أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث، قالوا فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى صواب الصدقة لها خالصاً عند الله ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ تعليل للإطعام بعد تعليل كأنه معطوف على لوجه الله بحذف العاطفة وحذف حرف الجر يعني نطعمكم طمعاً وخوفاً من الله المطلوب مرضاته وثوابه للخوف من غضبه وعذابه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع عنه سوء»^(١) رواه الترمذي ﴿يَوْمًا﴾ ظرف لمقدر أي نخاف من عذاب ربنا ﴿عَبُوسًا﴾ العبوس الذي يجمع ما بين عينيه

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في فضل الصدقة (٦٥٧).

حزناً وصف اليوم به مجازاً على طريقة نهارك صايم ﴿فَطَرِيرًا﴾ شديد العبوس كذا قال الكلبي وقال أخفش قمطير أشد ما يكون من الأيام وأطولها في بلاء وفي القاموس القمطير الشديد وأقمطر اشتد نفسه ترقى من الأدنى إلى الأعلى.

﴿فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَجَزَّهَهُمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ﴿١٢﴾
 ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ ﴿١٣﴾ ﴿وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿وَوُضِعَتْ لَهُمْ عَلَيْهَا بِرَائِدَةٌ مِّنْ فَضْءٍ وَأَكْوَابٌ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ ﴿١٦﴾
 ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ رِزَاقِهَا زَيْجِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَدَّرُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمُ رَبُّهُمْ سَرَارًا طَهُورًا﴾ ﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿٢٢﴾

﴿فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ﴾ ذكر المستقبل بلفظ الماضي إشعاراً لقطع وقوعه الفاء للسببية أي لأجل خوفهم واجتناباً بموجب العذاب في ذلك اليوم وقاهم الله ﴿شَرَّ﴾ أي مكاره ﴿ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمُ﴾ أعطاهم بدل العبوسة ﴿نَصْرَةً﴾ حسناً في الوجه ﴿وَسُرُورًا﴾ في القلب ﴿وَجَزَّهَهُمُ﴾ الله حيث لم يطلب الجزاء عن غيره ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعات الله عن معاصية وعلى الجوع عند الطعام المسكين، وعلى القتل في الجهاد وعلى المعصية عند الصدقة ﴿جَنَّةً﴾ دخولها ﴿وَحَرِيرًا﴾ ألبسوه ﴿مُتَّكِينَ﴾ حال من الضمير المنصوب في جزاء أو من المرفوع في أدخلوا المقدر ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي السرر في الحجال، أخرج البيهقي عن ابن عباس قال: لا يكون الأرائك حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان سرير بغير حجلة لا يكون أرائكة وإن كان حجلته بغير سرير لا يكون أرائكة فإذا اجتمعا كان أرائكة ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ حال من فاعل متكئين أو من ذي حاله ﴿فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ قال في القاموس الزمهيرير شدة البرد القمر وازمهرت الكواكب أي لمعت فالمراد بالزمهيرير إما شدة البرد وبالشمس لازمه أي الحر فالمعنى لا حر فيها ولا برد ليدوم فيها هواء معتدل، أخرج ابن المبارك وعبد الله بن أحمد في زوائده وابن مسعود قال: الجنة سجيح لا حر فيها ولا قرأ والمراد بالزمهيرير القمر أو لامع من الكواكب فالمعنى الجنة مضيئة بنفسها ومشرقة بنور ربها لا يحتاج إلى شمس ولا إلى قمر أخرج البيهقي عن شعيب بن الجيحان قال: خرجت أنا وأبو عالية الرباعي قبل طلوع الشمس فقال: ينسب أن الجنة هكذا ثم تلا ﴿وَوَظِلٌّ مَّذُورٌ﴾

﴿٢٦﴾ قلت: ليس معنى قول أبي العالية الجنة هكذا تشبيه بنور الصبح فإنه نور ضعيف متلط بالظلمة كما لا يخفى بل تشبيه في انبساط نوره بل انقطاع ﴿وَدَائِيَّةٌ﴾ أي قريبة عطف على متكئين أو على محل لا يرون ويرون دائية أو على جنة بتقدير الموصوف أي وجنة أخرى دائية عليهم ظلالها فيكون نظيراً لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ﴿٢٦﴾^(١) لكن لهذا التأويل ضعف لاقتضائه أن لا يكون الجنة الأولى دائية الظلال إذا القسمة تنافي الشركة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي منهم ﴿ظِلَّلَهَا﴾ فاعل دائية ﴿وَذُلَّتْ﴾ حال من ظلالها بتقدير قد أو عطف على دائية على طريقة ﴿فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾^(٢) أو حال من ذي حال دائية والعائد محذوف أي ذلت لهم ﴿فُطُوفُهَا﴾ أي ثماراً ﴿نَدِيلًا﴾ أي جعلت سهل التناول لا يمتنع على قطفها كيف شاؤوا، أخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن البراء بن عازب أن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وعوداً مضطجعين على أي حال شاؤوا ﴿وَيَطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتِهِ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي أباريق بلا عرى، كذا أخرج هناد عن مجاهد ﴿كَانَتْ﴾ أي الكواكب الجملة صفة بها ﴿قَوَارِيرًا﴾ حال من فاعل كانت على تقدير كونها تامة أي تكونت أكواب حال كونها قوارير أي مثل قوارير وخبرها على تقدير كونها ناقصة أي تكون مثلها في الصفاء، أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: آنية من فضة صفائها كصفاء القوارير وأخرج سعيد بن مسعود بن عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عباس لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذباب لم يرى الماء من ورائها لكن من أواني الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فَضَّةٍ﴾ بدل من الأول، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبه القوارير من فضة قال الكلبي إن الله جعل قوارير كل قوم من تراب أرضهم وإن أرض الجنة من فضة فعل منها قوارير يشربون فيها قرأ ابن كثير قوارير الأول بالتنوين لتناسب رؤوس الآي والثاني بلا تنوين بعدم الانصراف، وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر كلاهما بالألف تبعاً للخط لا حمراً فيغير الألف من نون الثاني أيضاً بالألف عوضاً من التنوين ومن لم ينون وقف بغير ألف على القياس إلا هشام فبالألف صلة للفتحة على الرواية ﴿فَدَرَوْهَا نَقِيرًا﴾ صفة ثانية لأكواب أو حال بتقدير قد والمعنى قدرها لهم لاسقاة والخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ربهم لا يزيد ولا ينقص، كذا أخرج الفريابي في نفسه عن ابن عباس قال: الشيخ الأجل يعقوب الكرخي رحمته الله: لعل هذا إشارة إلى أن مقادير الأكواب يكون

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

على حسب مقادير استعدادات الأرواح في المعارف الإلهية وأخرج هنا عن مجاهد تقديرها أنها ليست بالملآن التي تفيضه لا ناقصة بقدر أو المعنى قدرها أهل الجنة في أنفسهم فجاءت مقاديرها وأشكالها لما تمنوه أو قدره بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ معطوف على يطاف عليهم ﴿كَأْسًا﴾ المراد بالكأس ههنا المشروب إما حقيقة أو على طريق جرى النهر ﴿كَأَنَّ رِزَاقَهَا زَنْجِبِيلًا﴾ صفة لكأس كانت العرب يستلذون الشراب الممزوج بالزنجبيل فواعد الله بذلك قال ابن عباس ما ذكر الله في القرآن بما في الجنة وسماه ليس له في الدنيا مثل، وقيل عين في الجنة يوجد منها طعم الزنجبيل وقال قتادة: يشربها المقربون صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة قلت ذكر الله تعالى في الجنة كأساً كان مزاجها كافوراً وكأساً مزاجها زنجبيلاً ذلك على اختلاف رغبة الشاربين فإن محروور الطبيعة يعجبه التبريد فيرغب إلى كأس كان مزاجها كافوراً والمبرود يعجبه التسخين فيرغب إلى كأس كان مزاجها زنجبيلاً ولكل يرغب فيه ﴿عَيْنًا﴾ بدل من زنجبيلاً إن كان الزنجبيل اسماً لعين وإلا فهو بدل من كأس على حذف المضاف أي كأس عين ﴿فِيهَا سُسْنَى﴾ تلك العين ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ أخرج سعيد بن منصور وهناد والبيهقي عن مجاهد قال: هي حديدة الحريرة انتهى، ويقال شراب سهل الانحدار في الحلق والمساغ سلسل سلسلاً وسلسبيلاً فليل الباء زائدة، وقال الزجاج سميت بذلك لأنها منقادة لهم يصرفونها حيث شاءوا، وقال مقاتل وأبو العالية سميت به لأنها تسيل عليهم في الطريق وفي منازلهم ينبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنان وشراب الجنة على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على الجملة السابقة ﴿وَلِدَانٌ﴾ ينشئهم الله لخدمة المؤمنين وولدان الكفرة يجعلهم الله خدماً لأهل الجنة ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أي لا يموتون ولا يهرمون ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ حَبِئْتُمْ لَوْلَا مَنُورُهُمْ﴾ لا يموتون ولا يهرمون إذا رأيتهم لانشارهم في الخدمة ولو كانوا صفاً شهبوا بالمنظوم والجملة الشرطية صفة ثانية للولدان. أخرج ابن المبارك وهناد والبيهقي عن ابن عمر قال: إن أدنى أهل الجنة من يسعى عليه ألف خادم على عمل ليس معه صاحبه وتلى هذه الآية وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم» وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يغدوا ويروح عليه خمسة آلاف خادم ليس منهم خادم إلا ومعه ظرف ليس مع صاحبه والله تعالى أعلم. أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو راقد على حصير من جريد فأثر في جنبه فبكى عمر فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت كسرى

وملكه وهرمز وملكه وصاحب الحبشة وملكه وأنت رسول الله على حصير من جريد فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة» فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ حذف مفعوله ونزل منزلة اللازم ﴿ثُمَّ﴾ ظرف لرأيت أي في الجنة ﴿رَأَيْتَ نِعْمًا﴾ كثيراً ﴿وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ الجملة الشرطية معترضة في الجنة وقد مر فيما سبق عن ابن عمر مرفوعاً «أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة» وفي رواية «مسيرة ألفي عام يرى أقصاه كما يرى أدناه» وقيل: ملك لا يزول ويسلم عليهم الملائكة ويستأذنهم في الدخول ولهم فيها ما يشاؤون ويرون الرب الجليل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قرأ نافع وحزمة بإسكان الياء على أنه مبتدأ وما بعده خبره من جملة حال من ضمير عليهم في يطوف عليهم أو من المنصوب في حسبتهم أو من ملكاً كبيراً بحذف المضاف أي أهل ملك كبير والباقون بالنصب على أنه ظرف مستقر بمعنى فوقهم خبر لما بعده أو حال مما ذكرنا وما بعده فاعل الظرف ﴿ثِيَابٌ سُندُسٌ﴾ بالإضافة مبتدأ أو خبر أو فاعل لما قبله والسندس معرب ضرب من رقيق الديباج كذا في القاموس ﴿خُضْرٌ﴾ أخضر قرأ نافع وحفص وأبو عمر وابن عامر بالرفع على أنه صفة ثياب والباقون بالجر على أنه صفة سندس ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي الديباج الغلظ معرب استبره أو ديباج يعمل بالذهب أو ثياب حرير صفاق نحو الديباج كذا في القاموس قرأ نافع وابن كثير وعاصم بالرفع عطفاً على ثياب والباقون بالجر عطفاً على سندس. عن ابن عمر قال: قال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن أهل الجنة أخلق يخلق أم نسج ينسج؟ فقال: «بل ينشق عنها ثمر الجنة» رواه النسائي والبخاري بسند جيد وعن جابر قال «في الجنة شجرة ينبت السندس يكون ثياب أهل الجنة» رواه البزار والطبراني وأبو يعلى بسند صحيح وعن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»^(١) متفق عليه وروى النسائي والحاكم وعن أبي هريرة نحوه وزاد «ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة ومن شرب من آنية الذهب والفضة في الدنيا لم يشرب بهما في الآخرة» وفي الصحيحين عن أنس والزبير نحو حديث عمر وعن أبي سعيد الخدري أيضاً نحو حديث عمر وزاد «وإن دخل الجنة لم يلبسه» رواه الطيالسي بسند صحيح والنسائي وابن حبان والحاكم ﴿وَحُلُوءٌ﴾ عطف على

(١) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: لبس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه (٥٨٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب على الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء (٢٠٦٦)، وأخرجه النسائي في كتاب الزينة، باب: التشديد في لبس الحرير وأن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة (٥٣٠٢).

ويطوف عليهم أو حال من الضمير في عاليهم بإضمامار قد ﴿أَسَاوِرَ﴾ منصوب بنزع الخافض ﴿مِنْ فَضَّةٍ﴾ من بيانية وهذا لا يخالف قوله تعالى: ﴿أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾^(١) لإمكان الجمع والعاقبة والتبعيض وعلى تقدير كون الجملة حالاً من ضمير للخدم فيجوز أن يكون أساور من فضة للخدم ومن ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن كعب الأحبار قال: إن الله تعالى ملكاً يصوغ على أهل الجنة من أول خلقه إلى أن تقوم الساعة ولو أن حلياً يخرج من حلي أهل الجنة لذهب بضوء الشمس وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الضوء»^(٢) وأخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر قوله ﷺ: «إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا» ﴿وَسَقَمْتُمْ رِيحَهُمْ﴾ معطوف على الجمل السابقة ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ من الأقدار لم تمسه الأيدي كخمر الدنيا، قال أبو قلابة وإبراهيم: إنه لا يصير بولا نجساً ولكن يصير رشحاً في أبدانهم كريح المسك وذلك أنهم يؤتون بالطعام وإذا كان آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر بذلك بطونهم ويصير ما أكلوا رشحاً يخرج من جلودهم أطيب من المسك الأذفر تعود شهوتهم، وقال مقاتل هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل أو حسد، قال البيضاوي ولنعم ما قال هو أن الله سبحانه يريد نوعاً آخر من الشراب يفوق على النوعين المتقدمين ولذلك أسند إلى نفسه ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل إلى الذات الحسنة والركون إلى ما سوى الحق فتجرد لمعاينة جماله متلذذاً بلقائه وهي منتهى درجة الصديقين ذلك ختم به ثواب الأبرار وختم ثوابهم ومبدأ ثواب الصديقين وأدنى درجاتهم، قال في المدارك: قيل إن الملائكة تعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منه ويقولون لقد طال أخذنا من الوسائط فإذا هم بكأسات تلاقي أفواههم بغير أكف من غيب إلى عبد ويؤيد هذا القول ما أخرج ابن أبي الدنيا بسند جيد عن أبي أمامة قال: إن الرجل من أهل الجنة يشتهي الشراب من شراب الجنة فيقع في يده فيشرب ثم يعود إلى مكانه، قال الشيخ الأجل يعقوب الكرخي إن السابقين المقربين يعطون الكاسات من تحت العرش بلا واسطة والمقتصددين يعني الأبرار يعطيهم الملائكة وغيرهم من أهل الجنة يعني الذين دخلوها بعد المغفرة أو العذاب يعطيهم الولدان انتهى، قلت: وهذه الآيات إخبار عن شأن الأبرار فلعلهم يعطون الكاسات تارة بتوسط الولدان وتارة بتوسط الملائكة وتارة بلا توسط وأما

(١) سورة الكهف، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: تبلغ الحلية حيث يبلغ الضوء (٢٥٠).

المقربون لعلهم يعطون بلا توسط غالباً ﴿إِنَّ هَذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ محموداً مقبولاً مرضياً عندنا مجازاً فقال: فهذا قول لهم من الله تعالى كأنهم شكر لهم من الله تعالى حيث لم يريدوا مشكوراً من غيره تعالى من المسكين واليتيم، قلت: جعل الله سبحانه نعيم الجنة جزاء لأعمالهم تفضلاً لهم وإلا فأى عمل يتصور أن يكون جزاءه كذلك ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ قال ابن عباس يعني متفرقاً آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة وتأكيد الجملة بتقديم المسند إليه على الجزاء الفعلي وتصديرها بأن وتكرير الضمير لإشعار بأن الحكمة والصواب منحصر في هذا النوع من التنزيل كأنه كرر الإسناد إلى نفسه وجعله مختصاً به والحكيم لا يفعل إلا ما هو حكمته ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الفاء للسببية، يعني إذا عرفت حال الأبرار والفجار وتأخير جزاء الفريقين أي دار القرار فاصبر على أذى الكفار ولا تعجل في عقوبتهم ولا تحزن بتأخير نصرك عليهم وإذا علمت أن تنزيل القرآن مختص به تعالى فاصبر نفسك على ما أمر به وعما نهى عنه ﴿وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ﴾ أي من الكفار للضجر من تأخير الظفر ﴿إِنَّمَا﴾ أي مرتكباً لإثم داعياً لك إليه وإن لم يكن ذلك كفراً ﴿أَوْ كُفُورًا﴾ مرتكباً للكفر داعياً لك إن الكفر فأولاً حد الأمرين منكر وقعت في حيز النفي فأفادت العموم أي لا تطع أحداً دعاك إلى إثم أو دعاك إلى كفر أو إليهما جميعاً فإنه داع إلى كل واحد منهما ولو وقعت هناك الواو لكان المعنى لا تطع من دعاك إلى الكفر والإثم جميعاً ولا يستفاد منه عدم إطاعة الداعي إلى الإثم فقط، ومقتضى هذه الآية أنه لا بأس في إطاعة كافر فيما ليس بإثم ولا كفر وقيل: أو ها هنا بمعنى الواو والمراد بالآثم الكفور أبو جهل لعنه الله تعالى وذلك أنه لما فرضت الصلاة نهى أبو جهل النبي ﷺ عنها، وقال لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه فأنزل الله هذه الآية كذا روى عبد الرزاق وابن المنذر وابن جرير عن قتادة، وقال مقاتل أراد بالآثم عتبة بن ربيعة وبالكفور وليد بن المغيرة قالوا للنبي ﷺ: إن صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فأرجع عن هذه الأمر وقال عتبة فأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد أنا أعطيك من المال ما ترضى فأرجع من هذه الأمر فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَأَذْكُرْ أُمَّتَ رَبِّكَ﴾ أي صلّ شبهه عن الصلاة بذكر اسم الله تعالى تسمية الشيء باسم جزئه فإن التحريمة ركن من أركان الصلاة أو يقال أفعال الصلاة وأقوالها كلها ذكر قال رسول الله ﷺ: «إن هذه الصلاة ليس فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»^(١) رواه المسلم من حديث معاوية بن حكم ﴿بُكْرَةً﴾ أي أول النهار

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

عني به صلاة الفجر منصوب على الظرفية وكذا ﴿وَأَصِيلًا﴾ أي آخر النهار عني به صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنْ أَيْلٍ فَاسْتَجِدْ لَمْ﴾ عبر ههنا عن الصلاة بالسجود وأراد به صلاة المغرب والعشاء ولما كان في صلاة الليل زيادة كلفة أكده بتقديم الظرف وزيادة الفاء في فاسجد على تقدير أما أي وأما من الليل فاسجد ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا﴾ عبر ها هنا عن صلاة بالتسبيح والمراد به قيام الليل ﴿طَوِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف أي تسبيحاً طويلاً نصف الليل أو أقل أو أكثر منه ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني الكفار مكة ﴿يُحِبُّونَ﴾ الدار ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ في الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وِرَاءَهُمْ﴾ أي قدامهم وخلف ظهورهم ﴿يَوْمًا نَقِيلًا﴾ شديداً مستعار من الشغل البالغ في المشقة على الحال وجمله إن هؤلاء تعليل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ أَيْثُمَا أَوْ كَفُورًا﴾ يعني أنهم آثمون لا يعملون ما يعلمون في الدنيا ولا يعبأون بالآخرة فلا تطعمهم ﴿تَحْنُ خَلَقْتَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أحكمنا أسرهم خلقهم وأرحالهم وربط مفاصلهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بِدَلًّا أَمْثَلَهُمْ﴾ في الخلق وشدة الأسر ﴿بَدِيلًا﴾ مصدر للتأكيد وجملة الشرطية معطوفة على شدتنا، وجملة نحن خلقناهم مع ما عطف عليه لبيان تشنيع الكفار على كفرهم في مقابلة النعم وذكر نعمة إيجادهم وتمكينهم لأنها أصل النعمة كلها وفي جملة إذا شئنا تسلية للنبي ﷺ في احتمال الأذية منهم ووعدهم بإهلاكهم وتبديلهم بقوم مطيع في الخلق وقد أهلكهم يوم بدر وقيل إذا هاننا بمعنى أن يعني أن يشاء الله لكن لم يشاء إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ السورة أو الآيات ﴿تَذَكَّرَ﴾ وموعظة وتذكرة توضح السبيل إلى الله سبحانه وإلى مرضاته ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ التقرب إلى الله وسلوك السبيل ﴿اتَّخَذَ إِلَيْنَا رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ بالطاعة ودوام الذكر والإخلاص، وتقليد النبي ﷺ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالياء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ لا توجد مشيئتك أيها الناس أو مشيئة الكفار باتخاذ السبيل إلى الله وبشيء من الأشياء في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تلك المشيئة عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «مصرف اقلوب صرف قلبي على طاعتك»^(١) رواه مسلم فلما وجد مشيئة الله بهداية المؤمنين شاء اتخذ السبيل إلى الله ولما لم يجد مشيئة الله بهداية الكفار لم يشاء ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يستأهل كل أحد فيفعل به ما هو أهل له وذلك يستدعي سبق استعدادهم للخير والشر، وإنما هو يكون المبادي تعينات المؤمنين ماشية من اسم الله

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤).

الهادي ومباذي تعينات الكفار من اسم المضل ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاء إلا ما تقضيه الحكمة ﴿يَدْخُلُ﴾ الله سبحانه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ورحمته ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي في جنته فإنها محل الرحمة يقذف الإيمان والتصديق في قلبه ومحبة الله في سره وتوفيقه للطاعة وحفظه وتنفيره عن الكفر والمعصية ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ منصوب بفعل محذوف تفسيره بعده ويعذب الظالمين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ جملة والظالمين معطوف على يدخل والجملتين يقران مضمون ما يشاؤون إلا أن يشاء الله، والله تعالى أعلم، تمت سورة الدهر.

سورة المرسلات

مكية وهي خمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْقُرْآنِ قُرْآنًا ﴿٤﴾ فَالْمَلَقَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِّتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرَّسُلُ أُنزِلَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تُهَكِّمْنَا الْأُولَىٰ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْقُرْآنِ قُرْآنًا ﴿٤﴾ فَالْمَلَقَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾ أدغم عمرو عمر والخلاد التاء في الذال وأظهر الجمهور، قال مقاتل معنى الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه وهي رواية عن مسروق عن ابن مسعود فعرفاً حينئذ مفعول له ويحتمل أن يكون عرفاً حالاً بمعنى متتابعات من عرف الفرس يعني أرسلت للأحكام متتابعات فعصفن إلى عصر من عصف الرياح في امثال ما أمروا به ونشرون الشرائع في الأرض بنشر الكتب وإنزالها ونشرون أن أحيان النفوس الموتى بالجهل بما أوتين من العلم ففرقن بين الحق والباطل فألقينا إلى الأنبياء ذكر أي وحيًا أو اليقين في قلوب المؤمنين ذكر الله سبحانه، وقال مجاهد وقتادة هي الرياح المرسلات أرسلت متتابعة وقيل عرفاً كثير العاصفات شديدة الهبوب عصفاً الناشرات السحاب في الجو نشر الفارقات بين السحاب بالقصر فرقاً أو فارقات السحاب بعد المطر فالملاقات ذكر أي تستبين لذلك فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وراثها ذكر الله تعالى وكمال قدرته وشكره على نعمة المطر بعد ما قنطوا، ويحتمل أن يكون المراد به آيات القرآن المرسلات إلى محمد ﷺ بكل عرف أي معروف فعم من الكتاب والأديان بالنسخ ونشرون آثار الهدى والأحكام في الشرق والغرب وفرقن بين الحق والباطل فأيقين ذكر الله بين العالمين أو المراد بها نفوس الأنبياء المرسلات إلى الخلق للهداية والإرشاد وتبليغ الأحكام فعصفن

وأسرعن امتثال الأوامر والانتهاه عن المناهي ونشرون الهداية وفرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكر الله تعالى في قلوب الأمة وألستهم ﴿عَذْرًا﴾ روي عن أبي بكر عن عاصم ضم الذال وهي قراءة الحسن والمشهور عنه وعن سائر القراء السكون ﴿أَوْ نَذْرًا﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر بضم الذال والباقون بإسكانها وهما بسكون الذال مصدران العذر أو أمحى إساءة وأنذر إذا خوف وبالضم جمعان للعذير بمعنى المعذرة ونذير بمعنى الإنذار أو المعنى العاذر والمنذر ونصبهما على أولين بالعلية أي عذر المؤمنين إمحاء لإسآتهم ونذر للكفار تخويفاً لهم والرياح سبب بوعيد الكفار بالعذاب إذا أسند والمطر إلى الأنواء مثلاً، أو هما منصوبان بالبدلية من ذكر على أن المراد به الوحي وعلى الثالث بالحالية ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ﴾ من القيامة والجزاء ﴿لَوْعٍ﴾ كائن لا محالة الجملة جواب للقسم ﴿فَإِذَا الْتَجُّمُ طُمِسَتْ﴾ ﴿٨﴾ محقت وذهبت بنورها جواب إذا محذوف وهو العامل فيها أي يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ ﴿٩﴾ أي شقت فصارت لها فرجاً ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ﴾ ﴿١٠﴾ قلعت من أماكنها وإذا مليت ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَّتْ﴾ ﴿١١﴾ قرأ أبو عمرو وقتت بالواو وعن أبي جعفر رواية بالواو بالهمزة كالجمهور عوضاً عن الواو أي أظهرت وقت جمعهم وشهادتهم على الأمم ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ﴾ متعلق بما بعده وقدم عليه لاقتضاء صدر الكلام ﴿أُحِلَّتْ﴾ أخرت وضرب الأجل لذلك الوقت استفهام استعير للتعجب والتهويل ﴿يَوْمِ الْفَصْلِ﴾ ﴿١٢﴾ بدل من لأي يوم وبيان له وجملة لأي يوم معترضة، ويحتمل أن يكون ثاني مفعولي أقتت لتضمينه معنى أعلمت ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ﴿١٤﴾ تعجيب آخر وتعظيم أمره يعني أنه شيء أعظم لا تعلم كنهه ولم تر مثله ﴿وَيْلٌ﴾ مصدر بمعنى حلول الشر والهلاك في الأصل منصوب على المصدرية بإضمار فعله عدل به إلى الرفع يجعله مبتدأ لدلالته على ثبت الهلاك والبشر والجملة دعائية، أخرج أحمد والترمذي وابن جرير ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي الدنيا وهناد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «الويل واد في جهنم يهوي إليه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره»^(١) وأخرج البيهقي وابن المنذر عن مسعود قال: الويل واد في جهنم يسيل صديد أهل النار جعل الله للمكذبين وأخرج ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير نحوه، وأخرج البيهقي وابن جرير وابن المبارك عن عطاء بن يسار قال: الويل واد من صديد جهنم لو سيرت فيه الجبال لاندابت من حره، وأخرجه ابن جرير عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ قال: «الويل جبل في النار» وأخرج البزار بسند ضعيف عن سعيد بن أبي وقاص قال: قال

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء (٣١٦٤).

رسول الله ﷺ: «إن في النار حجراً يقال له ويل يصعد عليه العرفاء وينزلون» ﴿يَوْمِذٍ﴾ أي يوم إذا النجوم طمست إلى آخره ﴿لِلْمُكْذِبِينَ﴾ ليوم الفصل ظرف مستقر خبر لويل يومئذ متعلق به ويحتمل أن يكون يومئذ ظرفاً مستقراً صفة لويل.

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فِعْمَ الْقَدَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَبَلَّ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كَمَاثًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَمَلْنَا فِيهَا رُؤُوسَ شَيْخَانٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَبَلَّ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِبِينَ ﴿٢٨﴾ أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِّيلٍ وَلَا يَشِئُ مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرَى بِشَكْرِهَا كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جَمَلٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَبَلَّ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِعْلَهُمُ الْفِعْلُونَ ﴿٣٦﴾ وَبَلَّ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلُ جَمَعْتُمْ وَالْأُولَى ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَبَلَّ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِبِينَ ﴿٤٠﴾

﴿أَلَمْ نُهَلِكْ﴾ بالعذاب المكذبين أو ﴿الْأُولَى﴾ نحو قوم نوح وعاد وثمود، استفهام تقرير ﴿ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ ﴿٧﴾ يعني كفار مكة السالكين سبيل الأولين في تكذيب الرسل عطف على مضمون ألم نهلك يعني أهلكنا أولين ثم تتبعهم الآخريين ﴿كَذَلِكَ﴾ صفة مصدر محذوف أي فعلاً مثل ذلك الفعل ﴿نَفَعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي نجس المجرمين ﴿وَبَلَّ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِبِينَ﴾ ﴿١٨﴾ بما أوعدنا ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ﴾ استفهام تقرير أي خلقناكم ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ حقير قدرأ وهي النطفة ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الماء ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ما يتمكن فيه وهو الرحم ظرف مستقر مفعول ثان لجعلناه إن كان ناقصاً بمعنى صيرناه وإلا فظرف لغو متعلق به وجملة جعلناه معطوفة على مضمون ألم نخلقكم الفاء للتفسير لا للتعقيب أو محمول على القلب في التركيب ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿٢٢﴾ متعلق بقوله في قرار مكين إن كان ظرفاً مستقراً وإلا فبفعل محذوف أي مؤخراً أي مقادر من الوقت المعلوم عرفاً أدناه ستة أشهر وأكثره سنتين أو معلوم عند الله مدة لبثه ﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ نافع والكسائي بالتشديد من التقدير أي قدرنا مدة لبثه في بطن أمه وقت ولادته وعمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً النطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب

فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»^(١) متفق عليه والباقون من القراء قرؤوا بالتخفيف من القدرة يعني قدرنا يعني إيجاده وأعد أمه وإعادته ﴿فَنِعَمَ الْقَادِرُونَ﴾ فنحن أي على كل شيء، ويحتمل أن يكون القادر بمعنى المقدر قراءة نافع ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ بقدرتنا وهم الكفار أو بتقديرنا وهم القدريه مجوس هذه الأمة ﴿أَلَّا تَجْمَلِ الْأَرْضَ﴾ استفهام تقرير ﴿كِفَاتًا﴾ اسم لما يكفت فيه بضم أو مصدر نعت به مبالغة أو جمع كافت كصيام وصائم أو جمع كفت بمعنى الوفاء أجرى الجمع على الأرض باعتبار أقطاعها ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ ﴿٢٥﴾ حال عن المفعول المحذوف لكفاتاً إن كان مشتقاً وإلا فالفعل محذوف دل عليه كفاتاً يعني نكفت الناس أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم وأمواتاً في بطنها بخروجهم كذا قال الفراء وإنما حذف المفعول للعمل به، ويحتمل أن يكون مفعولين كذلك أي نكفت الأحياء والأموات وتنكيرهما للتفخيم أو لأن أحياء الناس وأمواتهم بعض الأحياء والأموات ويحتمل أن يكونا ثاني مفعول نجعل وكفاتاً حال منهما قدم عليهما لتنكيرهما ويحتمل أن يكونا حالين عن مفعول نجعل يعني الأرض أو كفاتاً والمراد بالأحياء والأموات ما ينبت من الأرض وما لا ينبت ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على مضمون لم نجعل ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رُؤْسِي﴾ ﴿جِبَالٍ﴾ ﴿شَلِخْتِ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ عالياً والتنكير للتعظيم نابعات من الأرض ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ بأمثال هذه النعم قال مقاتل وهذه الأمور المذكورة كلها أعجب من البعث ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ جملة مستأنفة كأن في جواب ما يصنع بالمكذبين يومئذ وتقديره، يقال لهم يومئذ انطلقوا أي سيروا ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ في الدنيا نار جهنم ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ بدل من الأول تأكيد وفيه بيان لما يسيرون إليه ﴿إِلَّا ظِلٌّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ قال المفسرون أريد به دخان جهنم قال البيضاوي وغيره الدخان العظيم إذ يرتفع يتفرق ذوائب وفي خصوصية شعب دخان جهنم بالثلاث ذكر البيضاوي وغيره وجوهاً لا ترضيه، وعندني وجه الخصوصية بالثلاث أن أسباب الدخول في نار جهنم منحصرة في ثلاث أحدها الكفر بالله وتكذيب الرسل صريحاً وعبارة كقول الكفار افتري على الله كذباً ثانيها اتباع الهوى وتكذيب الرسل وآيات الله اقتضاء كقول أهل الهواء عن المجسمة والقدريه والروافض والخوارج والمرجئة على خلاف ظواهر النصوص القطعية بتأويلات فاسدة على خلاف الإجماع كما أن المجسمة يكذبون، قوله تعالى: ﴿وَجِئُوا يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ ﴿٢٧﴾ وما دلت من الآيات على وزن الأعمال والصرط ونحو ذلك والروافض والخوارج يكذبون ما تواتر عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب:

البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

الرسول ﷺ في مدح أبي بكر وعمر وعثمان وعلي تواتراً معنوياً ثالثها اتباع الشهوات في ارتكاب الكبائر والصغائر وترك الواجبات فهذه الأمور الثلاثة تصلح أن تكون أسباباً لانشعاب دخان جهنم إلى ثلاث شعب قال البغوي قيل يخرج عنق من النار فيشعب ثلاث شعب أما النور فتقف على رؤوس المؤمنين والدخان تقف على رؤوس المنافقين واللهب تقف على رؤوس الكافرين، قلت: وأيضاً يكون هذا القول مرفوعاً لكونه لا يدرك بالرأى فتأويله أن عبر عن شعبة من شعب الثلاث الدخان جهنم بالنور لخفته في الظلمة بالنسبة إلى أخته وإلا فما معنى النور في نار جهنم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أوقد على نار جهنم ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»^(١) أخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة فهذه الشعبة الخفيفة الظلمة بالنسبة إلى أختها تقف على رؤوس عصاة المؤمنين من أهل النار وعن الشعبة . . . الثانية بالدخان لكثرة أجزاء النار فيها وشدة ظلمتها فهي تقف على رؤوس المنافقين والمراد بالمنافقين ههنا هم أهل الهواء الذين يدعون الإيمان ويلزمهم الكفر وتكذيب الرسول ﷺ وليس المراد بالمنافقين ها هنا الذين قالوا آمنا بأفواههم في العلانية دون السر وَلَوْ تَوَّابُونَ لَقُلُوبُهُمْ فَإِنَّهُمْ أَشَدُّ مِنَ الْكُفْرِ مِنَ الْجَاهِرِينَ وهم في الدرك الأسفل من النار، وقد ذكرنا في تفسير سورة البقرة وجه إطلاق المنافقين على أهل الهواء وتطبيق ما ضرب الله تعالى به مثل المنافقين عليهم وعن الشعبة الثالثة باللهب لكمال احتراقها وشدة التهابها فهي تقف على رؤوس الكافرين. قلت: ويمكن أن يقال المراد بالظل نار جهنم نفسها عبر عنها بالظل مجازاً لظلمته واسوداده فإن الظل لا يخلو من الظلمة وفيه استهزاء وتهكم بالكفار كما في ﴿ذُقْ إِتَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٢) وفي ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣) فمعنى قوله تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي تِلْكَ شَعْبٍ﴾^(٤) انطلقوا إلى نار جهنم التي هي ذي ثلاث طرق موصلة إليها أحدها تكذيب الرسل صريحاً ثانيها تكذيبهم اقتضاء ثالثها ارتكاب المعاصي لما ذكرنا ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ كظل العرش وظل الجنة للمؤمنين صفة الظل بعد صفة ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي لا يرد لهب جهنم صفة لموصوف محذوف أي ولا ظل يغني من اللهب ويحتمل أن يكون معطوفاً على ظليل على طريقة فالتق الإصباح وجعل الليل فيكون صفة ثالثة لظل مذكورة في هاتين الصفتين، تهكم بهم وروي أنهم لفظ الظل من وقاية الحر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم (٢٥٩١).

(٢) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٧.

والإغناء من اللهب ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير راجع إلى ظل من حيث المعنى إن كان المراد به النار كما ذكرت وإلا فهو راجع إلى غير المذكور دل عليه الكلام أي جهنم ﴿تَرَى﴾ تعليل لعدم الإغناء ﴿بِشَكْرٍ﴾ جمع شررة وهي ما تطاير من النار ﴿كَالْقَصْرِ﴾ أي كل شررة في عظمها كالقصر أي كبيت من حجر أو قرية أو حصن كذا في القاموس فهو مفرد، وقيل هو جمع قصرة بمعنى أصل النخل أو الشجر الغليظ ﴿كَانَّمُ﴾ أي انقصرا فرد الضمير نظراً إلى لفظه ﴿جَمَلَتْ﴾ جملة كأنه صفة ثانية لشرر، قرأ حفص وحزمة والكسائي جملة بغير ألف وهو جمع جمل والباقون جمالات بالألف على أنه جمع جمال فهو جمع الجمع ﴿صُفْرٌ﴾ جمع أصفر فإن الشرر لما فيه من النار به يكون أصفر وقيل: معناه أسود كما جاء في الحديث «إن شرر نار جهنم سود كالقير» والعرب تسمي سواد الإبل صفر الضرب به إلى الصفرة والأول تشبيه في العظمة وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ بالنار والعذاب ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي الكفار نطقاً يفيدهم أو لا ينطقون شيئاً من فرط الدهشة والحيرة وهذا في بعض المواقف وينطقون في بعضها ﴿وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار عطف على لا ينطقون ﴿فَيَعْتَذِرُونَ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عطف على لا يؤذن فيدل على نفي الإذن والاعتذار مطلقاً ولعله لم يجعل جواباً عن النفي كيلا يدل على أن عدم اعتذارهم بعد الإذن فيوهم أن لهم عذراً، لقال حينئذ أي عذراً لمن أعرض عن منعم وكفر بأياديه ونعمه ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين أهل الجنة وأهل النار ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ خبر ثان لهذا وحال عن يوم الفصل والعامل معنى الإشارة والعائد محذوف أي جمعناكم فيه تعليل يعني هذا يوم الفصل لأننا جمعناكم فيه للفصل بين المؤمن والمكذب وتقرير وبيان للفصل ﴿وَالْأَوَّلِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حيلة لدفع العذاب كما كنتم تكيدون بالمؤمنين في الدنيا كما كنتم تقولون أيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد من تسعة عشر خزنة ﴿فَكِيدُونِ﴾ الياء محذوفة أي فكيدوني الآن توبيخ وتعجيز جملة الشرطية بتقدير. فيقال لكم معطوفة على جمعناكم ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤١﴾﴾ بالعذاب إذا لا حيلة لهم يومئذ في تخليص أنفسهم من العذاب ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشركة ومن المعاصي مطلقاً على تفاوت درجاتهم ﴿فِي ظِلِّ﴾ كناية عن تكاثف أشجار الجنة كقوله زيد طويل النجاد بمعنى طويل القامة وإن لم يكن له نجاد وإلا فلا شمس حتى يتصور الظل ﴿وَتُيُوسُفُ﴾ جارية من ماء غير آسن ولبن لم يتغير طعمه وخمر لذة للشاربين وعسل ﴿وَفُورَكَةٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي لذينة مشتهاة وفيه إشعار بأن المآكل والمشرب في الجنة بحسب شهواتهم بخلاف الدنيا فإن فيها يحسب ما يجد

الناس ﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا﴾ حال من ضمير المرفوع في الظرف أي مستقرون في ظلل حال كونهم مقولاً لهم ذلك أو جملة معترضة بتأويل يقال لهم ﴿هَيْئَةً﴾ صفة المصدر المحذوف أي أكلاً هنيئاً أو حال أي مهينين والهناً ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقبه خامة ﴿بِمَا كُتِبَ تَعْمَلُونَ﴾ من عقد القلب بالإيمانيات ومعالجته الطاعات، وجملة إن المتقين مستأنفة كأنه في جواب سائل يسأل عن حال غير المكذبين بعد ما سمع حال المكذبين ﴿إِنَّا كَذَّاكَ تَجْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ كذلك في محل النصب على المصدرية لما بعده والجملة الفعلية خبر إن والاسمية تأكيد لما سبق فإن المراد بالمحسنين هم المتقون لا ما هو أخص منه وإلا يلزم تشبيه إلا على بالأدنى وفيه حث على الإنسان يعني فأحسنوا أيها الناس يجزيكم كما ذكرنا والإحسان بالمعنى الأخص «أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) كذا قال رسول الله ﷺ في جواب جبرائيل سأل عنه رواه الشيخان في الصحيحين عن عمر بن الخطاب ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ بالجنة حيث يحرمون من النعيم ﴿كَلُوا وَتَمَنَّوْا﴾ كلام مستأنف خطاب للمكذبين في الدنيا على وجه التهديد ﴿قَلِيلاً﴾ منصوب على المصدرية وعلى الظرفية أي أكلاً قليلاً أو زماناً قليلاً ما دتم في الدنيا ثم ينقطع ذلك عنكم ﴿إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ تعليل للتهديد ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ حيث عرضوا أنفسهم على العذاب الأليم لأجل التمتع القليل، أخرج ابن المنذر عن مجاهد أن النبي ﷺ أمر وفد ثقيف بالإيمان والصلاة فقالوا ولكن لا نحبي فإنها مسبة، في القاموس التجبية وضع يديه على ركة أو على الأرض أو الإكباب على وجه قولهم فإنها مسبة إلى عار فنزلت ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ فهذه جملة معترضة لزم الكفار ويحتمل أن يكون معطوفة على المجرمون على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة يعني أنكم مجرمون وأنهم لا تركعون إذا دعيتم إلى الصلاة ويحتمل أن يكون معطوفة على مضمون المكذبين، يعني ويل الذين كذبوا ولم يصلوا عند الدعاء إليها ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ بالأوامر والنواهي ﴿فِي آيِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ استهفام إنكاري أي لا يؤمنون بشيء من الحجج إذ لم يؤمنوا بالقرآن الذي هو مشتمل على وجوه من الإعجاز نظاماً ومعنى وعلى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١٠).

الحجج الواضحة والبراهين الساطعة ولما كان سياق هذه السورة على التخويف والتهديد غالباً كما إن كان سياق سورة الإنسان على اللطف لتطبيع غالباً قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» رواه الحاكم وصححه عن ابن عباس وابن مردويه عن سعيد.

سورة النبأ

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١ ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ٢ ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخَلِّفُونَ﴾ ٣ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ٤
 ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ٥ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ يَهْدًا﴾ ٦ ﴿وَالجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٧ ﴿وَخَلَقْنَاكَ أَزْوَاجًا﴾ ٨
 ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكَ سَبَاتًا﴾ ٩ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا﴾ ١٠ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ١١ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ ١٢
 ﴿شِدَادًا﴾ ١٣ ﴿وَجَعَلْنَا بَرَكًا وَهَاجًا﴾ ١٤ ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً مُنْجَايًا﴾ ١٥ ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ١٦
 ﴿وَجَنَّتِ الْآفَاةُ﴾ ١٧

﴿عَمَّ﴾ أصله عن ما بحذف الألف من ما الاستفهامية إذا وقعت بعد حرف الجر نحو لم وفيم وعم ومم تخفيفاً لكثرة الاستعمال وفرقاً بينهما وبين الموصولة وضم الميم بعن في الخط لبقائه على حرف واحد بعد الحذف والاستفهام في كلامه تعالى مستعار عن التفخيم والتهويل في شأن ما وقع فيه الاستفهام فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ والضمير لأهل مكة وذلك أن النبي ﷺ لما دعاهم إلى التوحيد وأخبرهم عن البعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون ماذا جاء بهم محمد ﷺ كذا ذكر البغوي وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن نحوه عن المعنى يتساءلون الرسول ﷺ عنه استهزاء كقوله يتداعون لهم أي يدعون لهم ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ متعلق بيتساءلون المذكور وعلى هذا النبأ متعلق بفعل مضمير يفسره ما بعده ومتعلق بيتساءلون مضمير وهذه الجملة جواب للسؤال لفظاً بيان لشأن المفخم معنى، ويحتمل أن يكون عن النبأ العظيم ويحتمل أن يكون هذه الجملة استفهامية بتقدير حرف الاستفهام فتكون تأكيد للجملة السابقة وتفخيم بعد تفخيم تقديره عم يستاءلون عن النبأ العظيم ويحتمل أن يكون الاستفهام الثاني للإنكار يعني لا ينبغي السؤال عن النبأ العظيم بل الواجب الإيمان به فإنه واضح عظيم شأنه وشديد وضوحه عن أن يسأل والمراد بالنبأ

العظيم على قول مجاهد والأكثرين القرآن بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾^(١)، وقال قتادة هو البعث ويحتمل أن يكون خبر بعث النبي ﷺ ﴿الَّذِي﴾ الموصول مع صلة صفة للنباء ﴿هُوَ﴾ الضمير راجع إلى ما رجع إليه المرفوع في يتساءلون وهم كفار مكة على تقدير كون السؤال استهزاء أو إنكار أو على هذا فمعنى قوله ﴿فِيهِ تُخَلِّفُونَ﴾ أن منهم من يقطع بإنكاره ومنهم من يشك ويحتمل أن يكون ضمير يتساءلون راجعاً إلى أهل مكة مؤمنهم وكافرهم أجمعين وعلى هذا فالمعنى أن منهم من يصدق ويسأل عنه لكشف الحال وازدياد اليقين ومنهم من ينكر ويسأل عنه استهزاء وإنكاراً ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاختلاف في المبني على إنكار بعضهم أو كلهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أي الكافرون المنكرون كونه حقاً عند الشرع وفي القبر ﴿تُرَىٰ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ يوم القيامة والتكرير للمبالغة والدلالة على لحوق الوعيد مرتين، أحدهما في القبر وثانيهما بعد البعث وكلمة ثم يشعر بأن الوعيد الثاني أبلغ من الأول ثم ذكر الله سبحانه صنائعه ما يستدل به على التوحيد والقدرة على البعث بعد الموت ووجوب شكر النعم باتباع من يدعو إلى التوحيد والعبادة فقال ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾^(١) فراشاً لكم استفهام تقرير أي حمل المخاطب على الإقرار والعبادة أخرى استفهام إنكار وإنكار النفي إثبات فمضمون جعلنا الأرض مهاداً ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾^(٢) للأرض كيلا تميد بكم ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٣) أصنافاً ذكوراً وإناثاً ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾^(٤) قطعاً لأعمالكم حتى تستريح أبدانكم والسبت القطع ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على خلقنا ﴿أَيْتَانَ لِبَاسًا﴾ لبسه كل شيء بظلمة فبمنع الأبصار ويسكن الأصوات فيستريح النائم فيه ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾^(٥) أي سبباً للمعاش من فضل الله ما قسم لكم من رزقه حيث ينقلبون فيه في حوائجكم وفيما لا بد منه في الحياة ﴿وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سُبُاطًا﴾ أي سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ محكمات لا يؤثر فيه مر الدهور ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي خلقنا، ويحتمل أن يكون المفعول الأول محذوفاً أي جعلنا الشمس ﴿سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ متلألئاً وقادراً قال مقاتل جعل فيه نوراً وحرارة والوهج يجمع النور والحرارة ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ قال مجاهد ومقاتل والكلبي هي الرياح التي تعصر السحاب وهي رواية العوفي عن ابن عباس فعلى هذا من النسبة، وقال أبو العالية والضحاك المعصرات هي السحاب وهي رواية الوالبي عن ابن عباس قال الفراء: المعصرات السحاب ينجلب بالمطر ولم يمطر كالمرأة المعصرة هي التي دنا

(١) سورة ص، الآية: ٦٧.

حيضها ولم تحض بعد وقال ابن كيسان هي المغيثات من قوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ﴾^(١)، وقال الحسن وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حبان من المعصرات من السماوات فمن على هذه التأويلات للابتداء ﴿مَاءٌ مُّجَابًا﴾ قال مجاهد صباباً مدراراً قال قتادة متتابعاً وقال ابن زيد كثيراً ومرجع الكل واحد ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي بذلك ﴿جَبًّا﴾ يأكله الناس كالبر والشعير ﴿وَبَيَاتًا﴾ تأكله الدواب ﴿وَجَنَّتْ﴾ بساتين ﴿أَلْفَاةً﴾ ملتفة بالأشجار بعضها ببعض واحدها لف كجذع وجذاع أو لفيف كشريف وأشراف أو لا واحد له كأوضاع، وهي جمع الجمع فهي جمع لف واللف جمع لفافة وهي شجرة مجتمعة يقال جنة لفاف ولما ثبت أن من هو قادر على اختراع تلك الأمور قادر على إعادتها وإن تلك الأمور العظام لا يتصور وجودها إلا من فاعل الحكيم ولا يتصور أن يكون عبثاً أو منافياً للحكمة فكان السامع اشتاق إلى معرفة صفات وقت الفصل فاستأنف، وقال:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَقْوَابًا ﴿١٨﴾ وَنُحِثَ
السَّمَاءَ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾
لِلطَّغْيِينَ مِن تَارًا ﴿٢٢﴾ لِيُشِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَدْخُلُوهَا بِهَا سَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾
جَزَاءً وَكَفَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنْهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ
شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُرُّوهُمْ فَلَنْ تَزِيدَهُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين الحق والباطل ﴿كَانَ﴾ في علم الله أو حكمه ﴿مِيقَتَنَا﴾ ميعاداً للثواب والعقاب وقتاً معيناً لهما أو المعنى حداً يؤقت في الدنيا وينتهي عنده أو حداً للخلافتن ينتهون إليه ﴿يَوْمَ يُفْعُخُ﴾ بدل من يوم الفصل أو عطف بيان له أو بدل من ميقاتاً أو خبر ثان لكان ﴿فِي الصُّورِ﴾ أخرج مسدد بسند صحيح عن ابن مسعود قال: الصور كهيئة القرآن ينفخ فيه وعن ابن عمر نحوه وقد مر في الحاقة، وعن وهب أنها من لؤلؤ بيضاء في صفاء الزجاجه وبه ثقب بعدد كل زوج وقد مر في المدثر ﴿فَنَأْتُونَ﴾ عطف على ينفخ ﴿أَقْوَابًا﴾ حال من فاعل تأتون يعني جماعات مختلفة من القبور إلى مكان الحساب، عن أبي ذر قال: «حدثنا الصادق المصدوق عليه السلام أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاث أفواج فوج طاعمين كاسبين راكبين وفوج يمشون ويسعون وفوج يسحبون عى وجوههم»^(٢)

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٩.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: البعث (٢٠٧٧).

رواه النسائي والحاكم والبيهقي وعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ قال يحضر أمتي عشرة أفواج صف على صورة القردة وهم القدرية وصف على صورة الخنازير وهم المرجئة وصف على صورة القردة والكلاب وهم الحرورية وصف على صورة الحمر وهم الروافضة وصف على صورة الذر وهم المتكبرون وصف على صورة البهائم وهم أكلة الرىبى وصف على صورة السباع وهم الزنادقة وصف يحشرون على وجوههم وهم المصورون والهنازون واللامزون وصف دكيان وهم المقربون وصف مشبعة وهم أهل اليمين» رواه ابن عساكر وقال: هذا حديث منكر في إسناده مجاهيل ورواه الخطيب بلفظ يحشر عشر أصناف من أمتي أسباباً فمنهم على صورة القردة وهم النامون وبعضهم على صورة الخنازير وهم أهل السحت والحرام وبعضهم منكبين أرجلهم فوق أعينهم ووجوههم أسفل يسحبون عليهم وهم أكلة الربا وبعضهم عمى يترددون وهم من يجور في الحكم، وبعضهم صم بكم لا يعقلون وهم الذين يعجبون بأعمالهم وبعضهم يمضغون ألسنتهم مدلاة على صدورهم لسيل ألقيح من أفواههم يقذرون أهل الجمع وهم العلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وهم الذين يؤذون الجيران، وبعضهم مصليين على جذوع من النار وهم السعاة بالناس إلى السلطان وبعضهم أشد تنناً من الجيف وهم الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله في أموالهم وبعضهم يلبسون جلابيت سابعة من القطران وهم أهل الكبر والفخر والخيلاء وكذا روى الثعلبي من حديث البراء بن عازب عن معاذ ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ أي شقت قرأ أهل الكوفة بالتخفيف والباقون بالتشديد للمبالغة والتكثير عطف على تأتون ومعناه الاستقبال أو حال بتقدير قد وكذا سيرت ﴿فَكَانَتْ﴾ السماء ﴿أَبْوَابًا﴾ أي ذات أبواب أو حمل على المبالغة يعني صارت من كثرة الشقوق كأنها كلها أبواب ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض في الهواء كالبهاء ﴿فَكَانَتْ﴾ الجبار ﴿سَرَابًا﴾ السرب في الأصل الذهاب كذا في الصحاح، ويقال اللامع في المفازة كالماء سراياً ما لا سرايه في رأي العين والمراد ها هنا صارت الجبال شيئاً لا حقيقة لها لتفتت أجزائها ولما ذكر الله سبحانه ميحىء الناس أجمعين للحساب بقوله فتأتون أفواجاً فكان السامع اشتقاق إلى تفصيل أحوالهم فذكر أهل الطاغين أولاً لأن الترهيب أهم من يرصد عند أذهان الناس فقال ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ الرصد الاستعداد للترقيب وموضع يرصد فيه والمعنى ملائكة العذاب وملائكة الرحمة يرصدون الناس جسر جهنم فأما ملائكة العذاب فيرصدون الكفار ليأخذوهم ويلقونهم في النار ويعذبونهم وأما ملائكة الرحمة فيرصدون المؤمنين

ليحرسونهم في مجاوزتهم عليها من فيح جهنم وكلايب الصراط فهذه الآية بهذا التأويل تدل على كون جهنم طريقاً وممرّاً للناس أجمعين كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(١) فمن فسر المرصاد بالطريق أو المعنى الالتزامي، وقيل: مرصاد أي معدة للكفار يقال أرصدت الشيء إذا أعدته ويحتمل أن يكون المرصاد صيغة مبالغة أي مجدة مجتهد في ترصد الكفار كيلا يشذ منها واحد، أخرج البيهقي عن أنس قال سمعت النبي ﷺ يقول: «الصراط أحد كحد السيف وإن الملائكة يحفظون للمؤمنين والمؤمنات وإن جبرئيل لآخذ بحجزتي وإني لأقول يا رب سلم سلم والزالون والزالات كثير» وأخرج ابن المبارك والبيهقي وابن أبي الدنيا عن عبيد بن عمير عن النبي ﷺ قال: «الصراط على جهنم مثل حد السيف بجهة الكلايب والجسك في ركبه الناس فيخطفون والذي نفسي بيده وإنه ليؤخذ بالكلوب الواحد أكثر من ربيعة ومضر والملائكة على جهة يقولون رب سلم سلم» وأخرج البيهقي عنه قال: «إن الصراط مثل حد السيف دحض مزية تنكفاً للملائكة والأنبياء قياماً ما يقولون رب سلم سلم والملائكة يخطفون بكلايب» قال البيهقي روى مقسم عن ابن عباس أن علي جسر بجهنم سبع محابس يسأل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز بها إلى الرابع فيسأل عن الصوم فإن جاء بها تامة جاز إلى الخامس فيسأل عن الحج فإن جاء به تامة جاز إلى السادس فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع فيسأل عن المظالم فإن خرج منها وإلا يقال أنظروا فإن كان له تطوع أكمل به أعماله فإذا فرغ به انطلق به إلى الجنة ﴿لِطَّغِينٍ﴾ يجوز بخمسة أوجه أن يكون خبر ثانياً لكانت أو صفة لمرصاد أو لمآب قدم عليه ما انتصب حالاً أو ظرف مرصاد أو لمآب، والطاغي الذي جاوز الحد في العصيان ولا يكون ذلك حتى يقطع في الكفر والتكذيب إما صريحاً فحينئذ يسمى كافراً وإما التزاماً واقتضاء فيسمى رافضياً أو قدرياً أو مرجئاً أو نحو ذلك من أهل الهواء ﴿مَتَابًا﴾ خبر آخر لكانت ﴿لَيْثِينَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب لبيثين بغير الألف والباقون بألف حال مقدره من الضمير في الطاغين ﴿فِيهَا﴾ في جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حقب والحقب الواحد ثمانون سنة كل سنة اثني شهرين كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة، قال البغوي روي ذلك عن علي بن أبي طالب وكذا أخرج هناد عن أبي هريرة، وقال مجاهد الأحقاب ثلاثة وأربعون حقباً كل حقب سبعون خريفاً كل خريف سبعمئة سنة كل سنة ثلاثمئة وستون يوماً كل يوم ألف سنة، وقال

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

مقاتل بن حبان الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة لما كانت هذا المدة متناهية وقد دلت الآيات المحكمات على خلود الكفار في النار والعذاب حيث قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(١) وعليه العقد الإجماع، وروى السدي عن مرة بن عبد الله قال: لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا ذهب المفسرون إلى تأويل هذه الآيات فقيل إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾^(٢) قالوا: فالعدد قد ارتفع والخلود قد حصل، قلت: هنا خبر والخبر لا يحتمل النسخ، وقال الحسن في تأويلها إن الله لم يجعل لأهل النار مدة بل قال: لا بثين فيها أحقاباً فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر ثم أخرى إلى الأبد فليس للأحقاب مدة إلا الخلود ومن ها هنا قال البيضاوي والمراد وهو متتابعة وليس فيه دلالة على خروجهم منها وإن كان فمن قبيل المفهوم فلا يعارض المنطوق الدال على الخلود الكفار، قلنا: نعم المنطوق لا يزاومه المفهوم ومن ثم قلنا بخلود الكفار في النار وعليه انعقد الإجماع ووجب تأويل هذه الآية وتأويله بالأحقاب الغير المتناهية والدهور المتتابعة ضعيف إذ لا يظهر حينئذ فائدة لتقييد بالأحقاب الموهوم خلاف المراد كيف والأحقاب بالنسبة إلى غير المتناهي من الزمان كالأيام بالنسبة إليها ولا شك أنه لو قيل لابثنين فيها أياماً لا يتبادر الذهن منه إلى الخلود بل إلى الخروج فكذا هنا، وقيل أحقاباً جمع حقب من حقب الرجل إذا أخطأ الرزق وحقب العالم إذا قل مطره وخيره فيكون حالاً بمعنى لابثنين فيها حقبين أي ممنوعين عنهم الرزق كله وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ تفسير له، قلت وهذا التأويل يأبى عنه الآثار المروية عن علي وغيره المذكورة مع أنها في حكم المرفوع لعدم مساغ الرأي فيه وقول أن قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾^(٣) إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا^(٤) حالاً من المستكن في لابئين أو صفة لأحقاباً أو أحقاباً ظرف بلا يذوقون فالمعنى أنهم يلبثون أحقاباً على هذه الصفة غير ذائقين إلا حميمًا وعساقًا لأحفاف زمان بعدم الذوق لا المطلق اللبث فلعلهم يبدلون بعد ذلك جنساً آخر من العذاب أشد من ذلك والظاهر أنه حال مرادف بقوله تعالى: ﴿لَيْسِينَ﴾، والتأويل عندي أن لفظ الطاغين ليس على عموم اتفاقاً فأنتم تحملونه على الكفار دون أهل الهواء، فيلزمكم التكلفات في هذا الآية ليندفع المعارضة بينها وبين المحكمات ونحن نحمل الطاغين ها هنا على أهل الهواء دون الكفار فلا يلزمنا ما يلزمكم ويؤيد ما قلت ما أخرج البزار عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «والله لا يخرج أحد من

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٢) سورة النبا، الآية: ٣٠.

النار حتى يمكث فيه أحقاباً والحقب بضع وثمانون سنة وكل سنة ثلاثمائة وستون يوماً مما تعدون» فإن هذا الحديث يدل على الخروج بعد تلك المدة والله تعالى أعلم، قرأ الحمزة والكسائي وحفص غساقاً بالتشديد كالحباز والباقون بالتخفيف كالعذاب أما الحميم فماء في غاية الحرارة في الحديث: «يرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد فإذا دنت وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم»^(١) الحديث رواه الترمذي والبيهقي عن أبي الدرداء وأما الغساق فأخرج هناد عن مجاهد قال الغساق الذي لا يستطيعون أن يذوقه لشدة برده، قال البغوي قال ابن عباس يحرقهم ببرده كما يحرق النار بحرهما، قال مقاتل هو الذي انتهى برده، وأخرج هناد عن أبي العالية في هذه الآية أنه استثنى من الشراب الحميم ومن البرد الغساق، قال البيضاوي آخر الغساق ليوافق رؤوس الآي، وأخرج هناد عن عطية قال: الغساق الذي يسيل من صديدهم وأخرجه مثله عن إبراهيم وأبي زريرن فهو مشتق من قولهم غسقت وانصبت والغساق الأنصاب وأخرج ابن حاتم وابن أبي الدنيا وأيضاً عن كعب قال: الغساق عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذي حمة من حية وعقرب وغير ذلك فيستنقع يؤتى بالآدمي فيغمس غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده عن العظام وتعلق جلده ولحمه في كعبيه فتجر لحمه كما يجز الرجل ثوبه فعلى هذه الأقوال إن كان الغساق بارداً كان المستثنى من البرد إلا فهو والحميم كلاهما مستثنى من الشراب والمراد بالبرد حينئذ برد جهنم ويستثنى عن حر النار والمراد بالبرد النوم، وقيل: الاستثناء منقطع والمراد بالشراب ما يسكن عطشهم ﴿جَزَاءٌ﴾ منصوب على المصدرية من فعل المحذوف أي يجزون جزاء ﴿وَفَأَقَا﴾ أي وافقاً أو موافقاً أو يوافق وفاقاً لأعمالهم وأباطيلهم، قال مقاتل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك هذا على تفسير القوم بأن المراد بالطاغين الكفار فعلى هذا جزاء مصدر وقع بعد جملة لا محتمل لها غيره من قبيل له على ألف درهم اعترافاً إذ لا محتمل من جملة إن جهنم الخ إلا الجزاء فهو تأكيد لنفسه وأما على ما ذكرت من أن المراد بالطاغين أهل الهواء فمعناه يجزون لجنس ما ذكر من العذاب موافقاً لبعدهم عن الحق في عقائدهم فيكون لبث بعضهم في جهنم أكثر من بعض وعذابهم أشد منهم غير أنه يبلغ هذا اللبث وما هم فيه إلى الأحقاب وأذاه حقب وعلى هذا التأويل فالمصدر تأكيد لغيره إذا الجملة السابقة عليه يحتمل غير ذلك والحمل على كونه تأكيداً لغيره أولى من الحمل على كونه تأكيداً لنفسه فإن التأسيس أولى من التأكيد ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يخافون ولا يعتقدون

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٦).

﴿حِسَابًا﴾ تعليل لما سبق من الجزاء للكافرون لا يعتقدون البعث والحساب والجزاء مطلقاً وأما أهل الهواء فإن هذه الصفة موجودة في بعضهم فإن المرجئة لا يعتقدون الحساب والجزاء وكذا الروافض يقولون شيعة علي ومجبه لا يعذب بشيء من الذنوب كبيرة كانت وصغيرة ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَابًا﴾ عطف على كانوا وهذه الصفة عامة في جميع أهل الهواء كما ذكرنا في المرسلات ألا ترى إلى الروافض أنهم ينكرون مناقب جميع الصحابة ويدعون ارتدادهم أو نفاقهم أجمعين إلا ثلاثة منهم أو نحو ذلك، ويزعمون إن عمر بن الخطاب وغيره من الخلفاء حين مكثهم الله تعالى في الأرض أفسدوا في الأرض ويزعمون أن الصحابة شر الأمم وأسوأ القرون وقد قال الله تعالى: ﴿كُتِّمَ خَيْرٌ أُمَّةٍ﴾^(١) وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ﴾^(٢) إلى قوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾^(٣) الآية وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٤) وقال: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾^(٥) الآية إلى غير ذلك من آيات لا تكاد تحصى، وكذاباً المصدر بمعنى التكذيب مطرد شائع أو بمعنى المكاذبة فإنهم كاذبون عند المسلمين والمسلمون كاذبون عندهم أو بمعنى أنهم مبالغون في الكذب مبالغه المبالغين فيه وعلى المعنيين يجوز أن يكون حالاً بمعنى كاذبين أو مكاذبين ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي تكذيباً مفرطاً كذبه.

مسألة:

هذه الآية على ما ذكرت من التأويل تدل على عذاب أهل الهواء وأما عذاب أهل الكبائر من المؤمنين فأطول مدة مكثهم بقدر الدنيا سبعة آلاف سنة ولا يجرعون الحميم ونحو ذلك، أخرج ابن أبي حاتم وابن شاهين عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم كلها الذين ماتوا على الكبائر غير تائبين من دخل منهم جهنم لا يزرق أعينهم ولا تسود وجوههم ولا يقرنون بالشياطين ولا يغلون بالسلاسل لا يجرعون الحميم ولا يلبسون القطران حرم الله أجسادهم على الخلود

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٤) سورة الفتح، الآية: ١٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

وصورهم على النار من أجل السجود فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ومنهم من تأخذه النار إلى عقبه ومنهم من تأخذه النار إلى حنجرته ومنهم من تأخذه إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ومنهم من يمكث فيها سنة، ثم يخرج وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ خلقت إلى أن تفتنى» الحديث وأخرج الحاكم في نوادر الأصول عن أبي هريرة نحوه فهم في الباب الأول من جهنم ولا يضربون بالمقامع ولا يطرحون في الدرك فمنهم من يمكث فيها ساعة ثم يخرج منها ومنهم من يمكث وفيها يوماً ثم يخرج ومنهم من يمكث فيها سنة وأطولهم فيها مكثاً منذ خلقت الدنيا إلى يوم فنيته وذلك سبعة آلاف، قلت والمراد بالسنة ها هنا السنة الدنيوية حتى يتحقق مساواتهم فيها بمددة الدنيا وورد في بعض الروايات عن ابن سعيد مرفوعاً «أن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم يميتهم الله في النار فإذا كانوا أذن بالشفاعة يحيون بخلاف الكفار فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون» ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر على شريطة التفسير أي أحسينا كل شيء من أعمال الطاغين وأباطيلهم ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ منصوب على التميز أو على الحال بمعنى مكتوباً أو على المصدرية من قبيل ضربتهم سوطاً أي أحصيناه إحصاء كتاب أو بفعل محذوف أي أحصيناه كتبه كتاباً في اللوح المحفوظ أو في صحف الحفظة، قيل: هذه الجملة معترضة والظاهر عندي أنها تعلل لقوله تعالى: ﴿وَفَاقًا﴾ كما أن قوله أنهم كانوا لا يرجون الخ تعليل لقوله جزاء يعني جزيناهم كذلك لأجل إنكارهم للحساب وتكذيبهم بالآيات ويوافق الجزاء أعمالهم وفاقاً حيث كتبنا أعمالهم وأباطيلهم لا يغادر فيها شيء فيجزئهم وفاق ذلك ﴿فَذُوقُوا﴾ الفاء للسببية بمعنى ذوقوا العذاب بسبب إحصاء أعمالهم خطاب مع الطاغين على طريقة التفات للمبالغة ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ﴾ أيها الطاغون ما دمتم في النار ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن أبي هريرة الأسلمي مرفوعاً إن هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار ورواه الطبراني والبيهقي في البعث موقوفاً والله أعلم. ولما ذكر الطاغين ذكر الله سبحانه حال المتقين فقال:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٦﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٧﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٨﴾ وَكَأْسًا دِهَانًا ﴿٣٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ﴿٤٠﴾ جَزَاءً مِمَّنْ عَطَاءَهُمْ حِسَابًا ﴿٤١﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا ﴿٤٤﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٢٦﴾﴾ فوزاً ونجاة من النار أو موضع فوز ﴿حَدَائِقَ﴾ بدل بعد من مفاز إن كان بمعنى الموضع وإلا فبدل اشتمال ﴿وَأَعْنِيًا﴾ هذا وما بعده بدل اشتمال من مفازاً ويجوز عطف على بدل البعض تقول أعجبنى زيد وجهه وعلمه ﴿وَكُوَاعِبَ﴾ جوارى نواهد قد تكعبت ثديهن واحدها كاعب ﴿أَرْبَابًا﴾ مستويات السن ﴿وَكَأْسًا يَهَاقًا ﴿٢٧﴾﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة مملوءة وقال سعيد بن جبير متابعة وقال عكرمة صافية ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ حال من الضمير في للمتقين اراجع إلى مفاز أو هو الحدائق والجنات أو صفة لكأساً وعلى هذا فالضمير ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى كأس لا يسمعون في شربها كما كانوا يسمعون في شرب كأسات الدنيا ﴿لِقَوْمٍ﴾ باطلاً من الكلام ﴿وَلَا كَذِبًا﴾ قرأه الكسائي بالتخفيف على أنه مصدر الكاذبة، وقيل هو الكذب وقيل: هو كالمشدد في المعنى والباقون بالتشديد بمعنى التكذيب يعني لا يكذب بعضهم بعضاً ولا يوجد في الجنة الكذب ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر فعل محذوف مؤكد بجمله وقعت قبله كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٨﴾﴾ ﴿عَطَاءً﴾ مصدر كذلك أي يجزون جزاء أو يعطون عطاء ﴿حِسَابًا﴾ صفة لعطاء بمعنى كافياً وافية من أحسبت فلاناً أي أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبي قال ابن عتبة عطاء حساباً أي كثيراً فعلى هذا يكون تأكيداً لنفسه من قبيل الله أكبر دعوة الحق وله علي ألف اعترافاً، وقيل حساباً معناه على حسب الأعمال وقدرها في القاموس هذا بحسبه أي بعدده على هذا يستقيم المقابلة بما سبق جزاء وفاقاً يعني الطاغون يجزون جزاء موافقاً لأعمالهم وأباطيلهم والمتقون يجزون جزاء على حسب أعمالهم وقدرها قلت بل على حسب مشيئة الله تعالى وفضله لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِّائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يُضَلِّفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) وعلى حسب إخلاص العالمين ومراتب قربهم، فإن المقربين يعطون الأجر على القليل من العمل لا يعطي الأبرار على الكثير لما روى الشيخان في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٢) وهذا التفاوت فيما بين المقربين على تفاوت درجات قربهم قال المجدد ﷺ: الصحابة كانوا

(١) سورة النبا، الآية: ٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

كلهم مستغرقين في التجليات الذاتية الدائمة بكلمات النبوة وكثيراً من التابعين وقليل من أتباعهم كانوا كذلك وهم المقربون وبعد القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير انطقت أنوار تلك الدولة العظمى ودرست آثارها ثم بعد مضي ألف سنة من الهجرة خلق الله سبحانه بعض الكرام وأعطاهم كمالات مثل كمالات الأولين كما نطق به الصادق المصدوق عليه السلام: «مثل أمي كمثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره»^(١) رواه الترمذي عن أنس شبه رسول الله صلى الله عليه وآله آخر هذه الأمة بأوله بحيث لا يدرى أيها خير من الآخر وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أبشروا بشروا إن مثل أمي مثل الغيث لا يدرى آخره خير أم أوله أو كحديقة أطعم منها فوج عاماً وفوج عاماً لعل آخرها أفواجاً يكون أعرضهم عرضاً وعمقهم عمقاً وأحسنهم حسناً» الحديث رواه البيهقي ورواه رزين وعن صحابي بهم سمع النبي صلى الله عليه وآله أنه يقول: «سيكون في آخر هذه الأمة قوم لهم أجر مثل أجر أولهم»، رواه البيهقي في دلائل النبوة وعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ مَن رَّبَّنَا عَلَيْكَ حَسَابًا﴾ ﴿١٦﴾ تأكيداً الغيرة كما ذكرت في جزاء وفاقاً والله تعالى أعلم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ الكوفيون بالجـر والباقون بالرفع ﴿الْكَوْنِ﴾ قرأ عاصم وابن عامر بالجـر والباقون بالرفع فعلى قراءة عاصم بالجـر فيهما كلا الاسمين صفتان لربك في قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ مَن رَّبَّنَا﴾ أو بدل منه وعلى قراءة أهل الحجاز والبصرة بالرفع فيهما رب السماوات مبتدأ والرحمن صفة له وما بعده خبره ويحتمل أن يكون رب السماوات خبر مبتدأ المحذوف أي هو رب السماوات الرحمن صفة له أو خبر ثان وما بعده خبر ثالث، ويحتمل أن يكون الرحمان مبتدأ وما بعده خبره وعلى قراءة حمزة والكسائي بالجـر في الأول والجـر في الثاني رب السماوات خبر مبتدأ محذوف فهو جملة معترضة والرحمان بدل من ربك وما بعده استئناف ﴿لَا يَلِكُونُ﴾ أي أهل السماوات والأرض ﴿مِنَهُ﴾ أي من الرحمان ﴿خُطَابًا﴾ أي لا يقدر أحد أن يخاطبه منه وقال الكلبي معناه لا يملكون الشفاعة إلا بإذنه ويحتمل أن يكون معناه لا يمكن لأحد الاعتراض عليه سبحانه في إعطاء الأجر بعضهم أكثر من بعضهم لأنهم مملوكون على الإطلاق ولا يستحق أحد عليه شيئاً والأجر تفضل منه فعلى هذا لا اعتراض، عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنما أجلكم من أجل ما خلا من الأمم من العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عملاً فقال من يعمل إلى النصف النهار على قيراط فعملت اليهود إلى النصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال (٢٨٦٩).

على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل إعطاء قال الله تعالى فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا قال الله تعالى فإنه فضلي أعطيته من شئت»^(١) رواه البخاري، قلت: معناه قوله ﷺ «إنما أجلكم من أجل ما خلاف من الأمم ما بين العصر إلى مغرب الشمس» أن أعمار هذه الأمة قصيرة وأعمالهم قليلة والمراد بالقيراطين الكثرة مطلقاً كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْجِعْ أَبْصَرَ كَرْتَيْنِ﴾^(٢) لا تعيين الكثرة بقدر الضعيف والله أعلم وتأويلنا هذا يرتبط هذه الآية بما سبق أي جزاء من ربك عطاء حساباً والله تعالى أعلم ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ ظرف للا يملكون أو للا يتكلمون والأول أظهر ﴿الرُّوحُ وَالْمَلَكُوتُ﴾ في ذلك اليوم واختلفوا في الروح، فأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: الروح في السماء الرابعة وهو أعظم من السماوات والجبال ومن الملائكة وزاد البغوي أنه يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيح يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً واحداً، وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في هذه الآية قال الروح صاحب الله يقوم بين يدي الله وهو أعظم ملائكة لو فتح فاه لوسع جميع الملائكة ما يخلق ينظرون إليه فمن مخافته لا يرفعون طرفهم إلى من فوقهم، وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال الروح ملك له سبعون ألف وجهة لكل وجهة سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون لغة يسبح الله بتلك اللغات كلها وأخرج من طريق عطاء عن ابن عباس قال الروح ملك واحد له عشرة وآلاف جناح ومن طريق أبي طلحة عنه أنه من أعظم الملائكة خلقاً وزاد البغوي في قول عطاء عنه أنه قال إذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفاً والملائكة صفاً واحداً فيكون أعظم خلقه مثلهم، وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل بن حبان قال: الروح أشرف الملائكة وأقربم إلى الله وهو صاحب الوحي وأخرج من وجه آخر عن الضحاك في هذه الآية فالروح جبرائيل عليه السلام وأخرج عن ابن عباس أن جبرائيل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائضه فرقاً من عذاب الله يقول سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك وإن ما بين المشرق والمغرب وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَكُوتُ صَفًّا﴾ وأخرج أبو نعيم عن مجاهد وابن المبارك عن أبي صالح مولى أم هاني قال: الروح خلق على صورة بن آدم وليسوا بالإنسان زاد البغوي يقومون صفاً والملائكة صفاً هؤلاء جند وهؤلاء جند وكذا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإجارة، باب: الإجارة إلى نصف النهار (٢٢٦٨).

(٢) سورة الملك، الآية: ٤.

ذكر البغوي عن قتادة، وأخرج أبو الشيخ من طريق مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً قال: «الروح جند من جنود الله ليسوا بالملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل ثم قرأ (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) قال هؤلاء جنده وهؤلاء جنده» وذكر البغوي عن مجاهد عنه قال: خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا معه واحد منهم أخرج ابن المبارك وأبو الشيخ في العظمة عن البيهقي قوله تعالى: (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) قال يقوم سماطين لرب العالمين يوم القيامة سماط من الملائكة وسماط من الروح وذكر البغوي أنه قال الحسن هم بنوا آدم ورواه قتادة عن ابن عباس وقال: هذا مما كان يكتبه ابن عباس ﴿صَفًّا﴾ حال مفرد من فاعل يقومون أو مصدر بفعل محذوف أي يصفون صفاً والجمله حالان يتكلمون يعني الروح والملائكة وهذه الجملة حال من فاعل يقوم وجملة يوم الروح والملائكة صفاً ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ تقرير وتوكيد لقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ فإن هؤلاء الذين أفضل الخلائق وأقربهم إلى الله إذا لم يقدرُوا على التكلم فكيف من عداهم ﴿إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الكلام والشفاعة استثناء من فاعل لا يتكلمون أو من فاعل لا يملكون والأول أظهر لفظاً لاتصاله والثاني معنى فإن الإذن في الشفاعة والكلام غير مختص بالروح والملائكة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي حقاً وصدقاً واعتقد به فالقول ها هنا كان كناية عن الاعتقاد والاعتقاد لا يظهر إلا بالقول عطف على أذن له الرحمن يعني من قال صواباً في الدنيا يعني لم يقل باطلاً من الكلام كاذباً وأكذب الكذب الكفر بالله العظيم لعدم إمكان صدقه ثم قول أهل الهواء لأن القرآن يكذبهم، وقيل معنى قال صواباً قال لا إله إلا الله فالكفار لا يؤذن لهم أن يتكلموا أو يعتذروا وأهل الهواء وأنى لهم درجة الشفاعة ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾ إشارة إلى ما سبق من اليوم المذكور بالصفات المذكورة مبتدأ ﴿الْحَقُّ﴾ خبره عرف للقصر على كونه حقاً ثابتاً لا شبهة فيه ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ مرجعاً وسبيلاً مقرباً إليه بطاعته واتباع رسله والهادين إلى سبيله بال جذب والتسليك فليتخذ الفاء السببية فإن كون ذلك اليوم حقاً موجب الاتخاذ السبيل إلى الله وإلى ربه متعلق بمآباً أو ظرف مستقر حال منه ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ﴾ وأيها الكفار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذاب الآخرة فإن كل ما هو آت قريب أو عذاب القبر والموت أقرب من شرك النعل ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ الظرف متعلق بعذاباً فإنه بمعنى التعذيب ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ما استفهامية منصوبة بقدمت أو موصولة منصوبة بينظر والعائد من الصلة محذوف المعنى لتعذيب أنه يرى كل امرئ يوم القيامة ما قدم من العمل شيئاً في صحيفة أو يرى جزائه في الآخرة أو في القبر إنما أسند تقديم

الأعمال إلى اليد لأن عامة الأعمال الجوارح منها أو لأن اليد كناية عن القدرة والقوة، عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القبر أول منزلة من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»^(١) والأحاديث في العذاب القبر كثيرة وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول» وفي رواية لمسلم «لا يستتره من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»^(٢) الحديث، ويدل على رؤية العمل في القبر حديث البراء بن عازب بطوله وفيه في ذكر المؤمن «يفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك كنت توعد فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه تجيء بالخير فيقول: أنا عمك الصالح» الحديث وفيه في ذكر الكافر «ويضيق عليه قبره حتى يختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه وقبيح الثياب نتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسؤوك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه تجيء بالشر فيقول: أنا عمك الخبيث» الحديث رواه أحمد ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مداً لا دمم وحشر الله تعالى الخلائق الإنس والجن والدواب والوحش فإذا كان ذلك اليوم جعل الله القصاص بين الدواب حتى يقضي للشاة العجماء من القرناء فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها كوني تراباً فيراها الكافر فيقول يا ليتني كنت تراباً، وأخرج الديندري عن يحيى بن جعدة نحوه وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي هريرة نحوه، وذكر البغوي قول مقاتل نحوه وفيه يقول الكافر يا ليتني كنت في الدنيا في صورة خنزير وكنت اليوم تراباً وذكر البغوي عن الزيادة وعبد الله بن ذكوان قال: إذا قضى بين الناس وأمر أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار قيل لسائر الأمم وللمؤمني الجن عودوا تراباً فيعودون تراباً فحينئذ يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً وبه قال ابن أبي سليم مؤمنوا الجن يعودون تراباً، وقيل المراد بالكافر ها هنا إبليس وذلك أنه عاب آدم أنه خلق من التراب وافتخر بأنه خلق من النار فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه المؤمنون من الثواب والرحمة وما هو فيه من الشدة والعقاب قال يا ليتني كنت تراباً قال أبو هريرة فيقول التراب لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٣٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: من الكبائر أن لا يستتر من بوله (٢١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

سورة النزاعات

مكية وهي ست وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّادِحَاتِ سِحًّا ﴿٣﴾ فَأَلْسِنَتٍ مَنبَأًا ﴿٤﴾
 فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِيفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الزَّادَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يُؤْمِدُ وَإِعْمَةٌ ﴿٨﴾
 أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ إِنْآ لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ إِنْآ كُنَّا عِظْمًا تَحْرَهُ ﴿١١﴾ قَالُوا
 نَلَاكَ إِذَا كَرِهْتَ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾ الواو للقسم وجواب القسم محذوف أي لتبعثن ولتحاسبن يدل على ما بعده، والمراد بالنزاعات غرقاً الملائكة التي تنزع أرواح الكفار غرقاً في النزاع فغرقاً اسم أقيم مقام المصدر فهو مفعول مطلق من غير لفظ العامل نحو قعدت جلوساً، يقال أغرق النازع في القوس أي استوفى مدها بقوة وشدة وبالنشاطات نشطاً الملائكة التي يخرجون أرواح المؤمنين برفق من نشط الدلو إذا أخرج بلا كره أو من نشط الحبل أو أمده حتى انحل فإن المؤمن كان في مصائب الدنيا كأنه معقود محسوس فالملائكة الناشطات أخلصته وحلت حلاً رقيقاً كما ينشط العقال من يد البعير كذا حكى القراء، وفي الحديث في حال أرواح المؤمن «كأنما أنشط من عقال»، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة تنزل إليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت ﷻ حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج كأطيب نفحة مسك» الحديث «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا تنزل إليه من السماء ملائكة سوداء الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى

يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله قال: فتفرق في جسده فينزعه كما ينزع السفود من الصوت المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسموح ويخرج منها كتنن ريح جيفة» وفي رواية «وينزع نفسه - يعني الكافر - مع العروق»^(١) رواه أحمد قال البغوي، قال ابن مسعود وينزعها يعني نفس الكافر ملك الموت من تحت كل شعرة ومن الأظافر وأصول القدمين ويردها في جسده بعدما ينزعها حتى إذا كادت تخرج ردها جسده فهذا عمله بالكافر، وقال مقاتل ملك الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل.

فائدة: ومن ها هنا يظهر أن النفس جسم لطيف على حسب الجسم الكثيف سارٍ في البدن ناشيء من العناصر الأربعة الروح والقلب وغيرهما من لطائف عالم الأمر الجواهر المجردة الإمكانية التي تظهر في النظر الكشف لللطافتها وتجردها في عالم المثال فوق العرش، قالت الصوفية إنه بكمال قدرته تعالى جعلت النفس في معاملتها بمنزلة المرأة في مقابلة الشمس في النفس وامتلات النفس بها كما تمتلىء المرأة بالشمس إذا قوبلت بها وانضأت كالقمر إذا اتسق بأنوار الشمس على رأي الفلاسفة فحياة البدن بالنفس وحياة النفس بالأرواح المجردة وتنزع النفس من البدن عند أجل مسمى ولا يحل انتزاع الأرواح المجردة بالنفس أبداً كذا ما ورد في الحديث أن النفس ينزع من البدن ويجعل في الأكفان والحنوط والمسوح يسعد بها فيفتح أبواب السماء لنفس المؤمنة إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى أكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلفتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ولا يفتح أبواب السماء للكافر بل يطرح روحه إلى الأرض صريح على كونه جسماً مخلوقاً من الأرض، وعلى هذا التحقيق لا مجال لإنكار عذاب القبر على ما ذهب إليه أهل الهواء مع قطع النظر من البدن الكثيف وعند أهل الحق عذاب القبر يمكن على البدن الكثيف أيضاً ولا يمنعه الموت كما مر تحقيقه في سورة البقرة والله تعالى أعلم ﴿وَالسَّيِّئَاتِ سَبْحًا﴾^(٢) قال مجاهد هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد ﴿فَالسَّيِّئَاتِ سَبْحًا﴾^(٣) قال مجاهد هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وقال مقاتل هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة يعني إلى

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الجنائز، باب: السؤال في القبر (٤٢٦٦).

الثواب، قلت: وأرواح الكفار إلى العذاب، قلت: وهم الذين ورد ذكرهم في حديث البراء المذكور أن ملك الموت إذا أخذ نفساً لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذها، وعن ابن مسعود السابقات هي أنفس المؤمنين تستبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله وكرامة غاية السرور ﴿فَالْمُدْرَاتُ أَمْرًا﴾ ﴿٥﴾ أخرج ابن أبي الدنيا ابن عباس في المدبرات أمراً قال: ملائكة مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم فمنهم من يعرج بالروح ومنهم من يؤمن على الدعاء ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلي عليه ويدلى في حفرته، وقال البغوي قال ابن عباس هم الملائكة الذين وكلوا بأمر عرفهم الله عز وجل العمل بها قال عبد الرحمن بن سابط يدبر الأمر في الدنيا أربعة جبرائيل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل أما جبرائيل فوكل بالرياح والجنود وأما ميكائيل فوكل بالمطر والنبات وأما ملك الموت فوكل بقبض الأنفس وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، قال قتادة بجمعيتها غير المدبرات بالنجوم فإنها تنزع من أفق إلى أفق ثم تغيب وتنشط من أفق إلى أفق أي تذهب وقال الله تعالى فيها: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١) وتسبق بعضها على بعض في السير وهذا القول ضعيف فإنه لا فرق حينئذ بين النزاع والنشط والسبح ولا وجه لذكر شيء واحد أربع مرات والفرق بين النزاع والنشط بأن حركتها من المشرق إلى المغرب قسرية فتغرب بالنزع غرقاً وحركاتها من برج إلى برج طبيعة ملائمة فسمت بالنشط مبني على مذهب الفلاسفة قائلين بانطباق السماوات بعضها على بعض حتى يتصور القسر والثابت من الشرع أن مسافة ما بين السماء إلى السماء خمسمائة عام، وذكر في تأويل هذه الآية وجوه آخر بناء على احتمال العقل من غير نقل من السلف قال البيضاوي صفات للنفوس الفاضلة حال المفارقة فإنها تنزع من الأبدان نزاعاً شديداً من أغراق النازع في القوس فتتنشط إلى عالم الملكوت وتسبح فيه وتستبق في حظائر القدس حتى يصير لشرفها وقوتها من المدبرات أو حال سلوكها فإنها تنزع عن الشهوات وتنشط إلى عالم القدس فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من الكمالات أو صفات أنفس الغزاة أي أيديهم بنزع القسي بإغراق السهم وينشطون بالسهم للرحى ويسبحون في البر والبحر فيسبقون إلى حرب العدو فيدبرون أمرها أو صفات خيلهم فإنها تنزع في أعتتها وتغرق في عرقها والأعنة أطول أعناقها ويخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر وتسبح في جريها وتستبق إلى العدو فتدبر أمر الظفر والله تعالى أعلم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِيفَةُ﴾ ﴿٦﴾ متعلق بجواب القسم المحذوف يعني لتبعثن ولتحاسبن يوم ترجف

(١) سورة يس، الآية: ٤٠.

الراجفة وظرفية ذلك اليوم باعتبار أجزائها فإن مقدار ذلك اليوم خمسين ألف سنة من النفخة الأولى إلى دخول الجنة أو النار، أخرج البيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ فقال: ترجف الأرض والجبال وهي الزلزلة تتبعها الرادفة قال: دكتا دكة واحدة ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (٧) في موضع الحال من فاعل ترجف والمراد بالراجفة النفخة الأولى بالراجفة لأنها توقع الزلزلة فيحرك بها كل شيء ويموت منها الخلائق والثانية بالرادفة لأنها رديفة الأولى، أخرج ابن المبارك من مرسل الحسن بين النخفتين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل ميت، قال الحلبي اتفقت الروايات على أن بين النخفتين أربعون سنة وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النخفتين أربعون قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: آبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: آبيت، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»^(١) وأخرج ابن أبي داود في البعث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه وفيه بين النخفتين أربعون عاماً والأول أصح، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس يسيل واد من ماء فيما بين النخفتين ومقدار ما بينهما أربعون فينبت كل خلق بلى من إنسان أو حيوان ودابة ولو مر عليهم مار قد عرفهم، قيل ذلك على وجه الأرض لعرفهم فتنبتون ثم يرسل الأرواح فيزوج بالأجساد فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ﴾ (٧) ﴿فَلُوبٌ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بفعل يدل عليه ﴿وَأَجِفَةٌ﴾ خبر أي مضطرب اضطراباً شديداً مستعار من الواجف بمعنى سريع السير ﴿أَبْصَرُهَا﴾ أي أبصار أصحابها ﴿خَشِيعَةٌ﴾ ذليلة من الخوف، الجملة خبر بعد خبر لقلوب أو صفة لواجفة ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ تعليل لواجف قلوبهم وخشوع أبصارهم يعني يلحقهم الاضطراب والزلزلة أنهم ينكرون البعث ويقولون في الدنيا هذا القول ﴿أَوَّانًا لَمَرْدُودُونَ﴾ الاستفهام للإنكار يعني كنا مردودين قرأ أبو جعفر أنا بحذف همزة الاستفهام لفظاً وإرادته معنى ﴿فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي في الحياة الأولى يعني حياة بعد الموت يقال رجع فلان في الحافرة يعني طريقة التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيئته كقولهم عيشة راضية أو على تشبيه القابل ما يقابل وقال ابن زيد الحافرة النار ﴿أَوَّانًا كُنَّا عِظَمًا﴾ قرأ نافع والكسائي ويعقوب والحمزة وعامر إذا كنا بغير همزة الاستفهام والباقون بالهمزة للإنكار بعد الإنكار للتأكيد والظرف متعلق بمحذوف تقديره انبعث إذا كنا ويحتمل أن يكون متعلقاً بمردودون ﴿مُخْرَجَةٌ﴾ يابسة قرأ أبو بكر وحمزة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: ما بين النخفتين (٢٩٥٥).

والكسائي بالألف ناخرة والباقون بغير ألف، أخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب قال لما نزل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ﴿١٠﴾ قال كفار قريش لئن رجعنا بعد الموت لنخسرن فنزل ﴿قَالُوا﴾ عطف على يقولون وحال بتقدير قد من فاعل يقولون لكن نزول تلك الآية كما يدل عليه رواية سعيد بن منصور عن محمد بن كعب يابى على كونه حالاً ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الرجعة المفهوم من قوله إنا لمردودون في الحافرة مبتداً ﴿إِذَا﴾ أي كان كذلك أي كما يقول محمد شرط مستغني عن الجزاء لوقوعه في وسط جملة تدل على الجزاء تقديره إذا كان كذلك فتلك الرجعة ﴿كَرَّةٌ﴾ رجعة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ أي ذات خسران وخاسر أصحابها والمعنى أنها إن صحت فنحن خاسرون لتكذيبنا وهذا استهزاء منهم ﴿إِنَّمَا هِيَ﴾ أي النفخة الثانية ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ في الصحاح الزجر الطرد بالصوت يقال زجرته فانزجرو منه هذه الآية فإن الناس يطردون في الأرض بصوت ينفخ في الصور ثم يستعمل تارة في الصوت كما في قوله تعالى: ﴿فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا﴾ ﴿١١﴾ يعني الملائكة التي زجرن السحاب بالصوت وتارة بالطرد كما في قوله تعالى: ﴿بِحُنُودٍ وَأَزْدُجِرٍ﴾ ﴿٢﴾ يعني طرد ومنع ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ﴿٤﴾ الفاء للعطف وإذا للمفاجأة أضيفت إلى جملة اسمية جعلها في قوة الفعلية معطوفاً على فعلية تقديره يقولون في الدنيا كذا فيفاجؤون وقت كونهم بالساهرة وجملة فإنما هي زجرة واحدة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لبيان كون الرجفة التي أنكروها سهلة بينه عند الله تعالى استفهام أي قد أتيتك إلى غير مستصعبة والساهرة وجه الأرض يعني إذا هم أحياء بوجه الأرض، وقيل: هي أرض القيامة وقال قتادة هي جهنم.

﴿هَلْ أُنثِقَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدِّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ
طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَكْنَا وَآهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتُخْشَى ﴿١٨﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾
فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ
نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾

﴿هَلْ أُنثِقَ﴾ استفهام تقرير أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾ جملة معترضة تسلية للنبي ﷺ على تكذيب قومه وتهديدهم بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أعظم منهم ﴿إِذْ نَادَهُ رَبُّهُ﴾

(١) سورة الصفات، الآية: ٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ٩.

الظرف متعلق مفهوماً بحديث موسى أي هل أتاك الحديث المتعلق بموسى وقت نداء ربه إياه ﴿بِالْوَادِ﴾ والباء بمعنى في ﴿الْمَقَدِّسِ طُوًى﴾ قرأ الكوفيون بالتنوين ويكسرون نونها لالتقاء الساكنين بتأويل كونه علماً للمكان، وقيل: هي مثنى من الطي مصدر لنودي أو المقدس أي نودي ندائين أو قدس مرتين وقرأ الباقون بغير تنوين لأنه معدول تقديره أي عن طاو اسم لواد فعدل عن الصرف أو لأنه علم لمؤنث بتأويل البقعة فهو عطف بيان للوادي واذهب بيان لنادي بتقدير القول أي قال ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرٌ ﴿٧﴾﴾ قبيل الذهاب ﴿فَقُلْ﴾ عطف على اذهب ﴿هَلْ لَكَ﴾ ميل ﴿إِلَّا أَنْ تَرَكَّ﴾ قرأ أهل الحجاز ويعقوب بتشديد الزاء والباقون بالتخفيف بحذف إحدى التائين أي تسمل وتطهر من الشرك قال ابن عباس تشهد أن لا إله إلا الله ﴿وَأَهْدِيكَ﴾ أراك السبيل ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ أي معرفته وعبادته وتوحيده ﴿فَنَخَّشُ﴾ عقابه فتؤدي الواجبات وتترك المحرمات على أن أهديك الفاء للسببية فإن الخشية مسبب للمعرفة والمعرفة مسبب لهداية ﴿فَأَرَاهُ﴾ معطوف على محذوف يعني ذهب وبلغ فأراه ﴿الْآيَةَ﴾ على صدقه ﴿الْكُذْبَى﴾ أي المعجزات الباهرة العظيمة في الدلالة على صدقه وإفراها لأن كلها من حيث الدلالة كالأية الواحدة أو المراد بها قلب العصى حية ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى ﴿وَعَصَى﴾ الله ورسوله بعد ظهور صدقه بالمعجزات ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾ من ذلك المكان حين رأى الثعبان مسرعاً في مشيه إليه ﴿يَسْعَى﴾ حال من فاعل أذبر أو المعنى عن الإيمان والطاعة حال كونه يسعى في الفساد في الأرض ﴿فَنَحَشَرَ﴾ جمع جنود أو السحرة ﴿فَنَادَى﴾ في مجعته ﴿فَقَالَ﴾ بيان لنادي والفاء للتفسير ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ يعني لا رب لكم فوقي أو أن أعلى من كل من يلي أمركم وقيل أراد أن الأصنام أرباب وأنا ربها وربكم ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ النكل في اللغة الضعف والعجز ويقال لا يمنع الشيء عن الشيء ويعجزه عنه فيطلق على قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين والنكال اسم من التنكيل، يقال: نكلت به إذا فعلت به من عقاب الشديد ما يمنع غيره من ارتكاب مثله فالنكال هنا إما صفة لمصدر محذوف مؤكد لما قبله أي أخذه الله أخذاً نكالاً مانعاً لمن أراه أو سمعه أن يفعل مثله أو أخذه الله نكله نكالاً وإضافته إما بمعنى في يعني نكالاً في الآخرة بالإحراق وفي الدنيا بالإغراق كذا قال الحسن وقتادة أو بمعنى اللام يعني نكله نكالاً للكلمة الأخرسة وهي هذه، قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَذِيبٍ﴾^(١) وكان بينهما أربعون سنة كذا قال مجاهد وجماعة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الأخذ والنكال ﴿لَعِبْرَةً﴾ موعظة ﴿لِمَنْ يَخْشَى﴾ لمن كان من شأنه الشية صفة لعبرة، ثم خاطب منكري البعث

(١) سورة القصص، الآية: ٣٨.

على سبيل الالتفات واحتج عليهم على البعث وكونه تعالى قادراً عليه بما ظهر من قدرته في إيجاد العالم فقال:

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعْتَكُمْ فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَ الظَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْفَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ مبتدأ محذوف الخبر تقديره أنتم أشد خلقاً أم السماء أشد خلقاً منكم والاستفهام للتقرير والمراد بالسماء هي وما فيها بقريئة ذكر الأرض والجبال في مقام التفصيل والحاصل أن السماء وما فيها أشد خلقاً منكم البتة لأنكم بعض ما فيها والكل أعظم وأشد من الجزء بالبداية والإعادة أهون من الله ﴿بَنَاهَا﴾ صفة للسماء إما على أن اللام زائدة على طريقة لقد أمر على اللثيم يسبني أو على حذف الموصول أي التي بناها أو جملة ثانية معطوفة على الأول بحرف مقدر ويحصل من القضيتين مادة البرهان تقديره أن الله بنى السماء التي هي أشد خلقاً منكم وكل من هو قادر على بناءها قادر على إعادة ما هو أضعف منها ﴿رَفَعَ سَعْتَكُمْ﴾ السمك الارتفاع والمعنى جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو جعل تحتها الذهاب في العلو رفيعها والجملة بيان لجملة بناها أو بدل اشتمال منه ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ عمد لها وجعلها مستوية بلا فطور ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعلها ذا ظلمة يقال غطش الليل إذا أظلم أضاف الليل إلى السماء لحدوثها بحركة الشمس المستقر فيها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أبرز ضوء شمسها وجعل النهار موجوداً منها ﴿وَالْأَرْضُ﴾ منصوب بفعل محذوف على شريطة التفسير يعني ووحى الأرض ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد خلق السماء ﴿دَحَاهَا﴾ بسطها للسكنى قال ابن عباس خلق الله الأرض بأقواتها في يومين من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات في يومين بعد ذلك، ثم دحى الأرض في يومين بعد ذلك فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وقيل معناه الأرض مع ذلك دحاه كقوله تعالى: ﴿عُتِّلِبَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِرٌ ﴿١٣﴾﴾^(١) في التفسير البيضاوي حمل كلمة بعد هنا على الحقيقة، وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴿٢١﴾﴾ أن ثم لتفاوت

(١) سورة القلم، الآية: ٨٣

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩

ما بين خلقتي السماء والأرض من الفصل كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَآمِنُوا﴾^(١) والتأويل الأول لكونه مستفاداً من كلام السلف أولى ﴿أَخْرَجَ مِنَهَا﴾ أي من الآرض ﴿مَاءَهَا﴾ ينفجر العيون فيها ﴿وَمَرَعَهَا﴾ كلاهما تسمية الحال باسم المحل أو مصدر بمعنى المفعول وجملة أخرج معطوفة على الأرض نظيره له .

﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾^(٢٢) مَتَّعًا أَي تَمْتِيعًا مَنْصُوبٌ عَلَى الْعَلِيَّةِ مِنْ دَحَى وَأَرْسَى عَلَى سَبِيلِ التَّنَازُعِ ﴿لَكُمْ﴾ أَيِهَا النَّاسُ ﴿وَلَا تَقْمِكُوا فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾^(٢٤) الفاء للسببية يعني إذا ثبت البعث بأخبار الله تعالى بعد إمكانه وظهور قدرته سبحانه وتعالى عليه بما ظهر من قدرته في إيجاد العالم فاعلموا صفته وقت مجيئه وغيرها بالطامة الكبرى ليعلم بعض صفاته من عنوانه، والطم في اللغة الغلبة ويقال للبحر لأنه يغلب كل شيء والطامة عند العرب الداهية التي لا يستطيع من ذلك سميت القيامة طامة لأنها تطم الدواهي كلها وتغلبها ثم وصفها بالكبرى لمزيد تأكيدها في الطم وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ بدل منه ﴿مَا سَعَى﴾ ما مصدرية أو موصولة يعني يرى أعماله عدد ما في صحيفته وكان قد نسيها من قبل لفرط الغفلة أو طول المدة ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ عطف على يتذكر أي يوم يبرز يظهر ﴿الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ لكل من يرى، قال مقاتل يكشف عنها الغطاء فيظهر إليها الخلق أما الكفار فيدخلها وأما المؤمن فيمرون من الصراط على ظهرها أو المراد لمن يرى الكفار وجواب إذا قيل محذوف دل عليه يوم يتذكر والظاهر أن جوابه ما بعده من التفضل ولا ضرورة في التقدير ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾^(٢٧) أي جاوز الحد في العصيان حتى كفر ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢٨) على الآخرة باتباع الشهوات وهواء النفس ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(٢٩) هي فصل أو مبتدأ واللام في المأوى يدل على المضاف إليه عند الكوفيين أي مأواه وعند السيوي والبصريين تقديره هي المأوى له عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر دنياه من أحب آخرته من أحب دنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»^(٢) رواه أحمد والبيهقي في الشعب وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره»^(٣) متفق عليه وعند مسلم حفت مكان حجبت وعنه «إن

(١) سورة البلد، الآية: ١٧.

(٢) رواه أحمد والطبراني والبخاري ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فيمن أحب الدنيا (١٧٨٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: حجبت النار بالشهوات (٦٤٨٧)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٢).

الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم»^(١) رواه الترمذي وابن ماجه ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي مقامه يوم القيامة لحساب ربه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾ الأمانة بالسوء ﴿عَنِ الْهَوَى﴾ في الصحاح الهوى ميل النفس مما يشتهي قيل: سمي به لأنه يهوى صاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية والهوى الانهدار والسقوط عن علو. اعلم أن الهوى رأس المنهيات وأساس المحرمات قال أبو بكر الوراق إن الله لم يخلق خلقاً أخبث من الهوى، قلت وهو قبيح عقلاً وشرعاً أما عقلاً فلأن حقائق الأشياء كما هي في نفس الأمر لاسيما حقائق المبدأ والمعاد وعواقب الأمور من الأخلاق والأفعال وغيرها المستدعية لحسنها وقبحها مما لا يدرك غالباً بالرأي وإن أدرك بعضها بالرأي فلا يليق بالوثوق ما لم يستفاد من علام الغيوب يتوسط الرسل ﷺ وإلا لما احتيج إلى الرسل، فتحصيل العقائد الصحيحة والعلم بالأعمال الحسنة والقبيحة والعمل بها وبالأخلاق الشريفة والرذيلة لا يتصور إلا باتباع الرسل على خلاف الهوى واتباع الهوى يضاده، وأما شرعاً فلأن الله سبحانه قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) وفي الصحاح العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها وهي ضربان عبادة بالتسخير كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾^(٣) وعبادة بالاختيار وهو مطلوبة من الثقلين فكما أن الأشياء كلها بالتسخير والاضطرار لا يتصور منه إلا ما شاء الله وأراد فلا بد أن يكون كذلك بالاختيار لا يصدر منه شيء من أفعال القلوب والجوارح وصفات النفس إلا ما أراد الله وأمر به بلا مدخل للهواء فيه وضده واتباع الهوى فهو ينافي العبودية فكل باطل قبيح من شعب من الهوى ومنبعث من الآراء الكاسدة قالت الكفار بناء على فساد رأيهم ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَبْتَئِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٤) ﴿أَبَشْرًا مِثَّا وَجِدًا نَبِّعُهُ﴾^(٥) قالت المجسمة: الباري موجود وكل موجود جسم متحيز وقلت المعتزلة وغيرهم لا يتصور عذاب القبر ووزن الأعمال والصراف ونحو ذلك والفساق مع اعترافهم بوجوب امتثال الرسول والقرآن وعلمهم بعذاب الآخرة وعلى مساوئ الأخلاق والأعمال لم يثبتوا على الشرائع باتباع الهوى والشهوات فتركوا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٢)،

وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٢).

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦. (٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧. (٥) سورة القمر، الآية: ٢٤.

الواجبات وارتكبوا المحرمات والمكروهات فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات هوى» إلى «بئس العبد عبد الهوى يضل» رواه الترمذي والبيهقي عن أسماء بنت عميس، وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه وهي أشدهن» رواه البيهقي عن أبي هريرة، قلت: والثلاث كلها راجعة إلى الهوى وإن كان المراد في الحديث بالهوى بعض أفرادها.

فائدة: ترك الهوى على مراتب أدناه اجتناب ما هو يخالف ظاهر النصوص وإجماع السلف في العقائد وبه يصير مسلماً سنياً وأوسطه ما قال مقاتل أن يهتم الرجل المعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ومن تمام هذه المرتبة ترك المشتبهات واجتناب عما لا بأس به حذراً عما به بأس قال رسول الله ﷺ: «من اتقى المشتبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في المشتبهات وقع في المحرمات كراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقع»^(١) متفق عليه عن النعمان بن بشير وأيضاً من تمامه قصر دائرة المباح على ما لا بد منه وترك الهوى في الفضول منها، قال رسول الله ﷺ: «من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت»^(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي عن أنس، قال المجدد قال سيدنا قبلتنا الشيخ الأجل الشيخ بهاء الدين النقشبندي وجدت طريقاً أمرب الطرق إلى الله سبحانه وهي المخالفة مع النفس يعني مع زيادة الرعاية الشريعة والله تعالى أعلم وها هنا تدقيق وهي أن المعصية منها ما هو ظاهر يمكن التحرز عنها مخالفة المقام لجانب ربه العلام ومنها ما هو أدق من ديبب النمل وذلك ما كان منها في لباس الحسنات كالرياء أو العجب وتزكية النفس المنهي عنها في كثرة النوافل والطاعات وهذا من مزال الأقدام، قال بعض الأكابرة لمريده يا بني لا أخاف طرق الشيطان إليك من سبيل السيئات ولكن أخاف أن يطرق إليك من طريق الحسنات والتحفظ في هذا المقام إتهام نفسه في كل مأتى به والتضرع والاستغفار.

أبيات:

خالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة، باب: من الإسراف أن تأكل ما اشتهيت (٣٣٥٢)، وإسناده ضعيف.

ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
استغفر الله من قول بلا عمل لقد نسبت به نسلاً لذي عقم

والحصين في كل الحصين في هذه المقام التشبث بذيل شيخ فات في الله باق به وأن
لا يفعل شيئاً إلا بأمره وإجازته، ذكر الشيخ الإمام يعقوب الكرخي ح عن بدء حاله أنه قال:
كنت نجاراً فأدركت في نفسي تكاسلاً وفي باطني شيئاً من الظلمة فأردت أن أصوم أياماً
ليذهب ذلك فعمت وأصبحت عند الشيخ الإمام الأجل بهاء الملة والدين النقشبذير فأمر
الشيخ بإحضار الطعام وقال لي كل فإنه بس العبد عبد هوى تضاله وقال: إن الأكل أفضل
من الصوم إن كان بهوى النفس فهمت أنه لا بد في العبادة النافلة أيضاً من إذن من الشيخ
الفاني في الله المستخلص عن الهوى، قال قلت للشيخ بهاء الدين إن لم يوجد شيخ كذلك
فماذا يفعل المرء قال: فقال الشيخ ليستغفر الله كثيراً أو يستغفر بعد كل صلاة عشرين مرة
فإنه قال رسول الله ﷺ؛ «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة»^(١) وأعلى
المراتب الانتهاء عن الهوى سلب الهوى عن نفسه بالكلية بحيث يكون لكون له مراد
ومطلب غير الله سبحانه وغير مراده ولتحصيل هذه المرتبة تكثر الصوفية تكرار لا إله إلا الله
بملاحظة لا مقود إلا الله، قال المجدد رضي الله عنه إن العبد ما دام في هوى نفسه فهو عبد
نفسه مطيع الشيطان وهذه الدولة العظمى يعني سلب الهوى بالكلية منوط بالولاية الخالصة
ومربوط بالفناء والبقاء الأكملين، قلت: وفي هذه المرتبة يحصل للصوفي الرضاء بما قدر
الله له وإن كان خلاف طبعه وإنه يدعو لدفع ضرر نزل به بناء على أنه مأمور بالدعاء أو
طلب العافية لا لأجل ضيق صدره من فقدان مراده وفي هذه المرتبة يكون عبد الله تعالى
بالاختيار كما هو عبد الله بالتسخير والاضطرار لا يجد الشيطان إليه سبيلاً إلا نادراً لأن
سبيله إلى الإنسان غالباً يكون بتوسط الهوى ألا ترى أن من هو محرور المزاج مغلوب
الغضب يزين له الشيطان نم أعماله القتل والظلم ونحو ذلك ومن هو مبرود المزاج ضعيف
القلب يزين له الشيطان القرار من الزحف وترك الغيرة في الحق والنفاق ونحو ذلك وقس
على هذا فإذا أزال الهوى منه انسد طرق الشيطان إليه كلها وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾^(٢) ومن هذا المقام قال شيخ

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه
(٢٧٠٢).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.

الأجل يعقوب الكرخي إن الرجل لا يبلغ مبلغ الرجال حتى يخلص من الهوى وفي هذا المقام يطلق على العبد أنه مؤمن حقيقي وهو المراد من قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» رواه البغوي في الشرح السنة، وقال النووي في أربعين حديث صحيح ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤١) ليس له مأوى سواها أخرج ابن حاتم من طريق جبير عن الضحاك عن ابن عباس أن مشركي مكة سألوا النبي ﷺ فقالوا متى تقوم الساعة استهزاء منهم فأنزل الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي كفار قريش ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى قيامها مصدر من الرأس بمعنى القيام والثبوت، وأخرج الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت كان النبي ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله عليه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ الخ فانتهى، وأخرج الطبراني وابن جرير عن طارق بن سهاب قال كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٤٢) أخرج ابن حاتم عن عروة مثله والحاصل أن النبي ﷺ بشدة حرص على جواب السائلين عن وقت قيامها كان يسأل الله سبحانه عنها نزلت هذه الآية ظهر أن في إخفائها حكمة وأنه لا يرجى علمها فانتهى عن السؤال عنها وما في فيم استفهامية للإنكار ومن ذكرها بيان لما أي في شيء أنت في ذكر الساعة وبيان وقتها لا يجوز كذلك ولا يتصور لأنك لا تعلمها ولا يجوز أن يعلم الحكمة في إخفائها والمعنى في أي شيء أنت حال كون ذلك الشيء من ذكر الساعة وبيانا وقتها يعني لست في شيء من ذكرها وعلمها يعني ليس شيء من عملها عندك يقال ليس فلان في العلم من شيء يعني ليس شيء من العلم عنده ويحتمل أن يكون فيم خبر مبتدأ محذوف يعني فيم هذا السؤال وأي فائدة فيه ثم استأنف وقال أنت من ذكرها أي من علاقاتها وموجب تذكرها فإنك ختم الأنبياء، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(١) متفق عليه، وعن المستورد بن شداد عن النبي ﷺ: «بعثت في نفس الساعة سبقتها كما سبقت هذه هذه» بأصبعيه السبابة والوسطى^(٢) رواه الترمذي. وقيل فيم أنت من ذكرها متصل بالسؤال يعني يسألونك عن الساعة أيان مرساها ويقولون وأين أنت من ذكرانها وبيان وقتها فتذكر وقتها على التعيين ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ﴾ (٤٤) يعني مدة تقوم الساعة عند انقضائها مفوض إلى ربك لا يعلمها غيره فهذا التعليل للإنكار السابق جواباً للسؤال وإن كان من تنمة السؤال فهذا جواب

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والنازعات (٤٩٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٢٩٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين» يعني السبابة والوسطى (٢٢١٣).

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ (٤٥) يعني لم تبعث لبيان وقت الساعة إنما بعثت لتنذر منها من يخشى شدائدها حتى تجتنب من موجباتها من يخشى لأنه هو المنتفع الشدائد والعلم بوقوع الساعة قطعاً يكفي للإنذار ولا حاجة فيه إلى بيان وقت وقوعها وتخصيص من يخشى لأنه هو المنتفع بالإنذار وهذه الجملة تأكيد لما سبق من التعليل لإنكار السؤال ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي الناس ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي الساعة والظرف متعلق بمعنى التشبيه المفهوم من كان ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ خبر كان أي لم يلبثوا في الدنيا والقبور زماناً ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي عشية يوم واحد ﴿أَوْ ضُحًى﴾ أمال حمزة والكسائي أو آخر هذه السورة من قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ مَوْسَى﴾ (١٥) (١) إلى آخرها إلا دحاها فإن حمزة فتحاه وورش ما ليس فيه هاء ألف بين بين وغيرها بالفتح إلا ذكراها فبين بين وأبو عمرو ما فيه راء أمال وغيرها بين بين والباقون بالفتح كلها أي ضحى تلك العشيّة أضيف الضحى إلى العشيّة لملازمة اجتماعها في يوم واحد يعني أنهم يزعمون مدة لبثهم في الدنيا والقبور لكونها متناهية ولانقضائها وانعدامها كأن لم يكن ولعدم تناهي زمان للعذاب ولشدة ذلك العذاب زمان قصير جداً نظيره قوله تعالى ﴿لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (٢) وهذه الآية كان جواب لسؤالهم عن وقت مجيئها يعني أن قيام الساعة قريب جداً.

(١) سورة النازعات، الآية: ١٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٣.

سورة عبس

مكية وهي اثنتان وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَسَّ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّم يَبْرَأَ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ﴿٤﴾
 الذِّكْرَىٰ ﴿٥﴾ أَمَا مَنِ اسْتَعْتَبَ ﴿٦﴾ فَانَّت لَهُ نَصْدَىٰ ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا بَرَأُيَ ﴿٨﴾ وَأَمَا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٩﴾
 وَهُوَ يَحْسَبُ ﴿١٠﴾ فَانَّت عَنْهُ نَلْعَىٰ ﴿١١﴾ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ﴿١٢﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٣﴾ فِي صُحُفٍ ﴿١٤﴾
 مُتَكْرِمَةٍ ﴿١٥﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٦﴾ يَأْتِي سَفَرًا ﴿١٧﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٨﴾﴾

ذكر البغوي أن ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر ابن لؤي أتى رسول الله ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأبي وأميه ابني خلف يدعوهم إلى الله يرجوا إسلامهم، فقال ابن أم مكتوم يا رسول الله أقرنتني وعلمني مما علمك الله فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مقبل علي غيره حتى ظهرت الكراهية في وجهه ﷺ لقطع كلامه، وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد أما أتباعه العميان والعيبد والسفلة فعبس وجهه وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ محمد أي كلع ﴿وَتَوَلَّى﴾ أعرض وجهه ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ ومحلّه النصب على أنه مفعول لأحد الفعلين على التنزاع أو لأن جاءه الأعمى وهو ابن أم مكتوم المذكور كذا أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة وفيه قال ابن أم مكتوم أترى عما أقوله بأساً؟ قال رسول الله ﷺ لا، وأخرج مثله عن أنس وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وفيه فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا رآه يكرمه ويقول: «مرحباً بمن عاتبتني فيه ربي ويقول له هل لك من حاجة» وفيما روى الترمذي والحاكم عن عائشة أن النبي ﷺ استخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما، وذكر الأعمى في الآية إشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام النبي ﷺ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار ومعناه النفي يعني أنت ما أدريت بحاله وأي شيء يجعلك دارياً بحاله وفيه إيماء إلى العذر في حق النبي ﷺ يعني أنك لو كنت عالماً بحال الأعمى لم تعرض

عنه مقبلاً على غيره. وفي الآية إجلال للنبي ﷺ بوجوه أحدها أنه ذكر موجب الإنكار والإعراض عنه في بدأ الكلام بلفظ الغيبة، ولم يسند ذلك الفعل إليه بالتخاطب إيهاماً بأن من صدر ذلك الفعل كأنه غيره وليس من شأنه أن يصدر منه مثله وتوجيه ذلك أن الأعمال إنم هي بالنيات وما كانت في نية النبي ﷺ الإعراض عنه مطلقاً بل كان غرضه أن هذا الرجل مؤمن لا يضره التأخير في تعليمه ولا يخاف منه التولي والانحراف وأن صناديد قريش عند الإعراض عنهم يذهبون ولا ينظرون ولو أنهم آمنوا لآمن معهم خلق كثير وتسام كلمة الله فهذا الغرض كأن لم يصدر عن النبي ﷺ التولي عن الأعمى وإن وجد منه صورة التولي، وثانيها أن ذكر الإيماء إلى الاعتذار منه ﷺ بأنك لم تكن تعلم وإلا لما صدر عنك ذلك، وثالثها الالتفات إليه من الغيبة إلى التخاطب إيناساً له دفعاً للإيحاء وإقبالاً عليه دفعاً لتوهم الإعراض ورابعها إسناد موجب العذر إليه ﷺ بالتخاطب تصريحاً بكونه معذوراً فيما صدر عنه ﴿لَعَلَّهُ يَزُنَّ﴾ أصله يتزكى أي يتطهر بكماله من الشرك الجلي والخفي وردائل النفس وهوائها وتعلق القلب بغير الله سبحانه وذهاب الغفلة عن سائر لطائف عالم الأمر وزوال صولة كل عنصر من عناصر عالم الخلق بفيض صحبة النبي ﷺ وبركة أنفاسه الشريفة واقتباس أنواره الظاهرة والباطنة ﴿أَوْ يَذُكَّرُ﴾ أصله يتذكر أي يشتغل بما يذكر الله سبحانه ويزيد حضوره ويفيد خشيته من عذابه ورجاء ثوابه ﴿فَنَنْفَعُهُ﴾ قرأ عاصم بالنصب على جواب لعل والباقون بالرفع عطفاً على يذكر ﴿الذِّكْرَى﴾ في الصحاح الذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَزُنَّ﴾ إشعار إلى غاية منازل الإبرار وقوله أو يذكر إشارة إلى بداية حال الأخيار ولم يذكرها هنا حال المقربين الصديقين لأن المقام مقام الأنانية وأما المقربون فملاك أمرهم على الاجتناب وذلك بالأصافة مختص بالأنبياء وبالوراثة والطفيل لمن شاء الله تعالى من الأصفياء وكلمة أو بين لمنع الخلو دون الجمع كما في قوله جانس الحسن أو ابن سيرين والجملة معترضة لما ذكرنا من الفوائد والبيان صلوح الأعلى للخطاب وفيه تعريض بأن صناديد قريش ليسوا بأهل للخطاب وفيه تعريض لا يرجى ما يقصد منهم كمن يقرأ مسألة لمن لا يفهمها وعنده آخر قابل لفهمها فيقال بل هذا يفهم ما تقول، وقيل: ضمير لعله راجع إلى الكافر يعني أنك تطمع منه تزكى وتذكر وما يدريك أن ما تطمع فيه كأيمن وعلى هذا جملة لعله يزكى مفعول ثان ليدريك والله تعالى أعلم ﴿أَنَا مَنِ اسْتَعْنَى﴾ قال ابن عباس استغنى عن الله وعن الإيمان بماله من المال ﴿فَأَتَتْ لَّهُ صَدَى﴾ قرأ نافع وابن كثير بتشديد الصاد بإدغام التاء التفعّل في الصاد والباقون بالتخفيف بحذف إحدى التائين وأصله يتصدى أي تعرض له وتقبل

عليه كيلا يفوت منه التزكي والتطهر ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ بأس في ﴿أَلَا يَرْكَنُ﴾ حتى يبعثان الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم إنما عليك البلاغ ويحتمل أن يكون لا زائدة وألا يزكى اسم ما عليك خبره والمعنى أنه ليس الواجب عليك تزكيتك إنما عليك البلاغ والجملة فاعل تصدى أو معترضة ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعًا﴾ حال أي ساعياً طالما لما عندك من الخير ﴿وَهُوَ يَخْتَصِمُ﴾ الله عز وجل حال مرادف سعى أو متداخل ﴿فَأَنْتَ عَنْتَ لِلَّهِ﴾ أمال حمزة والكسائي أو آخر الآيات من أول السورة إلى ها هنا وورش بين بين إلا ذكرى فأما لها والباقون بالفتح أي تتشاغل إلى غيره الجملتين تفصيل لما أجل في عبس وتولى وبيان لما عليه العتاب وهو إهمال الطالب وبذل الجهد في الغافل مع أن الأولى عكس ذلك ﴿كَلَّا﴾ ردع عما فعل أي لا تفعل مثل ذلك أبداً ﴿إِنَّمَا﴾ أي القرآن أنت الضمير لتأنيث خبره أو بتأويل الآيات ﴿نَذْرَةٌ﴾ عظة وموجب لذكر الله سبحانه ﴿فَنَسَاءٌ﴾ الإيعاظ وذكره تعالى ﴿ذَكْرٌ﴾ حفظه أي القرآن والجملة متعرضة تعليق الذكر بالمشيئة تخيير صيغة وتوبيخ للمعرضين عنه وثناء للمشتغلين به معنى في ﴿فِي صُحُفٍ﴾ أي مشبته مكتوبة فيها صفة لتذكرة أو خبر ثان لأن أو خبر مبتدأ محذوف أي هي في صحف والمراد بالصحف اللوح المحفوظ أو صحف ينسخها الملائكة من اللوح أو صحف الأنبياء بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ﴾ (١) ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (٢) أو المصاحف التي كتبها الصحابة عن النبي ﷺ ﴿مَكْرَمَةٌ﴾ عند الله ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ القدر عند الله سبحانه وقبل مرفوعة في السماء السابعة ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ منزهة عن مس الجنب والحائض والنفساء والمحدث ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ جمع سافر بمعنى كاتب ومنه يقال الكتاب سفر وجمعه أسفار كذا قال ابن عباس ومجاهد فالمراد بهم الملائكة الكرام الكاتبون أو الأنبياء أو كتبة الوحي، وقال الآخرون هم الرسل جمع سفير بمعنى الرسل يقال سفير القوم للذي يسعى بينهم للصلح فالمراد هم الرسل من الملائكة ومن البشر قلت: وكذا كتبة الوحي وعلماء الأمة فإن كل منهم سفير بين الرسول وبين الأمة قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البرار والذي يقرأه ويتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران» (٣) رواه الشيخان، عن عائشة رضي الله عنها يعني له أجران أجر

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٨ - ١٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة عبس (٤٩٣٧)، وأخرجه مسلم في كتاب:

صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتبع به (٧٩٨).

القراءة وأجر المشقة وبهذا يظهر أن للماهر أجور غير متناهية ﴿كِرَامٍ﴾ على الله منعطفين على المؤمنين يكملونهم ويستغفرون لهم ﴿بِرَّوْرٍ﴾ أتقياء صفة بعد صفة لسفرة هكذا ينبغي شأن العلماء.

﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُوا﴾ (١٧) مِنْ أَي شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَةً فَأَقْدَرُهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا سَاءَ أُنْشِرُهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا بَقِيَ مَا أَمَرُهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَسَا وَقَصَبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّاهَا لِيُتَلَكَّا ﴿٢٩﴾ وَحَدَّيْنِ عَلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكَّهُمَا وَأَنَا ﴿٣١﴾ مَنَّامًا لَكُمُ وَلَا تَمْكُمُ ﴿٣٢﴾

﴿قُلِ الْإِنْسَانُ﴾ أي لعن ﴿مَا أَكْفَرُوا﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات وتعجب من إفراطه في الكفر بعد هجوم الدواعي على التشكر والإيمان وهذا الكلام مع قصره يدل على سخط عظيم وذم بليغ، أخرج ابن المنذر عن عكرمة وكذا قال مقاتل أنها نزلت في عتبة بن أبي لهب قال: كفرت برب النجم قلت: وقصة ذلك على ما في السير أنه كان النبي ﷺ وزوجه ابنته أم كلثوم وزوج أخيه عتبة أختها ﷺ فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ﴿١﴾ قال أبو لهب رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد فطلقا لهما ولم بينيا بهما وجاء عتبة حين فارق أم كلثوم عند النبي ﷺ وقال: كفرت بدينك وفارقتك ابنتك وسطا عليه وشق قميص النبي ﷺ قال النبي ﷺ: إني أسأل الله أن يسلط عليك كلباً من كلابه وكان خارجاً إلى الشام تاجراً مع نفر من قريش حتى نزلوا مكاناً من الشام يقال له الزوراء ليلاً فطاف بهم الأسد تلك الليلة عتبة يقول يا ويل فإني أخاف دعوة محمد فجمعوا حاملهم فعرشوا لعتبة في أعلاها وناموا حوله فقيل: إن الأسد انصرف عنهم حتى ناموا وعتبة في وسطهم، ثم أقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتبة قلت وأما عتبة ومعتب ابني أبي لهب فقد أسلم بعد ذلك وكان من التائبين مع النبي ﷺ يوم حنين ﴿مِنْ أَي شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ﴿١٨﴾ بيان لموجبات الإيمان والشكر وذكر مبدأ خلقه لكونها أسبق النعم وضمير الفاعل راجعاً إلى المذكور تقديراً يعني من أي شيء خلقه الله الاستفهام للتقرير إلى حمل المخاطب على الإقرار بأنه خلقه الله من نطفة بيان لما وهذا الوجه أوقع في الذهن وفيه تحقير ينافي التكبر ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ متعلق بمحذوف أي خلق الله من نطفة بيان لما أبهم ثم بين ما اعترض عليه من الأحوال من مبدأ خلقه إلى منتهاه فقال ﴿خَلَقَهُ﴾ أوجده في الرحم من نطفة تاماً ﴿فَقَدَرُهُ﴾ أي كتب بإذنه ملك الموكل أربع كلمات مقدرة مقادير عمله وأجله ورزقه وسعادته أو شقاوته كما ذكرنا في سورة المرسلات حديث ابن مسعود المتفق عليه وهذا التأويل أولى

مما ذكره المفسرون بأن معناه ها هنا لا يصلح من الأعضاء والأشكال أو قدره أطواراً من نطفة إلى أن تم خلقه ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (٦) إضمار على شريطة التفسير معطوف على قدر يعني سهل طريق خروجه من بطن أمه كذا قال السدي ومقاتل أو المعنى سهل له طريق الحق وسبيل الوصول إلى الله تعالى ببعث الرسل وإنزال الكتاب ليتم عليه الحجة نظيره قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِّيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ (١) أو المعنى سهل له الحياة الدنيا وما يتوقف عليه، فإن الدنيا سبيل أما إلى الجنة وإما إلى النار وليست بدار القرار قال رسول الله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (٢) رواه البخاري من حديث ابن عمر، ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه وزاد «واعدد نفسك من أصحاب القبور» ويناسب هذا التأويل قوله ﴿ثُمَّ أَمَّا لَهُ﴾ عدا الإماتة من النعم لكونها موصلة إلى دار القرار قال رسول الله ﷺ: «تحفة المؤمن الموت» رواه الطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وأما كونه سبيلاً إلى النار فلفساد اختياره ولا جبر بالكلية، قال رسول الله ﷺ: «قيل لي سيد بني داراً ووضع مادبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة وسخط عليه السيد فقال: فالله السيد ومحمد الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة» رواه الدارمي من حديث ربيعة الجرسى والبخاري عن جابر نحوه ﴿فَأَقْبِرُ﴾ أي أمر الناس بجعل الميت في القبر صيانة عن السباع وهذا نعمة أخرى صبت أكرم الإنسان ولم يجعله كسائر الحيوانات جيفة ملقاة ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ﴾ الله بعثه من القبر ﴿أَنْشُرُهُ﴾ أحياء بعد الموتة فإن من هو قادر على خلقه قادر على نشره من القبر وقد أخبر بذلك على لسان رسله ولولا البعث والجزاء لصار الشاكر كالكافر وذلك قبيح ﴿كَلَّا﴾ ردع عما عليه الكافر من الإنكار والكفران مع تلك الدلائل الموجبة للإيمان والنعماء المستوجبة للشكر ﴿لَمَّا يَفْضُ﴾ أي بعده ما علم تلك النعم الجليلة والدلائل الواضحة لم يقض إلى الآن ﴿مَا أَمْرُهُ﴾ الله من الإيمان والنعماء المستوجبة لشكر المنعم ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ عطف على مفهوم ما سبق أي لينظر أولاً إلى نفسه من مبدأ خلقه إلى منتها وما أنعم عليه وفيه فينظر ﴿إِلَّا طَعَامِهِ﴾ كيف خلقناه ومتعناه به ﴿أَنَا

(١) سورة الليل، الآية: ٥ - ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (٦٤١٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٤)، أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٣).

صَبَّأَ الْمَاءَ ﴿المطر من السماء، قرأ الكوفيون بفتح همزة إنا على أنه بدل اشتمال للطعام لبيان كيفية خلقه والباقون بالكسر على الاستئناف ﴿صَبَّأَ﴾ مفعول مطلق للتأكيد ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ بإخراج شطأ الزرع من الأرض أو بالكراب وحينئذ إسناد الفعل إلى الله إسناد إلى السبب ﴿فَأَلْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ يعني الرطبة سميت بمصدر قضب أو أقطعه لأنها يقضب مرة بعد أخرى وفي الصحاح القضب يستعمل في البقل وفي القاموس القضب كل شجرة طالت وبسطت أغصانها ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَمَدَائِينَ غَلَبًا ﴿٣٠﴾ وهي الحديقة المتكاثفة أشجارها كذا في القاموس ﴿وَفَلَكِهَةٌ﴾ ما يراد بها التفكه فقط من الثمار، ومن ثم قال الفقهاء من حلف لا يأكل فاكهة لا يحث بأكل التمر والعنب والزيتون ولأن العطف دليل المغايرة وكذا أكل ما يراد به الغذاء والدواء كالرمان ﴿وَأَبًا﴾ أي كلاً ومرعى كذا في القاموس ﴿مَنَّامًا﴾ مفعول له لأبتنا ﴿لَكُرًّا﴾ كالحب من الحنطة وغيرها ﴿وَلَاتَمِيمَكُرًّا﴾ كالأب.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ نَسَبُهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَدُوٌّ ﴿٤٠﴾ زَهَقَهَا فَذُرَّةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ﴿٣٢﴾﴾ في القاموس الصاخة صيحة بضم شدتها والمراد بها نفخة الصور، وفي الصحاح الصاخة الشدة الصوت ذي نطق وعلى هذا وصفت نفخة الصور بها مجازاً لأن الناس يصيحون بها وهذا لا شرط محذوف الجزاء والجملة متصل لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَذَكَّرُ﴾ أو بقوله: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَنْفَرَهُ ﴿٧﴾﴾ فعلى الأول تقديره إنها تذكرة وعظة فإذا جاءت الصاخة يختلف حال المتعظين بها وغير المتعظين وبيانه وجوه يومئذ الخ ويحتمل حينئذ أن يكون جزاءه وجوه يومئذ الخ وعلى الثاني تقديره قتل الإنسان ما أكفره فإذا جاءت الصاخة يرى جزاء كفرانه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ لا اشتغاله بشأن نفسه وعلمه بأنهم لا ينفعونهم أو لبغضهم وكراهتهم لأجل كفرهم وسوء حالهم عن علي عليه السلام قال: «سألت خديجة ولدين ماتا لها في الجاهلية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في النار فلما رأى الكراهة في وجهها قال لو رأيت مكانهما لأبغضتهما»^(١)

(١) فيه محمد بن عثمان لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيحين. انظر: مجمع الزوائد في كتاب:

القدر، باب: ما جاء في الأطفال (١١٩٤٠).

الحديث رواه أحمد وتأخير الأحب للمبالغة كأنه قيل يفر المرء من أخيه بل من أبويه بل من صاحبتة وبنيه والظرف أعني يوم يفر بدل من إذا ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ﴾ من الناس ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بالظرف المستقر ﴿شَأْنٌ﴾ فاعل للظرف المستقر أو مبتدأ والظرف خبره ﴿يَغْنِيهِ﴾ أي يشغله عن شأن غيره صفة لشأن وهذا التعليل للفراء عن سودة زوج النبي ﷺ قالت قال رسول الله ﷺ: «يبعث الله الناس حفاة عراة غرلاً لقد أجمعهم العرق وبلغ شحوم الآذان، فقلت يا رسول الله واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض فقال قد شغل الناس لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» رواه الطبراني والبيهقي والبعوث وفي الصحيحين عن عائشة نحوه وفيه قال لعائشة: «الأمر منهم يومئذ أشد من ذلك»^(١) يعني من أن ينظر بعضهم أي بعض وأخرج البيهقي عن ابن عباس نحوه ﴿وَجُوهٌ﴾ المؤمنين أو وجوه كثيرة أو وجوه منهم أي من الناس المفهوم من كل امرئ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بما بعده ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ أي مضية من أسفار الصبح ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ ووصفت الوجوه بصفة أصحابها مجازاً ﴿وَوُجُوهٌ يُّؤْمِنُونَ﴾ متعلق بظرف مستقر بعده ﴿عَلَيْهَا﴾ ظرف مستقر ﴿غَيْرَةٌ﴾ فاعل الظرف أو مبتدأ أي استقر عليها غبار أو كدورة والجملة خبر لوجوه ﴿تَرَعَفُنَّهَا﴾ تعلوها وتغشاها ﴿فَقَرَّةٌ﴾ أي سواد وظلمة قال ابن عباس تغشاها ذلة قال ابن زيد فرق بين الغبرة والقطرة أن القطرة ما ارتفع من الغبار فلاحق بالماء والغبرة ما كان أسفل في الأرض وجملة ترهقها صفة بغبرة أو خبر بعد خبر بوجوه ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ يعني الذين وجوههم عليها غبرة ﴿هُمْ﴾ ضمير الفصل ﴿الْكُفْرَةُ﴾ جمع كفر خبر ﴿الْفَجْرَةُ﴾ جمع فاجر صفة لكفرة أو خبر والجملة مستأنفة كأنها جواب من أصحاب تلك الوجوه والفجور شق شر الدين والديانة وكماله في الكفر، والله أعلم بالصواب.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦٥٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة

وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩).

سورة التكوير

مكية هي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْخُيُوسُ سُجِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْإِبْرَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْحَبِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْيَنبُوتُ أُرْقِلَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَتْ ﴿١٤﴾﴾

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأي العين فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت»^(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه، ورواه البغوي من غير ذكر إذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت ﴿إِذَا الشَّمْسُ﴾ إذا شرطية والشمس مرفوعة بفعل شرط محذوف يفسره ﴿كُوِّرَتْ﴾ وكذا كل ما عطف عليه أي لغت فذهب ضوءه وأظلمت، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس قال: أظلمت وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب في البحر والأحوال وأبو الشيخ في كتاب العظمة عنه في تلك الآيات قال يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فينفخه حتى يرجع ناراً قال بعضهم إذا ألقيت الشمس في البحر فيه انحمى وتنقلب ناراً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مريم أن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ قال: انكدرت في جهنم وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى وأمه قلت: لعل التطبيق بين تكويرها في البحر وفي جهنم أن البحر يصير ناراً حميماً لأهل النار، وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إذا الشمس كورت (٣٣٣٣).

مكوران يوم القيامة»^(١) وأخرج البزار في مسنده وزاد في النار ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾^(٢) أي افضت وتناثرت من السماء وتساقطت إلى الأرض يقال انكدر الطير أي أسقط، قال الكلبي يمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾^(٣) عن وجه الأرض فصارت هباء منبثاً ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ أي التوق اللاتي مر على حملها عشرة أشهر جمع عشراء ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة وهي النفيس أموال العرب يكونون ملازمي أذنايهم ﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت بلا راع أهملها أهلها لما جاء أهوال يوم القيامة أو المراد بالعشار السحايب عطلت عن المطر ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾^(٤) قال أبي بن كعب معناه اجتلت وماجت بعضها في بعضها وقيل: معناه جمعت بعد البعث للقصاص بين الدواب كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿يَلْتَفِتُنِي كُتُّ نُرَابًا﴾^(٥) وروى عكرمة عن ابن عباس حشرها موتها قال حشر كل شيء الموت غير الجن والإنس ﴿وَإِذَا الْيَحَاذُ سُجِرَتْ﴾^(٦) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف والباقون بالتشديد، قال ابن عباس أوقدت فصارت ناراً تضطرم وهو قول أبي، وقال الكلبي ملئت يقال المسجود المملوء، وقال مجاهد مقاتل يعني قحم بعضها في بعض العذب والملح فصارت البحور كلها بحراً واحداً من الحميم لأهل النار، وقال الحسن وقتادة يبست وذهب ماءها فلم يبق من الماء قطرة، قلت والجمع بين الأقوال أنه يجمع البحار كلها وملئت بحراً واحداً أو كورت الشمس فيها فحينئذ تحمي البحر وتصير ناراً ولم يبق من الماء قطرة بصيرورتها ناراً وماء حميماً لأهل النار، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن أبي بن كعب قال ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فينما هم كذلك إذا وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت وفرغت الإنسان والجن فتقول الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج فينما هم كذلك إذا جاءتهم ريح فأماتهم، وقال البغوي روى أبو العالية عنه فذكر نحوه غير أن في رواية فانطلقوا الجن إلى البحر فإذا هي نار تأجج فينما هم كذلك إذ انصدعت الأرض صدعة واحدة أي الأرض السابعة السفلى إلى السماء العليا فينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتهم، وعن ابن عباس أيضاً قال: هي اثني عشر خصلة ست في الدنيا ستة في الآخرة وهي ما ذكر بعدها ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾^(٧) أخرج ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير قال: قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر بحسبان (٣٢٠٠).

(٢) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

رسول الله ﷺ في هذه الآية «الضرباء كل رجل مع قومه كانوا يعملون عمله وذلك بإذن الله ويقول وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشثمة ما أصحاب المشثمة والسابقون والسابقون»، وأخرج البيهقي من النعمان بن بشير قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: وإذا النفوس زوجت قال: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان به الجنة أو النار وسمعتة يقول احشروا الذين ظلموا وأزواجهم قال ضربائهم وأخرج سعيد بن منصور بلفظ يقرن الرجل الصالح مع الصالح في الجنة ويقرن الرجل السوء مع السوء في النار، وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم قال: أشياعهم، وقيل: تزوجت النفوس بأعمالها وقال عطاء ومقاتل زوجت النفوس المؤمنين بالهور العين وقرنت نفوس الكفار بالشياطين وروى عن عكرمة قال إذا النفوس زوجت أي ردت الأزواج في الأجساد ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ﴾ وهي الجارية المدفونة حية سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيودها أي يثقلها حتى تموت وكانت العرب تدفن البنات مخافة العار والفقر تبيكتاً للوائدة كتبكيت النصرارى بقوله تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ امْجُدُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ﴾^(١) أو يقال أسند الفعل إلى المؤودة مجازاً والمعنى ﴿سُئِلَتْ﴾ عنها كما في قوله: ﴿الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٢) أي مسؤولاً عنه أو المراد بالمؤودة اللوائدة وقد يطلق المفعول بمعنى الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ وَعَدُّهُ مَأْتِيًا﴾^(٣) والمراد بالمؤودة اللوائدة لهما كما في قوله ﷺ: «اللوائدة والمؤودة في النار»^(٤) رواه أبو داود بسند حسن عن ابن مسعود قال اللوائدة هي القابلة والمؤودة لها هي الأم ولا يمكن في الحديث إلا هذا التأويل.

فائدة: الوأد كبيرة لأنه قتل النفس بغير حق وفي حكمه إسقاط الحمل بعد أربعة أشهر لتتمام خلقة الجنين ونفخ الروح في تلك المدة وأقل منه وزراً إسقاط الحمل قبل أربعة أشهر لكنه حرام ولذلك تجب الغرة إجماعاً فيما ضرب بطن امرأة حبلى فسقط جنيناً كامل الخلقة أو ناقصاً إذ تصور فيها خلق آدمي هذا إذا انفصل ميتاً وأما إذا انفصل حياً فمات ففيه كمال دية الكبير، عن أبي هريرة قال: «قضى رسول الله ﷺ في جنين امرأة من بني لحيان سقط بغرة عبد أو أمة»^(٥) متفق عليه.

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦. (٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

(٣) سورة مريم، الآية: ٦١.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في ذراري المشركين (٤٧٩٤).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الفرائض، باب: ميراث المرأة والزوج مع الولد وغيره (٦٧٤٠)،

وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة والمحاربيين والقصاص والديات، باب: دية الجنين (١٦٨١).

مسألة:

يجوز العزل عن الأمة ولا يجوز عن الحرة إلا بإذنها لكنه يكره ملقاً لما روى مسلم عن خذامة بنت وهب أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن العزل فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الواد الخفي وهي وإذا المؤودة سئلت»^(١) ووجه الجواز حديث جابر كنا نعزل والقرآن ينزل»^(٢) متفق عليه وزاد مسلم فبلغ ذلك النبي ﷺ فلم ينهنا وفي رواية عنه ﷺ قال في الأمة «اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها» وفي روايتها «ما عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة»^(٣) متفق عليه ووجه الاحتياج إلى الإذن في الحرة حديث عمر بن الخطاب قال؛ «نهى رسول الله ﷺ أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها»^(٤) رواه ابن ماجه ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(٩) أي المؤودة قرأ أبو جعفر بالتشديد المبالغة والجمهور بالتخفيف فيا لثناء ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ﴾ صحف الأعمال ﴿نُشِرَتْ﴾ للحساب أو فرقت بين أصحابها قراءة نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الشين والباقون بالتشديد للمبالغة في النشر أو لكثرة الصحف أو شدة الطائر ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾^(١١) قلعت وأزيلت كما تكشف الأهاب عن الذبيحة، قلت والظاهر أن يكون هذا قبل نفخة الصعق حين كورت الشمس وانتشرت الكواكب أو عند تلك النفخة ويحتمل أن يكون بين النفختين فتطوى السماء والأرض وتبدل السماء سماء آخر وتبدل الأرض غير الأرض، قال القرظي جمع صاحب الأفصاح بين الأخبار فقال بتدليل السماوات والأرض تقع مرتين إحداها بتدليل صفاتها فقط وذلك قبل نفخة الصعق فتنشر الكواكب وتخسف الشمس والقمر وتصير السماء كالمهل وتكشط عن الروس وتسير الجبال ويصير البحر ناراً وعوج الأرض وينشق إلى أن تصير الهيئة غير الهيئة ثم بين النفختين تطوى السماء والأرض وتبدل السماء بسماء أخرى ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾^(١٢) قرى نافع وحفص وابن زكوان بتشديد العين والباقون بالتخفيف أي أوقدت إيقاداً شديداً لأعداء الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾^(١٣) أدنيت للمتقين قال الله

(١) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: جواز الفعيلة وهي وطء المرضع وكراهة العزل (١٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: النكاح، باب: العزل (٥٢٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (١٤٤٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: العزل (٥٢١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (١٤٣٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: العزل (١٩٢٨) وإسناده ضعيف.

تعالى: ﴿وَأَرْلَفْتَ الْجَنَّةَ لِمُنَفَّيْنَ عَمَّ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ (١) ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾ مكرمة عامة في الأسباط بمعاونة المقام أي كل نفس ﴿مَا أَحْضَرْتَ﴾ أي ما فعلت من خير أو شر وهذا جواب لإذا الشرطية في إذا الشمس كورت وفيما عطف عليه والمراد بذلك الزمان الزمان المتسع الشامل لجميع ما ذكرهما قبل النسخة الأولى إلى دخول الجنة.

﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾﴾ الْكَوَاكِبِ الْكَلْبِيِّ ﴿١٦﴾ وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَّسَ ﴿١٧﴾ وَالصَّبْحِ إِذَا نَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِيقِ الْعَيْنِينَ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٢٥﴾ فَأَبَى تَذَهُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَلَا أُقِيمُ﴾ الكلام ها هنا كالكلام في المفتح سورة القيامة والفاء يعني لما أنزلنا عليكم الآيات في شأن الساعة فاعلموا أنه كلام الله غير مقتول أقسم ﴿بِالْخُنُوسِ﴾ الخنوس الرجوع من منتهى السير إلى مكان ابتداء منه والمراد بها الكواكب الخمسة المسماة بالمتحيرة وهي عطارد والزهرة والمشتري والمريخ والزحل فإنها ترى سيارة من المغرب إلى المشرق ثم ترجع إلى المغرب وقد ترى ساكنة ولذلك سميت متحيرة والسبب في ذلك عند الهيئة أنها مرتكزة في أفلاك جزئية غير مجوفة تسمى تدويرات وللتدويرات حركات برأسها وحركات أعاليها على نسق أفلاكها من المغرب إلى المشرق وحركات أسافلها على عكس ذلك فالكواكب إذا كان في أعلى التدوير فتساعد الحركتين حركة التدوير وحركة الفلك الكلي يرى متحركاً إلى المشرق بسرعه وإذا كان في أسفلها فلتزاحم الحركتين أو عدم التساعد قد يرى متحركاً نحو المغرب وهو الرجوع والخنوس وقد يرى ساكناً، وأما عندنا فالكواكب كل منها في ذلك يسبحون على ما أراد الله سبحانه ولا امتناع لخرق السماوات والتنامها فحركات الخمسة المتحيرة قد تكون نحو المشرق وقد تكون نحو المغرب وقد تكون بطيئة وقد تكون سريعة كما أراد الله تعالى وجرى به عاداته وحركات سائر الكواكب جرت العادة بكونها دائماً على نسق واحد، وقال قتادة الخنوس هي النجوم كلها تبدو بالليل وتخس بالنهار فتخفى فالمراد بالخنوس حينئذ الخفاء وهو

(١) سورة ق، الآية: ٣١.

لازم يعني الرجوع، وقيل: خنوسها أن يغيب قلت وعلى هذا يكون الخنس والكنس مترادفين فلا وجه للتكرار ﴿الْمُجَارِ﴾ في الفلك ﴿الْكُنُسِ﴾ والكنوس أن تأوى الأرنب والطبي في مكانها والمراد ها هنا بالكنس اختفائها عند غروبها أو عند المحاق قلت: ويحتمل أن يقال المراد بمكانها مستقرها تحت العرش، عن أبي ذر قال: قال: رسول الله ﷺ: حين غربت الشمس «أتدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش»^(١) الحديث ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ قال الحسن أقبل بظلامه وقال أدبر وهو من الأضداد ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ أي بدأ أوله، وقيل امتد ضوءه وارتفع جواب القسم ﴿إِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ﴾ من حيث إنه رسول يعني ليس بمقول محمد ﷺ بل هو قول مرسل وهو الله سبحانه والمراد بالرسول جبرائيل أو محمد ﷺ ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله صفة رسول ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أن المراد جبرائيل فمن قوته أنه اقتلع قريات قوم لوط ومن الماء الأسود حملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها وأنه صاح صيحة بشمود فأصبحوا جائمين وأنه يخبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف وأن المراد به محمد ﷺ فهو ذو قوة في الجذب إلى الله من الإرشاد لبث نوح ﷺ في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وما آمن قوم إلا قليل ولبت محمد ﷺ في أمته ثلاثاً وعشرين سنة وانتشر دينه في الآفاق كان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً وكان معه حجة الوداع مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً وأربعة وعشرين ألفاً من الصحابة وأنه صعد من السماء السابعة وإلى ما لم يستطع جبرائيل الصعود إليه، ثم هبط الأرض في أقل من ساعة وأنه رأى ربه ولم يستطع أحد غيره فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صِعْقاً ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي الله سبحانه الظرف متعلق بما بعده ﴿مَكِينٍ﴾ ذي مكانة وجاه ومنزلة ﴿مُطَاعٍ﴾ للعالمين قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٢) ﴿نَمَّ﴾ أي عند ذي العرش ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي والظرف أعني ثم الظاهر أنه متعلق بأمين ويجوز أن يكون متعلق بمطاع يعني في الملائكة إلا علي قال البغوي من إطاعة الملائكة إياه يعني جبرائيل أنهم فتحوا أبواب السماوات ليلة المعراج بقوله لرسول الله ﷺ وفتح خزنة الجنة أبوابها، قلت: وهذا بعينه إطاعة لمحمد ﷺ ويحتمل أن يراد بالإطاعة أن الأحكام الإلهية تنزل أولاً عليه ثم بواسطته تصل تلك الأحكام لى غيره من الملائكة، عن النواس بن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر بحسبان (٣١٩٩).

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.

سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل فيكلمه الله وحيه بما أراد ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرائيل فيقول جبرائيل قال: الحق وهو العلي الكبير، قال فيقول كلهم مثل ما قال: جبرائيل بالوحي حيث أمره الله»^(١) وهذا يدل على كون جبرائيل مطاعاً وأما كون محمد ﷺ مطاعاً في الملائكة فوجه ذلك أن الحقيقة المحمدية عند أهل التحقيق هو التعيين الأولى بفيوض الوجود ومراتب القرب ومنها مرتبة كونه يوحى إليه كليم الله لا يصل في أحد إلا بتوسط الحقيقة المحمدية وهذا أمر كشفي ويشهد من النصوص قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) وقوله ﷺ: «أما وزيراي في السماء فجبرائيل وميكائيل ووزيراي في الأرض أبو بكر وعمر»^(٣) فجبرائيل مطاع بالطريق الأولى ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ يعني محمد ﷺ عطف على أنه فهو أيضاً جواب للقسم فإن كان المراد بالرسول فيما سبق محمد ﷺ فوضع المظهر موضع المضمرة للتنبيه على أنه صاحبكم منذ أربعين سنة قبل ذلك لم يظهر منه إلا وفور العقل وكماله فالحكم فيه ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ مكابرة أو جنون ففي هذا الكلام رد لقول الكفار افتري على الله كذباً أم به جنة ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ الضمير المرفوع راجع إلى صاحبكم محمد ﷺ بالاتفاق والضمير المنصوب إما راجع إلى ذي العرش فعلى هذا قوله تعالى: ﴿بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ﴾ ظرف مستقر حال من الضمير المرفوع والمعنى أنه رأى محمد ذا العرش ليلة المعراج حال كون محمد بالأفق للعالم على منتهى السماوات السبع، قال البغوي روي في قصة المعراج عن شريك بن عبد الله عن أنس قال دنى جبار رب العزة فتدلى كان حتى قاب قوسين أو أدنى وهو رواية أبي سلمة عن ابن عباس وكذا قال الضحاك، والقائلون بهذا القول اختلفوا فقال بعضهم جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده استنباطاً من قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٤) وهذا قول ابن

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه في الأسماء والصفات والطبراني.

انظر: كنز العمال (٣٠٢٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٨٩).

(٤) سورة النجم، الآية: ١١.

عباس، روى مسلم عن أبي العالية عنه ما كذب الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى قال رآه بفؤاده مرتين وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة قالوا: رأى محمد ربه وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله اصطفى إبراهيم بالخلعة واصطفى موسى بالكلام واصطفى محمد بالرؤية وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»^(١) رواه مسلم، قلت: ويحتمل أن يراد بالأفق المبين والأفق الأعلى منتهى درجات سير السالكين إن أقصى حقائق العابدين وهي الحقيقة الأحمدية المعبر فيها بالمحبوبة الصرفة وراء ذلك مرتبة اللاتعيين ولا مساغ للسير والسلوك في مرتبة اللاتعيين والسير في تلك المرتبة العليا السير النظري فحسب كذا قال المجدد، وقال جمهور المفسرين الضمير المنصوب راجع إلى رسول كريم والمراد بالرسول جبرائيل، قال قتادة ومجاهد الأفق المبين هو الأفق الأعلى من ناحية المشرق، روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ لجبرائيل: «إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء قال: لن تقوى على ذلك قال بلى قال: فأين تشاء أن أتخيل لك قال بالأبطح قال: لا يسعني قال في منى قال لا يسعني قال فبعرفات قال لا يسعني ذلك قال بحراء قال: يسعني فواعده فخرج النبي ﷺ للوقت فإذا هو بجبرائيل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض فلما رآه النبي ﷺ كبر وخر مغشياً عليه قال فتحول جبرائيل في صورته فضمه إلى صدره، وقال: يا محمد لا تخف فكيف لك لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابع وإن العرش لعال كأهله وإنه ليتضاء أحياناً من مخافة الله عز وجل حتى يصير مثل يعني العصفور حتى ما يحمل عرش ربك لإعظمة» ومن القائلين بهذا القول عائشة رضي الله عنها. روى البخاري في صحيحه وغيره أنها كذبت من قال: رأى محمد ربه مستدلة بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾^(٢) الآية، والفقهاء في الباب أن المثبتين للرؤية أولي من قولها وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٣) لا ينفي الرؤية في الآخرة إجماعاً فكذا في ليلة المعراج حين خرج النبي ﷺ ورأى الجنة والنار وما ذكر ابن عباس وعائشة قصة رؤية النبي ﷺ جبرائيل على صورته حق لكن لا يستلزم أن يكون

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام نور أنى أراه» (١٧٨).

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

المراد بالآية تلك القصة كيف وسوق الكلام لبيان فضل رسول الله ﷺ وبيان كماله ورؤية جبرائيل وهو مفضول من النبي ﷺ بالإجماع ليست من الفضائل كيف وقوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ يدل على كمال قربه والترقي منه إثبات رؤية الله دون رؤية الجبرائيل ولو كان عند ذي العرش صفة جبرائيل ورؤية جبرائيل صفة محمد ﷺ يلزم الانعكاس الأمر في الفضل والله تعالى أعلم ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني محمد ﷺ ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي على ما يخبره من ما يوحى إليه ﴿بِضَيِّبِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر والكسائي بظنين بالطاء أي ليس هو بمتهم يعني لا يجوز أن يتهم والباقون بالضاد أي ليس هو يخيل عن تبليغ ما يوحى إليه وتعليمه ﴿إِذَا أَلْتَمَسُ﴾ أي القرآن ﴿يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ استترق سمعه فألقاه على وليه الكاهن رد لقول الكفار أنه كاهن، هذه الجملة وما عطف عليه من الجمل السابقة جواب للقسم معطوفات على أنه لقول رسول كريم ﴿فَأَنزَلْنَا تَنْزِيلًا مَّا يَشَاءُ النَّاسُ﴾ الفاء المسبية والاستفهام للإنكار على ذهابهم إلى الباطل فيما قالوا إنه شاعر تقوله أو مجنون أو كاهن، قال الزجاج أي طريق يسلكون أبين من هذه الطريقة التي بنيت لكم، ثم بين ما هو كأنه في جواب سائل يقوله فما هو ﴿إِنَّ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ في القاموس الذكر بالكسر الحفظ الشيء كالتذكير والشيء الذي يجري على اللسان والصيت والثناء والشرف والصلاة والدعاء وكتاب فيه تفصيل الذين ووضع الملة والمعنى الأخير ظاهرها هنا لا غبار عليه ويمكن الحمل على معان أخر أيضاً فإن القرآن ذكر الله وحفظ ما يجب حفظه وشيء ينبغي أن يكون جارياً على اللسان دائماً أو غالباً وثناء الله تعالى وصلاة له وشرف للإنسان ودعاء له ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عموماً فإن النبي ﷺ مبعوث إلى كافة الأنام الإنس والجن بل هو رحمة للعالمين وفيوض القرآن شامل للملائكة أيضاً يدل عليه قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (١) وروى الحاكم في المستدرک عن جابر أنه قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ قال: لقد سبح هذه من الملائكة فسدوا الأفق ثم خصه وقال ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢) أي القرآن لمن يتبع الحق ويستقيم عليه خصوصاً من حيث أنهم هم المنتفعون به بدل بعض من العالمين والاستقامة لفظ جامع لجميع الأحكام، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك وفي رواية غيرك قال ﷺ: «قل آمنت بالله فاستقم» (٢) رواه مسلم، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن

(١) سورة عبس، الآية: ١٥ - ١٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في جامع أوصاف الإيمان (٣٨).

سليمان بن يسار قال: لما نزلت لمن شاء منكم أن يستقيم قال أبو جهل جعل الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم تستقم فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة على الحق ﴿إِلَّا﴾ وقاتل ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ شئكم واستقامتكم ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنه رب كل شيء وخالق كل شيء من الأعيان والأعراض وأفعال العباد وغير ذلك حتى مشيتكم فمن شاء الاستقامة واستقام فذلك من فضل الله ونعمه وأخرج ابن أبي حاتم من طريق بقية عن عمر بن محمد عن زيد بن مسلم عن أبي هريرة مثل ما روى عن سليمان وأخرج ابن المنذر من طريق سليمان عن القاسم بن مخيمرة نحوه والله أعلم بالصواب.

سورة الإنفطار

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَبِيرِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ انشقت ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرَّتْ ﴿٢﴾﴾ تساقطت متفرقة ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾﴾ فتح بعضها في بعض واختلط العذب بالملح فصار الكل بحراً واحداً ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِرَتْ ﴿٤﴾﴾ قلب ترابها وأخرج موتها ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ جواب إذا وهذا نظير ما مر في إذا الشمس كورت إلى قوله علمت، قيل: معناه ما قدمت من عمل صالح وسيء ما أخرت من سنة حسنة أو سيئة والمعنى ما قدمت أي ضيعت وما أخرت أي تركت من العمل وقيل: ما قدمت من الصدقات وأخرت من الزكاة، وقيل: معناه بل قدمت الدنيا على الآخرة أو بالعكس وقد مر نظيره قوله تعالى: ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾^(١) ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ﴾ أي ما خدعك وسؤل لك الباطل غروراً ملصقاً ﴿بِرَبِّكَ﴾ موجباً للجرأة على عصيانه وترك ما أمر به ﴿الْكَبِيرِ﴾ الصفوح جملة يا أيها الإنسان معترضة ذكر توبيخاً على الإساءة في أعمالهم المفهوم من قوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ قال نزلت في الوليد بن مغيرة كذا قال البغوي، وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنها نزلت في أبي بن خلف، وقال الكلبي نزلت في الأسيد بن كلدة ضرب النبي ﷺ فلم يعاقب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية يقول ما الذي غرك بربك الكريم التجاوز عنك أو لم يعاقبك عاجلاً بكفرك وصفه بالكريم لأنه منشأ غروره

(١) سورة القيامة، الآية: ١٣.

وبه يغره الشيطان فإنه يقول له إن شئت فربك لا يعذب أحداً ولا يعاجل في العقوبة وهو المعنى من قول مقاتل غره عفو الله حين لم يعاقبه في أمره، وقال السدي غره رفق الله به والاستفهام للإنكار ولا يجوز ذلك الغرور بكرمه وعدم تعجيله بالعقوبة إن لا يقتضى إهمال الظالم مطلقاً وتسوية الموالي والمعادي فكيف قد انضم معه صفات آخر من القهر والانتقام وغيره وفيه مبالغة في الإنكار على الكفر فإن كثرة كرمه يقتضي أن يشكر ولا يكفر ويستدعي الجد في الطاعة لا الانهماك في عصيانه اغتراراً بكرمه، وقال بعض أهل البشارة إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته كأنه تفه لإجابته معنى بقول غر في الكريم وهو المعنى مما قال يحيى بن معاذ لو أقامني بين يديه فقال يا يحيى ما غرك بي قلت: غرني برك بي سابقاً وآناً، وقال أبو بكر الوراق لو قال لي ما غرك بربك الكريم لقلت غرني كرم الكريم، قال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا يسخر الله به يوم القيامة فقال: يا ابن آدم ما غرك بي أي ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبتم المرسلين قال عطاء تأويل الآية ما غرك بربك وقطعك وأشغلك عنه إلى نفس بئس للظالمين بدلاً. حكي أن امرأة رفعت إلى قاض أن زوجها نكح عليها امرأة أخرى فقال القاضي لا سبيل لك بالاعتراض عليه فإن الله تعالى أباح للرجال ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فقالت الضعيفة أيها القاضي لولا منعني الحجاب والحياء لبرزت حسني لك وسألتك بأن من كان له في الجمال والحسن مصاحباً مثلي هل يجوز له أن يشتغل عنه بغيره فسمع قولها رجل من أهل القلوب فصاح وخر مغشياً عليه فلما أفاق قال سمعت الهاتف يقول ألم تسمع قول الضعيفة ولولا حجاب الكبرياء والعظمة لأبرزت لكم من الجلال والجمال الذي لا يسعه المقابل وسألتكم أنه من استطاع الاشتغال بمثلي فهل يجوز الاشتغال بغيري ومن مثلي وأين يكون مثلي فليس يكون فاطلبنى تجدني عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله عز وجل بوجهه فإذا التفت قال يا ابن آدم إلى من تلتفت إلى من هو خير مني أقبل إليّ فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك فإذا التفت الثالثة صرف الله تبارك وتعالى عنه وجهه» رواه البزار ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ من تراب ثم من نطفة بعد ما لم يكن شيئاً ﴿فَسَوَّكَ﴾ أي فجعلك بشراً سوياً مستوى الخلق وتسويته جعل أعضائه سليمة معدة لمنافعها ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ قرأ الكوفيون بالتخفيف أي فصرفك وأمالك إلى أي صورة شاء أو صرفك عن خلقه غيرك حتى تميزت وفارقت عن سائر الحيوانات أو صرف طبعة بعض أجزاءك إلى بعض فكسر حرارة الصفراء ويوستها ببرودة البلغم ورطوبته وبالعكس وببوسة السوداء وبرودتها برطوبة الدم وحرارته حتى اعتدلت وصرت أعدل

الحيوانات مزاجاً وقرأ الباقون بالتشديد أي جعل بنيتك متناسبة الأعضاء لعدلته معدة لا يستعدها من القوي ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾ ما مزيدة لتأكيد التنكير والتنكير للتكثير ﴿مَّا شَاءَ﴾ صفة لصورة ركبك، قال مجاهد والكلبي ومقاتل في أي شبيه من أب أو أم أو خال أو عم وجاء في الحديث أن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر بينه وبين آدم ثم قرأ في أي صورة ما شاء ﴿رَبِّكَ﴾ رواه ابن جرير والطبراني بسند ضعيف من طريق موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن جده عنه رضي الله عنه. قوله: في أي صورة إما متعلق بركبك أو ظرف مستقر حال من مفعول ركبك وفيه معنى الشرط والجزاء والجملة بيان للكرم ومن ثم لم يعطف الموصول مع صلته صفة أخرى لريك مقررة للربوبية مبينة للكرم منه على أن من قدر على ذلك أولى أن يقدر عليه ثانياً مؤكدة للإنكار والتوبيخ على الغرور والكفر فإن من هذا شأنه لا يجوز كفرانه ﴿كَلَّا﴾ ردع على الاغترار بكرم الله تعالى ﴿بَلْ تَكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ بالإسلام أو بالجزاء إضراب عن الاغترار بكرم الكريم يعني ليس أمركم أيها الناس مقتصر على الإقرار بل مع ذلك تكذبون بالدين ويحتمل أن يكون إضراباً عن مفهوم علمت نفس ما قدمت وأخرت أي ما قدمت من العصيان وأخرت من الطاعة فإن حاصل المعنى أنكم تعصون بل تكذبون ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ أي والحال أن عليكم ﴿الْحَفِظِينَ﴾ لأعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿كِرَامًا﴾ على الله ﴿كِنِينَ﴾ صحف الأعمال للجزاء ﴿يَعْمُونَ مَا نَقُولُ﴾ ﴿١٧﴾ من خير وشر عقب الحافظين بتلك الصفات تعظيماً لهم وتنبهياً على أنه لا يفوت من علمهم شيء من الأعمال والأقوال فيه توبيخ على تكذيبهم وتحقيق لما يكذبون به وروى يتوقعون من التسامح والإهمال.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٧﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا هُمْ
عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا آذَنَّاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ مَا آذَنَّاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٢١﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ
نَفْسٌ لِنَفْسٍ سِتًّا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿٢٢﴾

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ الذين بروا وصدقوا بإيمانهم باجتناهم عما نهى الله عنه من العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة والأعمال القبيحة وامتثالهم أوامره، وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ﴿لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفَجَّارَ﴾ الذين شقوا ستر الدين والديانة بالكفر والمعاصي والفجر الشقي ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ جملة إن الأبرار إلى آخر السورة متصل بقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ ﴿٢٢﴾ فإن في هذا الكلام بيان لا يعلم كل نفس من خير أو شر علمه بإدراك جزائه،

روي أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المدني ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: أعرض عملك إلى كتاب الله فإنك تعلم مالك عند الله قال: فأين أجد في كتاب الله؟ فقال؟ عند قوله إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم قال سليمان فأين رحمة الله قال قريب من المحسنين انتهى ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يدخلونها ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ يوم الجزاء ﴿وَمَا هُمْ﴾ الضمير إلى بعض الفجار أعني الكفار أو المراد بالفجار الكفار ﴿عَنَّا﴾ أي عن الجحيم ﴿بِقَائِنَ﴾ لخلودهم فيها أو المعنى ما هم كانوا عنها غائبين قبل ذلك أو كانوا يجدون سمومها في القبور عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»^(١) متفق عليه، وفي حديث البراء بن عازب عن رسول الله ﷺ ذكر حال الكافر في القبر «يسأل عن دينه فيقول هاه هاه لا أدري فقال فينادي من السماء أن كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار» ثم عظم ذلك اليوم فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّذِينَ﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ يعني أنه يوم عظيم البلاد شديد غاية الشدة لا تدري عظمته وشدته حيث لا يدرك كنه أمره دراية دار ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّذِينَ﴾ تأكيد للتفخيم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر وبالرفع على أنه بدل من اليوم في ما يوم الدين أو خبر مبتدأ محذوف أي هو والباقون بالنصب على أنه بدل من اليوم في يصلونها يوم الدين أو متعلق بمحذوف أي يجزى كذلك في يوم لا تملك نفس أو اذكر يوم لا تملك أو هو مبني على الفتح لإضافة إلى غير التمكن ومحلل الرفع ﴿نَفْسٌ﴾ أي أحد ﴿لِنَفْسٍ﴾ يعني كافرة كذا قال مقاتل ﴿شَيْئًا﴾ من المنفعة ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وحده لا يملك الله في ذلك اليوم أحداً شيئاً من الأمر كما ملكهم في الدنيا وأما الإذن في الشفاعة للمؤمنين فليس بتملك أو يقال الأمر يومئذ عياناً وفي زعم كل أحدكما كان الأمر كله لله في الحقيقة وفي زعم أهل البصيرة والله أعلم بالصواب.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت (٦٥١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٦٦).

سورة المطففين

مكية وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ الْإِنشَاءُ قَالَ أَسْطُرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُنَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

عن ابن عباس قال لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى ويل للمطففين فأحسنوا الكيل بعد ذلك^(١) روا الحاكم والنسائي وابن ماجه بسند صحيح، وقال السدي قدم رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله تعالى ﴿وَيْلٌٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ والطف الحقير والمراد بالمطففين ما بين بقوله ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا﴾ أي أخذوا الكيل أو اتزنوا ولم يذكره اكتفاء بذكر الوزن في القرنية الثانية ولعل الكيل كان هو الغالب في الاستعمال ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ متعلق بقوله اکتالوا أو بقوله ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ وقع على موضع من تقديره إذا اکتالوا من الناس يستوفون منهم للدلالة على أن اکتالهم لما لهم على الناس أو أن اکتالهم بتحمل فيهم عليهم، قال الفراء من يتعاقبان في هذه الموضع فإذا اکتلت عليك كأنه قال أخذت ما عليك وإذا قال اکتلت منك فكأنه قال استوفيت منك ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزَنُوا لَهُمْ﴾ الضمير المنصوب راجع إلى الناس أي كالوهم أو وزنوهم حذف الجار وأوصل الفعل روى التقدير كالوا مكيلهم فحذف المضاف وأقيم مضاف إليه مقامه وليس تأكيد المتصل

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: التوقي في الكيل والوزن (٢٢٢٣).

بالمنفصل إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والإعطاء لا في المباشرة وعدمها وأيضاً يأبى يأبى عنه الخط فإنه يستدعي عن إثبات ألف بعد الواو ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون الكيل والوزن يقال خسر الميزان وأخسره وسمى هذا العمل بالتطفيف لأن ما يبخس في الكيل والوزن لا يكون إلا حقيراً وفيه إيماء إلى أن بخس الحقيير موجب للويل والعذاب فبخس الكثير بالطريق الأولى قال رسول الله ﷺ: «خمس بخمس ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغيره ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيم الموت ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»^(١) رواه الحاكم من حديث بريدة، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رواه الطبراني من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ولا فشا الربا في قوم إلا كثر فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا فيهم الدم قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو» رواه مالك موقوفاً والختر الغدر، قلت: وقطع الرزق بالتطفيف قد يكون بجعله فقيراً لا يقدر على شيء، يكون بمنع الرزق عنه مع قدرته عليه فلا يقدر الأكل منه في حقه كما في البقالين من ديارنا، قال البغوي كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول اتق الله أوف الكيل والوزن فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى أن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ ذكر الظن مكان اليقين إيماء إلى أن من كان يظن ذلك ينبغي أن لا يرتكب موجبات تلك الشدائد فكيف من يستقين والاستفهام للإنكار وفيه تعجب من مآلهم وتوبيخ ﴿أَوْلَيْتَكَ﴾ المطففين فاعل ليظن ﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ قام مقام المفعولين ليظن ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ متعلق بمبعوثون وللتعليل أي لحساب يوم عظيم أو بمعنى في يوم عظيم وهو يوم القيامة عظمه لعظم ما يكون فيه، أخرج ابن المبارك عن الحسن قال لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى لخشي أن لا ينجو من عظمة ذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ من القبور منصوب يبعوثون على الظرفية أو بدل من يوم عظيم وفتحه على البناء لإضافته إلى غير متمكن ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لحسابه وجزائه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين حين يغيب

(١) رواه الطبراني في الكبير وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي، لينه الحاكم وبقية رجاله موثوقون وفيهم كلام.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزكاة، باب: فرض الزكاة (٤٣٤٦).

أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»^(١) متفق عليه وأخرج الحاكم مثله عن أبي سعيد الخدري، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى آذانهم»^(٢) وأخرج الطبراني وأبو يعلى وابن حبان عن ابن عباس إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة حتى يقول يا رب ارحمني ولو إلى النار، وأخرج الحاكم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العرق ليلجم الرجل في الموقف حتى يقول: يا رب إرسالك لي إلى النار أهون عليّ مما أجد وهو يعلم ما فيها من شدة العذاب» أخرج البيهقي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْكَايِنِ﴾ قال بلغني أن كعباً كان يقول يقومون مقدار ثلاثمائة عام، وأخرج مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى يكون منهم مقدار ميل» قال سليم بن عامر فوالله ما أدري ما يعني بالميل الأرض أم الميل الذي يكحل به العين؟ فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبه ومنهم من يكون إلى ركبته ومنهم من يكون إلى حقونه ومنهم من يلجمه العرق إجماعاً وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه» وأخرج أحمد والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن عقبة بن عامر نحوه، وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة الباهلي عنه ﷺ وفيه ويزاد في حرها كذا وكذا تغلى منها الهوام كما تغلى القدور، وأخرج أحمد والطبراني بسند جيد عن أنس رفعه قال لم يلق ابن آدم شيئاً منذ خلق الله أشد عليه من الموت وهو أهون مما بعده وإنهم ليلقون من هول ذلك اليوم شدة حتى يلجمهم حتى أن السفن لو أجريت لجرت، وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال يشتد كرب ذلك اليوم حتى يلجمهم الكافر العرق قبل الحساب قيل له: فأين المؤمنين؟ قال: على كراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام وأخرج هناد عن ابن مسعود نحو هذا كله وفيه «ما طول ذلك اليوم عليهم أي على المؤمنين إلا كساعة من نهار» وأخرج هناد وابن المبارك عن سلمان قال: تدني الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة قاب قوسين أو قوسين ويعطى حر عشر سنين وليس أحد من الناس عليه يومئذ إلى خرقة ولا يرى عورة مؤمن ولا مؤمنة ولا يجد حرها مؤمن ولا مؤمنة، وأما الكافر فيطبخهم طبخاً حتى يسمع لأجوافهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المطففين (٤٩٣٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة يوم القيامة (٢٨٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: «ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم» (٦٥٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة يوم القيامة (٢٨٦٣).

عق عق ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التطفيف وتم الكلام، وقال الحسن: كلا ابتداء يتصل بما بعده بمعنى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ يعني صحف أعمالهم التي كتبتها الحفظة الكرام والمراد بالفجار الكفار ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ مشتق من السجن بمعنى الحبس في القاموس السجين كالسكين الحبس الدائم الشديد قال الأخفش فعيل من السجن كما يقال فسيق وشريب معناه لفي حبس شديد، وقال عكرمة لفي سجين أي في خساً وضلال لما كان كتاب الفجار في أي ما في الكتاب من الأعمال موجباً لكونهم في الحبس والخساء والضلال أسند ذلك إلى الكفار مجازاً والظاهر من الأحاديث والآثار أن السجين اسم موضع في كتاب الفجار كذا في القاموس، وكون الكتاب في ذلك الموضع بأن يوضع صحف أعمالهم هناك أو يكتب هناك تاب جامع الصحف أعمال الفجار من الثقلين ووجه تسمية ذلك الموضع بالسجين أن هناك يحبس أرواح الكفار أجمعين وذلك الموضع هو الأرض السابعة أو تحت الأرض السابعة، أخرج ابن مندة والطبراني وأبو الشيخ عن حمزة بن حبيب مرسلًا قال: «يسئل رسول الله ﷺ عن أرواح المؤمنين؟ فقال: في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت قالوا: يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال: محبوسة في سجين» وروى ابن المبارك والحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا وابن مندة عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال: نفس الكافر في سجين، قال البغوي قال عبد الله بن عمر وقتادة ومجاهد والضحاك سجين هي الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار قلت: كذا أخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر روى البغوي بسنده عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «سجين أسفل سبع أرضين وعليون في السماء السابعة تحت العرش» وقد ورد في حديث طويل عن البراء بن عازب مرفوعاً في ذكر موت المؤمنين وموت الكفار فذكر في الكفار «أنه لا يفتح لهم أبواب السماء فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روح طرْحاً» الحديث أخرج أحمد وغيره، وذكر البغوي قول شبرمة بن عطاء جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: أخبرني عن قول الله عز وجل (إن كتاب الفجار لفي سجين) فقال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ثم تهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين وهي موضع جند إبليس فيخرج لها من سجين من تحت جند إبليس رق فيرقم ويختم ويوضع تحت جند إبليس لمعرفة الهلاك بحساب يوم القيامة، وقال الكلبي هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء خضرة السماء منها يجعل كتاب الفجار تحتها وروى عن ابن نجيج عن مجاهد قال سجين صخرة تحت الأرض السفلى تكتب فيجعل كتاب الفجار فيها وقال

البغوي جاء في الحديث الفلق جب في جهنم مغطى والسجين جب في جهنم مفتوح، قلت: ويمكن الجمع بينهما أعني بين كون السجين تحت الأرض السابعة وكونه في جهنم أن جهنم تحت الأرض السابعة السفلى أخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي من طريق أبي عن عبد الله قال: الجنة في السماء السابعة والنار في الأرض السابعة السفلى، وأخرج البيهقي في الدلائل عن عبد الله بن سلام الجنة في السماء والنار في الأرض، وأخرج ابن جرير في تفسيره عن معاذ قال: سئل رسول الله ﷺ من أين يجاء بجهنم يوم القيامة؟ قال: يجاء بها من الأرض السابعة بها ألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك فإذا كان من العباد على مسيرة ألف سنة زفرت زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول رب نفسي نفسي ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ تفخيم وتهويل قال الزجاج ليس ذلك مما كنت تعلمها أنت ولا قومك ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي مكتوب فيه أعمالهم ثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحي حتى يجازوا به أو المعنى معلم يعلمه من رآه أنه عرف لا خير فيه، وقيل: معناه مختوم بلغة حمير قال البغوي ليس هذا تفسير للسجين بل هو بيان الكتاب المذكور أنه كتاب الفجار وقال البيضاوي هذا تفسير للسجين لقب به الكتاب لأنه سبب للحبس فقال: هذا ظرفية السجين الكتاب لكونه كتاباً جامعاً لكتب الفجار من الثقلين والظاهر أن السجين فيه مقر أرواح الكفار ومقر صحف أعمالهم وفي الكلام حذف مضاف أي في السجين أي ما كتاب سجين أو في كتاب مرقوم أي محل كتاب مرقوم بالشر ﴿وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ﴾ بالحق ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ صفة موضحة أو دامة أو مخصصة أو بدل من المكذبين وجملة ويل يومئذ الخ معترضة للذم، قلت: ويحتمل أن يكون في محل الرفع من مرقوم بمعنى رقم فيه ويل يومئذ الخ أو صفة الكتاب أي كتاب موجب للويل والتأويل الأول أظهر من حيث اللفظ وللأخيرين من حيث المعنى لأن كونه كتاباً مرقوماً ليس من خصائص كتاب الفجار بل قيل مثل ذلك في كتاب الأبرار أيضاً يتصور كونه جواباً لقوله ما سجين ﴿وَيَلِّ لِلْمُطْفِفِينَ﴾ أبي بيوم الدين ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ مجاوز عن الحد في الجهل وتقليد الآباء الجهلة حتى أنكر قدرة الله على الإعادة ﴿إِثْمٍ﴾ منهمك في الشهوات اشتغل بها عما ورائها وحمله على الإنكار لما عداها ﴿إِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ يعني القرآن شرط جزائه ﴿قَالَ﴾ من فرط جهله وغفلته عن كونه معجزاً أو من غباوته وإعراضه عن الحق تعنتاً ﴿أَسْطُرُ الْأَوَّلِينَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي والأساطير جمع أسطوراً أو أسطاراً أو أسطر بمعنى الأحاديث التي لا نظام بها في القاموس وفي الصحاح أساطير الأولين أي شيء كتبه كذباً، والجملة الشرطية صفة بعد صفة لمعتد لبيان أنه لا

ينفعه من الأدلة العقلية والنقلية شيء والجملة ما يكذب به معترضة ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التكذيب وعما قالوا، وقال مقاتل معناه أي لا يؤمنون ﴿بَلَّ﴾ إضراب عن الردع ينفي قابلية قلوبهم عن درك الحق وتميزه من الباطل يسكت حفص ها هنا سكتة ويدغم غيره ﴿رَانَ﴾ قال أبو بكر وحمزة والكسائي فتح الراء والباقون بتفخيمها ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والرین الغلبة يقال ران الخمر على قلبه إذا غلبه عليه سكره والمعنى غلب على قلوبهم ظلمات ما كانوا يكسبون من المعاصي حتى عمى قلوبهم عن التميز بين الحق والباطل، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب وفرغ واستغفر صقل قلبه منها وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذا لكم الران الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلَّا بَلَّ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»^(١) رواه البغوي وكذا أخرج أحمد والترمذي وصححه وأحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وفي بعض الروايات «أن العبد كلما أذنب ذنباً» الحديث ولفظ المؤمن يدل على شدة السوداء قلب الكافر بطريق الأولى ﴿كَلَّا﴾ ردع عن كسب المعاصي الموجبة للرين أو هو بمعنى حقاً لتحقيق الرين قال يريد أنهم لا يصدقون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الكفار ﴿عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم الدين يوم يرى الله سبحانه المؤمنين ﴿مَلْحُجُونَ﴾ لحجب ظلماتهم المناسبة عنهم فلا يرون الله سبحانه كما كانوا لا يرون الحق من الباطل في الدنيا، قال الحسن لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم لزهقت أنفسهم في الدنيا سئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه، قال الشافعي في الآية دلالة على أن أولياء الله يرون الله ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد كونهم محجوبين عن رؤية الله ﴿إِنَّهُمْ لَصَالُوا﴾ أي لداخلوا ﴿الْجِحِيمِ﴾^(١١) ثُمَّ بَقَالَ ﴿يَقُولُ لَهُمْ خِزْنَةُ جَهَنَّمَ﴾ هذا العذاب.

﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكذِبُونَ﴾ أن التطفيف تكرير للأول ليعقب وعد الأبرار كما عقب وعيد الفجار إشعاراً بأن التطفيف فجور كما أن الإيفاء بر أو ردع عن تكذيب العذاب أو هو بمعنى حقاً وقال مقاتل معناه لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَزْرُقُهُ إِلَّا فِي عِلِّيِّينَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ويل للمطففين (٣٣٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٤).

النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَّخْتُوْمٍ ﴿٢٥﴾ حِيْتَهُمْ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيْنَ﴾ قال بعض أهل المعاني هو علو وشرف بعد شرف ولذلك جمع بالواو والنون وقال الفراء اسم موضع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظ كعشرين، وقال بعض المحققين هو منقول من جمع على وزن فعيل من العلو وقد مر حديث البراء المرفوع عليين في السماء السابعة تحت العرش وفي الحديث البراء الطويل في ذكر الموت المؤمنين والكفار ذكر في نفس المؤمن «إنه يصعد بها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوا الأرض»^(١) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم من طرق صحيحة، وقال ابن عباس هو يعني عليين لوح زبرجد خضراء معلق تحت العرض أعمالهم مكتوبة فيها ومن ها هنا قالوا: هو كتاب جامع الأعمال الخير من الملائكة ومؤمني الثقلين، وقال كعب وقتادة هو قائمة العرش اليمنى، وقال عطاء عن ابن عباس هو الجنة وقال عطاء والضحاك هو سدرة المنتهى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿٢٦﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٥﴾﴾ الكلام فيه كما مر في نظيره ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ صفة لكتاب كما كان ويل للمكذبين صفة هناك والمقربون، قال البغوي يعني الملائكة قلت وأرواح الأنبياء والصدّيقين والشهداء أيضاً فإن هناك لعزها كما أخرج مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أرواح الشهداء عند الله في حواصل طير خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت تأوي إلى قناديل تحت العرش»^(٢) وكذا روى سعيد بن منصور عن ابن عباس وتقي بن مخلد عن ابن أبي سعيد الخدري وروى أبو الشيخ عن أنس قال: يبعث الله شهداء من حواصل طير بيض كانوا في قناديل معلقة بالعرش، وأخرج ابن مندة عن ابن شهاب بلاغاً بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر المعلقة بالعرش تغدوا ثم ترجع إلى رياض الجنة يأتي ربها سبحانه وتعالى كل يوم يسلم عليه وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال هي يعني أرواح الشهداء طائر خضر في قناديل الحديث، وأخرج البخاري عن أنس أنه قال لما قتل حارثة قال رسول الله ﷺ: «إنها جنان وإنه في

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الجنائز، باب: السؤال في القبر (٤٢٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (١٨٨٧).

الفردوس الأعلى»^(١) وقال الله تعالى في حبيب نجار ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴿٢﴾ الآية ولا منافاة بين كونهم في الجنة وكونهم تحت العرش في قناديل لأن العرش بمنزلة السماء للجنة، قلت: وهذا الحكم غير مختص بالشهداء فإن الأنبياء والصديقين أعلى منهم منزلة وقد ورد في الحديث بلفظ المؤمنين مطلقاً، أخرج مالك والنسائي بسند صحيح عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر المتعلقة في شجرة الجنة حتى ترجع إلى جسده يوم القيامة»^(٣) وكذا أخرج أحمد والطبراني عن أم هانئ عن النبي ﷺ قال: يكون النسم طيراً لتعلقه بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسده، وأخرج ابن عساكر عن أم بشر امرأة أبي معروف نحوه والمراد في تلك الأحاديث الكاملين منهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ وقد ورد في بعض الأحاديث أن مقر أرواح المؤمنين في السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم في الجنة أخرجه أبو نعيم بسند ضعيف عن أبي هريرة وأخرج أيضاً عن وهب بن منبه أن الله تعالى في السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء تجتمع فيها أرواح المؤمنين وفي بعض الأحاديث إذا أخرج من الجسد كان بين السماء والأرض رواه سعيد بن منصور عن سلمان وروى ابن المبارك والحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا وابن مندة عن سعيد بن المسيب عن سلمان أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت ونفس الكافر في سجين وفي هذا الحديث حكاية عن حال المؤمنين على تفاوت درجاتهم، قال الشعبي في بحر الكلام الأرواح على أربعة أوجه أرواح الأنبياء تخرج من جسدها وتصير مثل صورتها المسك والكافور وتكون في الجنة تأكل وتشرب وتنعم وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة بالعرش، وأرواح الشهداء تخرج من جسدها ويكون في أجواف طير خضر في الجنة تأكل وتشرب وتنعم وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة بالعرش وأرواح المطيعين من المؤمنين يربص بالجنة لا تأكل ولا تتمتع ولكن تنظر في الجنة وأرواح العصاة من المؤمنين تكون بين السماء والأرض في الهواء، وأما أرواح الكفار فهي في السجين في جوف طير سود تحت الأرض السابعة قلت: وما ذكر في أرواح الأنبياء أنها تصير في مثل صورتها المسك والكافر يعني أن لها أجساداً كالأجساد الإنسان وعبرها بالمسك لتطيب ريحها وعبر المجدد عن تلك الأجساد بالجسم الموهب ويكون ذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من أتاه سهم غرب فقتله (٢٨٠٩).

(٢) سورة يس، الآية: ٢٦ - ٢٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٧٧).

للأنبياء ولكمل أتباعهم الصديقين قبل الموت. فإن قيل: بعض الأحاديث الصحاح تدل على أن أرواح المؤمنين حتى الأنبياء وأرواح الكفار كلها في القبور كما ورد في حديث البراء الطويل يقول الله تعالى في حق المؤمنين «اكتبوا كتاب عبي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فيعاد روجه في جسده، وكذا قال في الكافر فيعاد روجه في قبره» قال ابن عبد البر هذا أصح فأقبل وقد رأى النبي ﷺ موسى ﷺ في قبره يصلي ليلة أسري به وأنه ﷺ قال: «من صلى علي عند قبوري سمعته ومن صلى علي غائباً بلغته»^(١) فكيف تطبيق؟ قلنا: وجه التطبيق أن مقر أرواح المؤمنين في عليين أو في السماء السابعة ونحو ذلك كما مر ومقر أرواح الكفار في سجين ومع ذلك لكل روح منها اتصال لجسده في قبره لا يدرك كنهه إلا الله تعالى وبذلك الاتصال يصح أن يعرض على الإنسان المجموع المركب من الجسد والروح مقعده من الجنة أو النار ويحس اللذة أو الألم ويسمع سلام الزائر ويجيب المنكر والنيكر ونحو ذلك بما ثبت بالكتاب والسنة كما أن جبرائيل مع كون مستقره من السماوات كان يدنوا من النبي ﷺ حتى يضع يديه على فخذه قال الشعبي في بحر الكلام هي متصلة بأجسادها فتعذب الأرواح ويتألم الأجساد منها كالشمس في السماء ونورها في الأرض والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ مستأنفة ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ﴾ أي على الأسرة في الحجال حال من المستكن في ظرف المستقر ﴿يَنْظُرُونَ﴾ حال بعد حال مترادف لما سبق أو متداخل، قال أكثر المفسرين يعني ينظرون إلى ما أعطاهم الله تعالى من الكرامة والنعمة، وقال قتادة ينظرون إلى أعدائهم كيف يعذبون في النار، قلت: ينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى كما أن الكفار عن ربهم يومئذ لحجوبون ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها المخاطب كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو جعفر ويعقوب على المبني للمفعول ﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةٌ﴾ بالرفع عند جعفر ويعقوب وبالنصب عند الجمهور ﴿التَّيْمِيرِ﴾ أي بجنة النعيم قال الحسن النضرة في الوجه والسرور في القلب ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ أي جنة صافية طيبة بيضاء ﴿مَخْتَوِينَ﴾ أي ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختامه الأبرار ﴿خِتْمُهُمْ مِسْكَ﴾ قرأ الكسائي خاتمه بتقديم الألف على التاء على وزن عالم والباقون على وزن كتاب في القاموس ختام ككتاب الطين يختم على الشيء والخاتم ما يوضع على الطينة، والمراد بالقراءتين واحد أي مختوم أو آنية بالمسك مكان الطين

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، قال العقيلي: حديث لا أصل له، وأورده ابن الجوزي في الموضوع.

انظر: فيض القدير (٨٨١٢).

وكذا قال ابن زيد، وقال ابن مسعود مختوم أي ممزوج ختامه أي آخر طعمه وعاقبته مسك في القاموس والختام، من كل شيء آخره ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الرحيق والنعيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُنْتَفِسُونَ﴾ التنافس مشتق من النفس أو من النفيس ومعناه اختيار الشيء النفيس لنفسه بحيث ينفسه به أي يضمن به على غيره وحاصل المعنى فليرغب الراغبون يعني أن التنافس لا يليق على الأمتعة الدنيوية لخستها وقتلها ونفادها بل على النعم الأخروية، فإن قيل التنافس من الرذائل فكيف يكون مرغوباً فيه؟ قلت: إنما هو من الرذائل إذا كان متعلقاً بالأمور الدنيوية لأنها غير مرضية لله تعالى ولأنها يستلزم الإضرار بغيره إذ الأمتعة الدنيوية نافذة قليلة إذا اختار لنفسه فات عن غيره بخلاف النعم الأخروية فإنها مرضية لله تعالى ولا ينفد فيإثارها لنفسه لا يضر بغيره ﴿وَمَرَّاجُهُ﴾ أي يمزج به الرحيق ﴿مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ قال البغوي شراب ينصب عليهم من علو في غرفهم ومنازلهم قلت: الظاهر أنها تنصب من فوق العرش فإن العرش بمنزلة السقف للجنة، وقيل: يجري في الهواء متسماً فينصب في أواني أهل الجنة على قدر ملئها فإذا امتلئت أمسك وهذا معنى قول قتادة وأصل الكلمة من العلو يقال للشيء المرتفع سنام ومنه سنام البعير، قال الضحاک هو شراب اسمه تسنيم وهو من أشرف أشربة الجنة قال ابن مسعود وابن عباس هو خالص للمقربين يشربونها صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة ثم فسره بقوله: ﴿عَيْنًا﴾ منصوب على المدح أو بتقدير أعني أو حال من تسنيم ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها أو بتضمين يلتذ صفة لعينا ﴿الْمَقْرُونِ﴾ أي أصحاب كمالات النبوة بالأصالة أو بالوراثة وهم الصديقون قال البغوي روى يوسف بن مهرا عن ابن عباس أنه سأل عن قوله من تسنيم، قال: هذا فيما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٣٦) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٣٧﴾
 وَإِذَا أُنْفِلُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنفَلُوا فَكَيْهَانَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٤١﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا﴾ يعني كفار قريش أبو جهل والوليد بن مغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مشركي مكة ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عمار وصهيب وخباب وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ أي المؤمنين ﴿بِهِمْ﴾

أى بالكفار ﴿يَنفَعَمُرُونَ﴾ أى الكفار يشيرون إليهم بالجفن والحواجب استهزاء والجملة الشرطية معطوفة على يضحكون خبر لكانوا وكذا الشرطيتين الأخيرين ﴿وَإِذَا أَقْلَبُوا﴾ أى الكفار ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَقْلَبُوا فَكِهِينَ﴾ معجبين ملتذين بالسخرية منهم قرأ حفص فكهين بغير ألف والباقون بالألف فاكهين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ يعنى الكفار المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ أى خدعهم محمد فضلوا عن دين آبائهم وتركوا اللذات، لما يرجون في الآخرة من الكرامات فقد تركوا الحقيقة بالخيال ﴿وَمَا أُرْسِلُوا﴾ أى الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَافِظِينَ﴾ لأعمالهم ويشهدون برشدهم وصلاحهم جملة وما أرسلوا حال من فاعل قالوا ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أى يوم كون المؤمنين على الأرائك ينظرون إلى الله تعالى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن ٱلْكَفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم في السلاسل والأغلال في النار، قال البغوي قال أبو صالح وذلك أنه يفتح للكفار في النار أبوابها ويقال لهم أخرجوا فإذا رأوها مفتوحة قبلوا إليها ليخرجوا والمؤمنون ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم يفعل بهم ذلك مراراً والمؤمنين يضحكون من الكفار كما كان الكفار يضحكون منهم في الدنيا وقال كعب بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو له في الدنيا اطلع عليه من تلك الكوى كما قال الله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾^(١) فإذا اطلعوا من الجنة إلى أعدائهم وهم يعذبون في النار فضحكوا فذلك قوله تعالى هذه الآية، وأخرج البيهقي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لأحدهم هلم فجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه فما زال كذلك حتى أن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له هلم فما يأتيه من الإياس» ﴿عَلَىٰ ٱلْأَرَآئِكِ﴾ حال من فاعل يضحكون ﴿يَنْظُرُونَ﴾ أى الكفار في النار حال مترادف أو متداخل لما قبله ﴿هَلْ تُؤْتَبُ﴾ أى جوزي ﴿ٱلْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى جزاء ما كانوا يعملون من الاستهزاء والاستفهام للتقرير أى نعم والله أعلم بالصواب.

(١) سورة الصافات، الآية: ٥٥.

سورة الإنشقاق

مكية وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ﴿٦﴾ فَمَا مَنَ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ يَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنَ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَحْمُرَهُ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ السماء مرفوع بفعل مقدر يفسره ما بعده ﴿وَأَذِنَتْ ﴿٢﴾﴾ أي استمعت وانقادت ﴿لِرَبِّهَا﴾ لأمره بالانشقاق ﴿وَحُقَّتْ ﴿٣﴾﴾ أي حق لها الانقياد وإذ المملكن لا يمكن منه إلا الانقياد لما أراه الواجب جل شأنه إذ هو في نفسه لا يقتضي شيئاً ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٤﴾﴾ وزيدت في سعتها، قال مقاتل سويت كمد الأديم فلا يبقى فيها جبل ولا بناء، أخرج الحاكم عن ابن عمرو قال: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض كالأديم وحشر الخلائق، وأخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي ﷺ: «تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه ثم ادعى أول الناس فأخر ساجداً فيؤذن لي فأقول: يا رب يا رب أخبرني هذا جبرائيل وهو عن يمين الرحمن والله ما رآه جبرائيل قبلها قط إنك أرسلته إلي قال: وجبرائيل ساكت لا يتكلم حتى يقول الله صدق ثم يأذن الله لي في الشفاعة فأقول يا رب عبادك أطراف الأرض فذلك المقام المحمود» ﴿وَأَلْقَتْ ﴿٥﴾﴾ الأرض ﴿مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز ﴿وَتَخَلَّتْ ﴿٦﴾﴾ أي تكلفت في خلوها عما فيها حتى لم يبق شيء في بطنها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلية ﴿وَحُقَّتْ ﴿٧﴾﴾ جواب إذا محذوف يدل عليه ما بعده أي يلاقي الإنسان ما كدح ويؤتى كتابه إما يمينه فينقلب مسروراً أو بشماله فيدعوا ثبوراً وتكرراً إذ الاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة، أخرج أبو القاسم الختلي في الديباج بسند حسن عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله تعالى: إذا السماء

انشقت الآية قال: أنا أول من ينشق عنه الأرض فأجلس جالساً في قبري فيفتح باب إلى السماء بحيال رأسي حتى انظر إلى العرش ثم يفتح لي باب من تحتي حتى أنظر إلى الأرض السابعة حتى أنظر إلى الثرى ثم يفتح باب عن يميني حتى أنظر إلى الجنة ومنازل أصحابي وإن الأرض تحركت بي فقلت لها مالك أيتها الأرض فقالت إن ربي أمرني أن ألقى ما في جوفي وأن أتخلى فأكون كما كنت أن لا شيء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (١) وأخرج ابن المنذر في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (٢) قال: سوارى الذهب وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن عطية يعني ما فيها من الكنوز وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس والفريابي عن مجاهد أخرجت الأرض أثقالها قال الموتى ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ﴾ خطاب للجنس ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ أي كدح عمل الإنسان وجهده في الأمر من خير أو شر حتى يكدح ذلك فيه أي يؤثر من كدحه إذا أخذشه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى لقاء ربك يعني الموت وما بعده يعني أنك جاهد في العمل إلى الموت ﴿كَدْحًا﴾ سعياً بلغياً مصدر للتأكيد ﴿فَمُلْقِيهِ﴾ عطف على كادح والضمير إما راجع إلى الكدح يعني فملاقي كدحه يعني جزاء ما عمل أو إلى الرب أي فملاقي ربك بعد الموت يوم يقوم الناس لرب العالمين أو بحذف المضاف أي فملاقي حساب ربك وجملة يا أيها الإنسان مستأنفة للوعد والوعيد ولما بين الله سبحانه أولاً بعض الناس ولقاء كل منهم كدحه إجمالاً فصل ذلك بقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابَهُ﴾ ديوان عمله ﴿بِمِثْلِهِ﴾ وهم المؤمنون ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٣) روى البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة أن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عذب قالت عائشة أو ليس الله يقول فسوف يحاسب حساباً يسيراً؟ قالت: فقال إنما ذلك العرض ولكن من نوقش في الحساب يهلك» (٤) وأخرج أحمد عن عائشة قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: أي ينظر في كتابه فيتجاوز عنه أنه من نوقشه في الحساب يهلك، وأخرج أحمد يومئذ هلك ﴿وَيُنْفَلِكُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٥) وَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابَهُ وَرَأَىٰ ظَهْرَهُ ﴿١١﴾ أخرج البيهقي عن مجاهد في هذه الآية قال: يجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه قال ابن تلوى يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (٦) والثبور الهلاك أي يتمنى الهلاك ويقول واثبورا ﴿وَيَصَلِّيٰ﴾ قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام والباقون بضمن الباء وفتح الصاد وتشديد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه (١٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إثبات الحساب (٢٨٧٦).

اللام من التصلية على البناء للمفعول، أي يدخل ﴿سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ﴾ في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ بالمال والجاه غافلاً عن الآخرة غير خائف وهذا تعليل لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَحُورَ﴾ (١٤) أي لن يرجع إلى ربه للحساب والجزاء تكذيباً بالبعث تعليل للسورر ﴿بَلَى﴾ إيجاب للنفي أي بلى ليحورن ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ في موضع التعليل لإثبات الرجوع أي ليحورن وليعذبن لأن الله بصير بما يعمل فلا يهمله بل ينتقم منه .

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ (١٦) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨) ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا﴾
 عَنْ طَبَقٍ (١٩) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (٢١) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢٥)

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ (١٦) البيضاء بعد الحمرة ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) أي جمعه الليل بعدما كان منتشراً بالنهار من الدواب وروى منصور عن المجاهد حالف وأظلم عليه، وقال سعيد بن جبير وما عمل فيه ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨) أي اجتمع وتم نوره في الليالي البيض افتعال من الوسق بمعنى الجمع ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (١٩) إما صفة بطبقاً أو حال من الضمير المرفوع في لتركبن بمعنى مجاوز عن طبق أو بمجاوزين له على اختلاف القراءتين قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتح التاء إما على صيغة المخاطب الواحد المذكر خطاباً للنبي ﷺ، قال الشعبي ومجاهد يعني لتركبن يا محمد سماء بعد سماء وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَرِيضُ الْقَفُورُ﴾ (٢) ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١) ففي هذه الآية بشارة للنبي ﷺ بالمعراج والأحاديث الواردة في قصة المعراج ذكرت في سورة الإسراء وسورة النجم ويجوز أن يكون المراد أنه يصعد درجة بعد درجة تتبع بعد رتبه في القرب من الله والرفعة روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: لتركبن طبقاً عن طبق حال بعد حال قال هذا نبيكم ﷺ، وأما على صيغة الواحد المؤنث والضمير حينئذ عائد إلى السماء يعني لتركبن السماء حالاً بعد حال، أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في هذه الآية قال: يعني السماء تنفطر ثم تنشق ثم تحمر، وأخرج البيهقي عنه قال: السماء تكون ألواناً تكون كالمهل وتكون وردة كالدهان وتكون واهية وتشق فيكون

حالا بعد حال وقرأ الآخرون بضم الباء على صيغة جمع المخاطبين يعني لتركبن أيها الناس حالا بعد حال وأمرأ بعد أمر في مواقف القيامة وقال مقاتل يعني الموت ثم الحياة وقال عطاء حالا في الدنيا فقيراً ومرة غنياً، وقال عمرو بن دينار عن ابن عباس يعني الشدائد والأهوال والموت ثم البعث ثم العرض وقال عكرمة حالا بعد حال رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ، وقال أبو عبيدة لتركبن سنن من كان قبلكم روى الحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتم وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه» وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري نحوه ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ استفهام للإنكار والتعجب متصل بما مر من الوعد والوعيد وجملة فلا أقسم معترضة، قلت: ويحتمل أن يكون هذه الجملة متصلة لقوله تعالى: ﴿لَتَرَكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يعني انقلابهم عن حال إلى حال دليل على محول الأحوال فما لهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الضمير المجرور والعامل فيه معنى الفعل أي ما يصنعون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ إذا متعلق بلا يسجدون والجملة الشرطية معطوفة على لا يؤمنون حال مرادف له وهذه الآية تدل على وجوب السجود حين استماع القرآن فإنه ذم لمن سمع القرآن ولم يسجد فإما أن يكون المراد بالسجود الخضوع مجازاً وهو لظاهر لإطلاق القرآن على كل آية وإن لم يكن آية السجدة مع الاجتماع على عدم وجوب السجود عند استماع القرآن مطلقاً وإما يكون المراد بالسجود سجود التلاوة واللام في القرآن للعهد والمراد آية السجدة فحينئذ يكون حجة لأبي حنيفة في القول بوجوب التلاوة ولم يقل بالافتراض للشك في التأويل ووقع الخلاف في المسألة والظاهر أن الوجوب لا يثبت بالشك بل بدليل ظني يفيد الوجوب واحتج أبو حنيفة وصاحبيه بحديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»^(١) رواه مسلم ووجه الاحتجاج أن الحكيم إذا حكى عن غير الحكيم كلاماً ولم يعقبه بالإنكار كان دليلاً على صحته، وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن عمر أنه قال السجدة على من سمعها وعند جمهور الفقهاء والمحدثين سجود التلاوة سنة، واحتجوا بحديث زيد بن ثابت قرأت على النبي ﷺ فلم يسجد أخرجاه في الصحيحين وأخرجه أصحاب السنن والدارقطني وزاد ولم يسجد منا أحد، قالت الحنفية هذا لا يدل على عدم وجوب السجدة لأنه واقعة حال ويجوز أن يكون ترك السجود لكون

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨١).

القراءة في وقت مكروه أو على غير وضوء أو لتبين أنه غير واجب على الفور، قلنا: لو كان الترك لأجد هذه الأمور لبين ذلك ولثلا يلزم ترك بيان المجمل في وقت الحاجة وبحديث عمر بن الخطاب: «أنه قرأ سجدة وهو على المنبر يوم الجمعة فنزل فسجد وسجد الناس معه ثم قرأها يوم الجمعة الأخرى فتهياً الناس السجود فقال على المنبر رسلكم، الله لم يكتبها إلا أن يشاء» رواه البخاري ومالك في الموطأ، قال الشيخ ابن حجر زعم المزني أنه من تعليقات البخاري ووهم رواه البيهقي وأبو نعيم، قلت في هذه الحديث حكاية عن الإجماع حيث لم ينكر أحد على قول عمر مع حضورهم لصلاة الجمعة وما ورد فيقول الشيطان أمر ابن آدم بالسجود والظاهر أن المراد بالسجود هناك الجنس دون السجود المخصوص عند التلاوة كيف وإنما الشيطان بالسجود لله تعالى متوجهاً إلى آدم من غير سبق تلاوة آية.

مسألة:

اختلف العلماء في سجود المفصل؟ فقال الجمهور بالسجود في النجم وإذا السماء انشقت وقرأ فعندهم سجود القرآن أربعة عشر أو خمسة عشر بناء على خلافهم في الثاني سجدي الحج وسجدة ص ويذكر هناك إن شاء الله تعالى وقال مالك في رواية لا سجود في المفصل محتجاً بحديث ابن عباس أنه ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة^(١) رواه أبو داود وأبو علي بن السكن من طريق أبي قدامة الحارث بن عبيد عن مطر عن عكرمة وأبو قدامة ومطر، قال الشيخ ابن حجر هما من رجال مسلم لكنهما مضعفان، وقال ابن الجوزي قال أحمد أبو قدامة مضطرب الحديث وقال يحيى ليس بشيء ولا يكتب حديثه وروى الطحاوي وغيره سأل أبي بن كعب هل في المفصل سجدة قال لا لنا حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ لم يسجد في إذا السماء انشقت وقرأ انفرد بإخراجه مسلم وفي الصحيحين من طريق آخر عن أبي نافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ إذا السماء انشقت فسجد فقلت ما هذا؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد هنا حتى ألقاه وإسلام أبي هريرة كان سنة ست من الهجرة وحديث ابن عباس قال: سجد رسول الله ﷺ فيها يعني النجم والمشركون^(٢)، رواه

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من لم ير السجود في المفصل (١٤٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في السجدة في النجم (٥٧١).

البخاري ورواه الترمذي وصححه، وحديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قرأ خمس عشر سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطني والحاكم وحسنه المنذري والنووي وضعفه عبد الحق وقال ابن الجوزي لا يعتمد عليه فيه محمد بن راشد كذبوه وحديث عبد الرحمن بن عوف قال: رأيت رسول الله ﷺ سجد في إذا السماء انشقت عشر مرات رواه البزار.

مسألة:

قال أبو حنيفة يجب السجدة على التالي والسامع سواء قصد سماع القرآن أو لم يقصد لإطلاق الموجب أعني الذم على ترك السجود في هذه الآية، وعند الجمهور لا يتأكد السجود على السامع ما لم يقصد السماع لحديث عثمان أنه مر بعاص فقرأ آية السجدة يسجد معه عثمان فقال عثمان إنما السجود على من استمع ثم مضى ولم يسجد رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن المسيب عنه وذكره البخاري تعليقاً وفي مصنف ابن أبي شيبة عن عثمان إنما السجدة على من جلس لها وحديث ابن عباس أنه قال إنما السجدة لمن جلس لها، رواه البيهقي وابن أبي شيبة.

مسألة:

يجب السجود على السامع وإن لم يسجد القارئ عند أبي حنيفة لإطلاق الأمر وعند الجمهور لا بتأكد على السامع ما لم يسجد القارئ لحديث زيد بن أسلم أن رجلاً قرأ عند رسول الله ﷺ فسجد النبي ﷺ ثم قرأ آخر عنده السجدة فلم يجد النبي ﷺ فقال سجدت لقراءة فلان ولم تسجد لقراءتي، قال: كنت إماماً فلو سجدت سجداً رواه أبو داود، في المراسيل عن زيد بن أسلم ورواه أيضاً زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار بلاغاً وكذا روى الشافعي وقال البيهقي رواه قره عن الزهري عن أبي هريرة وقره ضعيف وعند البخاري معلقاً عن ابن مسعود.

مسألة:

قال أبو حنيفة يكره قراءة آية السجدة فيما يسر فيها القراءة من الصلاة إن كان إماماً لا فيما يجهر بها ولا إن كان مفرداً به قال أحمد حتى قال إن أسر بها لا يسجد وعند الشافعي لا يكره مطلقاً لحديث ابن عمر سجد رسول الله ﷺ في الظهر فرأى أصحابه أنه قرأ آية السجدة فسجدوا رواه أبو داود والطحاوي والحاكم.

مسألة:

إذا سجد الإمام سجدوا كذا عند الشافعي مع قوله أنها سنة وكذا قوله في القنوت ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ (٢٣) القرآن، إضراب عن السجود عند استماع القرآن ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣) بما يجمعون في الصدور من الكفر والعداوة، قال مجاهد: بما يكتُمون، والجملة حال من فاعل يكذبون ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) الفاء للسببية فإن التكذيب سبب للتبشير وذكر التبشير مقام التنذير تهكم واستهزاء ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ منهم وتابوا عن الكفر فالاستثناء متصل أو منقطع بمعنى لكن الذين آمنوا غير مبشرين بالعذاب ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع ولا منقوص أو ممنون عليهم تعليل الاستثناء.

سورة البروج

مكية وهي اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْوَعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَضْحَبُ الْأَحْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُجُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَبْتُؤُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ البرج الحصن سمي الحصن بها لظهوره يقال تبرجت المرأة أي ظهرت والظاهر أن للسماء بيوتاً سميت بالبروج، قال عطية العوفي البروج أي القصور فيها الحرس ورد في الصحيحين في حديث المعراج «ثم رفع إلى البيت المعمور يعني في السماء السابعة بحذاء الكعبة» وقد مر في سورة المطففين قول وهب بن منبه أن لله في السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء يجتمع فيها أرواح المؤمنين أو المراد بالبروج أبواب السماء فإن النوازل يخرج منها وتظهر وزعم العوام باتباع الفلاسفة أن السماء منقسم بالقسمة الوهمية إلى اثني عشر حصة سميت كل حصة منها ببرج يكون فيها الثوابت وينزلها السيارات وسموا البروج بالحمل والثور والجوزاء ونحوها نظراً إلى هيئة الكواكب الثوابت على صورة الحمل والثور ونحو ذلك وهذا ليس بشيء لأن مبنى ذلك على كون السموات متحركة دائماً وكون الكواكب مرتكزة فيها وكل ذلك باطل والثابت من الكتاب والسنة أن الكواكب كل منها في فلك يسبحون فليس في السموات كواكب ثوابت حتى يسمع حصة من السماء برجاً بحسب تلك الثوابت ولا يجوز أن يكون المراد في كلام الله تعالى مصطلح الفلاسفة الكفرة فكيف الحصص الموهومة بالبروج التي أصل تركيبها الظهور والله تعالى أعلم، وقيل: المراد بالبروج عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها كذا قال

الحسن ومجاهد وقتادة ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَشَاهِدٍ﴾ أي يوم الجمعة أو جنس شاهد يشهد بالحق ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ أي يوم عرفة أو جنس فاشهد عليه شاهد صدق أقسم الله تعالى بهذه الأمور لتعظيمها روى أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة والمشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله فيها بخير إلا استجاب له ولا يستعبد من شر إلا أعاده منه»^(١) قال الترمذي هذا حديث غريب لا يعرف إلا من حديث موسى بن عبيدة وهو يضعف وروى الطبراني بسند ضعيف عن أبي مالك الأشعري نحوه وفيه «يوم الجمعة خصه الله لنا والصلاة الوسطى صلاة العصر» وروى يوسف بن مهرا عن ابن عباس الشاهد محمد ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَتُولَاءٍ شَهِدَاءٍ﴾^(٢) والمشهود يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^(٣) ولكن هذا يلزم التكرار في اليوم الموعود والمشهود، وقيل: الشاهد الحفظة والمشهود ابن آدم، وقال الحسين بن الفضل الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٤) وقال سالم بن عبد الله سألت سعيد بن جبيرة عن قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾^(٥) قال: الشاهد هو الله تعالى والمشهود ونحن بيانه وكفى بالله شهيداً، وقيل: الشاهد أعضاء بني آدم قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾^(٥) وقيل: الشاهد الأنبياء والمشهود محمد ﷺ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٦) قلت: وعندي أنه لو صح الحديث في تأويل الآية فذاك وإلا فلا وجه للتخصيص بل المقسم جنس شاهد يشهد بالحق وجنس الحق المشهود به، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾^(٧) فالشاهد هو الله تعالى والملائكة والحفظة منهم والأنبياء ومحمد ﷺ والمؤمنون خصوصاً أمة محمد ﷺ خصوصاً أولوا العلم منهم ومن يشهد بالحق الخصومات وإقامة الحدود ومشهود هو كلمة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البروج (٣٣٣٩).

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٣) سورة هود، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٥) سورة النور، الآية: ٢٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

التوحيد وصدق الأنبياء وتبليغهم وأعمال بني آدم وكل كلمة حق أشهد به شاهد صدق قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الشهود فإن الله يستخرج بهم الحقوق ويدفع بهم الظلم» رواه الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس بسند ضعيف والله تعالى أعلم وجواب القسم قيل قوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾ أي لعن لكن هذا القول ضعيف لشذوذ جواب القسم بدون اللام والأولى أن يقال جواب القسم محذوف يدل عليه ما بعده يعني أسم أن كفار قریش ملعونون كما قيل وقال: ﴿أَتَحْبُّ الْآخِذِينَ النَّارِ﴾ عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك باليمن فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر فبعث له غلاماً يعلمه وكان في طريقه راهب إذا سلك إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب فقعده إليه فإذا أتى الساحر ضربه وإذا رجع من عند الساحر فقعده إلى الراهب وسمع كلامه فإذا أتى أهله ضربوه فشكى إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي فإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى عليه دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم أن الراهب أفضل أم الساحر فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها فمضى الناس فأتى الراهب فأخبره، فقال الراهب أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما ترى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس بسائر الأدوية فسمع جليس للملك وكان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: إنها لك إن أنت شفيتني، قال: لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك فأمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: ومن رد عليك بصرك؟ قال: ربي قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما يبرئ الأكمه والأبرص وتفعل ما تفعل قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له إرجع عن دينك فأبى فدعى موضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: إرجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوا فذهبوا به الجبل فقال: اللهم اكفينهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا فجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإفلا

فاقدفوه فذهبوا به فقال: اللهم اكفينهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله فقال للملك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ بهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس وقل بسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إذ فعلت ذلك قتلتنني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد قوسه ثم قال بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغه فمات فقال الناس آمنا برب الغلام ثلاثاً فأتى الملك فقيل له رأيت بما كنت تحذر قد نزل بك حذرک قد آمن الناس فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخذت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها لاقتحم قال فافعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها فتعاسست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمأه اصبري فإنك على الحق^(١) رواه مسلم في صحيحه. وروى عطاء عن ابن عباس نحو هذه القصة وذكر أنه كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل في الفترة قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة وذكر اسم الغلام عبد الله بن تامر وذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه القصة وذكر أنه أحرق اثني عشر ألفاً ثم غلب أرباط على اليمين فخرج ذو نواس هارباً فاقتحم البحر بفرسه فغرق، فقال الكلبي ذو نواس قتل عبد الله بن تامر وقال محمد بن عبد الله بن أبي بكران جارية اختفرت في زمن عمر بن الخطاب فوجد عبد الله بن تامر واضعاً يده على ضربة في رأسه إذا بسطت يده عنها انبعث دماً وإذا تركت ارتدت مكانها في يده خاتم من حديد فيه ربي الله فبلغ ذلك عمر فكتب إن العبد والخاتم على أي على الذي وجدتم عليه وقد روي في أصحاب الأخدود روايات أخرى لا يوازي رواية المسلم في القوة فلا يلتفت إليها ﴿النَّارِ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ الْوُؤُدِ﴾ وصف أي النار بالعظمة لكثرة الالتهاب واللام للجنس، قال الربيع بن أنس نجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار بقبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ أي على حافات الأخدود ﴿فَعُودٌ﴾ قال مجاهد كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود والظرف متعلق بقعود ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من التعذيب ﴿شُهُودٌ﴾ أي حضور لم يكن هذا التعذيب منهم على غفلة أو المعنى كان يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به أو يشهدون على أنفسهم يوم القيامة

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام

حين يشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم والجملة إما معطوفة على هم عليها تعود أو حال من فاعل تعود ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أي ما كره الكفار وما أنكروا ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من المؤمنين ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ أي لإيمانهم فعلى هذا مفعول له وصيغة المضارع بمعنى الماضي بقرينة نقموا أي لأن آمنوا ﴿بِاللَّهِ﴾ يعني ما كان منهم حسناً لذاته وكمالاً وشرفاً زعموه لفرط جهلهم وشقاوتهم عيباً منكرراً موجباً للعذاب ﴿الْعَزِيزِ﴾ في ملكه الغالب على كل شيء يخشى عذابه ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود المنعم الذي يرجى ثوابه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهن لا إله غيره تقرير لحصر الخوف والرجاء عليه سبحانه وصف الله سبحانه نفسه بهذه الأوصاف للدلالة على كون المؤمنين محقين في إيمانهم مستحقين للثواب، وكون الكفار مبطلين ظالمين فيما فعلوا مستحقين لللعن والعذاب ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يجازي كلاً على حسب ما عمل من خير أو شر والجملة تذييل أو حال من مفعول يؤمنوا وجملة ما نقموا معترضة أو حال من شهود ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ أي عذبوا ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الموصول شامل لأصحاب الأخدود وغيرهم سواء كانوا مؤمنين أو كفاراً والمؤمنون يعم المطروحين في الأخدود وغيرهم ﴿فَمَنْ لَوْ يُؤْمِنُوا﴾ من تلك المعصية ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة، يعني هم مستحقون العذاب بتعديهم وذلك لا ينافي المغفرة إن كانوا مؤمنين ويحتمل أن يكون المراد بالموصول الكفار فقط للملاحظة الحثية في المؤمنين يعني الذين فتنوا المؤمنين لأجل إيمانهم ﴿وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ تأكيد لما سبق أو المراد لهم عذاب الحريف في الدنيا فإن من الغالب أنه من حفر بيراً لأخيه فقد وقع فيه وقد مر في ما سبق أنها خرجت النار إلى من على شفر الأخدود ومن الكفار فأحرقتهم وأن ذو نواس غرق في البحر وجملة إن الذين فتنوا مستأنفة، كأنه قيل ما يفعل بأصحاب الأخدود وأمثالهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ يصغر بالنسبة إليها الدنيا وما فيها.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٦) إِنَّهُمْ هُوَ بَدِيءٌ وَبَعِيدٌ (١٧) وَهُوَ الْعَفْوَازُ الْوَدُودُ (١٨) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٩) فَمَنْ لَمَّا بَرِيءٌ (٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنَّاتِ (٢١) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (٢٢) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْدِيبٍ (٢٣) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٤) بَلِ هُوَ فَرُّءٌ أَنْ يُحَدِّثَ (٢٥) فِي لَوْجٍ مَحْفُوظٍ (٢٦)

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ أي أخذه بعنف ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لا يمكن مداعفته هذه الجملة متصلة بجملة إن الذين فتنوا كأنها تعليل لها، وجملة إن الذين آمنوا معترضة بينهما لذكر جزاء المؤمنين رديف الجزاء الكفار كما هو عادة الله تعالى في المثال ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي ربك ﴿هُوَ﴾

بَيِّئُ ﴿الْخَلْقِ﴾ وَيُعِيدُ ﴿لَا إِلَهَ غَيْرُهُ﴾ حَتَّى يُمْكِنَهُ دَفْعُ بَطْشِهِ أَوْ الْمَعْنَى يَبْدَأُ الْبَطْشَ بِالْكَفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَيُعِيدُهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَهُوَ الْفَعُورُ﴾ لِذُنُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿أَلْوَدُودُ﴾ الْمَحَبُّ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَالْمَحْبُوبُ إِلَيْهِمْ ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ قَالَ الْعَرْشُ مَا لَكَ الْقَاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴿الْمَجِيدُ﴾ قَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِيَّ بِالْجَرِّ صِفَةً لِلْعَرْشِ وَمَجْدَهُ وَعَظَمَتَهُ وَكَوْنَهُ مَطْرَحاً لِتَجْلِيَّاتِ رَحْمَانِيَّةٍ مَخْتَصَّةٍ بِهِ وَالْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبِرَ بَعْدَ خَبَرِ لَهْوٍ وَمَجْدَهُ تَعَالَى كَوْنَهُ عَظِيماً فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَاجِباً وَجُودَةً تَاماً قَدْرَتَهُ وَحِكْمَتَهُ ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ ﴿١١﴾ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَمْنَعُ عَلَيْهِ مَا أَرَادَ خَبِرَ بَعْدَ خَبَرٍ لَهْوٍ أَوْ خَبِرَ مَبْتَدَأً مَحْذُوفٌ أَيُّ هُوَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ وَجُمْلَةٌ أَنَّهُ هُوَ يَبْدَأُ وَيُعِيدُ الْخَبَرَ مَعْتَرِضَةً مَادِحَةً لِلَّهِ تَعَالَى يُوَضِّحُ مَا يَفْعَلُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْمُودَةِ وَبِالْكَافِرِينَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ ﴿هَلْ أَنتَ﴾ اسْتَفْهَامٌ لِلتَّقْرِيرِ بِمَعْنَى قَدْ أَتَاكَ ﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ الْكَافِرَةِ الَّذِينَ يَجْنُدُوا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بَدَلَ مِنَ الْجُنُودِ وَيَحْذِفُ الْمِضَافَ أَيُّ جُنُودِ فِرْعَوْنَ ﴿وَتَمُودَ﴾ أَمْثَالَهَا أَنَّهُمْ أَهْلَكُوا بِالْغُرُقِ أَوْ الصَّيْحَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ثُمَّ أَدْخَلُوا نَاراً وَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ وَحَذَرِهِمْ بِمِثْلِ مَا أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَمْثَالَهُمْ فِي الْكُفْرِ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ قَوْمِكَ أَوْلَى بِنَزُولِ الْعَذَابِ مِنَ الْجُنُودِ الْمَاضِيَةِ وَالْأُمَّمِ الْخَالِيَةِ، فَإِنَّهُمْ سَمِعُوا قِصَّةَ السَّابِقَةِ وَرَأَوْا آثَارَ هَلَاكِهِمْ وَمَعَ ذَلِكَ هُمْ ﴿فِي تَكْذِيبِ﴾ عَظِيمٍ لِلْقُرْآنِ أَضْدَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ مَعَ أَنَّهُ مَعْجَزٌ نَظَّمَهُ دُونَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ وَالتَّنْكِيرِ لِلتَّعْظِيمِ، وَقِيلَ: بَلْ هُنَا لَيْسَ لِلْإِضْرَابِ بَلْ ابْتِدَائِيَّةٌ بِمَعْنَى لَكِنِ وَالْجُمْلَةُ لِلْإِسْتِدْرَاكِ مُتَّصِلَةٌ بِجَوَابِ الْقِسْمِ وَمَا بَيْنَهُمَا مَعْتَرِضَاتٌ وَجِهَ الْإِتِّصَالَ أَنَّهُ لَمَّا اتَّضَحَ جَوَابُ الْقِسْمِ بِالْقِسْمِ نَشَأَ تَصْدِيقُ السَّامِعِينَ مِنَ الْكَفَّارِ فَلدَفَعَ هَذَا الْوَهْمَ اسْتَدْرَكَ وَقَالَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيُّ لَكِنِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ وَقَوْلِهِ فِي تَكْذِيبِ ظَرْفٌ اعْتِبَارِي فَإِنَّ الصِّفَةَ يُعْتَبَرُ مَحِيطاً بِالْمَوْصُوفِ بِنَاءً عَلَى الْمَبَالِغَةِ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ ﴿١٢﴾ إِحَاطَةٌ ذَاتِيَّةٌ بِلَا كَيْفٍ مُسْتَكْرَماً لِقُرْبِهِ وَقَهْرْمَانَهُ فَهُوَ عَالِمٌ بِأَحْوَالِهِمْ قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَفُوتُوا وَالْجُمْلَةُ مَعْتَرِضَةٌ لِلْوَعِيدِ أَوْ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ الظَّرْفِ الْمُسْتَقَرِّ فِي تَكْذِيبِ ﴿بَلِ هُوَ قُوَّةٌ أَنْ يُجِيدَ﴾ ﴿١٣﴾ كَرِيمٌ شَرِيفٌ عَالِي الطَّبَقَةِ فِي الْكُتُبِ وَحِيدٌ مَعْجَزٌ نَظَّمَهُ وَمَعْنَاهُ وَالْجُمْلَةُ مَعْنَاهُ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ، يَعْنِي لَيْسَ تَكْذِيبُهُمْ عَلَى شَايِبَةٍ مِنَ الْحَقِّ بَلْ هُوَ يَعْنِي فَالْكَذِبُ أَنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكْذِبَ بِهِ مِنْ لَهْ أَدْنَى شَعُورٍ فِي النِّظْمِ وَالْمَعْنَى ﴿فِي لَوْحٍ﴾ أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحاً مَحْفُوظاً مِنْ دَرَّةٍ بَيْضَاءَ وَصَفْحَاتِهَا مِنْ يَاقُوتِ حَمْرَاءَ قَلَمُهُ نُورٌ وَكُتَابَتُهُ نُورٌ، اللَّهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سِتُونَ وَثَلَاثِينَ لِحْظَةً يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيَمِيتُ وَيُحْيِي وَيُعِزُّ وَيُدَلُّ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ» رَوَى الْبَغْوِيُّ بِسَنَدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنْ فِي صَدْرِ الْمَوْحِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ دِينُهُ الْإِسْلَامُ

ومحمد عبده وسوله فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعدده واتبع رسله أدخله الجنة قال: واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق إلى المغرب وحافته الدر والياقوت ودفته ياقوته حمراء وقلمه نور وكتابه نور وكل شيء فيه مسطور وقيل: أعلاه معقود بالعرش وأصله في حجر ملك، قال مقاتل اللوح المحفوظ عن يمين العرش ﴿مَحْفُوظٌ﴾ قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لوح فإنه محفوظ من الشياطين ومن الزيادة والنقصان ولذلك سمي باللوح المحفوظ وهو أم الكتاب ومنه نسخ الكتاب وقرأ نافع بالرفع على أنه صفة القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١) فلا يجوز أي لا يمكن فيه الإلحاق لحفظه تعالى وأيضاً لإعجاز نظمه ولا التحريف ولا الحذف وقالت الروافض ألحق بالقرآن ما ليس منه وحذف منه بقدر عشرة أجزاء من أربعين جزء فبقيت ثلاثون جزء مغيرة محرفة فعليهم قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (٢) لما بين دفتي المصحف والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ، والله تعالى أعلم.

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

سورة الطارق

مكية وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجِيمٍ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ بُدِيَ التَّرَائِبُ ﴿٩﴾ فَمَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّالِعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَآكِدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَيَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤِيدًا ﴿١٧﴾﴾

قال الكلبي أتى أبو طالب النبي ﷺ فأتحفه بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل إذ انحط نجم فامتلاها، ثم ناراً ففرغ أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال رسول الله ﷺ «هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله عز وجل» فعجب أبو طالب فأنزل الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ وهو في الأصل لسالك الطريق واختص عرفاً بالآتي ليلاً ثم استعمل للبادي وفيه الإجمال ها هنا فسرّه فيما بعد ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿١﴾﴾ فإنه مجمل ويحتمل أن يكون الاستفهام لتعظيم أمره فإن فيه منافع كثيرة من طرق الشياطين وزينة السماء وتخويف العباد وغير ذلك وجملة ما الطارق في محل المفعول الثاني لإدراك ثم فسر الجمل، فقال ﴿النَّجْمُ﴾ اللام للجنس والمراد به جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرحم بها أو للعهد والمراد به الثريا كذا قال ابن زيد والعرب تسميه النجم، وقيل: هو الزحل ﴿الثَّاقِبُ﴾ فمن قال المراد بالنجم الزحل قال إنم سمي به لارتفاعه قال العرب للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً قد ثقب وهذا لا يستقيم إلا على قول الحكماء القائلين بكون الزحل في السماء السابعة والظاهر أن المراد بالثاقب المعنى المتوهج كذا قال مجاهد كأنه يثقب الظلام لضوئه فينفذ فيه ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لما بتشديد الميم بمعنى إلا على لغة هذيل استثناء مفرغ فعلى هذا أن نافية والمعنى ما كل نفس كأنها على حال إلا على حال ثبوت حافظ عليها والباقون بالتخفيف فعلى هذا أن

مخففة من المثقلة واسمها ضمير الشأن محذوف فاصلة وما مزيدة يعني أنه كل نفس من البشر ثابت أو ثبت عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويحصي عليها ما يكتب من خير أو شر، قال ابن عباس هم الحفظة من الملائكة وقيل حافظ يحفظها من الآفات فإذا استوفى رزقها وأجلها ماتت والمراد بحافظ الجنس حتى يصدق على الواحد الكثير فلا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾^(١) بصيغة الجمع أو المراد لحافظها هنا هو الله سبحانه والحفظة أن يحفظوا بأمره فيضاف فعلهم إليه تعالى والجملة على القراءتين جواب للقسم أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أن أبا أسد كان يقوم على الأديم فيقول يا معشر قريش من أذى النبي ﷺ عنه فله كذا ويقول إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر فأنا كفيكموهم وحدي عشرة واكفوني تسعت فنزلت ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُخْلَقُ﴾ الفاء للسببية، فإن وجود الحفظة سبب لوجوب المراقبة على أعماله حتى يستدل به على صحة إعادة فيستوجب الإيمان بالله ورسوله والإتيان بما أمر به من الأعمال والانتها عما نهى عنه ومن ابتدائية وما استفهامية والجار والمجرور متعلق بخلق نائب مناب فاعله والجملة في محل نصب بالمفعولية من النظر أي في جواب هذا السؤال الحاصل بالنظر فقال ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ﴾ أي مني والمراد به الممزوج من المائتين ماء الرجل وماء المرأة ﴿دَافِقٍ﴾ صفة لماء أسند الدفق إلى الماء مجازاً وكما في عيشة الراضية أي مرضية فهو فعلبمعنى المفعول أي مدفوق والدفق هو الصب بمرة فالإسناد على الحقيقة ﴿يَخْرُجُ﴾ صفة أخرى لماء ﴿مِنْ بَيْنِ أَلْضَلْبِ﴾ صلب الرجل أي ظهره، قال في الصراح الصلب الشديد باعتبار الشدة سمى الظهر صلباً ﴿وَالْتَرَائِبِ﴾ أي ترائب المرأة في القاموس الترائب عظام الصدر وما ولي الترقوتين أو ما بين الشديين والترقوتين أو أربع أضلاع من يمين الصدر وأربع من يسرته أو لليدان والرجلان والعينان أو موضع القلادة، في البيضواي أن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد بأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء ومقرها عروق ملتف بعضها عند البيضتين والدماغ أعظم الأعضاء معونة في توليدها لذلك تشيع وتسرع الفراط في الجماع بالضعف فيه وله خليفة وهو النخاع وهو في الصلب وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب هما أقرب إلى أوعية المنى فذلك خصاً بالذكر ﴿إِنَّهُ﴾ الضمير راجع إلى الخالق المفهوم، من قوله خلق من ماء ﴿عَلَى رَجَبِهِ﴾ أي إعادته بعد الموت كذا قال قتادة ﴿لَقَادِرٌ﴾ لإمكان الإعادة فمن خلق أولاً فلا يجوز إنكاره بعد ما أخبر به مخبر صادق شهد المعجزة على صدقة والجملة مستأنفة ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٠.

متعلق برجعه أو بمضمر دل عليه رجعه أي يبعث الإنسان يوم يظهر الخفايا من الأعمال والعقائد والنيات والضمائر يعني يوم القيامة، قال ابن عمر يبدىء الله يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في وجوه ﴿فَأَلْوَىٰ﴾ أي للإنسان المنكر للبعث والفاء جزاء لشرط مقدر تقديره فإذا ارجع فماله ﴿مِنْ قُوَىٰ﴾ منعة في نفسه يمتنع بها من العذاب ﴿وَلَا فَاصِرٍ﴾ يعنيه ويدفع عنه العذاب ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ قسم آخر معطوف على القسم السابقة ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي المطر سمي لأنه يرجع كل عام ويتكرر الكواكب فيها إلى موضع من السماء الذي يتحرك منها بعدم يوم ليلة أو بعد شهر أو بعد سنة ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعْتِ﴾ أي الشق بالنبات والعيون ونحو ذلك وجواب القسم ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلٍ فَصْلٌ﴾ فأصل بين الحق والباطل ﴿وَمَا هُوَ بِالْفَزْلِ﴾ باللعب والباطل بل هو جد كله فمن حقه يرتفع قارئه وسامعه من أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح وأن يخشع له القلب ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي أهل مكة ﴿يَكِيدُونَ﴾ النبي ﷺ ﴿كَيْدًا﴾ ويظهرون ما هم على خلافه أو المعنى أنهم يحيلون في إبطال أمر النبي ﷺ وإطفاء نور الحق حيلة ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ كيد الله استدراجه إياهم من حيث لا يعملون أو المعنى أجزيهم في الآخرة جزاء كيدهم وجملة ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ مستأنفة كأنه في جواب سائل فما شأن منكري البعث ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾ ولا تشتغل بالانتقام منهم أو لا تستعجل بإهلاكهم بالدعاء عليهم، وهذا منسوخ بآية القتال على تقدير النهي عن الانتقام منهم ﴿أَتْمَانَهُمْ﴾ تأكيد لهمل والتأكيد مع تغير البناء لزيادة التسكين أو التحسين في اللفظ ﴿رُودًا﴾ أي أرواداً أي إمهالاً يسيراً أو رويداً تصغير أي الأرواد بحذف الزوائد ويسمى تصغير ترخيم مشتق من راودت الريح ترود رويداً إذا تحركت حركة ضعيفة ولا يستعمل بها إلا مصغرة، قال ابن عباس هذا وعيد من الله عز وجل قد أخذهم الله يوم بدر، والله أعلم.

سورة الأعلى

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّكُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُبَيِّنُكَ لِلبَشَرَى ﴿٨﴾ فذَكَرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَنَجْعَلُهَا أَلْفَافَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُورَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤَكَّدُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾﴾

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ أي نزه اسم ربك عن إلحاد فيه وإطلاقه على غيره أو المعنى نزه تسمية ربك بأن تذكره وأنت له معظم ولذكره محترم وأن لا تسميه باسم من قبل نفسك بل سمي به نفسه في كابه أو على لسان نبيه، وقيل: أريد بالاسم الذات المسماة كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾^(١) أي مسميات وقيل: لفظ الاسم مقحم والمعنى سبح ربك الأعلى ونزّهه عما يصفه الملحدون وهذا أمر بالتسبيح قولاً قال البغوي يعني قل سبحان ربي الأعلى وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين واحتج عليه البغوي بما رواه بسند عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربي الأعلى وقال قوم أمر بالتنزيه مطلقاً قولاً واعتقاداً وعملاً ولا وجه للتخصيص بالقول والحديث المذكور لا يصلح حجة للتخصيص بالقول بل التسبيح باللسان بمواطأة القلب أحد احتمالاته وقول من غير مواطأة القلب لا يعتاد به، قال البغوي قال ابن عباس سبح أي صل بأمر ربك الأعلى فهو أمر بالصلاة ويحتمل أن يكون أمراً بالتسبيح باللسان في الصلاة يدل عليه ما ذكرنا في سورة

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

الحاقة من حديث عقبة بن عامر «اجعلوها في سجودكم»^(١) وحديث حذيفة كان رسول الله ﷺ يقول في سجوده سبحان ربي الأعلى وحديث ابن مسعود وقد ذكرنا .

مسألة:

تسبيحات الركوع والسجود هناك فلا نعيدها وتوصيفه بالأعلى إشارة إلى موجب التسييح فإن علو شأنه عن إدراك العقول وكما قال قهرمانه واقتداره بمنع عن تسميته بشيء إلا بما وصف به نفسه ويوجب تنزيهه عما وصف به الملحدون سبحانه ما أعظم شأنه ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ حذف المفعول للدلالة على العموم أي خلق كل شيء من الجواهر والأعراض وأفعال العباد ﴿فَسَوَّيْتُهُ﴾ أي جعل كل شيء متناسب الأجزاء غير متفاوت أو المعنى سوى ما شاء تسويه بحيث لا يتطرق إليه تصور مما خلق لأجله من منفعة ومصلحة أو المعنى سوى مجموع الخلق على ما يقتضيه النظام الجملي ومن ثم قالوا ليس في الإمكان أبدع مما قد كان يعني بحسب النظام ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ قرأ الكسائي بتجفيف الدال يعني هو قادر على كل ممكن والباقون بالتشديد وقال البغوي هما بمعنى واحد أي قل أجناس الأشياء وأتراعها وأشخاصها ومقاديرها صفاتها وأفعالها وأرزاقها وأجالها على ما يشاء عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وكان عرشه على الماء»^(٢) رواه مسلم وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»^(٣) رواه مسلم ﴿فَهَدَيْتُهُ﴾ إلى ما خلق لأجله من خير أو شر، قال مجاهد هدى الإنسان سبيل الخير والشر والسعادة وهدى الحيوان لمراتها وقال مقاتل والكلبي عرف الذكر كيف يأتي ذكر الأنثى، وقيل: خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان بوجه استخراجها منها، وقال السدي قدر مدة الجنين في الرحم ثم هدى للخروج من الرحم أو المعنى فهدى من شاء هدايته وأضل من شاء ضلالته والتقدير فهدى وأضل لكن حذف وأضل اكتفاء لقوله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤) ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ بعد خضرته ﴿غَنَاءً﴾ يابساً متفتتاً ﴿أَحْوَى﴾ أسود صفة لغشاء، وقيل: حال من مرعى أي

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كل شيء بقدر (٢٦٥٥).

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٣.

أخرجه أحوى من شدة حضرته، كان النبي إذا نزل عليه جبرائيل يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها فأنزل الله ﴿سُنْقِرُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (١) وفي إسناده جوير ضعيف جداً وكذا قال مجاهد والكلبي وقال: فلم ينس رسول الله ﷺ بعد ذلك شيئاً يعني سنجعلك قارياً بإلهام القراءة كما أنزلنا عليك بلسان جبرائيل، وقيل: لا تنس والألف مزيد الفاصلة عن أبي موسى الأشعر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيلاً من الإبل في عقلها» (٢) متفق عليه، وفي الصحيحين عن ابن مسعود نحوه وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهدها أمسكها وإن أطلقها ذهبت» متفق عليه وعن سعد بن مسعد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم» (٣) رواه أبو داود والدارمي ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن ينساه والاستثناء مفرغ في محل النصب والمراد على تأويل الجمهور كما هو الظاهر ما نسخ الله تلاوته وحكمه معاً كما قال: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ (٣) والإنساء نوع من النسخ وعلى هذا التأويل في الآية المعجزة بوجهين فإن عدم النسيان مطلقاً مع أن النسيان مجبول في الإنسان معجزة وفي الأخبار فيما يستقبل ووقعه كذلك معجزة أخرى وأما على ما قيل أن لا ينسى نهى فمعنى الاستثناء أن معاهدة القرآن بقدر الطاقة البشرية واجب فإن شاء الله نسيانه مع معاهدته فهو معذور له ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الله ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ من القول والفعل ﴿وَمَا يَخْفَى﴾ منهما أي يعلم السر والعلانية ويعلم جهرك بالقراءة مع جبرائيل وما دعاك إليه من مخافة النسيان ﴿وَيُنسِرُكَ لِلْإِسْرَى﴾ (٤) أي نوقفك ونهون عليك عمل الجنة ومنه القراءة على حسب ما أنزل عليك وحفظه والعمل بمضمونه، وفي الكلام قلب تقديره نيسر اليسرى لك وفيه مبالغة فإن اليسرى كان مطلوباً للنبي ﷺ فجعل طالباً له ﷺ، قلت: وهذا هو شأن المحبوبة الصرفة قال ابن عباس اليسرى عمل الخير وقيل: معناه نوقفك للشريعة السمحة الحنيفية والجملة معطوفة على سنقرئك وجملة أن يعلم يعلم الجهر وما يخفى معترضة مادحة فذكر الفاء للسببية يعني لما يسرنا لك القرآن والشريعة السمحة ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (٥) شرط مستغن عن الجزاء بما سبق قيل: إنما جاءت الشرطية بعد تكرير التذكير وحصول اليأس

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (٥٠٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضائل القرآن وما يتعلق به (٧٩١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه (١٤٧٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

عن البعض لثلا يتعب نفسه ويتلهف عليهم كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾^(١) وقيل: ظاهره شرط ومعناه استبعاد لتأثير الذكرى فيهم وذم لهم، وقيل: بالتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يجب إذا ظن نفعه ولذلك أمر بالإعراض عن من تولى وقيل: شرط الجملة محذوف والمراد أنه ذكر أن نفعت الذكرى أو لم ينفع كما في قوله: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾^(٢) وأراد الحر والبرد جميعاً ثم بعد ذلك من ينفعه فقال ﴿سَيَذَكُّكَ﴾ يتعظ وينفع بها ﴿مَنْ يَحْتَشَى﴾ الله تعالى فإنه يتأمل فيها ويعمل بمضمونها مخافة عذاب الله تعالى ﴿وَيَنْجِنَهَا﴾ أي الذكر ﴿الْأَشْقَى﴾ أي الكافر فإنه أشقى من الفاسق أو الأشقى من الكفرة لتوغله في الكفر واللام حينئذ للعهد قيل هو الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة ﴿الَّذِي يَصَلِّي﴾ أي يدخل ﴿النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي نار جهنم أو ما في الدرك الأسفل منها أنه ﴿ئِنَّمَّ لَا يَبُوتُ فِيهَا﴾ فتستريح من العذاب ﴿وَلَا يَجْنِي﴾ حياة طيبة عطف على يصلي بضم لأن التأبيد في العذاب أفرغ من التصلي فهو متراخ عنه في مراتب الشدة وفي الوجود أيضاً ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي فاز ﴿مَنْ تَزَكَّى﴾ أي تطهر باطنه عن الشرك وظاهره عن النجاسة للصلاة وماله عن الخبث بالزكاة وقلبه من الاشتغال بذكر الله سبحانه ونفسه عن الرزائل وجوارحه عن خبث المعاصي من الزكاة كتصدق من الصدقة وجملة قد أفلح مستأنفة كأنه في جواب من نجا منها ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾^(٣) أخرج البزار عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «قد أفلح من تزكى قال من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أنني رسول الله وذكر اسم ربه فصلى قال: هي الصلاة الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها» قالت الحنفية كبر لافتتاح الصلاة فصلى ومن ثم قالوا إن تكبيرة الافتتاح ليست ركناً من الصلاة بل هو شرط عملاً بمقتضى الفاء العاطفة الدالة على المغايرة والتعقيب لا يقال عطف العام على الخاص جائز إجماعاً مع كون العام مشتملاً على الخاص فكذا عطف الكل على الجزء لأننا نقول جواز عطف العام على الخاص لنكتة بلاغية وهي منعدمة في عطف الكل على الجزء ولا نظير له في الاستعمال فعلى هذا جوزوا وبناء النافلة على الفريضة وعلى النافلة وروي عن أبي اليسير جواز بناء الفريضة على النافلة أيضاً وجمهور الحنفية على منعه وكذا على منع بناء الفرض على الفرض، قلت: وكونه شرطاً لا يقتضي البناء ألا ترى أن الية شرط ولا يجوز الصلاتان بنية واحدة والوضوء شرط وكان في صدر الإسلام واجباً لكل صلاة غير أن بناء النفل على الفرض يجوز تبعاً كمن صلى الظهر خمساً ناسياً وقعد

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨١.

للأخيرة ضم إليها السادسة وسجد للسهو والركعتان نافلة، وقال الشافعي وغيره تكبيرة الإحرام ركن لأنه يشترك له كسائر الأركان وهذا آية الركنية قال الحنفية مراعاة الشرائط لما يتصل بها من القيام لا لنفسه ولذا قالوا: لو تحرم حامل النجاسة أو مكشوف العورة أو قبل ظهور الزوال أو متحرفاً عن القبلة وألقاها واستتر لعمل يسير وظهر الزوال واستقبل مع آخر الجزء من التحريمة جاز وذكر في الكافي أنها عند بعض أصحابنا ركن انتهى وهو ظاهر كلام الطحاوي فيجب على قول هؤلاء أن لا يصح هذا الفروع والله تعالى أعلم، قلت: ويحتمل أن يكون المراد بذكر اسم ربه الأذان والإقامة يعني أذن وأقام فصلي وحينئذ لا دليل على نفي ركنية تكبيرة الافتتاح وقيل: تزكى أي تصدق للفظر وذكر اسم أي كبر يوم العيد فصلي صلاته كذا قال عطاء، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمرأ تصدق ثم صلى ثم قرأ هذه الآية وقال نافع كان ابن عمر إذا صلى الغداة يعني يوم العيد قال: يا نافع أخرجت الصدقة فإن قلت نعم مضى إلى المصلي وإن قلت لا قال فالآن نخرج فإنما نزلت هذه الآية وفي هذا قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلي وهو قول أبو العالية وابن سيرين وقال بعضهم لا أدري ما وجه هذا التأويل فإن هذه السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة ولا فطر، قال البغوي يجوز أن يكون النزول سابقاً عن الحكم قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (٢) ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الدَّبْرَ﴾ (٣) قال عمر بن الخطاب لا أدري أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثت في الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر قلت سيهزم الجمع صيغة الاستقبال فلا محذور في نزوله سابقاً وأما هنا فقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (٤) صيغة لا يتصور الحكاية عن شيء من قبل وجوده، وقيل المراد بالصلاة هنا الدعاء فإن من سنة الدعاء الثناء على الله أولاً وآخرأ عن فضالة قال: بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاعد إذ دخل رجل وصلى فقال: اللهم اغفر لي وارحمني قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عجلت أيها المصلي إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله وصل علي ثم ادعه قال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أيها المصلي ادع تجب» (٥) رواه الترمذي وروى أبو داود والنسائي نحوه، عن عبد الله بن مسعود قال: كنت أصلي والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وعمر معه فلما

(١) سورة البلد، الآية: ٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٥.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات.

جلست بدأت بالثناء على الله ثم الصلاة على النبي ﷺ ثم دعوت لنفسي فقال النبي ﷺ: «سل تعط» رواه الترمذي، قال الشيخ الأجل يعقوب الكرخي رحمته الله إن في الآية إشارة إلى منازل السلوك الأول التوبة والتزكية بقوله قد أفحلح من تزكى والثاني المداومة بالذكر اللساني والقلبي والروحي والسري بقوله وذكر اسم ربه والثالث بالمشاهدات بقوله فصلى فإن الصلاة معراج المؤمنين قال رسول الله ﷺ: «جعلت قرعة عيني في الصلاة»^(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي، قلت: وأيضاً في عطف الذكر على التزكي بالواو وعطف الصلاة عليه بالفاء إشارة إلى ما ذكر المجدد من الترتيب في أذكار الطريقة حيث عين للمبتدي الذكر باسم الذات أو النفي والإثبات في أثناء تزكية النفس وقال: إن الصلاة لا تقيد فائدة تامة إلا بعد تزكية النفس وفي التجليات الذاتية والترقي هناك بالصلاة والله تعالى أعلم ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الأشقياء والباقون بالياء على الخطاب لهم على سبيل الالتفات أو على إضمار قل جملة بل تؤثرون على محذوف أي وهم يعني الأشقياء لا يذكرون وأنتم أيها الأشقياء لا تذكرون ولا تذكرون اسم ربكم ولا يصلون بل توترون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الحياة الأخرى ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾ فإن نعمها ذات بالذات خال عن الغوائل وأجل نعمها الروية والوصال ورضوان الله ذي الجلال ﴿وَأَبْقَى﴾ أي الانقطاع لها بخلاف الدنيا، وهذه الجملة حال من فاعل تؤثرون ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني ما ذكر من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^(٢) إلى آخر أربع آيات ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي الكتب السماوية على الأنبياء والماضيين فإنه جامع أمور الديانة وخلاصة الكتب كلها ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ بدل بعض تخصيص بعد التعميم أمال حمزة والكسائي وأواخر السورة وورش وأمال أبو عمرو الذكري واليسرى وما عداها بين بين والباقون بالفتح، أخرج البزار عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾^(٣) قال النبي ﷺ كان هذا وكل هذا في صحف إبراهيم وموسى وقيل: هذا في إن هذا إشارة إلى ما في السورة كلها واستدل بعض الحنفية بهذه الآية على جواز قراءة القرآن في الصلاة بالفارسية لأن الله سبحانه أمر بقراءة ما تيسر من القرآن ثم قال: إن هذا لفي الصحف الأولى وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَفِي زُجُرِ الْأُولَى﴾^(٤) ولم يكن في الصحف الأولى بهذا

(١) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٦.

النظم بل بالمعنى، قلت: هذا ليس بشيء فإن القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا سُورَةَ مِنَ مَثَلِهِ﴾^(٢) يعني في النظم فإنه هو المعجز في كل سورة غالباً ولذا جاز مس المحدث والجنب وقراءة الجنب والحائض ترجمة القرآن بالفارسية والإشارة إلى المعنى في هذه الآية وكذا إرجاع الضمير إلى القرآن من حيث المعنى مجازاً لا يستلزم كون القرآن اسماً للمعنى فقط والله تعالى أعلم. عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة سبح اسم ربك الأعلى» رواه أحمد، وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين يوتر بعدهما سبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون وفي الوتر بقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس»^(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وفي حديث أبي بن كعب عند أبي داود والترمذي وحديث ابن عباس عند أبي داود والنسائي وأحمد وابن ماجه وقال: إذا صلى الوتر ثلاثاً يقرأ في الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد، وعن النعمان بن بشير قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين والجمعة سبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية»^(٤) رواه مسلم وروى أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث سمرة أنه ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية.

فائدة: في هذه السورة تأثير عظيم في العروج كما أن في سورة ألم نشرح تأثير قوي في النزول كذا قال المجدد رضي الله عنه، والله تعالى أعلم.

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الوتر، باب: ما جاء فيما يقرأ في الوتر (٤٥٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: قيام الليل وتطوع النهار، باب: نوع آخر من القراءة في الوتر (١٧٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقرأ في الوتر (١٤٢٢).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: ما يقرأ في صلاة الجمعة (٨٧٨).

سورة الغاشية

مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهُ يُومِئِدُ خَشِيعَةً ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تَشْفَى مِنْ عَيْنٍ مَابِئَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيرٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهُ يُومِئِدُ نَاعِمَةً ﴿٨﴾ لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَعِينَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَكَاةٌ مَبْنُوءَةٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ استفهام تقرير أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ أي الساعة التي تغشى كل شيء بالشدائد والأهوال، وقيل: المراد بالغاشية النار قال الله تعالى ﴿وَتَعْنَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾^(١) لكن تعقيبها بذكر الكفار والمؤمنين بقوله وجوه يومئذ يدل على صحة التأويل الأول ﴿وَجُوهُ﴾ تنوينه للتكثير أو عوض عن المضاف إليه أي وجوه كثيرة أو وجوه الكفار فصح جعلها مبتدأ لأنه مخصصة أو في قوة المعرفة والمراد بها أصحاب وجوه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وأعرب بإعرابه وأجري عليه من الأخبار ما كانت جارية على المضاف ﴿يَوْمِئِدُ﴾ متعلق بغاشية أي يوم إذا كانت الغاشية وجوه ﴿خَشِيعَةً﴾ ذليلة من الحزن والهوان ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ يعني في النار والنصب التعب، قال الحسن لم تعمل لله في الدنيا فاعملها وانصبها في النار بمعالجة السلاسل والأغلال وبه قال قتادة وهو رواية العوفي عن ابن عباس قال ابن مسعود يخوض في النار كما يخوض الإبل في الوحل وقال الكلبي يجرون على وجوههم في النار، وقال الضحاك يرتقي جبلاً من حديد في النار، وقيل: معناه الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين حق من عبده الأوثان وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلالته يدخلون

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٠.

النار يوم القيامة وهو قول سعيد بن جبير وزيد بن أسلم رواه عطاء عن ابن عباس وقال
 عكرمة والسدي عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في الآخرة في النار ﴿تَصَلَّى﴾ قرأ أبو عمر
 وأبو بكر تصلى بضم التاء والباقون بفتح التاء ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ قال ابن عباس قد حميت فهي
 تتلظى على أعداء الله ﴿تُسْفَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال
 يعني ما انتهى حرها فلا يكون فوقه حر، وأخرج البيهقي عن الحسن أنه قال كانت العرب
 يقول للشيء إذا انتهى حره حتى لا يكون شيئاً أحر منه قد أتى حره فقال الله سبحانه من
 عين آتية، يقال قد أوقدت عليها في جهنم منذ خلقت يأتي حرها، قال المفسرون وردوا
 إلى جهنم وردوا عطاشاً فسقوا من عين آتية لو وقعت منها قطرة على الجبال الدنيا لذابت
 ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ أخرج عبد الله بن أحمد من طريق نهشل عن الضحاك
 عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الضريح شيء يكون في النار شبه الشوك أمر من
 الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار إذا أطعم صاحبه لا يدخل البطن ولا يرتفع إلى
 الفم فسقى بين ذلك لا يسمن ولا يغني من جوع» وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير
 قال: هو الزقوم، وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:
 «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب» وقد مر فيما قبل، وقال
 مجاهد وعكرمة وقتادة نبت ذو شوكة لا بالأرض تسميه قريش الشبرق فإذا هاج العود
 تسميه الشريح هوا خبث طعام، قال الكلبي لا يقربه دابة إذا يبس وقال ابن زيد أما في
 الدنيا فإن الضريح الشوك اليابس الذي ليس له ورق وهو في الآخرة شوك من نار، قال
 المفسرون لما نزلت هذه الآية قال المشركون إن إبلنا يسمن من الضريح وكذا في ذلك فإن
 الإبل إنما يرعاه ما دام رطباً وسيماً شديداً فإذا يبس لا يأكله شيء فأنزل الله تعالى ﴿لَا
 يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ﴾ صفة ضريح والمقصود من الطعام أحد الأمرين والمراد أيضاً
 في ليس لهم طعام إلا من ضريح أو شبه لا يسمن أو يغني من جوع كما في قوله تعالى:
 ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾^(١) يعني ليس كاهناً أو شاعراً ونحو ذلك مما ينافي الرسالة، والمراد
 ههنا بعض من الكفار لا يكون طعامهم إلا من ضريح ويكون الضريح والزقوم طعام غيرهم
 من الكفار ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ كثيرة أو وجوه المؤمنين يعني أصحابها مبتدأ وما بعد أخبار
 ﴿نَاعِمَةٌ﴾ منتعمة ذات بهجة ﴿لِسَعْيِهَا﴾ في الدنيا في طاعة الله متعلق بقوله ﴿رَاضِيَةٌ﴾
 في الآخرة لما رأت ثوابها ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المحل والقدر ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو
 عمر وبالياء المضمومة على البناء للمفعول الواحد المذكور ﴿فِيهَا كُفَيْتُ﴾ بالرفع على أنه

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

مسند إليه والتأنيث غير حقيقي وقرأ نافع ذلك إلا أنه قرأ لا تسمع بالتاء التأنيث المسند إليه والباقون بالتاء المفتوحة على البناء للفاعل والضمير للمؤنث راجع إلى وجهه أو للخطاب مع النبي ﷺ والمخاطب غير معين وقرأ لاغية بالنصب على المفعولية يعني لا تسمع لغواً وباطلاً وكلمة ذات لغو المراد نفساً تلغوا فإن كلام أهل الجنة للذكر والحكمة، أخرج البيهقي في هذه الآية قال: لا تسمع صفة لجنة بعد صفة وكذا الجملة بعدها ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢) لا يقطع جريانها والتنكير للتعظيم أخرج ابن حبان والحاكم والبيهقي والطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من جبل مسك» ﴿فِيهَا سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ﴾ (١٣) رقيقة السمك والقدر، أخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سُرٌّ مَصْفُوفَةٌ﴾ أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «في قوله تعالى (وفرش مرفوعة) قال: «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض» ولفظ الترمذي «ارتفاعها كما بين السماء الأرض مسيرة خمسمائة»^(١) قال الترمذي قال بعض أهل العلم في تفسيره معناه أن الفرش في الدرجات كما بين السماء والأرض، أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة في قوله تعالى: ﴿وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ (١٤) قال: لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفاً وأخرج الطبراني عنه مرفوعاً «لو طرح منها فراش من أعلاها لهوى إلى قرارها مائة خريف» قال البغوي قال ابن عباس ألواح السرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة ما لم يجيء أهلها فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم يرتفع لى مواضعها ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب أخرج هناد عن مجاهد قال: التي ليست لها أذن يعني لا عروة له ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ على حافة العيون معدة للشرب ﴿وَنَارُقٍ﴾ جمع نمرة بالفتح والضم ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بضعها إلى جنب بعضها أيما أراد أن يجلس جلس واستند ﴿وَزَرَائِبٍ﴾ بسط عريضة فاخرة جمع زريبة ﴿مَبْنُوتَةٌ﴾ مبسوطة أو متفرقة في المجالس أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فكذبوه فأنزل الله تعالى:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة ثياب أهل الجنة (٢٥٤٠).

إِيَابِهِمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ قال صاحب المدارك لما أنزل الله فيها سرر مرفوعة الخ وفسره النبي ﷺ بأن ارتفاع السرائر كذا والأكواب الموضوعة لا تدخل في حساب الخلق لكثرتها وطول النمارق كذا وعرض الزرابي كذا أنكر الكفار، وقالوا كيف يصعد على تلك السرر وكيف يكثر الأكواب هذه الكثرة وطول النمارق هذا الطول وبسط الزرابي هذا الانبساط ولم تشاهد ذلك في الدنيا قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ نظر اعتبار استفهام للتوبيخ والفاء للعطف والمعطوف عليه محذوف تقديره تعجبون ويغفلون أفلا ينظرون ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ طويلة ثم يبرك لركوب لم تقوم فكذا سرر يطأطأ للمؤمنين كما يطأطأ الإبل ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿١٨﴾ رفعاً بعيداً ونجومها تكثير هذه الكثيرة فلا يدخل في حساب الخلق فكذا الأكواب ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ ﴿١٩﴾ راسخة لا تميل مع طولها فكذا النمارق ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ﴿٢٠﴾ سطحاً مستوياً واحداً فكذا الزرابي ويجوز أن يكون المعنى أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات والشاهد على كمال قدرة الخالق فيستدلوا به على اقتداره على البعث فيسمعوا إلى إخبار مخبر الصادق الصدوق بشهادة المعجزات وليؤمنوا به ويستعدوا للغاية وتخصيص الإبل من المركبات والثلاثة من البسائط لأن الخطاب للعرب والمراد إنما يستدل به بما يكثّر مشاهدته والعرب تكون في البوادي ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال والإبل كان الإبل أعز أموالهم وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر الحيوانات وهي تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان من النسل والدر والحمل والركب والأكل بخلاف غيرها فقال أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث جعلها مع عظمها بركة للحمل ناهضة بالحمل منقادةً من أقوادها طويلة الأعناق ليتناول الأوراق من الأشجار ولترعى كل نابت ويحتمل العطش إلى عشرة فصاعداً ليتأني بها قطع البوادي، وقيل: المراد بالإبل السحاب قال في القاموس الإبل بكسرتين ويسكن بالمعروف السحاب الذي يحمل ماء المطر والله تعالى أعلم عن ابن عباس قال: هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل وليرفع مثل السماء وينصب مثل الجبال ويسطح مثل الأرض غبري ﴿فَذَكِّرْ﴾ لهم بالأدلة ليتفكروا فيها ولتهتم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للتذكير أي ليس عليك إن لم ينظروا ولم يذكروا وإنما أنت عليك البلاغ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ ﴿٢١﴾ تأكيد لمضمون إنما أنت مذكر قرأ هشام

بمسيطر بالسين وحمزة بخلاف عنه والباقون بالصاد خالصة أي لست بمسلط عليهم قائم وحافظ عليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾^(١) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ عن الإيمان وكفر بالله استثناء منقطع معنى لكن والخبر محذوف يعني لكن من تولى منهم ﴿وَكَفَرَ﴾ فالله مسلط قاهر عليه ﴿فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾^(٢) بالنار في الآخرة وقيل: استثناء متصل كأنه أوعد بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، وقيل: استثناء متصل من الضمير المنصوب المحذوف في قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ﴾ يعني فذكرهم إلا من تولى منهم وكفر وآخر طلبه بحيث انقطع طمعك في إيمانه وما بينهما إعراض ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾^(٣) رجوعهم وتقديم الظرف لتشديد الوعيد يعني ليس إياهم إلا إلى جبارقها متعذر على الانتقام ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾^(٤) فنحاسبهم ونجازيهم على حسب غلوهم في الكفر وعلى في الأصل للوجوب واستعيرها هنا لتأكيد الوعيد إذ لا يجب على الله شيء فإن الوجوب ينافي الألوهية، والله تعالى أعلم.

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

سورة الفجر

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرٍ ٥﴾ أَلَمْ نَرْ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠﴾ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ ١١﴾ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفِسَادَ ١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤﴾

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ أقسم الله تعالى بالفجر أي انفجار صبح كل يوم كذا روى أبو صالح عن ابن عباس وهو قول عكرمة وقال عطية هو صلاة الفجر، وقال قتادة هو أول فجر المحرم ينفجر منه السنة وقال الضحاك فجر أول يوم من ذي الحجة لأنه قرن به الليالي العشرة ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ تنكير للتعظيم روى عن ابن عباس أنها العشر الأول من ذي الحجة وهو قول قتادة ومجاهد والضحاك والسدي والكلبي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد فيها من عشر ذي الحجة يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر»^(١) رواه الترمذي وابن ماجه بسند ضعيف وقال أبو روق عن الضحاك هي العشر الأول من شهر رمضان وروى أبو ظبيان هي العشر الآخر من شهر رمضان وقد ذكرنا فضائل رمضان في سورة البقرة وأيضاً في العشر الأخير ليلة القدر وسنذكرها في سورة ليلة القدر إن شاء الله تعالى، وقال يمان بن رباب هي العشر الأول من المحرم التي عاشرها يوم عاشوراء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٢).

الفريضة صلاة الليل»^(١) رواه مسلم ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ ﴿٣﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الواو والباقون بالفتح قيل: الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ﴿٨﴾^(٢) والوتر الواحد روى ذلك عن أبي سعيد الخدري وهو قول عطية والعوفي وقال مجاهد ومسروق نحوه فقال: الخلق كله شفع يعني يقابل بعضها بعضاً قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجَايَيْنَ﴾^(٣) الكفر والإيمان والهدى والضلال والسعادة والشقاوة والليل والنهار والسماء والأرض والبر والبحر والشمس والقمر والجن والإنس والذكر والأنثى والوتر هو الله أحد.

سئل أبو بكر عن الشفع والوتر؟ قال: الشفع تضاد أوصاف المخلوقين الحياة والموت والعز والذل والعجز والقدرة والقروة والضعف والعلم والجهل والبصر والعمى والسمع والبكم والكلام والسكوت والغنى والفقر والوتر انفراد صفات الله تعالى حياة بلا موت وعز بلا ذل وقدرة بلا عجز وقوة بلا ضعف وعلم بلا جهل وكلام بلا سكوت وغنا بلا فقر وقال الحسن وابن زيد الشفع والوتر الخلق كله شفع ومنه وتر، وروى قتادة عن الحسن قال: هو العدد منه شفع ومنه وتر قال: هي الصلاة منها شفع ومنها وتر مالك عن ابن حصين مرفوعاً رواه أحمد والترمذي وعن عبد الله بن زبير الشفع النفر الأول من الحج والوتر النفر الثاني قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٤) وقال مقاتل بن حبان الشفع الأيام والليالي والوتر يوم القيامة لا ليلة لها وقال الحسن الشفع درجات الجنة الثمان والوتر درجات النار لأنها سبع كأنه أقسم بالجنة والنار ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ ﴿٤﴾ إذا سار وذهب كما قال والليل إذا أدبر وقال قتادة إذا جاء وأقبل وإنما قيد بذلك لما في التعاقب من قوة الدالة على كمال القدرة ووفور النعمة الماد يسري فيه من قولهم صلى المقام بمعنى صلى فيه وأراد بالليل كل ليلة، وقال مجاهد وعكرمة هي ليلة مزدلفة. قرأ ابن كثير يسري بإثبات الياء وصلماً ووقفاً لأنها لام الفعل فلا يحذف منه وقرأ نافع وأبو عمرو بالياء وصلماً وبالحدف ووقفاً والباقون بالحدف في الحالين لوفاق رؤوس الآي، سئل الأخفش عن العلة في سقوط الياء فقال: الليل ما يسري ولكن يسرى فيه فهو مصروف فلما صرف بحسبه صفة من الإعراب كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾^(٥) ولم يقل بغية لأنه صرف عنه باغية

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم (١٦٣).

(٢) سورة النبأ، الآية: ٨. (٣) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣. (٥) سورة مريم، الآية: ٢٨.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكرت ﴿قَسَمٌ﴾ التنكير للتعظيم مقنع ويكتفى في القسم والاستفهام للتقرير والجملة الاستفهامية معترضة لتفخيم شأن المقسم به فإنه من عجائب قدرة الله تعالى وبدائع حكمته ﴿لَيْلَى حَجْرٍ﴾ أي لذي عقل سمى العقل بذلك لأنه يحجر صاحبه عن القبائح وجواب القسم إن ربك لبالمرصاد وما بينهما اعتراض جيء لتأكيد الجواب أو الجواب محذوف وهو هؤلاء الكفار إن لم يؤمنوا كما أهلكنا عاد أو ثمود يدل عليه ما بعده ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام لإنكار النفي فهو للتقرير للإثبات وللتعجب والرؤية هنا لمعنى اليقين والجملة الاستفهامية بعده في محل النصب بالمفعولية ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ كانوا أطول أعمار أو أشد قوى من هؤلاء الكفار يعني أهلكهم وسلط عليهم ريحاً دمرهم فكيف هؤلاء ﴿إِرمَ﴾ بدل أو عطف بيان ومنع الصرف للعلمية والعجمية والتأنيث وإنها اسم قبيلة من عاد كان فيهم الملك وكانوا في الأصل اسماً لأبي قبيلة وهو إرم بن عاد بن سام بن نوح عليه السلام وقال محمد بن إسحاق هو جد عاد وهو عاد بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام وعلى هذا التقرير عاد سبط إرم، وقال الكلبي إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل السواد وأهل الجزيرة كان يقال عاد أرم وثمود أرم فأهلك الله عاداً ثم ثمود وبقي أهل السواد والجزيرة فعلى هذا الأقوال أرم اسم أمة، قال مجاهد ثم وصف تلك الأمة بقوله ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي ذات العدد والطوال كذا قال ابن عباس يعني كان طولهم مثل عماد قال مقاتل كان طولهم اثني عشر ذراعاً يعني من ذراع النبي صلى الله عليه وسلم وقيل: أكثر من ذلك، وقيل سمى تلك الأمة بذلك لأنهم كانوا أهل أعمدة وخيام سيارة في الربيع فإذا أباح العود رجعوا إلى منازلهم وكان أهل جنان وزروع ومنازلهم بوادي القرى وقيل: سماوا ذات عماد لبناء بعضهم نشداً عمدة ورف بنائه يقال بنا شداد بن عاد على صفة لم يخلق في الدنيا مثله وسار إليه في قومه فلما كان منه على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى من معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً، وقال سعيد بن المسيب أرم ذات العماد بلدة يقال لها دمشق وقال القرطبي هي الاسكندرية فتقدير الكلام عاد أهل أرم ذات العماد أي ذات البناء الرفع وأساطين ﴿الَّتِي﴾ صفة أخرى لأرم سواء كانت بلدة أو قبيلة ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ أي مثل ذلك الأمة في القامة والقوة أو مثل تلك البلدة في رفعة البناء والاستحكام والحسن إليها ﴿فِي الْبَلَدِ وَثُمُودَ﴾ عطف على عاد ﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾ أي قطعوا ﴿الصَّخْرَ﴾ واحدها صخرة وهي الحجر كانوا ينحتون بيوتاً ﴿بِالْوَادِ﴾ أي بواد القرى أثبت ياء الوادي في الحالين البذي وكذا روى عن قنبل وفي الوصل فقط ورش وقنبل وحذف الباقون في الحالين لموافقة رؤوس الآي ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ عطف على ثمود ﴿ذِي الْأَوْتَارِ﴾ قال ابن عباس

ومحمد بن كعب القرطبي أي ذي البناء المحكم، وقيل: المراد بأوتاد الملك الشديد الثابت يقول العرب هم في العز ثابت الأوتاد ويريدون الدائم وقال عطية ذي الجنود والجموع الكثيرة وسميت الجنود الأوتاد لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويرتدونها في أسفارهم وهي رواية عطية عن ابن عباس، وقال مقاتل والكلبي الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها فكان إذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد وشد كل يد وكل رجل إلى سارية وتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت وقال مجاهد ومقاتل بن حبان كان يمد الرجل مستلقياً على الأرض ثم يمد يديه ورجليه على الأرض بالأوتاد، وقال السدي كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحياة، وقال قتادة وعطاء كانت له أوتاد وملاعب يلعب عليها بين يديه، روى البغوي بسنده عن ابن عباس أن فرعون سمي بذي الأوتاد لأنه كانت له امرأة وهي امرأة خازنة حزقيلا وكان مؤمناً وكنم إيمانه مائة سنة وكانت أمراًته ماشطة بنت فرعون فيمَا هي ذات يوم يمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت: تعس من كفر بالله فقالت بنت فرعون وهل لك من إله غير أبي فقالت إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فقامت ودخلت على أبيها وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ فقالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهها وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فأرسل إليها فسألها عن ذلك فقالت: سبعين شهراً ما كفرت بالله وكانت لها ابنتان فجاء ابنتها الكبرى فذبحها على فيها وقال لها أكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعاً، فقالت: لو ذبحت من علي الأرض علي في ما كفرت بالله عز وجل فأتى فلما اضجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً فقالت: يا أماء لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة اصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته فذبحت فلم تلبث أن ماتت فأسكنها الله الجنة، قال: وبعث في طلب زوجها حزقيلا فلم يقدروا عليه فقيل لفرعون إنه قد رأي في موضع كذا في جبل كذا فبعث رجلين في طلبه فلما انتهيا إليه وهو يصلي وثلاثة صفوف من الوحوش خلفه يصلون فلما رأى ذلك انصرفا قال حزقيلا اللهم كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر على أحد فأيما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار فانصرف رجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ فقال: وهل كان معك غيرك؟ قال: نعم فلان فدعا به، فقال: أحق ما يقول هذا؟ قال: لا ما رأيت مما قال شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل

وأما الآخر فقتله ثم صلبه وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل يقال لها: آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة فقالت: كيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وهو كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها فقالت: يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثه عمدت إلى الماشطة فقتلتها فقال: فلعل بك الجنون الذي كان بها؟ قالت: ما بي جنون وإن إلهي وإلهها وإلهك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فمزق عليها ثيابها وضربها وأرسل إلى أبيوها فدعاهما، فقال لهما ألا تريان أن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك إني أشهد أن ربي وربك رب السماوات والأرض واحد لا شريك له فقال أبوها يا آسية أأنت من خير نساء عماليق وزوجك إله العماليق؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك إن كان ما تقول حقاً فقولاً لأن يتوجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله فقال لهما فرعون أخرجنا عن أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون فعند ذلك قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله فقبض الله روحها وأسكنها في الجنة انتهى، وامرأة فرعون هذه هي التي منعت فرعون عن قتل موسى عليه السلام حين التقطه آل فرعون من اليم وقد ألقاها بإذن ربها حين خافت القتل على موسى وذكر القصة في سورة القصص ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾^(١) وقد نفعهما الله به حيث آمنت ﴿الَّذِينَ﴾ مجرور صفة للمذكورين أو منصوب على الذم أو مرفوع خبر مبتدأ ومحذوف أي هم الذين ﴿طَغَوْا﴾ أي جاوزوا في الحد والعصيان ﴿فِي أَلْبَانِدٍ﴾ متعلق بطغوا، ﴿فَأَكْثَرُوا﴾ عطف على طغوا ﴿فِيهَا﴾ أي في البلاد ﴿الْفَسَادِ﴾ بالكفر والظلم ﴿فَصَبَّ﴾ عطف على طغوا والفاء للسببية ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوَّطَ عَذَابٍ﴾ أي عذاباً مختلطاً بعضها ببعض فهي إضافة صفة إلى موصوفها كأخلاق ثياب وأصل السوط الخلط ومنه يقال السوط للحد لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض وشبه بالسوط ما حل بهم في الدنيا من العذاب إشعاراً بأنه بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة من العذاب كالسوط إذا قبس بالسيف وقال قتادة يعني سوطاً من العذاب صبه عليهم، وقال أهل المعاني هذا على الاستعارة لأن السوط عندهم غاية العذاب فالمعنى أنه دفع العذاب بهم على أبلغ الوجوه دفعة واحدة كما يشير به الصب ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ﴾ جواب للقسمة أو بجواب محذوف والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد وكونه بالمرصاد كناية من أنه تعالى يريد من العباد الطاعة والسمع لأجل الآخرة فيترصد أعمالهم

(١) سورة القصص، الآية: ٩٠.

ويحيط بحث لا يفوته شيء منها كما لا يفوت ممن يرصد في المرصاد من يمر بها يجازيهم عليها والإنسان غافل عن ذلك لا يهيم إلا لدنيا ولذاتها ولذلك عطف عليه قوله:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْصُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتَحْسَبُونَ أَمْوَالَكُمْ حِمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْتِي وَثِقًا أَحَدًا ﴿٢٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَضَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ أي امتحنه بالغنى واليسرى حتى يظهر أنه يشكر المنعم أو يكفر والظرف متعلق بيقول ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ في الدنيا بالجاء ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بالأموال والأزواج والأولاد وغير ذلك بيان للابتلاء ﴿فَيَقُولُ﴾ أخبر للإنسان والفاء بمعنى الشرط في إفادته معلولية القول ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بسكون الياء والباقون بالفتح، وكذا في ربي أهانن ﴿أَكْرَمَنِ﴾ أي فضلني بها أعطاني أثبت الياء في أكرمني وأهانني يعقوب والبزي وصلًا ووقفًا ونافع في الوصل فقط وجر فيها أبو عمرو قياس قوله في رؤوس الآي يوجب حذفها في الحالين قال أبو عمر الدالاني بذلك قرأت وبه أخذوا والباقون حذفها في الحالين ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ أي امتحنه بالفقر حتى يظهر أنه يصبر ويرجع إلى الله تعالى أو يجزع ويكفر متى غير رجوع إليه تعالى ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر قدر بالتشديد والباقون بالتحفيف فقيل أولى بمعنى قتر والثاني بمعنى أعطاه ما يكفيه، وقيل: معناهما واحد أي ضيق ولم يقل ها هنا أهانته وقدر عليه رزقه كما قال: هناك فأكرمه ونعمه لأن توسعته المال في الدنيا تفضل بوجب الشكر وقد يكون موجباً للإكرام في الآخرة أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا على اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»^(١) متفق عليه، وأما التقدير فلا يكون إهانة فقط ﴿فَيَقُولُ﴾ الإنسان ﴿رَبِّي أَهْنَنِ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: الاعتباط في العلم والحكمة (٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: من يقوم بالقرآن يعلمه (٨١٦).

ويقول ذلك لقصور نظره على الدنيا وانهماكه فيها، قال الكلبي ومقاتل نزلت في أمية ابن خلف الجمحي الكافر والله تعال أعلم ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يقول فإن الغنى والنعماء الدنيوية قد يكون استدراجاً من الله إذا لم يقترن بالشكر بل مع الشكر أيضاً لا تقبل عند الله للغني الشاكر على الفقير الصابر، عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه فقال رسول الله ﷺ: «هل تُنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»^(١) رواه البخاري، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأبعين خريفاً»^(٢) رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم»^(٣) رواه الترمذي والفقير والضعف إذا اقترن بالصبر والرضا يكون نعمة لا إهانة عن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيم الماء»^(٤) رواه أحمد والترمذي وفي الباب أحاديث كثيرة ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ بالنفقة ولا تحبون إليه مع أن الله تعالى أكرمكم بالغنى، وقيل: لا تعطونه حقه عطف على يقولون يعني بل قولهم دال على انهماكهم في الدنيا حيث لا يكرمون اليتيم قال مقاتل: كان قدامة بن بظعن يتيماً في حجر أمية بن خلف فكان يدفعه عنه حقه، قرأ أبو عمرو لا يكرمون ولا يحضون ويأكلون ويحبون بالياء عى الغيبة والضمير راجع إلى الإنسان نظراً إلى معناه الجمعي من حيث كونه جنساً وما سبق من الضمائر المفردة راجع إليه نظر إلى لفظه والباقون الأفعال الأربعة بالتاء الخطاب إليهم على سبيل الالتفات ﴿وَلَا تَحْضُوتُمْ﴾ قرأ الكوفيون بالألف بعد الحاء من التفاعل بحذف أحد التائين أي لا يحض بعضهم بعضاً والباقون بغير الألف أي لا تحضون غيركم ﴿عَلَى طَعَاوِ الْمَسْكِينِ﴾ فضلاً أن تطعموا من أموالكم ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاتِ﴾ أي الميراث أصله الوارث ﴿أَسْكَالاً لَمَّاءَ﴾ أي ذا لم أي جمع بين الحلال والحرام كانوا يأكلون مع أبضاعهم أبضاع ضعفاء من النساء والصبيان، قال ابن زيد الأكل اللم الذي يأكل شيئاً يجده لا يسأل عنه أحلال أم حرام، وقيل: يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمَاءٍ﴾ أي كثيراً مع

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (٢٨٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطب، باب: ما جاء في الحمية (٢٠٣٧).

حرص وشره ﴿كَلَّا﴾ ردع عما يفعلون وقال مقاتل أي لا يفعلون ما أمروا به أو هو بمعنى حقاً تحقيقاً لما يذكر بعده من الوعيد ويخبر عنه تحسرهم حين لا ينفعهم الحسرة ﴿إِذَا دَكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي زلزلاً بعد زلزال حتى تنكسر ما عليها من الجبال والأشجار والأبنية وصارت هباء منبثاً ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ عطف على دكت وهي من المتشابهات وقد ذكرنا ما فيها من قول السلف والخلف وأصحاب القلوب في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾^(١) ﴿وَالْمَلَكُ﴾ اللام للجنس أي وجاءت الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ حال من الملك، أي جاؤوا ويصفون صفاً بعد صف، أخرج ابن جرير وابن المبارك عن الضحاك قال: إذا كان يوم القيامة أمر الله سبحانه السماء الدنيا فنشقت بأهلها فتكون الملائكة على حافاتهما حين يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثانية ثم الرابعة والخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف ثم ينزل الملك الأعلى بجانبه اليسرى جهنم فإذا أراها أهل الأرض فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا لى مكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾^(٢) ﴿يَوْمَ تُؤَلُّونَ مَدِيرِينَ﴾^(٣) الآية وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٤) ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِذِ اسْتَقَعْتُمْ أَنْ تَفْجُرُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥) الآية، قوله تعالى: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾^(٦) ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾^(٧) يعني ما تشقق منها فبينما كذلك إذ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ عطف على جاء، أخرج مسلم والترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»^(٨) وأخرج ابن وهب في كتاب الأهوال عن زيد بن أسلم قال: «أتى جبرائيل إلى النبي ﷺ لتكسر الطرف فسأله علي عليه السلام فقال: أتاني جبرائيل فقال: أتاني جبرائيل فقال: ﴿كَلَّا﴾ إِذَا دَكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿١٢﴾ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ بما

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٢) سورة غافر، الآية: ٣٢ - ٣٣.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٦ - ١٧.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم وبعد فعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٢)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة النار

تقاد سبعين ألف زمام تقاد سبعين ألف ملك فبينما هم إذا خردت انفلتت من أيديهم فلولا أنهم أدركوها لأحرقت من في الجمع فأخذوها قال القرطبي يجاء بها من المحل الذي خلقها الله فيه فيدار بأرض الحشر لا يبقى للجنة طريق إلا الصراط، وأخرج أبو نعيم عن كعب قال: إذا كان يوم القيامة فنزلت الملائكة فصاروا صفوفاً فيقول الله لجبرائيل أنت بجهنم فيأتي بها تقاد سبعين زماماً حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام زفرت طارت بها أفئدة الخلائق ثم زفرت الثانية فلا يبقى ملك مقرب ولا بني مسر إلا جثى الركبة ثم تزفر الثالثة فبلغ القلوب الحناجر وتزيل العقول فيفزع كل امرء عمله حتى إبراهيم يقول: بخلتي لا أسألك إلا نفسي ويقول موسى بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي، وقال عيسى بما أكرمني لا أسألك إلا نفسي ولا أسألك مريم التي ولدني ومحمد ﷺ يقول: أمتي أمي لا أسألك اليوم نفسي فيجيب جل جلاله إن الأولياء من أمتك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فوعزتي لأقرن عينيك في أمتك فقم تقف الملائكة بين يدي الله ينتظرون ما يؤمرون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا دكت أي يوم إذا دكت الأرض، وجيء بجهنم والعامل ﴿يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ الكافر الذي قال ربي أكرمني ربي أهانن على سراء الدنيا وضرائها جزاء بمعنى الشرط في الظرف أي يتذكر معاضيه يتعظ ويتوب ﴿وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾ استفهام للإنكار أي ليس له منفعة الذكر فإن من شرط قبول التوبة الإيمان بالغيب ﴿يَقُولُ﴾ ذلك الإنسان تحسراً جملة مستأنفة كأنه في جواب فما يصنع حين يتذكر ﴿يَلَيْتَنِي﴾ يعني يقول يا ليتني ﴿قَدَّمْتُ﴾ في الدنيا أعمالاً صالحاً ﴿لِحَيَاتِي﴾ التي لا ينطلق إليها الموت أو اللام بمعنى الوقت والمعنى يا ليتني قدمت الأعمال الصالحة وقت حياتي في الدنيا ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ عطف على يمتد السابق والظرف متعلق بما بعده ﴿لَا يَعْذِبُ عَذَابَهُ﴾ منصوب بنزع الخافض، أي كعذابه وكذا وثاقه أحد ﴿أَمَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿٣٦﴾ قرأ الكسائي ويعقوب لا يعذب ولا يوثق بفتح العين على البناء للمفعول أي لا يعذب أحد من الناس يعني عصاة المؤمنين كعذاب ذلك الإنسان أي الكافر إن كان المراد باللام الجنس أو المعنى لا يعذب أحد كعذاب ذلك الإنسان المعهود وهو أمية بن خلف ولا يوثق أحد في السلاسل والأغلال كوثاقه والباقون بكسر العين فيهما على البناء للفاعل وحينئذ الضمير المجرور في عذابه، ووثاقه إما راجع إلى الله سبحانه والإضافة إلى الفاعل أي لا يتولى عذاب الله ووثاقه يوم القيامة أحد سواء والأمر يومئذ كله لله أي والإنسان الكافر والإضافة إلى المفعول أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه أحداً وعلى هذا التأويلات يومئذ متعلق بلا يعذب ولا يوثق على سبيل التنازع والمعنى لا يعذب أحد أحداً من الأزل إلى الأبد كعذاب الله

يومئذ ولا يوثق أحد أحداً من الأزل إلى الأبد كوثاق الله يومئذ فيومئذ وحينئذ متعلق بالمصدر أي عذابه وثاقه ﴿يَأْتِيهَا﴾ بتقدير يقال جملة مستأنفة كأنه في جواب السائل إنما ذكر شأن الكفر فما شأن المؤمن فقال وتقديره يقال للمؤمنين: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ في ذكر الله تعالى وطاعته كما تطمئن السمكة في الماء وذلك الاطمئنان لا يتصور إلا بعد زوال صفاتها الرذائل الموجبة لكونه أمارة بالسوء وزوال تلك الصفات لا يمكن إلا بتجليات صفات الله الحميدة الحسنة وفنائها فيها وبقائها فتصير حينئذ مؤمنة إيماناً حقيقياً كما أن الكلب لا يمكن طهارته إلا بوقوعه في الملح وفنائها فيها وبقائه بصفات الملح حتى يصير حلاًلاً طيباً ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى ذات البحث بلا حجب الأسماء والصفات ﴿رَاضِيَةً﴾ بالله وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وبما قدر الله لها حال من فاعل ارجعي، قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»^(١) متفق عليه، وذاق طعم الإيمان المراد به هو الإيمان الحقيقي ﴿مَرْضِيَةً﴾ فإن رضا العبد بالله موجب لرضاء الله سبحانه عنه بل رضاء العبد أثر لرضائه تعالى ودليل عليه، قال الحسن إذا أراد الله قبضها اطمئنت ورضيت عن الله ورضي الله عنها، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالت عائشة أو بعض أزواجه إنا نكره الموت فقال ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت يبشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله فأحب لقاءه وأما الكافر إذا حضره الموت يبشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»^(٢) متفق عليه، وفي رواية عائشة والموت قبل لقاء الله، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضر المؤمن الموت أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: أخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحانه ورب غير غضبان فيخرج كأطيب ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضه بعضاً حتى يأتوا به أبواب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الرياح التي جاءتك من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائب يقدم عليه فيسألوا ماذا فعل فلان؟ فيقول: دعوه فإنه كان في غم الدنيا فيقول: قد مات أما أتاكم فيقولون قد ذهب به إلى أمه وإن

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً فهو مؤمن (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من أحسب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٢٦٨٦).

الكافر إذا احتضر أتته الملائكة العذاب بمسح فيقولون أخرجي ساخطة مسخوطاً إليك أي عذاب الله عز وجل فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتون به إلى باب الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار»^(١) رواه أحمد والنسائي وفي رواية ابن ماجه نحوه وفيه «ثم يعرج بها لى السماء فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنها لا يفتح لك أبواب السماء ثم ترسل من السماء ثم يصير القبور» وفي الباب أحاديث كثيرة واختلفوا في وقت هذه المقالة؟ فقال قوم يقال لها ذلك عند الموت كما دلت عليه الأحاديث وقال أبو صالح في قوله ارجعي إلى ربك راضية مرضية، قال: هذا عند خروجها من الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل فادخلي في عبادي وادخلي جنتي، وقال آخرون إنها يقال لها ذلك عند البعث ارجعي إلى ربك وادخلي في أجساد عبادي يعني جسدك فيأمر الله تعالى الأرواح أن ترجعي إلى الأجساد وهذا قول عكرمة وعطاء والضحاك ورواية العوفي عن ابن عباس، وقال الحسن معناه ارجعي إلى ثواب ربك وكرامة راضية من الله تعالى بما أعد الله مرضية رضي عنها ربها فادخلي في عبادي أي مع عبادي جنتي، قلت سياق الآية يؤيد هذا القول يعني أنها يقال عند البعث لأن الله ذكر حال الكفار عند البعث بقوله فيومئذ لا يعذب عذابه الخ فكذلك ذكر ما يقال للمؤمنين يومئذ والأحاديث المذكورة تؤيد القول الأول والجمع بينهما أنه يقال في الوقتين جميعاً عند الموت وعند البعث، بل التحقيق أن استحقاق هذا الخطاب يحصل للنفس في الدنيا حصول الاطمئنان فيقال لها ارجعي إلى ربك مدارج قربه وتجلياته الذاتية راضية مرضية ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾^(٢) أي في جملة عبادي الصالحين الذين سأل سليمان ﷺ الدخول فيهم فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) وسأل يوسف ﷺ اللحوق بهم حيث قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٤) وقال الله تعالى فيهم لإبليس ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٥) والقاء في فادخلي للسيبية فإن اطمئنان النفس وكونها راضية مرضية سبب لخلوص العبودية لله سبحانه وذلك عن رقبة الإلهية الباطلة الهوائية ووساوس الخناسية قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾^(٥) وقال رسول الله ﷺ: «تعس عبد

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: ما يلقي به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (١٨٢٤).

(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة»^(١) الحديث ﴿وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ إضافة الجنة إلى الله سبحانه يقتضي خصوصاً تلك الجنة من بين الجنات كما لا يخفى، قال البغوي قال سعيد بن جبير مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته فجاء طائر لم ير على خلقه فدخل نعشه ثم لم نر خارجاً منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لم يدر من تلاها: ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (٢٨) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (٢٩) ﴿وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣٠) وأخرج ابن أبي حاتم عن بريدة في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) الخ قالت: نزلت في حمزة رضي الله عنه وأخرج من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من اشترى هذه الأمة يستعذب بها غفر الله له فاشتراها عثمان رضي الله عنه ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) الآية.

فائدة: قال بعض الصوفية: تأويل هذه الآية ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) إلى الدنيا ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ بترك الدنيا والسلوك إليه في الطريق الصوفية، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦).

سورة البقرة

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا
 الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ
 أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا
 أَفْتَحُمُ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾
 يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ يَشِيكُنَا ذَا مَمْرَةٍ ﴿١٦﴾ تَشَرُّكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا
 بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبِينَ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارُ
 مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

﴿لَا﴾ زائد لتأكيد القسم إشارة إلى وضوح المقسم بحيث استغنى عن القسم ﴿أُقْسِمُ﴾
 بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني مكة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ الجملة حال من المقسم به أقسم الله
 سبحانه بمكة مقيداً بحلولة ﷺ إظهاراً لمزيد فضائلها بشرف المتمكن على فضل لها في
 نفسها قال رسول الله ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك من بلد وأحبك إلى الله ولولا
 أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»^(١) رواه الترمذي عن ابن عباس، وقال: حديث
 حسن صحيح غريب إسناداً وكذا روى الترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عدي بلفظه
 «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت»
 وقيل: معنى مستحل إخراجك فيه كما يستحل تعرض الصيد في غيرها والجملة معترضة
 لذم الكفار بهذا البلد فيستحلون إخراجك وقتلك فإن الله سبحانه أقسم بمكة إظهار
 التحريم ما وشرفها ثم قال وأنت مستحل في زعم الكفار بهذا البلد فيستحلون إخراجك
 وقتلك مع أنهم يحرمون قتل الصيد فيها، وقيل: معناه وأنت حلال إن تصنع فيه ما تريد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة (٣٩٣٥).

من قتل وأسر ليس عليك ما على الناس فيه من الإثم فهو وعد بما أحل الله له مكة يوم الفتح حتى قاتل فيه وأمر بقتل عبد الله بن حنظل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن خبابة وغيرهما قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السماوات الأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لن يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلا خلاها»^(١) الحديث متفق عليه ﴿وَالْبِرِّ﴾ عطف على بلد والمراد آدم وإبراهيم ﷺ أو أي والد كان ﴿وَمَا وَكَّدَ﴾ ذرية آدم ﷺ أو الأنبياء من أولاد إبراهيم ﷺ، أو محمد ﷺ والتنكير للتعظيم وإيثار ما على من لمعنى التعجب كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾^(٢) وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ اللام للجنس أو للعهد على ما قيل أنها نزلت في أبي الأشد اسمه أسيد بن كلدة بن حجر، وكان شديداً قوياً يصنع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول: من أزالني عنه فله كذا وكذا فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه ﴿فِي كَبِدٍ﴾ على تقدير كون المراد من الإنسان الجنس فالمراد من كبد النصب والمشقة كذا روى عن ابن عباس وقتادة قال عطاء عن ابن عباس في شدة حمله وولايته ورضاعته وفضامه ومعاشه وحياته وموته، وقال عمرو بن دينار منه نبات أسنانه قلت: وما ذكر من المكابد يشارك فيها الإنسان وغيره من الحيوانات فتخصيصه بالذكر لأجل عقله وشعوره فإن مشقة تحمل المكائد مع كمال الشعور أشد منها ما كان وعندني أن المراد بالمكائد حمل ميثاق الأمانة التي أبقى عن تحملها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً فإن أدى ما وجب فاز ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وإن تردى في مكائد الآخرة ليعذب الله المنافقين والمنافقات والكافرين والكافرات فعلى هذا النظر الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣) وفيه تسلية للنبي ﷺ على تحمل المكائد من قومه فيما وجد عليه من التبليغ وقال مقاتل بناء على نزول الآية في أبي الأشد أن معنى في كبد في قوة وشدة ﴿أَيَحْسَبُ﴾ الضمير راجع إلى الإنسان والاستفهام للإنكار والتوبيخ فإن كان المراد بإنسان المعهود يعني أبي الأشد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: من شهد الفتح (٤٢٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب:

الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

فظاهر أن الله سبحانه أنكر على اغتراره وبقوله وإن كان المراد به الجنس فالضمير راجع إليه باعتبار بعض أفراده وهو الذي كان النبي ﷺ في كبد منه أكثر من غيره وهو أبو الأشد، وقيل: الوليد بن مغيرة ﴿أَنْ لَنْ يَقْدِرَ﴾ أن مخففة من المثقلة اسمها ضمير الشأن محذوف والجملة قائمة مقام المفعولين ليحسب ﴿عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ نكرة موضع النفي للعموم كان أبو الأشد يزعم أن لا يقدر عليه ملائكة العذاب أو المراد به الأحد الصمد يعني أيحسب أبو الأشد أنه لا يقدر عليه الله تعالى خلقه بهذه القوة فلا ينتقم منه ﴿يَقُولُ﴾ ذلك الإنسان حال من فاعل يحسب ومقولة القول ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾ أي كثر جمع لبدء وهي ما تلبد وكثر واجتمع لعله كان يذكر كثرة إنفاقه مفاخرة ورياء أو بعدما أنفق في معادة النبي ﷺ حتى يعترف بفضله كفار قريش أعدائه ﷺ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ بل الله سبحانه يراه حين أنفق رياء وفي معادة النبي ﷺ فيسأل من أين اكتسبه وأين أنفقه رياء رياء في معادة النبي ﷺ فيسأل من أين اكتسبه وأين أنفقه فيجازيه وينتقم منه، كذا قال سعيد بن جبير وقتادة وقال الكلبي إنه كان كاذباً في افتخاره، وقوله أنفقت كذا وكذا لم يكن أنفق جميع ما قال وهذه الجملة بعد قوله أيحسب أن لن يقدر عليه أحد تأكيد التوبيخ والإنكار بمنزل النكير ثم عد الله سبحانه نعمه ليقره وليكون دليلاً وتقريراً على كون الله سبحانه مقتدرًا على انتقامه فقال ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿٨﴾ يبصر بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يتكلم به ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ ليستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب النفخ، قال البغوي جاء في الحديث أن الله عز وجل يقول: ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعتك عليه بطبقتين فأطبق وإن نازعك بصرك على ما حرمت عليك فقد أعتك عليه بطبقتين فأطبق وإن نازعك فرجك على ما حرمت عليك فقد أعتك بطبقتين فأطبق ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١٠﴾ يعني الشديين كذا روى محمد بن كعب عن ابن عباس وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك، وقال أكثر المفسرين طريقي الخير والشر والحق والباطل والهدى والضلال يعني أظهرنا له الخير من الشر بإيجاد العقل فيه وإرسال الرسل فمن ضل واختار طريق الشر بعد ذلك فلا عذر له ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعُقَبَةَ﴾ ﴿١١﴾ قيل لا ها هنا ليس على معناها فإنها لا تدخل على الماضي إلا مكرراً فهي بمعنى هلا والمعنى فهلا اقتحم العقبة بإنفاق ماله فيما يجوز به العقبة من الطاعات فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوة النبي ﷺ والجملة معطوف يقال أهلكت ما لا لبداً، وقيل: ها هنا تكرر تقدير التعدد معنى العقبة فكان تقديره فلا فك رقبة ولا أطمع مسكيناً ولا كان من الذين آمنوا فلا ها هنا بمعناها، والجملة معطوف على جواب القسم يعني لقد خلقنا الإنسان في كبد التكليفات فلا اقتحم ما كلف به وكان عليه

الافتحام وإتيان ما خلق لأجله أو معطوفة على مضمون ألم نجعل له عينين ولساناً وشفيتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة بإتيان الطاعات حتى يكون شكر النعم و صرفاً للنعمة فيما ينبغي . والعقبة في الأصل الطريق في الجبل استعيرها هنا المشاق التكليف واقتحامها الدخول فيها وهذا معنى قول قتادة ، وقيل : اقتحامها التجاوز عنها والخروج من عهدة ما وجب عليه فإنه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها واشتغال الذمة بالواجبات بالغفلة فإذا أعتق رقبة أو أطعم مسكيناً بزكاة ماله كان كمن اقتحمها وجاوز عنها وروي عن ابن عمر أن هذه العقبة جبل في جهنم ، وقال الحسن و قتادة عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتموها بطاعة الله وقال مجاهد بطاعة الله وقال المجاهد والضحاك والكلبي هي الصراط على جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة سهلاً وصعوداً وهبوطاً وإن لجنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان فجاج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في النار منكوس فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالريح العاصف ومنهم من يمر كالفارسي ومنهم من يمر كالراجل ومنهم من يزحف ومنهم كالزالون ومنهم من يكردس في النار فقال : ابن زيد يقول فهلا يسلك الطريق التي فيه النجاة ثم بين ما هي فقال ما أدراك ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ ﴾ ﴿١٧﴾ فإنك لم تدر صعوبتها على النفس وكثرة ثوابها ، وقال سفيان ابن عيينة كل شيء قال وما أدراك فإنه أخبر به وما قال وما يدريك فإنه لم يخبر به انتهى ، فإن كان المراد بالعقبة الطاعات فلا حاجة إلى التقدير وإن كان المراد به ثقل الذنوب فالتقدير ما أدراك ما اقتحام العقبة والخروج عنها ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ ﴿١٣﴾ أو إطعام ﴿ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَالْكَسَائِيُّ فَكَ بَفَتْحِ الْكَافِ عَلَى الْمَاضِيِّ وَرَقَبَةً بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ وَأَطْعَمَ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْمَاضِيِّ بِنَاءِ عَلَى أَنْ بَدَلَ مِنْ اقْتَحَمَ أَوْ بَيَّنَّ لَهُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ اعْتِرَاضٌ وَالْبَاقُونَ بِضَمِّ الْكَافِ وَرَقَبَةً بِالْجَرِّ عَلَى الْإِضَافَةِ وَإِطْعَامَ بِالتَّنْوِينِ عَلَى الْمَصْدَرِ بِنَاءِ عَلَى أَنَّهُ خَبِرَ مَبْتَدَأً مَحذُوفٌ أَيْ هِيَ فَكَ رَقَبَةً وَالْمَرَادُ بِفِكَ الرَقَبَةُ أَعْمٌ مِنَ الْإِعْتِاقِ وَمَنْ أَنْ يَعِينُ فِي ثَمْنِهَا يَرِيدُ عَتَقَهَا أَوْ يَعِينُ الْمَكَاتِبَ أَوْ مَعْتَقَ الْبَعْضِ فِي فَكَ رَقَبَتِهَا . عَنْ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : عَلِمْنِي عَمَلًا يَدْخُلُنِي الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : « لَنْ كُنْتُ أَقْصَرْتُ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتُ الْمَسْأَلَةَ أَعْتَقَ النَّسْمَةَ وَفَكَ الرَقَبَةَ ، قَالَ أَوْلَيْسَا وَاحِدًا قَالَ : « لَا عَتَقَ النَّسْمَةَ أَنْ تَفْرُدَ بَعْتَقَهَا وَفَكَ الرَقَبَةَ أَنْ تَعِينُ فِي ثَمْنِهَا وَالْمَنْحَةُ الْوَكُوفُ وَالْفِيءُ عَلَى ذِي الرَّحْمِ الظَّالِمِ فَإِنْ لَمْ تَطُقْ ذَلِكَ فَأَطْعَمَ الْجَائِعَ وَاسْتَقَ الظَّمْآنَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِنْ لَمْ تَطُقْ ذَلِكَ فَكَفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ » رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعْبِ الْإِيمَانِ ، عَنْ

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مسلم أعتق الله بدل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه»^(١) متفق عليه، وقال عكرمة قوله فك رقبة يعني من الذنوب بالتوبة ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (١٥) ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ (١٦) المسغبة والمرتبة والمقربة مفعلات من مسغب إذا جاع وقرب في النسب والترب إذا أفقر أي التصق بالتراب بشدة الحاجة ووصف اليوم المسغبة مجازي والظرف متعلق بإطعام وانتصب على المفعولية يتيماً ومسكيناً ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطف على اقتحم أوفك وعطفه بثم لتباعد الإيمان عن العتق والإطعام بالرتبة واستقلاله واشتراط الطاعات به ﴿وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعة والمصائب ﴿وَتَوَّصَّوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ عباد الله أو بموجبات رحمة الله ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة الموصوفين بتلك الأوصاف ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي أصحاب اليمين والبركة في أنفسهم والجملة مستأنفة كأنه في جواب ما شأن من اقتحم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبِينَ﴾ الذي نصبنا دلائل على الحق من كتاب وحجة بالقرآن ﴿هُمُ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي أصحاب الشمال أو الشؤم والتكرير ذكر المؤمنين بالإشارة والكفار بالضمير الشأن لا يخفى ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ (٢٠) مطبقة من أوصدت الباب إذا طبق أو أغلق، قرأ حفص وأبو عمرو حمزة وهناد في سورة الهمزة بالهمزة وهمزة إذا وقف أبدلها واواً والباقون بغير وحمزة وهما لغتان، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: كفارات الأيمان، باب: قول الله تعالى ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وأي الرقاب أزكى (٦٧١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: العتق، باب: فضل العتق (١٥٠٩).

سورة الشمس

مكية وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا لَهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾ قال مجاهد والكلبي يعني ضوءها حين تطلع الشمس فيصفو ضوءها وقال قتادة هو النهار كله، وقال مقاتل حرها في القاموس الضحية كالعشية ارتفاع النهار والضحى ويذكر ويصفر ضحاها بلا هاء والضحاء بالمد إذا قرب انتصاب النهار ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾﴾ أي تبع طلوعه طلوع الشمس وذلك في النصف الأول من الشهر أو تبع طلوعه غروب الشمس وتبع في الاستدارة وكمال النور كذا قال الزجاج وكلا الأمرين في الليالي البيض ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾﴾ أساد التجلية إلى النهار مجازي كما في صام نهاره والضمير المنصوب إما عائد إلى الشمس فإنها تتجلى إذا انبسط النهار وأما إلى غير مذكور يعني جلية الظلمة أو الأرض والدنيا ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾﴾ يعني يغشى الشمس أو الآفاق أو الأرض والظروف أعني إذا تلاها وإذا جلاها وإذا يغشاها متعلقة بفعل القسم عن الجمهور، وقال في البحر المواج لا يجوز ذلك فإن الأقسام ليس في تلك الأوقات وأيضاً لا يجوز أن يكون صفة للقمر والنهار والليل فإن ظرف الزمان لا يكون صفة لأمر حسي فتأويله أن يقال بحذف المضاف وتقديره وانجلاء القمر إذا تلاها أي وقت تبيعتها للشمس وحصول النهار إذا جلاها أي وقت تجلية الشمس وحدوث الليل إذا يغشاها أي وقت غشيانها فالظرف إما صفة للمضاف فإنه اسم معنى أو متعلق به، ويحتمل أن يقال أن إذا ها هنا بمعنى الوقت من غير الظرفية على طريقة إذا يقوم زيد إذا يعقد عمرو فيكون

حينئذ بدل اشتغال مما قبله فيكون مقسماً به ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ ﴿٥﴾ ومن بناها وهو الله سبحانه كذا قال عطاء والكلبي لا يقال يلزم حينئذ إساءة الأدب بتقديم القسم لغير الله تعالى على القسم بدلاً نقول فيه ترق من الأدنى إلى الأعلى وذلك هو الأدب وأوثر ما على الإرادة معنى الوصفية كأنه قيل والشيء القادر الذي بناها ول على وجوده كما قدرته بناءها، وقال الزجاج والفراء ما مصدرية أي وبناها وكذا الكلام في قوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا﴾ ﴿٦﴾ أي بسطها وكذا الكلام في ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ أي عدل خلقها وسوى بقضائها على ما يقتضيها الحكمة، قال البيضاوي تبعاً لصاحب الكشاف جعل ما مصدرية تجرد الفعل عن الفاعل ويخيل بنظم قوله تعالى: ﴿فَأَلَمْنَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿٨﴾ بقوله وما سواها حيث يلزم عطف الفعل على المصدر إلا أن الضمير فيها اسم الله المعلم به وقال في بحر الأمواج ألهمها معطوفة على سواها والمعنى ونفس وتسويه فألهمها فجورها وتقواها فلا يلزم ما ذكر انتهى وتنكير نفس للتكثير والتعميم كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ ﴿٩﴾^(١) وللتعظيم والإفراد والمراد به نفس آدم ﷺ، وقال عطاء يريد جميع ما خلق الله من الإنس والجن والمراد بالهام الفجور والتقوى أن بين لها الخير والشر والطاعة والمعصية حتى يأتي بالخير والطاعة ويتقي عن الشر والمعصية كذا روى عن ابن عباس والمراد به إلزامها الفجور أو التقوى وخلق الميل في قلبه إلى أيهما شاء وتوفيقه إياها بالتقوى وخلق بالتقوى على يد المؤمن وخذلانه إياها للفجور وخلق الفجور يد الكافر كذا قال سعيد بن جبير وابن زيد واختاره الزجاج عن عمران بن حصين أن رجلين من مزينة قالوا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبت الحجة عليهم؟ فقال: لا بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها»^(٢) رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ «مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعاتك»^(٣) رواه

(١) سورة التكوير، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب، البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٥٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤).

مسلم، قدم الفجور على التقوى لأن الأصل كونها أمانة بالسوء أيضاً فيه رعاية رؤوس الآي والواو الأول للقسم بالاتفاق وكذا الثانية والثالثة وما بعدها عند البعض وليست للعطف لزم العطف على معمول عاملين مختلفين في مثل قوله والليل إذا يغشاها فإن قوله الليل مجرور بواو القسم وإذا يغشى منصوب بفعل القسم المقدر فلو جعلت الواو في والنهار إذا جلاها للعطف كانت الواو قائمة مقام الفعل وحرف الجر معاً والصحيح أن كلها للعطف سوى الأولى منها فإن إدخال القسم في القسم قبل تمام الأول لا يجوز وواو العطف قائمة مقام واو القسم فقط لكن واو القسم نزلت منزلة الباء والفعل حتى لم يجز إبراز الفعل معها فصارت كأنها هي العاملة نصباً وجرماً فصارت كعامل واحد له عملان فيجوز العطف على معموليه وذلك جائز بالاتفاق ونحو ضرب زيد عمرواً وبكر خالدأ هذا إذا كانت الظروف متعلقة بفعل القسم، وأما على تأويل صاحب البحر فلا حاجة إلى هذا التوجيه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ (١) الضمير المرفوع راجع إلى الله سبحانه والمنصوب إلى من باعتبار أنه عبارة عن النفس يعني فازت وسمعت نفس طهر الله تعالى عن الرذائل بتجليات أصنافه الكاملة عليها حتى صارت راضية بالله تعالى وأحكامه مطمئنة بذكره رب العالمين أي لحسابه وجزائه عن ابن عمر عن النبي ﷺ، قال يوم يقوم الناس ذره وطاعته محترزة عما نهى عنه وما يشغلها عنه لما أخرج ابن جرير من طريق جوير عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ (١) «أفلحت نفس زكاها الله كذا قال عكرمة، روى مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي شيبه عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها وهو مولها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يستجاب لها» (٢) وقال الحسن معناه قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على الطاعة الله يعني أن الضمير المرفوع راجع إلى من معنى الإنسان والمنسوب إلى نفسه فعلى التأويل الأول بيان لحال المرادين وعلى الثاني لحال المرادين فإن الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب، والجملة جواب للقسم قال الزجاج صار قول الكلام عوضاً عن اللام وكأنه لما أراد من الحث على تزكية النفس والمبالغة والمجاهدة فيه أقسم عليه

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل

(٢) (٢٧٢٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من دعاء لا يستجاب (٥٥٣٦).

مجاهد الهم على وجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته فيستفاد منها أقصى درجات القوة النظرية ويذكرهم عظام الآية لحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كمال القوة العملية فيرتب على العلم والعمل الجذب من الله سبحانه بفضلته ومن قبلهم التقوى ويحصل التزكية، وقيل هذه الجملة معترضة جيئت بعد قوله فألهمها فجورها وتقواها استراد البيان افرق بين الفريقين وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودٌ﴾ حين كذبت بطغواها وهو أنه يدمم الله تعالى على الكفار بمكة بتكذيبهم محمداً ﷺ كما دمدم على ثمود حين كذبت صالحاً ﷺ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ (١٠) والكلام في هذه الجملة كما في قبلها وأصل دسادس أبدلت حرف التضعيف بحرف العلة كتقضي وتقضض ومعنى التندس الإخفاء قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّ فِي الرَّأْبِ﴾ (١) والمراد هنا الإهلاك فإنه يستلزم الإخفاء يعني خابت وخسرت نفس أهلكتها الله تعالى بالإضلال أو أهلك هو نفسه بكسب الضلالة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودٌ﴾ هذه الجملة إلى آخر السورة تأكيد لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ (١٠) أو للمعقول ما وقع فيه التكذيب محذوف والباء في قوله: ﴿يَطْغُونَهَا﴾ للسببية وتقديره كذبت ثمود بطغواها بسبب طغيانها في الكفر صالحاً علم بالتوحيد والنبوة حين قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٧) ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢) وطلبوا منه آية على صدقه أن يخرج ناقة عشرةا من صخرة عينوه فدعا صالحاً فخرجت من تلك الصخرة ناقة وولدت في الحال ولدأ مثلها وكانت الناقة تشرب الماء كله فجعل صالحاً نصيباً من الماء وقال: هذه ناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم فأرادوا قتل الناقة ليسلم لهم الماء كله ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ﴾ أي قام لعقر الناقة بالإسراع حين أمرها كما قال الله تعالى: ﴿فَادْوَا صَاحِبُكُمْ فَعَاطَى﴾ (٣) والانبعاث هو الإسراع بالطاعة للباعث والظرف متعلق بكذبت ﴿أَشَقَّهَا﴾ أي أشقى ثمود وهو قدار بن سالف كان رجلاً أشقر أزرق قصيراً فضلت شقاوته غيره لتولية العقر، روى البخاري عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب ذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقَّهَا﴾ انبعث لها عزيز عارم في أهله مثل أبي زمعة (٤) وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أشقى الناس

(١) سورة النحل، الآية: ٥٩. (٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٤.

(٣) سورة القمر، الآية: ٢٩.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الشمس وضحاها (٤٩٤٢)، وأخرجه

الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الشمس وضحاها (٣٣٤٣).

عاقرة ناقة ثمود وابن آدم الذي قتل أخاه ما سفك على الأرض من دم إلا لحقه منه لأنه أول من سن القتل» رواه الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية بسند صحيح ﴿فَقَالَ﴾ فقال عطف على انبعث ﴿لَهُمْ رَسُولٌ اللَّهُ نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أي ذروا ناقة الله واحذروا عقرها لله والإضافة إلى الله لتعظيم الناقة وكمال التحذير ﴿وَسُقِيَّهَا﴾ عطف على الناقة أي ذروا سقياها فلا ترددها علينا ولا تمسوها بسوء أي يعقر فيأخذكم عذاب عظيم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي صالحاً فيها أو عدهم من نزول العذاب إن عقروها ﴿فَمَقَرُّوْهَا﴾ أي الناقة عطف على كذبوا أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً منهم لأمرهم به، وقال مقاتل الذين عقروا الناقة كانوا تسعة ويجوز التعبير عن التسعة بقوله تعالى: ﴿أَشَقَّهَا﴾ لأن أفعل التفضيل إذا أضيف صلح للواحد والجمع فقال صالح تمتعوا في ثلاثة أيام فتصبحوا في اليوم الأول وجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني وجوهكم محمرة وفي اليوم الثالث وجوهكم مسودة ثم تهلكون بعد ثلاثة ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ بعد ثلاثة أيام، قال في الموج الدمدمة الإهلاك باستئصال، قال عطاء ومقاتل أي دمر عليهم ربهم أي هلكهم وقيل: الدمدمة حكاية صوت لا مده وفي القاموس الدمدمة الغضب ودمدم عليه كلمته مغضباً، وقيل: دمدم عليهم أطبق عليهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنوبهم وهو تكذيب الرسول وعقر الناقة ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ أي سوى الدمدمة عليهم جميعاً وعمهم لها ولم يفلت فيها صغير منهم ولا كبير ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ قرأ نافع وابن عامر فلا يخاف بالفاء وكذلك هو في مصاحفهم والباقون بالواو والضمير راجع إلى الله يعني لا يخاف الله ﴿عُقْبَاهَا﴾ أمال حمزة والكسائي أو آخر هذا السورة إلا تلاها وضحاها فءن حمزة فتحها وأبو عمر وكلها بين بين والباقون بالفتح أي عاقبته الدمدمة أو عاقبته إهلاك ثمود فيبقى بعض الإبقاء كذا قال الحسن وهي رواية علي بن طلحة عن ابن عباس، قال الضحاك والسدي والكلبي الضمير راجع إلى العاقر وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها والجملة حال من فاعل دمدم، أو من فاعل انبعث على ما قيل والواو للحال وعلى قراءة الفاء عطف على فسواها، والله تعالى أعلم.

سورة الليل

مكية وهي إحدى وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنبَرُهُ لِلْهُسْنَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ كَبَلَ وَاسْتَعْتَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنبَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأُنذِرَكُمْ نَارًا تَلْظَنُ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾﴾ الشمس أو النهار كما في قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ ﴿١﴾﴾ أو كل شيء يوارى بظلامه والكلام في إذا يغشى كما مر في والليل إذا يغشاها من كونه متعلقاً بفعل القسم أو بمضاف محذوف أي حصول الليل وكونه صفة له أو بمعنى الوقت فينسلخا عن الظرفية ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾﴾ أي ظهر بزوال ظلمة الليل أو بطلوع الشمس ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾﴾ أي القادر الذي خلق صنفَي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد أو آدم، وحواء ويجوز أن يكون مصدرية وجواب القسم ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾﴾ يعني إن عملكم لمختلف منكم سائغ فكاك رقبة من النار وصعود درجات القرب ومدارج الجنة ومنكم ساع في عطبها، قال البغوي عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٢) ثم فصل الله سبحانه فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى ﴿٥﴾﴾ ماله في سبيل الله أو أدى كل من وجب عليه ﴿وَاتَّقَى ﴿٥﴾﴾ عذاب ربه فاجتنب مجاريه

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء (٢٢٣).

وفي الحديث «اتقوا النار ولو بشق تمره»^(١) رواه الشيخان عن عدي بن حاتم وأحمد عن عائشة والبخاري والطبراني عن أنس في الأوسط وعن ابن عباس وأبي أمامة في الكبير والبراء عن النعمان بن بشير وأبي هريرة ﴿وَصَدَقَ بِالْحَسَنِ﴾^(٢) قال أبو عبد الرحمن السلمى والضحاك وصدق بلا إله إلا الله وهي رواية عطية عن ابن عباس وقال مجاهد بالجنة قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾^(٣) يعني الجنة وقيل: أيقن أن الله سيخلفه وهو رواية عكرمة عن ابن عباس وقال قتادة ومقاتل والكلبي بموعود الله تعالى أن يفى به ﴿فَسَنِّيئِرُهُ﴾ أي نسهله ونهيهه ﴿لِلْيَسْرَى﴾ أي للخلقت اليسرى التي يؤدي إلى يسر وراحة وهي العمل وما يرضى الله ودخول الجنة من يسر الفرس أو هبته المركوب باليسر بالسرج واللجام ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بالنفقة بالخير وبما أمر به الله تعالى وفي الحديث «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي»^(٤) رواه الترمذي والنسائي عن علي وابن حبان والحاكم عن أنس ﴿وَأَسْتَفْتَى﴾ بشهوات الدنيا عن الثواب في الآخرة وعن القادر به ﴿وَكَذَبَ بِالْحَسَنِ﴾ بالكلمة الحسنى ﴿فَسَنِّيئِرُهُ لِلْعُسْرَى﴾^(٥) أي لخصلة التي يؤدي إلى العسر والشدة وهي العمل بما يكرهه الله تعالى ودخول النار، قال مقاتل يعسر عليه أن يأتي خيراً عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسنيسره بعمل أهل السعادة وإما من كان من أهل الشقاوة فسنيسره بعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾^(٦) ﴿وَصَدَقَ بِالْحَسَنِ﴾^(٧) ﴿فَسَنِّيئِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾^(٨) متفق عليه قال البغوي قيل: نزلت في أبي بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشر أواق فأنزل الله تعالى سورة الليل إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾^(٩) سعي أبو بكر وسعي أمية، كذا روى عن ابن مسعود وأخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق الحاكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة قبل الرد (١٤١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب:

الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمره أو كلمة طيبة (١٠١٦).

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «رغم أنف رجل» (٣٥٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿فَسَنِّيئِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (٤٦٦٣)، وأخرجه مسلم في

كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الأدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله

وشقاوته وسعاته (٢٦٤٧).

فكان الرجل إذا جاء فدخل الدار فصعد إلى النخلة، ليأخذ منها الثمرة وبما يقع التمرة في أخذها صبيان الفقير فينزل من نخلة فيأخذ الثمرة من أيديهم وإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعيه يخرج التمرة من فيه فشكى ذلك الرجل يعني الفقير إلى النبي ﷺ فقال: اذهب ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان لك نخلة في الجنة، فقال الرجل لقد أعطيت وإن لي نخلاً كثيراً وما فيه نخلة أعجب إليّ تمرّة منها ثم ذهب الرجل ولقي رجلاً كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة، فأتى إلى رسول الله ﷺ فقال أعطني يا رسول الله ما أعطيت الرجل يعني صاحب النخلة وإن أنا أخذتها قال: نعم فذهب الرجل فلقي صاحب النخلة ولكليهما نخل فقال له أشعرت أن محمد ﷺ أعطاني بنخلتك التي في دار فلان نخلة في الجنة فقلت له لقد أعطيت ولكن يعجبني تمرها ولي نخل كثير ما فيه نخل أعجب إليّ تمرّة منها، فقال له الآخر أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا إن إعطيتني بها ما أريد ولا أظنك تعطي، وقال فكم فيها؟ قال: أربعين نخلة قال: لقد جئت بأمر عظيم ثم سكت عنه فقال له: أنا أعطيتك أربعين نخلة قال فاشهد لي إن كنت صادقاً فدعا قومه فأشهد له ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن النخلة قد صارت لي فهي لك فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار فقال: النخلة لك فأنزل الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ قال ابن كثير غريب جداً وذكر البغوي عن علي بن حجر عن إسحاق بن نجيح عن عطاء نحوه وفيه أن صاحب النخلة شكى إلى النبي ﷺ تناول صبيان الجار من نخلة فقال له النبي ﷺ بعينها بنخلة في الجنة فأبى فخرج فلقيه أبو الدحداح إلى آخر القصة قال فأنزل الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ والصحيح هي الرواية الأولى يعني نزلت في أبي بكر الصديق وأمّية بن خلف لأن السورة مكية وقصة صاحب النخلة وأبي الدحداح يقتضي كونها مدنية وعلى تقدير صحة الرواية الثانية فنقول نزول الآية بمدح أبي الدحداح ﷺ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ كأبي الدحداح ﴿وَصَدَقَ بِالْحَسَنَىٰ﴾ أي بما وعد النبي ﷺ: ﴿فَسَيُسِيرُوا لِلْبِئْرَىٰ﴾ يعني الجنة ولما كان حكم الآية عاماً وءن كان موردها خاصاً عقبه بما يقيد من الوعيد فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ الآية وليست هذه الجملة للوعيد فيحق صاحب النخلة فإنه كان رجلاً من الأنصار لم يكن ممن استغنى من ثواب الله تعالى ونعيم الجنة وكذب بالحسنى بل كان مصداقاً بها والبخل المستوجب للنار إنما هو بمنع الزكاة المفروضة كما لا يخفى والله تعالى أعلم ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي بخل فيه نفي أو استفهام إنكار ﴿إِذَا تَرَدَّتْ﴾ الظرف متعلق بيغني وتردى تفعل من الردي بمعنى الهلاك،

قال مجاهد أي بات إذا المراد بالهلاك استيجاب العذاب أو بمعنى السقوط يعني تردى في حفرة القبر أو قعر جهنم قال قتادة وأبو صالح هوى في جهنم ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ كلمة على للتأكيد يعني التزمنا الهداية بموجب قضائنا السابق أو بمقتضى كلمتنا ﴿لِلْهُدَى﴾ أي الإرشاد إلى الحق بنصب الدلائل وبيان الشرائع، كذا قال الزجاج وقاتدة، وقال الفراء معناه من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصَدُّ السَّبِيلِ﴾^(١) يقول من أراد الله فهو على السبيل القاصد يعني من سلك على طريق الهدى يصل إلى الله سبحانه ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ملكاً وخلقاً وتقديم الخير للحصر فمن طلبها من غيره لكنهما فقد أخطأ الطريق أو فنعتي ثواب الهداية للمهتدين أو فلا يضرنا ترككم الاهتداء ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ﴾ أي خوفكم والفاء للسببية فإن كون الآخرة والأولى كلاهما خالصاً لله تعالى سبب للتخويف ﴿فَارَاكَ تَلْظَىٰ﴾ إحدى التائين محذوف أي تتلظى تتوقد وتتهب صفة للنار ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ صفة أخرى ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ قيل الأشقى ها هنا بمعنى الشقي فهو يعم الكافر والفاسق الغير المغفور وصفه تعالى: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ الرسول ﷺ ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الإيمان باعتبار بعض أفرادها، وليس الاحتراز بل لأن العادة مقتضى الإيمان أن لا يكون المؤمن شقيماً إذ الإيمان يقتضي التقوى والسعادة والكافر المكذب هو الذي يكون شقيماً عاصياً غالباً فبقيد الشقي بوصف التكذيب والتولي خرج مخرج العادة كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّبْتُمْ أَلْتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾^(٢) أو المراد بالتكذيب أعم من التكذيب صريحاً وهو الكفر أو دلالة وهو ارتكاب المحرمات مع الإيمان بتحريمها أو أعم مما هو صادر عن اللسان والقلب فيكون كفراً نفاقاً ومما هو صادر عن النفس الأمانة بالسوء حال كون قلبه مطمئنة بالإيمان ولسانه ما خلقنا به فيكون إيماناً مجازياً عاماً، وقيل: الأشقى بمعناه للتفضيل والمراد به الكافر فإني أشقى من الفاسق لكي يصلح ههنا ليس على إطلاقه بل المراد سنة المقيد للزوم والشدة قال البيضاوي لا يصلحها لا يلزمها مقاسياً شدتهما إلا الأشقى أي الكافر فإن الفاسق وإن دخلها إن لم يغفره لا يلزمها فلا نقض في الحصر، وقيل لا حاجة إلى هذه التكليف بل الضمير في لا يصلحها عائد إلى ناراً تلظى ولا يصلح ناراً تتلظى وتتهب إلا الكافر وأما الفاسق فأدخل جهنم لا يصلح ناراً تتلهب بل ناراً ضعيفة بالنسبة إلى الكافر وهي الطبقة العليا من النار وعندني أن المراد بالأشقى هو الكافر كما هو الظاهر النار أيضاً على عمومها فإن التلهب توصف بها نار الدنيا أيضاً ونار جهنم وإن كانت ضعيفة فهي أشد من

(١) سورة النحل، الآية: ٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

نار الدنيا البتة لكن الحصر في الآية إضافي بالنسبة إلى المؤمنين الموجودين في زمان النبي ﷺ، فالآية تدل على عدم دخول أحد من الصحابة في النار كيف وقد انعقد الإجماع على أن الصحابة كلهم عدول وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ﴾^(١) وقال: ﴿كُتِمَّ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(٣) الآية وقال رسول الله ﷺ: «لا تمس النار مسلماً رأيته أو رأى من رأيته»^(٤) رواه الترمذي عن جابر وقال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم واهتديتم» رواه رزين عن عمر بن الخطاب فمن صدر منه معصية فهم على سبيل الندرة وفق غالباً للتوبة فإن «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(٥) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعاً، أو أذكرته الرحمة ببركة صحبة النبي ﷺ كيف وقد قال رسول الله ﷺ في حق الصالحاء من أمته «هم قوم لا يشقى جليسهم»^(٦) ولا يخاب أنيسهم في حديث في الصحيحين والترمذي عن أبي هريرة فما ظنك فيمن جالس سيد المرسلين في حين من الدهر والله تعالى أعلم. ولما كان الناس في زمن النبي ﷺ منحصرين في فريقين إما مؤمن تقي أتقى الناس ممن سواهم أو كافر فلذلك ترى كلام الله مشحوناً من ذكر هذين الفريقين وقلمما يستفاد حال عصاة المؤمنين من القرآن لأن الكلام غالباً يبحث عن أحوال الموجودين والله تعالى أعلم فلا يجوز بهذه الآية استدلال المرجئة على أن المؤمن إن كان فاسقاً لا يدخل النار وأن السيئات من الكبائر والصغائر مطلقاً لا يضر مع الإيمان، لأن الحسنات مطلقاً لا تنفع مع الكفر وبه قال الروافض شيعة علي ولا استدلال المعتزلة على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار وليس بمؤمن وجه استدلالهم أن ارتكاب الكبيرة موجب لدخول النار بالإجماع وإن خالف المرجئة فلو كان مرتكب الكبيرة مؤمناً لم يكن أشقى الناس فلا يصلها بهذه الآية وأهل السنة يؤولون هذه الآية بما ذكرنا من التأويلات جمعاً بين النصوص وجرياً على ما انعقد عليه الإجماع من أن الله تعالى لا يغفر

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه (٣٨٦٧).

(٥) أخرجه، ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٠).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٨)، وأخرجه مسلم في

كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩)، وأخرجه الترمذي في كتاب:

الدعوات، باب: ما جاء أن الله ملائكة سياحين في الأرض (٣٦٠٠).

أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء سواء تاب أو لم يتب وقال الله تعالى: ﴿يَكْبَادِي
 الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
 الرَّحِيمُ﴾^(١) وقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾^(٢) وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ
 ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٣) ﴿٧﴾ فلا يجوز في حق المؤمن الخلود في النار وإن كان فاسقاً غير
 مغفور وقد تواتر قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٤) وقال الله تعالى: ﴿وَمَن
 يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٥) ﴿٨﴾ يعني إن شاء الله أن يعذبه ولم يغفره يرى جزاء
 السيئة في النار ولولا مقتضى إتيان المحرمات وترك الواجبات دخول النار كما قالت
 المرجئة لصارت الشريعة الأمرة بالمعروف والنهي عن المنكر كلها سفسطة ولا يقولها إلا
 كاهن أو مجنون ﴿وَسَيَجْزِيهَا﴾ عطف على لا يصلها والسين للتحقيق ﴿الَّتِي﴾ أي التي
 اتقى الشرك الجلي والخفي والمعاصي القلبية والقلبية والنفسانية وذلك بعد تزكية النفس
 واطمئنانها ﴿الَّتِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ الفقراء وفي فك الرقاب ووجوه الخير ﴿يَتَرَكُنَّ﴾ بدل من يؤتي
 ولا محل له من الإعراب أو منصوب على الحالية من فاعله أي يطلب أن يكون عند الله
 زاكياً لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة والمفهوم عندنا غير معتبر فلا تدل تلك
 الآية على دخول تقي في النار وكذا عند الشافعي إذ الكلام خارج مخرج الجواب في
 حادثة لاتفاق المفسرين على أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق، فالغرض منه توصيف
 الصديق بكونه اتقى الناس أجمعين غير الأنبياء وإنما خصصنا بغير الأنبياء دلالة العقل
 والإجماع والنصوص وليس الغرض منه الاحتراز والحكم بدخول التقي دون اتقى في النار
 ولو سلمنا المفهوم فالمراد بالتقى الذي جاز دخوله في النار التقي عن الشرك فقط دون
 المعاصي والله تعالى أعلم. أخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة
 كلهم يعذب في الله فنزلت ﴿وَسَيَجْزِيهَا الَّتِي﴾ إلى آخر السورة قلت: فحينئذ اللام للعهد
 وأخرج حاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قال أبو قحافة لأبي بكر أراك
 تعتق رقاباً ضعفاً فلو أنك أعتقت رجالاً أجلد يمنعونك ويقومون دونك فقال: يا أبت إنما
 أريد ما عند الله فنزلت هذه الآية (فأما من أعطى واتقى) إلى آخر السورة وذكر محمد بن

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٩.

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الزلزلة، الآية: ٧.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٦).

(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٨.

إسحاق قال: بلال لبعض بني جمع وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامة وكان صادق الإسلام طاهر القلب وكان أمية بن خلف يخرجها إذا حميت الظهيرة فيطرحة على ظهره يبطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول لا يزال على هذا حتى يموت أو تكفر لمحمد فيقول وهو في ذلك البلاء أحد أحد، قال محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك وكانت دار أبي بكر في جمع فقال لأمية ألا تتقي في هذا المسكين قال: أنت أخذته فأنقذه مما ترى، قال: أفعل عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على ذلك أعطيتك قال: قد فعلت، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر رقاب بلال سابعهم عامر بن فهيرة شهد بدرًا وأحدًا وقتل يوم بئر معونة شهيداً وأم عميس وزبير فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش ما أذهب بصرها وأعتق ابنتها الهدنة وكانتا لامرأة من عبد الدار بمنزلهما وقد بعثتها سيدتها يطحنان وهي تقول والله لا أعتقكما أبداً فقال أبو بكر فلان فقالت: حلا أنت أفسدتهما فأعتقهما قال: فبكم؟ قالت: بكذا وكذا قال: فأخذتهما وهما حرتان. ومر بجارية بني مؤمل وهي تعذب فاتباعها فأعتقها وقال سعيد بن المسيب بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر في بلال حين قال ابتعنيه قال نعم أبيعك بنسطاش عبد لأبي بكر صاحب عشر آلاف دينار وغلما وجواري ومواش وكان حمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون ماله له فأبى فأبغضه أبو بكر فلما قال له أمية أبيعك بغلامك نسطاش اغتنمه أبو بكر وباعه منه فقال المشركون ما فعل ذلك أبو بكر ببلال إلا ليد كان له عنده فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾ بلال ولا لغيره من الغلمان ﴿عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ وكذا أخرج البزار عن ابن الزبير أنها نزلت في أبي بكر والجملة حال من فاعل يؤتي ماله أو مستأنفة كأنه في جواب بل كان لأحد ممن يؤتيه ماله عنده يجزي أن يكافيه عليهما ويقصد بإعطائه أو إعتاقه مجازاً بها ﴿إِلَّا﴾ استثناء منقطع أي لكن يفعل ذلك أبو بكر ﴿أَبِغَاءَ وَجِهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ طلباً لرضاه ويجوز أن يكون متصلاً عن محذوف تقديره لا يؤتي ماله لغرض من الأغراض ومكافاته لنعمة إلا لغرض ابتغاء وجه الله وطلب رضائه ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ ﴿١٦﴾ الله عنه بما يفعل أو يرضى عن الله تعالى بما يعطيه من الجزاء في الآخرة من الجنة والكرامة عطف على وسيجنيها وهذه الآية لأبي بكر كقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ﴿١٧﴾ وكون أبي بكر اتقى الناس بعد الأنبياء دليل على كونه أفضلهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ ﴿١٨﴾ وعليه انعقد الإجماع، عن ابن عمر قال:

كنا في زمن النبي ﷺ لانعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لاتفاضل بينهم^(١) رواه البخاري، وسأل محمد بن الحنفية عن علي أي الناس خير بعد النبي ﷺ؟ قال: أبو بكر قال: ثم من؟ قال: عمر رواه البخاري، وقد بسطنا الكلام في هذه المسألة وذكرنا فيها الأحاديث والآثار وروايات الإجماع والمنقول في كتابنا السيف المسلول انصراً على الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً أمال حمزة والكسائي وأخر هاتين السورتين والليل والضحي إلا قوله تعالى سجي فإن حمزة فتحها وأمّال أبو عمرو للعسرى ولليسرى وما سواهما بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون بإخلاص الفتح في الكل، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب ﷺ المناقب، باب: مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رضي الله عنه (٣٦٩٧).

سورة الرضحى

مكية وهي إحدى عشر آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ ١ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴾ ﴿ وَالْأُولَىٰ ٤ ﴾ وَالسُّوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْضَىٰ ٥ ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ٦ ﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٧ ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ٨ ﴾ ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ ﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١ ﴾

أخرج الشيخان في الصحيحين وغيرهما عن جندب بن عبد الله قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة وليلتين فقالت امرأة يا محمد ما أرى لشيطانك إلا قد تركك فأنزل الله تعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ ١ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴾ وقال البغوي قال يعني جندب أن امرأة النبي قالت ذلك أم جميل امرأة أبي لهب، وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي فقالت أم جميل امرأة أبي لهب ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك فأنزل الله والضحي الآيات، وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن جندب قال: أبطأ جبرائيل على النبي ﷺ فقال المشركون قد ودع محمد فنزلت وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك مما ترى من جزعك فنزلت وكلاهما مرسل ورجالهما ثقات قال الحافظ ابن حجر والذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك لكن أم جميل قالت شماتة وخديجة قالت توجعاً، وأخرج ابن شيبه والطبراني بسند فيه من لا يعرف عن حفص بن ميسرة القرشي عن أمه عن أمها وكانت خادمة رسول الله ﷺ أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير فمات فكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبرائيل لا يأتيني فقلت في نفسي لو نقيت البيت وكنته فأهويت بالكناسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه أخذته الرعد فأنزل الله والضحي إلى قوله ترضى، قال الحافظ ابن حجر قصة إبطاء

جبرائيل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب بل شاذ مردود كما في الصحيح، قال البغوي في مدة احتباس الوحي عنه اختلاف فقال ابن جريج اثني عشر يوماً وقال مقاتل أربعون يوماً فقال المشركون إن محمد أودعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة كذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فقال النبي ﷺ يا جبرائيل ما جئت اشتقت إليك، فقال جبرائيل إني كنت أشد شوقاً إليك ولكني عبد مأمور بما أنزل الله وما ننزل إلا بأمر ربك قوله تعالى: والضحى قيل: أريد به النهار كله بدليل مقابلة الليل نظيره قوله تعالى: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضُحًى﴾^(١) يعني نهاراً وقال قتادة ومقاتل يعني وقت الضحى وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس قيل: خص ذلك الوقت لأنها الساعة التي كلم فيها موسى ﷺ وألقي فيها السحرة سجداً وهي الساعة يعدل فيها النهار في الحر والبرد في الصيف والشتاء والليل إذا سجد الظرف إما متعلق بفعل القسم أو بمضاف مقدر على الليل أي وحصول الليل إذا سجد أوصفة الليل بتقدير المضاف وإذا بمعنى الوقت منسلخاً عن معنى الظرفية بدل من الليل مقسم به، قال الحسن أقبل بظلام وهي رواية العوفي عن ابن عباس وقال الوالبي إذا ذهب وقال عطاء والضحاك غطى كل شيء بالظلمة وقال مجاهد استوى وقال قتادة وابن سكين استقر ظلامه فلا يزداد بعد ذلك أو المراد سكن الناس فيه والأصوات يقال ليل ساج وبحر ساج إذا كان ساكناً وتقديم الليل في السورة السابقة باعتبار الأصل وتقديم الضحى ههنا الشرف وجواب القسم قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي ما تركك وقطع عنك قطع مودع ﴿رَبُّكَ وَمَا قَلَّ﴾ وما أبغضك حذف الضمير المنصوب اكتفاء بما سبق اختصاراً أو رعاية للفواصل أخرج الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ عرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ يجوز أن يكون هذه الآية متصلاً بما سبق ووجه اتصاله أن قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَّ﴾ يتضمن أن الله مواسلك بالوحي إليك وإنك حبيب الله ولا يكون كرامته أعظم ذلك فأخبره بأن حاله في الدار الآخرة خير له وأعظم من ذلك لتقدمه على الأنبياء واختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه الأولون والآخرون وشهادة أمته على الأمم وقد ذكرنا بعد ما يختص به النبي ﷺ في الآخرة من الفضائل في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢) الآية، وروى البغوي بسنده من طريق ابن أبي شيبه عن ابن مسعود قال: قال

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا» أو المعنى وللآخرة أي الحالة الآخرة خير لك من الأولى ونهاية أمرك خير من بداية يعني لا تزال تتصاعد في الرفعة والكمال، قالت الصوفية من استوى يومه فهو مغبون، وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته فسرتة فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ^(١) حذف المفعول الثاني ليعطيك ليدل على العموم والشمول أي يعطيك عطاء جزيلاً من النصر والتمكين وكثرة المؤمنين وشيوع دينك في الأرضين في الدنيا ومن الشفاعة وكثرة الثواب وغير ذلك لا يخفى وما لا يعلمه إلا الله تعالى في الآخرة وأفضل العطايات رؤية الله سبحانه على حسب كمال النبي ﷺ وأعلى درجات القرب قال رسول الله ﷺ إذن لا أرضى من واحد من أمتي في «النار وعن علي أن رسول الله ﷺ قال: «أشفع لأمتي حتى ينادي ربي أرضيت يا محمداً؟ فأقول: أي ربي رضيت» ^(٢) وقال عطاء عن ابن عباس المراد يعطيك ربك الشفاعة في أمتك حتى ترضى وهو قول علي والحسن ^(٣) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله: يا جبرائيل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسؤك به» ^(٤) وراه مسلم، وروى حرب بن شريح سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول: إنكم معشر أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإنا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ^(٥) واللام قيل: للابتداء دخل على الخبر بعد حذف المبتدأ والتقدير ولأنك سوف يعطيك للقسمة فإنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة وجمعها مع سوف للدلالة على أن اللام لام القسم لا لام للابتداء، وقد علم أنها ليس لابتداء لدخولها على سوف ولام الابتداء لا تدخل على سوف ثم عد الله سبحانه ما أنعم عليه من أول حاله ليقيس ما يترقب من فضل الله على ما سلف منه فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ إن كان من وجدت بمعنى علمت يتيماً مفعول الثاني وإن كان بمعنى المصادفة فمنصوب على الحال والاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والغرض منه التقرير أي إقرار المخاطب به والمعنى وجدك يتيماً يعني صغيراً فقيراً حين مات أبوك ولم يخلف لك مالاً ولا مأوى وفي هذه الجملة تأكيد لقوله ما ودعك ﴿فَتَأْوِي﴾ يعني ذلك إلى عمك أبي

(١) رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أحمد بن زيد المداري ولم أعرفه بيقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: البعث، باب: في الشفاعة (١٨٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: دعاء النبي ﷺ لأمرته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٢).

طالب وضمك إليه حتى كفلك روى البغوي من طريق الترمذي عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت: يا رب إنك آتيت سليمان بن داود ملكاً عظيماً وآتيت فلاناً كذا قال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فأويتك؟ قلت: بلى أي رب قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى أي رب قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى أي رب»^(١) وزاد في بعض الروايات ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك بلى أي رب، زعم أكثر الناس أن النبي ﷺ سأل ربه هذه المسألة المال والغنى حيث قالوا إن النبي ﷺ كان مفلساً وكانت قريش تعير بذلك حتى قالوا إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة فاغتم النبي ﷺ وظن أن قومه إنما كذبوه بفقره فسأل ربه هذه المسألة فعدد الله عليه نعمه ووعدته الغنى ليسليه، وهذا ليس بشيء بوجوه: أحدها أن رفعة شأن النبي ﷺ لا يقتضي أن يسأل ربه الدنيا:

ورأوته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت وهذه فيها ضرورته أن الضرورة لا تعدوا على العصم

وثانيها: أن قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ﴿٨﴾ يأبى عنه فإن صيغة الماضي تدل على الحصول وسؤال الغنى بعد حصوله محال، وثالثها: أنه لو سأل ربه لأعطاه وقد صح أنه ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين حتى قبض رسول الله ﷺ^(٢) كذا في الصحيحين من حديث عائشة، وقالت الصوفية العلية: فيتحقق مثل هذا المقام أن الصوفي قد يعرضه حالة الانقطاع من الخلق بالكلية وخلوص التوجه إلى الله سبحانه ويسمونها العروج والسير إلى الله أو السير في الله وقد يعترضه حالة التوجه إلى الخلق لأجل الإرشاد والدعوة إلى الله فيسرى نفسه في هذه الحالة في بادئ النظر منقطعاً عن الله متوجهاً إلى الخلق وهو في الحقيقة وعند التعمق غير منقطع كمال الانقطاع وأيضاً لما كان هذا الانقطاع مأموراً به مرضياً للمحبوب فهو في حكم الوصل والاتصال بل أولى منه ويسمونه بالنزول والبر من الله بالله فيغتم الصوفي في هذه الحالة غاية يكون في الشدة والبلاء مثله كمثل سمكة ألقيت من البحر إلى الصحراء وقد ذكر مراراً أن من كان نزوله أتم كان

(١) زواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: عظم قدره ﷺ (١٣٩٢١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا (٦٤٥٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

إرشاده أشمل وأعم قالوا: إن نوحاً ﷺ لم يبلغ في النزول غاية ولذلك ما آمن معه إلا قليل وهم أصحاب السفينة مع لبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وأن محمداً ﷺ كان نزوله أتم وأوفى ولم يبلغ تلك المنزلة أحد من الأنبياء، ولذلك شاع دينه في الورى مع لبثه فيهم ثلاثة وعشرين عاماً كما كان عروجه أعلى وأسنى فكان قاب قوسين أو أدنى قال الشيخ الأكبر أنكروا دعوة نوح بما كان من الفرقان وأجابوا دعوة محمد ﷺ بما كان من القرآن ولأجل كمال نزول كان رسول الله ﷺ دائم الهم واصل الحزن وهذا معنى قوله ﷺ: «ما أودى أحد مثل ما أوديت» رواه ابن عدي وابن عساكر عن جابر وأبو نعيم في الحلية عن أنس ولولا هذا التأويل فلا يظهر المعنى لهذا القول وقد أودى نوح ﷺ ألف سنة إلا خمسين عاماً وأودى عيسى حتى ارتقى إلى السماء ويحيى وغيرهم حتى قتلوا في البلاء فعمل نزول هاتين السورتين أعني والضحى والهم نشرح كان لتسليية النبي ﷺ في حالة النزول في بدء أمره حين رأى نفسه في بادىء النظر منقطعاً عن الله متوجهاً إلى الخلق ووافق ذلك فترة الوحي وحزن حزناً شديداً حتى قال في صحيح البخاري بلغنا أنه غدا مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبل وكلما أوفى بذروة الجبل لكي يلقي نفسه منه ينادي جبرائيل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه تقر نفسه وقالت خديجة إنى أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك وكان سؤال النبي ﷺ لسلب تلك الحالة الموجبة للانقطاع عن الخالق والتوبة إلى الخلق التي عمها وداعاً وقلياً وحزن عليها والوصل بلا انقطاع ولا حجاب دائماً فعلى هذا معنى قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (٣) أنه ليسى الفراق الذي اعترضك وداعاً وقلياً حتى تغتم به بل هو كمال عروج ووصل معنى وإن كان هبوطاً وفراقاً صورة ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ يعني كل حالة آخرة تأتي عليك خير من الحالة الأولى لا يتطرق في أحوالك قصور وفتور قط حتى تكون في الدار الآخرة رؤية ووصالاً بالكلية ولا يكون هاك تكليف التبليغ، والتوجه إلى الخلق ومشقة الفراق أصلاً ولسوف يعطيك ربك عاجلاً وأجلاً ما تحب وترضى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ (٤) ﴿وَوَجَدَكَ﴾ عطف على معنى ألم يجدك يتيماً فإن معناه وجدك فهو عطف الخبر على الخبر دون الإنشاء ﴿صَالًا﴾ عن معالم النبوة وأحكام الشريعة غافلاً عن كل ما لا طريق إلى دركه إلا السمع نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾ (١) وقوله: ﴿مَا كُنْتُ نَذْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ (٢) كذا قال الحسن والضحاك وابن كيسان وقيل: ووجدك ضالاً في شعاب مكة صبياً صغيراً حين فطمتك حليلة وجاءت بك لترد إلى جدك عبد

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

المطلب كذا روى أبو الضحى عن ابن عباس وقال السعيد بن المسيب خرج رسول الله ﷺ عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة فبينما هو راكب بذات ليلة ظلماء ناقة جاء إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق فجاء جبرائيل فنفخ إبليس نفخت وقع منها إلى ورده إلى القافلة، وقيل: وجدك ضالاً نفسك لا تدري من أنت وقال بعض الصوفية معناه وجدك محباً عاشقاً مفرطاً في الحب والعشق يكنى باتصال لاستلزام السكر غالباً والسكران يغالط الطريق غالباً وفي الحديث «حبك الشيء يعمي ويصم» فهي تسمية السبب باسم المسبب كما في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾^(١) يعني من مطر قال الله تعالى عن إخوة يوسف ﴿إِنَّا أَبْنَا لِي فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢) ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣) ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَلْهَى عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٤) ﴿فَهَدَى﴾ أي فهداك إلى معالم الدين أو إلى جدك عبد المطلب أو إلى القافلة أو عرفك نفسه وحالك ومن عرف نفسه فقد عرف ربه أو هداك إلى وصل محبوبك حتى كنت قاب قوسين أو أدنى ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيراً ﴿فَأَغْنَى﴾ أي أعطاك بمال خديجة أو بما حصل لك ربح في التجارة بالغنائم والمراد بالغناء على هذا التقدير دفع الحاجة وإن كان بالقليل لا بمالكية النصاب، وقال مقاتل يعني أغنى قلبك فأرخاك بما أعطاك من الرزق واختاره الفراء وقال «ولم يكن النبي ﷺ غنياً بكثرة المال والعرض «لكن الغنى غنى النفس»^(٥) متفق عليه، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً ففنع الله بما آتاه»^(٦) رواه مسلم ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ هذه الجملة وما بعدها إلى آخر السورة معترضات أوردت استطراداً بين قوله ألم يجدك إلى آخره ألم نشرح لك أو هي تذييل بما سبق ذكر اليتيم والعائل الفقير السائل غالباً واتصال السائل للإرشاد غالباً، وذكر نعمة الإيواء والهداية والغناء فصل ما أجمل ذكره بأما وأورد بالفاء للسببية في فأما اليتيم فلا تقهر لأن كونه ﷺ يتيماً، وقال الفراء والزجاج لا تقهر على ماله فتذهب بحقه

(١) سورة الجاثية، الآية: ٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٥.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٣٠.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الغنى غنى النفس (٦٤٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة (١٠٥٤).

بضعفه كما كانت العرب تفعل كذلك نهى لأمته وإن كان خطاب إليه بشرفه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا يشير بأصبعيه»^(١) رواه البغوي، وكذا روى البخاري في الأدب وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية «وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ» ﴿١١﴾ قال المفسرون السائل على البا لا تنهره وتزجره فقد كنت فقيراً عائلاً فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً ليناً برفق، وروى عن الحسن في قوله: «وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ» ﴿١١﴾ قال: طالب العلم إذا سأل عن مسألة فلا تنهره، وعن ابن مسعود: من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجام من نار وهذه الجملة على التأويل الثاني يتصل بقوله: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ» ﴿٧﴾ ويكون النشر على ترتيب اللف وأما على التأويل الأول فيتصل بقوله ووجدك عائلاً ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿١١﴾ يعني أشكر على ما أنعم ربك عليك وهذه الجملة على تقدير اللف والنشر المرتب متصل بقوله تعالى: ووجدك عائلاً فأغنى عن سنان بن سنية عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر»^(٢) رواه أحمد وابن ماجه والدارمي بإسناد صحيح، ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وعن أشعث بن قيس قال قال رسول الله ﷺ: «إن أشكر الناس لله أشكرهم للناس» وفي رواية «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» رواه أحمد ورواته ثقات، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال من صنع إليه معروف فليجز به فإن لم يجد ما يجز فليثن عليه فإنه إذا أثنى عليه فقد شكر وإن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبين من زور» رواه البغوي، وعن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير من لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة الله والفرقة عذاب الله» رواه البغوي هذه الأحاديث يقتضي شكر المشايخ والأساتذة وحسن الثناء عليهم ورضوان الله عليهم أجمعين، قال المجاهد المراد بالنعمة في الآية النبوة روى عنه بشير واختاره الزجاج والمعنى بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي أتاك، وقال الليث عن مجاهد يعني القرآن وهو قول الكلبي أمره أن يقرأه فعلى هذا هذه الآية متصل بقوله ووجدك ضالاً فهدى قال مقاتل: اشكرما ذكر في هذه الآية مما أنعمنا عليك من الإيواء والهداية والأغنياء

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: فضل من يعول يتيماً (٦٠٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرفائق والورع، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: البصيام،

باب: فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر (١٧٦٤).

والتحدث بنعمة الله شكر وهذا أظهر فإن النعمة المذكورة مطلق لا وجه للتخصيص والشكر على كل نعمة دينية كانت أو دنيوية واجب فعلى هذا هذه الآية متصل بالجمل الثالث المذكورات وقد ذكرك ما في هذه الآية من اختلاف القراءة في الإمالة والفتح في آخر سورة الليل.

مسألة: يجب الشكر على كل نعمة والشكر صرف النعمة في رضاء المنعم فشكر نعمة المال صرفها بالإخلاص في سبيل الحق وشكر نعمة البدن أداء الواجبات والاجتناب عن المعاصي وشكر نعمة العلم والعرفان التعليم والإرشاد.

مسألة: تحديث النعمة شكر ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(١) ونحو ذلك وقد ذكرنا في سورة البقرة ومن هذا القبيل ما قال الشيخ محي الدين عبد القادر رضي الله عنه وكلولي له قدم وإني على قدم النبي بدر الكمال: وقوله قديمي هذه على رقبة كل ولي لله ومنه ما ذكر المجدد مما أعطاه الله سبحانه مدارج القرب من الولايات الثلاث وكمالات النبوة والرسالة وأولي العزم أيضاً بالتبعية والوراثة وحقائق الأنبياء كذلك وغير ذلك وكونه مخلوقاً في طينة النبي ﷺ وكونه مجدداً وقيوماً فمن أنكر على ما هؤلاء الرجال في مثل هذه المقال فكأنه أنكر هذه الآية الكريمة من الله ذي الجلال غير أنه لا بد للتحديث بمثل هذه الأقوال تنزه القائل عن صفات النفس بالكلية فلا يجوز لكل أحد الأجتراء على مثل هذه الأقوال كيلا يتردى في ورطة ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَطَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٢).

فصل: قال البغوي السنة في قراءة أهل مكة أن يكبروا من أول السورة والضحى على رأس كل سورة حتى يختم القرآن فيقول الله أكبر قال البغوي كذلك قراءته على الإمام المقري أبي نصر محمد وذكر سلسلة إسناد قراءة أبي كثير، وقال ابن كثير إنه قرأ على مجاهد وهو على بن عباس وهو على بن كعب ثم ذكر سلسلة أخرى لإسناد قراءة أبي إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد قال: فلما بلغت والضحى قال لي كبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة فإننا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك وأخبره أنه قرأ على النبي ﷺ فأمره بذلك وكان سبب التكبير أن الوحي لما احتبس قال المشركون هجره شيطانه وودعه فاغتم النبي ﷺ لذلك فلما نزل والضحى كبر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي فأخذه سنة وما ذكره البغوي آخراً ذكره أبو عمر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٢٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

والداني في اميسير أولاً وما ذكره أولاً ذكره الداني آخراً فإنه قال: إن البزي روى عن ابن كثير بإسناده أنه كان يكبر آخر والضحي مع فراغته ومن كل سورة إلى آخر: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ يصل التكبير فإن كان آخر السورة متحركاً نحو إذا حسد والناس والأبتر وصل التكبير وأسقط همزة الوصل منه وإن كان ساكناً نحو فحدث وفارغب أو منوناً نحو توأباً ولخبير ومن مسد حرك الساكن نون التنوين بالكسر ووصل بالتكبير فإن شاء القارىء قطع عليه أي على التكبير وابتداء بالبسملة موصولة بأول السورة ولا يجوز القطع على بسملة إذا وصلت التكبير بها يعني إذا وصلت التكبير بآخر السورة فالاحتمالات أربعة القطع على التكبير والبسملة أو الوصل فيها أو القطع على الأول دون الثاني أو بالعكس فيجوز الثلاثة الأول ولا يجوز الرابع قال الداني وقد كان بعض أهل الأداء يقطع على أو آخر السورة ثم يبتدىء بالتكبير موصولاً بالبسملة، قال أبو عمرو كذلك روى النقاش عن أبي ربيعة عن البزي وبذلك قرأه على الفارسي عنه وهذا ما ذكره البغوي أولاً، قلت: وبكلا الوجهين قرأت على الشيخ المقري صالح المصري وهو على شيخ القراءة قدوة المتأخرين الشيخ عبد الخالق المتوفى وذكر الشيخ الصالح المصري وهو على شيخ القراءة قدوة المتأخرين الشيخ عبد الخالق المتوفى وذكر الشيخ الصالح المصري صفة التكبير على رواية البزي لا إله إلا الله والله أكبر فإن قرأ التكبير أول سورة والضحي لا يقرأ بعد سورة والناس ولا يقطع على التكبير بين السورتين موصولة للتكبير بالأولى منها فإن وصل التكبير بآخر السورة الأولى وجب الوصل بين التكبير والبسملة وأول السورة جميعاً وإن قطع التكبير عن آخر السورة فله الخيار في الوصل والقطع بين التكبير والبسملة وبين السورة والله تعالى أعلم.

سورة الشرح

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ هذه الجملة وما بعدها على ما روى البغوي عن ابن عباس متصل بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوِيًّا ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْنِي﴾ فإن صح تلك الرواية فذلك وإلا فالظاهر أن هذه السورة أيضاً نازلة في مثل تلك الحالة بعد سؤال من النبي ﷺ محققاً أو مقدراً ومعنى الآية على مثل ما سبق شرحنا لك صدرك حتى اتسع في صدرك من العلوم الحققة والمعارف الدينية المبصرة بنور الله تعالى ما لا سبيل إليها لعقل العقلاء واجمع فيه التوجه إلى الله تعالى والحضور التام مع التوجه إلى الخلق لأجل الدعوة في مرتبة النزول فليس لك في حالة النزول انقطاعاً عن الله تعالى في الحقيقة حتى تغتم به وشرح الصدر قد وقع للنبي ﷺ في مرتبة العيان مرتين مرة في صباه كما روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبرائيل وهو يلعب في الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ماء الزمزم ثم لأمه وأعادته في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه أي ظنوه فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس فكنت أرى أثر المخيط في صدره^(١). ومرة ثانية ليلة المعراج كما في الصحيحين عن أنس قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال ذكر أيضاً قصة المعراج وفيه «فنزل جبرائيل ففرج صدري ثم غسله بماء الزمزم ثم جاء

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦١).

بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه، وفي رواية في الصحيحين عن أنس عن مالك بن صعصعة أن نبي الله «حدثهم فشق ما بين هذه إلى هذه يعني من ثغرة نحره إلى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءاً إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد» «وفي رواية ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ إيماناً وحكمة» الحديث، قلت: والعلاقة التي أخرجت من قلب النبي ﷺ هي رذائل العناصر والنفس والقلب الداعية للنفس على كونها أمارة بالسوء وباعثة للجوارح على المعاصي ثم عطف على شرحنا لك صدرك المفهوم من ألم نشرح قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ (٢) الوزر في الأرض الجبل قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١) يعني جبل هناك يلتجئ إليه والمراد ما هنا الثقل على سبيل الاستعارة وذلك الثقل إما أن يراد به غم الفراق وتوهم الوداع الذي أحزن النبي ﷺ وأنفض ظهره فزال الله سبحانه ذلك الغم والحزن بإنزال الآيات من سورة الضحى وألم نشرح حتى سكن للنبي ﷺ جأشه واستقر نفسه وعلم أن ذلك الفراق ليس على سبيل الوداع والقليل بل لحكمة ومنفعة فعد الله سبحانه إزالة هذا النعم من النعم وإما أن يراد به ثقل التكاليف الشرعية من دعوة الحق وتبليغ الأحكام وإتيان ما أمر بالله به وانتهاء كل ما نهى فإن التكاليف الشرعية شاق إتيانها لم تر أن السماوات والأرض والجبال أبين أن يحملنها وأشققن منها، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٢) فلما شرح الله صدره ﷺ للإيمان والحكمة وأزال عنه حظ الشيطان ورذائل النفس التي جبلت عليها النفوس صارت التكاليف الشرعية له ﷺ طبيعة ومرغوبة ومحبوبة حتى قال عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» (٣) وهذه المرتبة التي عبر الله سبحانه عنها بوضع الوزر يسمونها الصوفية بالإيمان الحقيقي وهذا هو المعنى من قولهم بسقوط التكليف عن الصوفي وهذه المرتبة العليا أعني شرح الصدر ووضع الوزر حصلت للنبي ﷺ ظاهراً وعياناً كما روينا وتحصل لأولياء أمته بورائته باطناً بحيث يظهر في المثال وذلك بعد فناء النفس وزوال العين والأثر وهناك يحكم الصوفية العلية ويبشرون بشرح الصدر والإيمان الحقيقي كذا قال المجدد واستعدنا من المشايخ الكرام عليهم الرحمة والرضوان وما قال عبد الله بن يحيى وأبو عبيدة يعني حققنا عنك

(١) سورة القيامة، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

أعباء النبوة والقيام بأمرها يناسب التأويل الثاني مما قلنا وما ذكرنا من التأويلين أولى مما قيل: إن معناه خططنا عنك ما سلف منك في الجاهلية من الزلات لأن النبي ﷺ أرفع شأناً من أن يصدر عنه زلة وما قيل: المراد بالوزر ترك الأفضل مع إتيان الفاضل وغيرها من التكاليف ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أنقله فأوهنه حتى سمع له نقيض أي صوت مثل صوت الرجل عند ثقل الحمل صفة الوزر فإن كان المراد من الوزر رغم الفراق كما ذكرنا أولاً فلا حاجة إلى التكلف والتأويل إنه كان أنقض ظهره وإن كان المراد به كلفة التكليف كما ذكرنا ثانياً فمعناه لولا شرحنا صدرك ووضعنا وزرك أنقض كلفة التكليف ظهرك ولم تستطيع إذا ما وجب عليه حق أدائه قال رسول الله ﷺ: «لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا»^(١) يعني لولا فضل الله ولما كان كلفة التكليف موجباً لنقض الظهر في الدنيا مانعاً عن إتيان الواجبات أورد النقص بصيغة الماضي كما قيل مع كون النبي ﷺ معصوماً كان المناسب حينئذ إيراد صيغة المستقبل فإن المعاصي لا تنقض الظهر إلا في الآخرة حين يجازى عليها ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ روى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه سأل جبرائيل عن هذه الآية: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال الله تعالى: «إذا ذكرت ذكرت معي»^(٢) قلت: هذه الآية والحديث يقتضي أن الملائكة الأعلى إذا يذكرون الله تعالى يذكرون معه محمداً ﷺ وقد سبق أنه مكتوب على ساق العرش وقد مر في سورة البروج ما روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله الحديث، قال عطاء عن ابن عباس يريد الأذان والإقامة والتشهد والخطبة على المنابر ولو أن عبد الله صدقه في كل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله ﷺ لم ينفع بشيء وكان كافراً قال الحسان بن ثابت رضي الله عنه:

أغر عليه بالنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد
 وضم الإله اسم النبي باسمه إذا قال في الخمس الأذان أشهد
 فشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد
 وقيل: رفعه بأخذ ميثاقه على النبيين وألزمهم الإيمان به والإقرار بفضله ﴿فَإِنَّ مَعَ
 الْعُتْرَةِ﴾ الذي أنت فيه ﴿بِئْسَ﴾ عظيماً فإن تنكيره للتعظيم وهذه الجملة واقع موقع التعليل

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١٠٤).

(٢) رواه أبو يعلى وإسناده حسن.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: عظم قدره ﷺ (١٣٩٢٢).

المحذوف تقديره لاتحزن على ما أصابك من العسر فإن مع العسر يسراً ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قيل: التنكير لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء والصحيح أنه استئناف وعده بأن العسر مشفوع بيسر آخر لما روى عبد الرزاق في تفسيره والحاكم في المستدرک والبيهقي في شعب الإيمان مرسلًا أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أبشروا قد جاءكم اليسر إنه لن يغلب عسر يسرين» رواه ابن مردويه بإسناده ضعيف عن جابر وله شاهد موقوف على رواه مالك الموطأ والحاكم وقال: هذا أصح طرقه، وقال البغوي: قال ابن مسعود لو كان في حجر لطلبه اليسر حتى يدخله إنه لن يغلب عسر يسرين. قال أهل العربية: إن الكلمة إذا أعيدت معرفة فالثانية عين الأولى سواء كانت أولى معرفة أو نكرة لأن الأصل في اللام العهد وإذا أعيدت نكرة فالثانية غير الأولى سواء كانت أولى معرفة أو نكرة لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التكرير والتأكيد، قال في تنقيح الأصول: إن أقر بألف مقيداً بصك مرتين يجب الألف وإن أقر به منكرًا يجب ألفان عند أبي حنيفة رضي الله عنه إلا أن يتحد المجلس، قلت: معنى إذا قامت القرينة أن المراد بالثاني هو الأول. فإن قيل: هذا قول مدخول فيه فإنه إذا قال الرجل إن مع الفارس سيفاً أن مع الفارس سيفاً لا يوجب أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنان؟ قلنا: نعم إذا قامت القرينة أن الثانية هي الأولى يحمل على الاتحاد ومثال الفارس والسيف من هذا القبيل وأما الآية فإنه تصلح التأويلين لكن ما فسر به النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم هو التأويل الصحيح، وقال البغوي ما حاصله إن المراد بالآية أن مع العسر الواحد يسران لكن لا لتكرير النكرة بل لأجل أن قوله تعالى: ﴿مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ متصل بما سبق ليسليه ووعده النبي ﷺ خاصة باليسر والغنى في الدنيا عاجلاً بعد الفقر الذي كان فيه ثم أنجز ما وعد وفتح عليه القرى ووسع ذات يده حتى كان يعطي من الإبل ويهب الهبات المسنية وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿٤﴾ كلام مبتدأ يدل عليه بقرينة عن الفاء والواو وهذا وعد لجميع المؤمنين ومجازة أن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسر في الآخرة فصار للنبي ﷺ مع عسر واحد يسران يسر في الدين ويسر في الآخرة، وقوله «لن يغلب عسر يسرين» فإنه وإن غلب يسراً واحداً وهو اليسر في الدنيا فلن يغلب يسر الآخرة البتة وهو قوي أبدي، قال البغوي رضي الله عنه جعل اللام في العسر للعهد وفي الثاني للجنس والله تعالى أعلم فبعض المفسرين قالوا: المراد بالعسر الفقر والشدة والبلاد من المشركين الذين كان النبي ﷺ فيه واشتكى منه إلى ربه والمراد باليسر الأول زوال تلك الحالة بنصر الله تعالى والغنى بعد الفقر، وقال البيضاوي المراد بالعسر ضيق الصدر والوزر المتقضى للظهور وضلال القوم

وإذائهم وباليسر الأول شرح الصدر ووضع الوزر والتوفيق للاهتداء والطاعة وأما اليسر الثاني فالمراد به عند كلهم ثواب الآخرة قالوا معنى الكلام أن بعد العسر يسرا وإنما أورد مع موضع بعد مبالغة في معاقبة اليسر للعسر واتصاله به اتصال المتقاربين، وعندني المراد بالعسر التوج إلى الخلق في مقام النزول الموجب للحزن والغم والمراد باليسر الأول التوجه إلى الخالق في عين مقام النول فإن الصوفي في تلك الحالة وإن كان في بادي النظر معرضاً من الله تعالى متوجهاً إلى الخلق لكنه في الحقيقة ليس بمعرض عنه تعالى بل مقبل إليه أيضاً واتسع صدره للتوجهين جميعاً بل التوجه إلى الخلق لما كان بإذن الله وعلى حسب أمره ومرضاته فهو أيضاً في الحقيقة توجه إلى الله سبحانه ومن ثم سمي هذا ايسر السير من الله بالله فعلى هذا كلمة مع في قوله تعالى: فإن مع العسر يسرا بمعناه الحقيقي بمعنى المقارنة وأما كلمة مع في الجملة الثانية فلا شك أنه على المجاز كما قالوا ومعنى الكلام على هذا التأويل لا تحزن فإن مع العسر والتوجه إلى الخلق الموجب لحزنك سراً وتوجهاً إلى الخالق ليست محجوب عنه الآخرة وخلوص التوجه إلى الله تعالى في الآخرة من غير شائبة حجاب وغيبية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ قال المفسرون النصب التعب والمعنى فإذا فرغت من دعوة الخلق فانصب وأتعب بالعبادة شكراً لما عددنا عليك من النعم السابقة ووعدناك بالنعم الآتية أو المعنى إذا فرغت من عبادة فانصب في عبادة أخرى، ولا تجعل وقتاً من أوقاتك ضائعاً خالياً قال رسول الله ﷺ: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله فيها»^(١) وقال ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل والكلبي إذا فرغت من الصلاة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يعني قبل السلام بعد الشهد أو بعد السلام، وقال الشعبي إذا فرغت من التشهد فادع لندياك وأخرتك وقال ابن مسعود إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وقال الحسن وزيد بن أسلم إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك وهذا معنى قوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(٢) وقال منصور عن مجاهد إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربك وقال حبان عن الكلبي إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب أي استغفر لذنبك وللمؤمنين فوجه اتصال هذه الآية بما سبق أن عند النعماء سبب

(١) رواه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان وفي أحد رواه خلاف.

انظر: فيض القدير (٧٧٠١).

(٢) قال ابن حجر: هو من كلام إبراهيم بن عيلة، ورواه الخطيب في تاريخه، وقال العراقي: سنده

ضعيف. انظر: كشف الخفاء (١٣٦٢).

للشكر وأما على تأويلنا فمعنى الآية إذا فرغت من دعوة الخلق المقصود من النزول الأتم
 فانصب أي انتصب وارتفع إلى مدارج العروج ومقام الشهود في الصحاح: نصب الشيء
 وضعه وضعاً ثانياً كنصب الزرع والبناء والحجر، وفي القاموس نصب كفرج أعني وهم
 ناصب أي منصب ونصب الشيء وضعه ورفع ضد كنصبه فانصب وتنصب وناقاة نصاب
 مرتفعة الصدر وتنصب الغراب ارتفع فعلى هذا التأويل هذه الآية في مقام التسلية مرادف
 بقوله تعالى: إن مع العسر يسراً الآية ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ عطف تفسيري بقوله فانصب
 يعني أرغب بالسؤال إلى ربك ولا تسأل غيره، قال عطاء تضرع إليه راهباً من النار راغباً
 في الجنة وقيل: فارغب إليه في جميع أحوالك، قال الزجاج اجعل رغبتك إلى الله وحده
 والجار والمجرور متعلق بمحذوف دل عليه ما بعده يعني فانصب وأرغب إلى ربك
 فارغب، قلت: تكرار الأمر بالرغبة لأن الرغبة الأولى إلى آلاء الله وصفاته والثانية إلى
 ذاته المجردة الرفيعة عن الشيون والاعتبارات قراءة سورة ألم نشرح لك صدرك يؤيد في
 مقام النزول كما أن سبح اسم ربك الأعلى يؤيد في مقام العروج وقد ذكرنا هناك والله
 تعالى أعلم.

سورة التين

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ﴾ ١ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ٢ ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ٣ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ٥ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ٦ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ ٧ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ مِنَ الْهَٰكِمِينَ﴾ ٨

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ﴾ قال ابن عباس والمجاهد والحسن وإبراهيم وعطاء ومقاتل والكلبي تينكم الذي تأكلون وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت، قيل: خص التين بالقسم لأنه فاكهة مخلقة لا عجم لها شبيهة بفاكهة الجنة قيل في الحديث: «إنه يقطع البواسير وينفع من النقرس» رواه الثعلبي وأبو نعيم في الطب من حديث أبي ذر بإسناد مجهول والزيتون شجرة مباركة وهو ثمر دهن يصلح للاصطباج وقال عكرمة هما جبلان، وقال قتادة التين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وقال أبو محمد بن كعب التين مسجد أصحاب كهف والزيتون إيليا ﴿وَطُورِ﴾ يعني الجبل الذي الذي كلم الله تعالى موسى ﷺ بين مصر وأيلة ﴿سِينِينَ﴾ قال الضحاك هو لغة نبطية ومعناه الحسن، وقال مقاتل كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سنين وسينا بلغة نبط، وقال عكرمة اسم للمكان الذي به هذا الجبل وكذا سيناء، وقيل: سريانية معناه الملتف بالأشجار وقيل: لغة حبشية، وقال مجاهد معناه البركة أي جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن أي جبل حسن، وقال الكلبي معناه الشجر أي جبل ذو شجر وقيل: اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها بوجودها عنده ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أي ذا أمانة يحفظ من دخل فيه كما يحفظ أمين ما ائتمن عليه أو بمعنى فاعل أو مفعول يعني أمن من دخل فيه أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله والمراد به مكة يأمن الناس فيه في الجاهلية والإسلام أقسم الله سبحانه بهذه الأشياء لأن منبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومقر الأنبياء ومهبط ألوحي وطور المكان الذي نودي به موسى ومكة بيت الله الحرام ومولد النبي ﷺ ومهبط الوحي إليه جواب القسم

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي الجنس ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تفعيل من القيام والقوام، قال في الصحاح القيام والقوام اسم لما يقوم بالشيء أي تثبت، قلت وهو ما يتحقق به الشيء يعني أحسن حقيقته وماهيته وذلك لاستجماعه ما في عالم الكبير من لطائف عالم الأمر وعناصر عالم الخلق والنفس الناطقة المنشأة عن العناصر ولذلك الاستجماع يظهر فيه خصائص الكائنات كلها من الصفات الملكية والسبعية والبهيمية والشيطنانية ويتصف بالصفات الكاملة المنعكسة من الصفات الإلهية من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والمحبو التي سميت بناء العشق يتزين بنور العقل ويستعد للتجليات الظلية والصفاتية والذاتية ومن ثم أعطى خلعة الخلافة إني جاعل في الأرض خليفة، وقيل معنى أحسن تقويم أي أحسن صورة فإن التقويم مصدر بمعنى التعديل في القاموس قومته عدلته فهو قويم مستقيم والمصدر ها هنا بمعنى المفعول أو بمعنى الفعيل أي أحسن صورة ومعدل قويم وذلك لأن كل حيوان خلق مكباً على وجهه إلا الإنسان خلق مستقيم القائمة بأدى البشرية يتناول ما كونه بيده ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ﴾ أي صيرناه ﴿أَسْفَلَ سَفَلِينَ﴾ قال البغوي نكرة تعم الجنس يعني بمعونة المقام كما يقال كريم قائم ويؤيده ما في مصحف ابن مسعود أسفل سافلين وإن لم تعم فهو هُملة في قوة الجزئية فيجوز أن يكون بعض السافلين أسفل عنه ويوافق هذه الآية أعني خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين قوله ﷺ: «ما من مولد إلا يولد على الفطرة أو ينصرانه أو يمجسانه»^(١)

متفق عليه من حديث أبي هريرة، غير أن في الآية أسند الرد إلى الله تعالى نظراً إلى أنه خالق لأفعال العباد وفي الحديث إلى الأبوين، نظراً إلى الكسب ولعل المراد بالسافلين ما جعله الله سبحانه سافل الاستعداد بحيث لا يمكنه تحصيل كمال من الكمالات الإنسانية والصعود إلى مصاعد القرب والتجليات الرحمانية من السباع والبهائم والشياطين الأجنة وجمعه سالماً تغليياً للعقلاء منهم على غيرهم وهم الشياطين ومردة الجن فالإنسان لما ضيع استعداده وترك شكر المنعم وإتيان موجبات الفوز رضوان الله تعالى وأتى بموجبات سخطه من الكفر ومقتضيات جعل أخبث من كل خبيث وأحط مرتبة من كل دنىء وأسوأ حالاً وأبتر مالا من الكلاب والخنازير بل من الشياطين أيضاً لما ورد في حديث أنس قال «ويعرج له أي للكافر فرجة قبل الجنة فينظر إلى زمرتها وما فيها فيقال انظر إلى ما صرف الله عنك ثم يعرج له فرجة إلى النار» الحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (٤٧٧٥)، وأخرجه مسلم في

كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

ليفرح المؤمن كمال الفرح ويتحسر الكافر كمال الحسرة، وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ولا يدخل النار أحد إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة»^(١) وأما الشياطين فليس كذلك ولم يكن لهم مقعد في الجنة لعدم استعدادهم دخولها، وقال الحسن ومجاهد وقتادة معنى الآية ثم رددناه أسفل سافلين يعني إلى النار لأن جهنم بعضها أسفل من بعض وقال أبو العالية إلى النار في شر صورة في صورة خنزير ونحوه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء متصل من الإنسان لإخراجهم من حكم الرد فإنهم لا يرددون إلى النار ولا يصيرون إلى أخبث الأحوال ﴿فَلَهُمْ﴾ أي للمؤمنين الصالحين ﴿أَجْرٌ غَيْرٌ مَّمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع أو لا يمن به عليهم الفاء للسببية والجملة في مقام التعليل للاستثناء مقرر له، وقيل: معنى الآية خلقنا الإنسان في أحسن تقويم أي عدل صورة أو أقوم حالة بحيث تيسر له كل ما أراد به ويتسخير له الحيوانات كلها والبر والبحر بل الجن والشياطين أيضاً ثم رددناه في بعض الأفراد أي صيرناه بالهرم وأرذل العمر أسفل السافلين والسافلون هم الضعفاء والزمناء والأطفال فإن الشيخ الكبير إذا زال عقله وضعف بدنه وغلب عليه العوارض والأمراض يصير أضعف من الضعفاء فعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن للاستدراك ودفع توهم نشأ وهو أن المؤمنين أيضاً بعد الهرم وسوء الكبر يكونون أسوأ حالاً من الضعفاء ووجودهم في هذه الحالة وبال عليهم فقال الله لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قبل الهرم في حالة القوة والشباب فأجورهم غير مقطوعة لا يزال يكتب حسناتهم على حسب ما كانوا يعملون قال الضحاك أجراً بغير عمل. أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في هذه الآية قال: هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ فسأل حين أسفت عقولهم فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم قال البغوي قال عكرمة لا يضر هذا الشيخ كبره إذا ختم الله له بأحسن ما كان يعمل، وروى العاصم الأحول عن عكرمة عن ابن عباس قال: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال: إلا الذين قرؤوا القرآن لم يردوا إلى أرذل العمر، وقال جلال الدين المحلي رحمه الله إذا بلغ المؤمن من الكبر بالعجز عن العمل كتب له ما كان يعمل وروى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ابتلى المسلم ببلاء في جسده قال للملك كتب له صالح عمله الذي كان يعمل»

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة والتين (٣٣٤٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: مقدار الركوع والسجود (٨٨٥).

وعن عبد الله بن عمرو نحوه رواهما البغوي في شرح السنة وروى البخاري عن أبي موسى نحوه في المريض والمسافر فإن قيل: مقتضى البلاغة تأكيد الكلام على قدر إنكار المخاطب وكون الإنسان مخلوقاً على أحسن صورة ثم رده بالهرم إلى ضعف أمر بديهي لا ينكره أحد فكيف أورد الكلام بالقسم ولام التأكيد وكلمة قد على هذا التأويل؟ قلنا: لما كان تحول الأحوال على الإنسان دليلاً واضحاً على جواز الإعادة والجزاء والكفار كانوا ينكرون الإعادة والجزاء كأنهم أنكروا التحول لأنه من أنكر المدلول فكأنه أنكر الدليل الواضح لاستلزام أحدهما الآخر ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ﴾ (٧) المخاطب به الإنسان على سبيل الالتفات يعني بأي شيء يحملك أيها الإنسان على التكذيب بالجزاء عاد أي شيء جعلك كاذباً حيث تقول خلاف الحق أن لا بعث ولا جزاء بعد تلك الدلائل الواضحة من نفسك أن خلقك فقواك ثم ضعف فأماك قادر على إعادتك وجزاء أعمالك، والاستفهام للتوبيخ والإنكار يعني لا ينبغي لك التكذيب بالجزاء ضعفك أو المخاطب به النبي ﷺ وما للنفي وللاستفهام الإنكاري والمعنى لا شيء يكذبك أو فأى شيء يكذبك أي يدل على كذبك في قولك بالجزاء بالدلائل الواضحة على صدقك فنظير هذه الآية: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١)، وقيل ما بمعنى من والاستفهام للتعجب يعني من ينسبك إلى الكذب بعد تلك الشواهد على الصدق عجباً منه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخَائِفِينَ﴾ (٨) استفهام إنكار للنفي ونفي النفي إثبات فهو تحقيق وتقرير لما سبق والمعنى أليس الذي فعل ذلك من الخلق الرد بأحكم الحاكمين صنعاً وتديراً ومن كان كذلك كان قادراً على الإعادة والجزاء والجملة لتسلبية النبي ﷺ تكذيب الكفار إياه مكابرة وعناداً أو وعيد للكفار والمعنى أليس الله بأقصى القاضين فهو يحكم بينك وبين من كذبك يا محمد كذا قال مقاتل أو هي في مقام التعليل بقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ لا ينبغي لك أيها الإنسان التكذيب، قال الله أحكم الحاكمين عليك بالعذاب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالتين فانتهى إلى آخرها أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» (٢) رواه أبو داود وعن البراء أن رسول الله ﷺ: «كان من سفر فقرأ في العشاء في أحد الركعتين بالتين والزيتون» (٣) رواه البخاري، والله تعالى أعلم.

(١) سورة النمل، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الجهر في العشاء (٧٦٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: القراءة في العشاء (٤٦٤).

سورة العلق

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

روى البغوي بسنده عن عائشة قالت: أول سورة نزلت إقرأ باسم ربك وعليه أكثر المفسرين وأول ما نزل خمس الآيات من أولها إلى قوله تعالى: ما لم يعلم. عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حجب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو تعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ قال: فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر، وقال: لقد خشيت على نفسي فقالت: كلا والله ما يحزنك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسيد بن عبد العزى بن عم خديجة وكان أمراً تنصر بالجاهلية وكان يكتب الكتاب العبري فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم إسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس أنزل الله على موسى يا ليتني فيها

جدعاً يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك قال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا أودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي^(١) متفق عليه . وقيل: المدثر أول القرآن نزولاً وقد ذكرنا هناك، وقيل أول ما أنزل سورة الفاتحة لما روى البيهقي في الدلائل أن خديجة قالت لأبي بكر يا عتيق اذهب به إلى ورقة فأخذه أبو بكر فقص عليه ما رأى فقال: عليه ﷺ إذا خلوت وحدي سمعت نداء يقول يا محمد يا محمد فانطلق هارباً فقال لا تفعل إذا قال فاثبت حتى تسمع ثم انتهى فأخبرني فلما خلا فناده محمد فثبت فقال قل: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّخِيمِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ إلى آخرها، ثم قال: قل لا إله إلا الله الحديث، والصحيح هو الأول قال البغوي وهو الصواب الذي عليه جماهير الخلف والسلف وما قيل إنه أول ما أنزل فيها: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾﴾ فمحمول على أنه أول ما نزل بعد فترة الوحي وأول سورة نزلت بكاملها الفاتحة أو يقال أوليتها إضافية أول أكثر القرآن بعد اقرأ والمدثر . واختلفوا في مدة الخلو بغار حراء؟ وفي الصحيحين جاورت بحراء شهراً وهو شهر رمضان كما رواه ابن إسحاق في السيرة وأفاد الزرقاني أنه لم يصح أكثر منه وروى مسوار بن مصعب أربعون يوماً لكنه متروك الحديث قاله الحاكم وغيره ورجح بعد العلماء هذا قياماً على ميقات موسى ﷺ واستدلالاً بقوله ﷺ: «من أخلص لله أربعين يوماً ظهر ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه» رواه أبو نعيم في الحلية عن أيوب لكن الحديث ضعيف وكذا القياس لأن موسى كان ثلاثين ليلة فأتتها الله أربعين بعارضة قال الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾^(٢) واختلفوا في كيفية تعبدته؟ فقيل بشرع نوح وإبراهيم وعيسى وليس بشيء لكونه أمياً والصحيح أنه كان يتعبد بالانقطاع عن الخلق والنيل إلى الحق والتفكير، قال القسطلاني ولم تكن الرجفة المذكورة في الحديث خوفاً من جبرئيل ﷺ فإنه ﷺ أجل من ذلك وأثبت جناناً بل خشية أن يشتغل بغير الله عنه تعالى قيل: خاف من ثقل أعباء النبوة، وروى أبو نعيم أن جبرائيل وميكائيل شقا صدره هنا وغسلاه ثم قالوا: اقرأ باسم ربك الآيات .

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

مسألة:

وهذه القصة تدل على أن التسمية ليست جزء من كل سورة لكن روى بن جرير عن ابن عباس قال: أول ما نزل جبرائيل على محمد ﷺ قال: يا محمد استعذ قال: أستعيز بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال قال: بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، وهذه الرواية شاذة في مقابلة الصحاح.

فائدة: ومدة فترة الوحي ذكر السهيلي أن الفترة كانت سنتين ونصفاً ووقع في التاريخ الإمام أحمد عن الشعبي أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين فقرن نبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن نبوته جبرائيل فينزل عليه القرآن على لسانه عشرون سنة وقد ذكرنا حزن النبي ﷺ في أيام الفترة في سورة والضحي قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أمر بالقراءة والمفعول محذوف أي اقرأ القرآن مفتحاً أو متبركاً باسم ربك فهو منصوب على الحال يعني قل باسم الله ثم اقرأ القرآن، ويحتمل أن يكون باسم ربك في محل نصب على المفعولية والباء زائدة يعني اقرأ اسم ربك ولم يقل اسم الله لأن الله علم لذات الواجب ولا سبيل إلى معرفة الذات إلا بالتفكير في الآثار والصفات وأظهر الصفات بالنسبة إلينا صفة الخلق والتربية التي تنبه على التحول أحوال الممكنات الدال على حدوث العالم الموصل إلى العلم بالمحدث القديم المنزه عن شوائب النقص والزوال واحتمال التحول عن حال إلى حال وفيه إشارة إلى أن الصوفي يلتزم أولاً على ذكر الاسم لكي يهتدي به إلى المسمى لكن الصوفية اختاروا من الأسماء اسم الذات لأن سلوك الطريقة يكون بعد الإيمان المجازي بذات الواجب فالأول في حقه اسم الذات لاستجماعه في الدلالة على الصفات كلها ولو إجمالاً ولكونه أقرب من الذات والمقصود هو الذات، وقال الطيبي هذا أمر بإيجاد القراءة مطلقاً وهو لا يختص بمفرد دون مفرد فهو بمنزلة اللام والباء للاستعانة والجملة في جواب قوله ﷺ: ما أنا بقارىء والمعنى قارياً لا بقوتك ومعرفتك بل بإعانة ربك وقوته لفظة اسم على هذا مقحم كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ صفة موضحة للرب فإن الربوبية يقتضي الخلق والتربية من النقصان إلى الكمال وحذف مفعول خلق للدلالة على التعميم أي خلق كل شيء ومن جملة خلق القدرة على القراءة ونزل خلق منزلة اللازم يعني الذي له صفة الخلق والتكوين ولا يمكن اتصاف أحد غيره بتلك الصفة ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ الظاهر أنه جملة مستأنفة كأنه في جواب سؤال ما خلق وإنما خص الإنسان بالذكر بوجوه أحدها أنه أشمل المخلوقات أجزاء فإن كل ما هو في العالم

الكبير فهو ثابت فيه ولذا سمي عالماً صغيراً فالحكم بأنه خلق الإنسان حكم بخلق كل شيء من عوامل الخلق والأمر ثانيها أنه أشرف المخلوقات مستعد لتجليات الصفات والذات أولى بالمعرفة التي هي المقصود بخلق الكائنات قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) (١) أي ليعرفون وفي الحديث القدسي «لولاك لما خلقت الأفلاك» (٢) ولما أظهرت الربوبية خص النبي ﷺ وهنا بالذكر لكونه أكمل أفراد الناس معرفة وفي الحديث «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق» فخص الإنسان في هذه الآية بالذكر إظهاراً لشرفه وبياناً لأن المقصود بالخلق، وثالثها أنه هو المخاطب بالشرائع والمكلف بالتكليفات الشرعية أولاً وأنه أعرف بحاله من حال غيره فاستدلاله على الصانع بانقلابات أحواله أولى وأقرب لحصول المعرفة ويجوز أن يكون المحذوف من الجملة الأولى كاف الخطاب أي الذي خلقتك الجملة الثانية مستأنفة في جواب سؤال مقدر وهو من أي شيء خلقه، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ بلفظ الجنس لاشتراك أفراد الإنسان فيه اختصاص ما منه الخلق بالمخاطب ويحتمل أن يكون المفعول المحذوف من الجملة الأولى هو الإنسان والجملة الثانية تأكيد لها فسر بعد الإبهام تفخيماً لخلقه وليكون أوقع في النفس، ويحتمل أن يكون المراد بالإنسان هو النبي ﷺ خص بالذكر إظهاراً لشرفه ولأنه هو المخاطب به ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمع علقه أو رد صيغة جمع لأن الإنسان جنس في معنى الجمع ولعل العدول من قوله خلق الإنسان من نطفة أو من تراب لمراعاة الفواصل والإشارة إلى جميع أطوار خلقه حيث أشار إلى ما توسط منها فإن هذا خلقه من الطين ثم من الأغذية التي تصير بعد تحويلات منياً ثم تصير المنى علقه ثم العلقه مضغة ثم المضغة عظاماً ثم تكسير العظام لحماً ثم ينفخ فيه الروح فذكر المتوسط يشعر بما سبقه وما لحقه من الأطوار ﴿أَقْرَأُ﴾ تكرير للتأكيد وللمبالغة والأول مطلق والثاني للتبليغ أو في الصلاة وجاز أن يكون باسم ربك متعلقاً بهذا ويكون الأول نازلاً منزلة اللازم والثاني مستأنفة تقديره اقرأ أي صر قارئاً فكأنه قال ما اقرأ وكيف اقرأ فقال الله تعالى: اسم ربك اقرأ وباسم ربك اقرأ القرآن وعلى هذا يحتمل أن يكون ما في قوله ﷺ أنا بقارىء في جواب قول جبرائيل اقرأ استفهامية والباء في الخبر زائدة على لغة أهل مصر، ويمكن أن يقال ما في المرتبة الأولى نافية وبعد ما غطه جبرائيل كانت استفهامية

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) قال الصنعاني: موضوع، وأقول لكن معناه صحيح وإن لم يكن حديثاً. انظر كشف الخفاء (٢١٢٣).

﴿وَرَبُّكَ﴾ مبتدأ والواو للحال ﴿الْأَكْرَمُ﴾ صفة للمبتدأ أو خبر له الزائد في الكرم على كل كريم فرض وجوده حيث ينعم بلا غرض ما لا يمكن إحصاءه كما وكيفاً ومورداً وبحلم عن جهل العباد فيما أن يعفو أو لا يعجل في العقوبة مع العلم وكمال القدرة على الانتقام فوراً فالأفضلية على سبيل الفرض ولو كان المفروض محالاً أو في الحقيقة هو الكريم وحده لا شريك له في الذات ولا في صفة من الصفات ولذا قالوا: أفعل وفعل في صفات الله تعالى بمعنى واحد فإطلاق لفظ الكريم أو الرحيم أو السميع أو البصير ونحو ذلك على غيره تعالى كأنه بالمجاز لكونه مرأة لصفة كرمه ورحمته وغير ذلك ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ قيل: بالقلم متعلق بمفعول محذوف بعلم تقديره علم الخط بالقلم ليفيد به العلوم والكتب المنزلة فيبقى بعد مضي الدهور ويعلم به البعيد وإنما خص علم الخط أولاً بذكر إظهاراً لشرفه فإن الغرض من التعلم الحفظ وتبقية العلوم وحفظها غالباً لكتابة عادة، قيل أول من خط إدريس عليه السلام، قلت: والظاهر أن قوله بالقلم متعلق بعلم معنى العلوم بتوسط القلم وإنما قدمه في الذكر لكون التعليم بالقلم أسبق التعليمات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما خلق الله القلم»^(١) الحديث وقد مر في سورة ن والقلم والموصول مع الصلة خبر للمبتدأ، أولاً أو بعد خبر أو صفة بعد صفة كاشفة للتكريم فإن من كمال كرمه تعليم العلوم وتعليم ما يفيد به العلوم ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بخلق العقل والقوى ونصب الدلائل والوحي والإلهام وخلق العلم الضروري في الأذهان وإنزال الكتب وإرسال الرسل وتواتر الأخبار وغير ذلك هذه الجملة خبر للمبتدأ إن كان ما سبق صفات وبدل اشتمال من علم بالقلم إن كان الموصول خبر المبتدأ تقييد العلم أولاً بالقلم مع حذف المفعول الأول على التعميم وعدم تقييده به ثانياً مع تقييده بالإنسان دليل على أن علوم العالمين بعض علم الإنسان وأخص ولو من وجه فإن علوم الملائكة مثلاً بتوسط القلم وقد أحاط بها اللوح المحفوظ الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ولا رطب ولا يابس إلا فيه، وأما علم الإنسان فمنها ما هو في اللوح مكتوب بالقلم ومنها ما لا يحيط به الكتاب ولا يتصد به القلم يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٢) الآية وذلك لأن العلم بكنه ذات الله تعالى ليس من قبيل العلم الحسولي حتى يتسعه اللوح ويكتبه القلم بل هو من قبيل العلم الحضورى بل وراء العالمين يحصل للإنسان بعد ماهية الله تعالى ذاتاً موهوماً ومن ها هنا قائل فإن من جودك الدنيا وخرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر (٢١٥٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.

وجملة وربك الأكرم حال من فاعل اقرأ فإنه لما قيل للنبي ﷺ اقرأ فقال ما أنا بقارىء
 قيل له اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان يعني آدم ﷺ أو جنس الإنسان
 الشامل لجميع الأنبياء ما لم يعلم فيعلمك القرآن وإن لم يكن قارئاً، ويحتمل أن يكون
 المراد بالإنسان محمد ﷺ فلعله قال النبي ﷺ ما أنا بقارىء فأخذه جبرائيل فغطه ثلاثاً
 حتى بلغ منه الجهد وأفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى فالله سبحانه علم نبيه ﷺ بتلك
 اللفظات الثلاث علوم الأولين والآخرين ثم عد نعمة عليه فقال علم الإنسان ما لم يعلم
 وقال في موضع آخر ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾^(١) فإن قيل: أي فائدة في إيراد قوله ما
 لم يعلم مع أن التعليم لا يتصور إلا فيما لا يعلم؟ قلنا: فائدته التصريح بعجز الإنسان
 التعرف بجعله من قبل العلم ويشكر على تلك النعمة العظمى وذكر في مواهب اللدنية
 روي أن جبرائيل بدا له ﷺ في أحسن صورة وأطيب رائحة فقال: يا محمد إن الله يقرئك
 السلام ويقول لك: أنت رسول إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ثم ضرب
 برجله الأرض فنبعث عين ماء فتوضأ منها جبرائيل ثم أمره أن يتوضأ وقام جبرائيل يصلي
 وأمره أن يصلي معه فعلمه الوضوء والصلاة ثم عرج إلى السماء ورجع رسول الله ﷺ لا
 يمر بحجر ولا مدر ولا شجر وهو يقول السلام عليكم يا رسول الله حتى أتى خديجة
 فأخبرها فغشي عليها من الفرح، ثم أمرها فتوضأ وصلى بها كما صلى له جبرائيل فكان
 ذلك أول فرضها ركعتين ثم إن الله أمرها في السفر كذلك وأتمها في الحضر، وقال ابن
 حجر في فتح الباري كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً وكذلك أصحابه ولكن اختلف هل
 فرض قبل الخمس شيء من الصلاة؟ فقيل إن الفرض كان صلاة قبل طلوع الشمس
 وغروبها انتهى وقال أول ما وجب الإنذار والدعاء إلى التوحيد ثم فرض من قيام الليل ما
 ذكره في أول سورة المزمل ثم نسخه بما في آخرها ثم نسخه بإيجاب الصلاة الخمس ليلة
 الإسراء بمكة وأما ذكره في هذه الروية من أن جبرائيل علمه الوضوء وأمره فيدل على
 فرضية الوضوء قبل الإسراء والله تعالى أعلم، وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال
 أبو جهل هل يعقر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل نعم فقال: واللوات والعزى لئن رأيت
 يفعل لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب فأنزل الله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلْ ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٣﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَدْعُو ﴿٤﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٥﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْمَذْخَمَةِ ﴿٦﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ﴿٧﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٨﴾

(١) سورة النساء، الآية: ١١٣.

﴿١٣﴾ أَلَمْ يَلْمَ أَنْ اللَّهُ بَرِيءٌ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَنْ نَسْتَعْتِبَ وَالنَّاصِيَةَ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِبَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَنْعُ
نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَعُ الزَّيَّاتِ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نَطَعُهُ وَأَسْجُدْ وَأَقْرَبُ ﴿١٩﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع لمن كفر بالله لطغيانه ونهى عن الصلاة وإن لم يذكر في الكلام لدلالة الكلام أو الحال عليه أو هي بمعنى حقاً تحقيقاً لما بعده ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أطلق لفظ الجنس باعتبار بعض أفراده يعني أبا جهل ﴿لِيَطْفَى﴾ ليجاوز حده في الكفر والتكبر على ربه ﴿أَنْ زَاهُ﴾ قرأ قبل بقصر الهمزة والباقون بالذ ﴿اسْتَعْتَبَ﴾ إن رأى نفسه منصوب على العلية أو على الظرفة بتقدير المضاف أي لأن رأى أو وقت أن رأى نفسه غيناً استغنى مفعول ثانٍ للروية فإنها من أفعال القلوب ولو كان بمعنى الإبصار لامتنع كون الشيء الواحد مرجعاً للضميرين المرفوع والمنصوب، كان أبو جهل إذا أصاب ما لا ارتفع في طعامه وثيابه ومركبه ﴿إِنَّ إِيَّاكَ أَرْحَمَ﴾ الرجوع مصدر كالبشرى اسم أن والظرف خبره والجملة مستأنفة للتهديد والتحذير كأنه في جواب ما عاقبة الطاغي والخطاب للإنسان على سبيل الالتفات أي رجوعك إلى ربك فيجازيك على طغيانك، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ فجاءه أبو جهل فنهاه فأنزل الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ إلى قوله: ﴿كَذِبَةٍ خَاطِبَةٍ﴾ قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمد استفهام عن الروية للتقرير فهو بمعنى قد رأيت فأقر به أو يقال الغرض من الاستفهام الروية أن يخبر المخاطب عما رأى فحاصل المعنى أخبرني ويستعمل في مقام التعجب والروية من الأفعال القلوب يتعدى إلى المفعولين وهما مبتدأ أو خبر في المعنى والغرض ها هنا تقرير نسبة بينهما والاستخبار عنها ﴿الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ الظرف متعلق بينه والمراد بالموصول أبو جهل وبالعبد محمد ﷺ على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أورد الله سبحانه لفظ العبد موقع كاف الخطاب للدلالة على كمال عبوديته وكونه على الحق المبين فإن المقتضى العبودية العبادة وعلى كمال طغيان الناهي وتقيحه والموصول مع الصلة أحد مفعولي رأيت ومفعول الثاني محذوف في حكم المذكور حملاً على ذكره في قوله تعالى: ﴿لِيَطْفَى﴾ تقديره رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى كيف يطغى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ﴾ العبد ﴿عَلَى الْهَدَى﴾ حين يصلي ﴿أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى﴾ حين يدعون الناس إلى التوحيد والصلاة، والظاهر النهي كان عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى معاً فاقصر في الجملة الأولى على أحدهما اكتفاء بذكرهما في الثانية ولأنه دعوة بالفعل ولأن نهى العبد إذا صلى يحتمل يكون لها ولغيرها وعامة أحواله محصورة في تكميل نفسه بالعبادة وتكميل غيره بالدعوة وهذا شرط حذف جزاءه بدلالة السياق وهو كيف ينهاه أو فيهلك الناهي ويفوز العبد والشرطية قائم مقام مفعولين لرأيت

وكذا في قوله تعالى: ﴿أَزَّيَّتْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَذَّبَ﴾ الناهي ما هو الحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الإيمان كيف ينجو من عذاب الله بل يهلك والدليل على المحذوف في الجملتين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْمَ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ والوعيد فإن إنكار النفي إثبات تقديره وقد علم ﴿يَأْنَّ اللَّهُ يَرَى﴾ متعلق بـ يعلم قائم مقام مفعوليه، ويرى بمعنى يعلم حذف مفعولية بدلالة ما سبق أي يرى الله الناهي ناهياً عن الهدى الأمر بالتقوى مكذباً بالحق متولياً عن الإيمان والعبد على الهدى والأمر بالتقوى، وعلم الله يستلزم الجزاء على حسب ما علم فأطلق الرؤية وأريد به الجزاء تسمية اللازم باسم الملزوم فتقدير الكلام وقد علم الناهي أن الله يجزي كلا من الناهي والعبد المصلي على حسب ما علم فهذه جمل أربع، وقال صاحب البحر الموج مثل ما قلت غير أنه قال ألم يعلم جزاء الشرطية الثانية وجزاء الشرطية أولى محذوف يقدر مثل الثانية تقديره رأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى، وقيل: الخطاب في رأيت الأولى والثالثة إلى النبي ﷺ وفي الثانية إلى الكافر تقديره رأيت يا محمد الذي ينهى إذا صليت غطى رأيت يا أبا جهل إن كان محمد على الهدى أو أمر بالتقوى كيف نهاه رأيت يا محمد إن كذب أبو جهل وتولى فكيف ينجو ألم يعلم بأن الله يرى كما أن الحاكم بين الخصمين يخاطب تارة هذا وتارة ذاك، وقال الشيخ الجلال الدين المحلي معناه وعجب منه يا مخاطب من حيث نهيته عن الصلاة ومن حيث أن النهي على الهدى أمر بالتقوى ومن حيث أن الناهي مكذب متول عن الإيمان فعلى هذا أيضاً الجمل أربع وقيل: معناه رأيت يا محمد الذي ينهى عبداً إذا صلى كيف صدناه عنك رأيت يا محمد إن كان أبو جهل على الهدى أو أمر بالتقوى لكان خيراً له رأيت يا محمد إن كذب أبو جهل وتولى لأعذبه ألم يعلم بأن الله يرى فيجازى على حسب ما عمل وكرر لفظ رأيت ثلاثاً ولم يكتف على الأول ولم يعطف الشرطيتين على الذي ينهى لغاية التعجب، وقال البيضاوي الذي ينهى أول مفعولي رأيت والشرطيتين مفعوله الثاني على التوزيع وجزاء الشرطية الثانية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْمَ يَأْنَّ اللَّهُ يَرَى﴾ وجزاء الأولى محذوف اكتفاء بذكره في الثانية وكلمة رأيت في الأخيرين لتكرير الأولى غير عاملة في ما بعدها والمعنى أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلواته إن كان ذلك الناهي على الهدى فيما ينهى عنه أو أمر بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد أو أن كان على التكذيب بالحق والتولي عن الصواب كما تقول ألم يعلم ذلك الناهي بأن الله يرى ويطلع على أحواله من هده وضلاله فالكل على هذا جملة واحدة، قال البغوي تقدير النظم رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى أمر بالتقوى الناهي مكذب متولي

عن الإيمان فما أعجب من هذا فالشرطتين في محل نصب على الحالية أولى عن مفعول ينهى والثانية عن فاعله وألم يعلم جملة مستأنفة للوعيد وضمير الفاعل راجع إلى الذي ينهى ﴿كَلَّا﴾ ردع للنهائي الذي كذب وتولى ﴿إِن لَّرَبَّنَا﴾ الذي ينهى عما هو فيه من النهي عن المعروف وتكذيب الحق والتولي عن الإيمان ﴿لَنَسْفَعًا﴾ جواب للقسم لفظاً وللشرط معنى، ويكتب النون الخفيفة كتنون المنصوب على صورة الألف والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدة أي لنا جذبة فلنجدبته إلى النار ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ وهي مقدم الرأس أي ناصية والاكتفاء باللام عن الإضافة للعلم بأن المراد ناصية المذكور ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ وصف الناصية بالكذب والخطأ وهما لصاحبها على الإسناد المجازي للمبالغة وناصية بدل من الناصية وإنما جاز لوصفها وجملة لئن لم ينته مستأنفة كأنها من جواب ما يفعل الله بالطاغي أخرج الترمذي وصححه وابن جرير عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنك عن هذا؟ فزجره النبي ﷺ فقال أبو جهل إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني ذكر البغوي بلفظ أشهره رسول الله ﷺ فقال أبو جهل أشهرني فوالله لأملأن عليك هذا الوادي خيلاً جرداً ورجالاً مرداً فأنزل الله تعالى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١) النادي المكان الذي يجتمع فيه القوم والمراد أهل النادي أي قومه وعشيرته بحذف المضاف في اللفظ أو بالمجاز بالإسناد ﴿سَنَعُ الزَّيْبَةِ﴾ قال ابن عباس يريد زبانية جهنم قال الزجاج هم الملائكة الغلاظ الشداد والزبانية جمع أو زبينة كعفرية وفي الأصل الشرط مأخوذ من الزبن بمعنى الدفع قال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله عياناً وذكر المحلي هذا الحديث مرفوعاً ﴿كَلَّا﴾ أي حقاً ما ذكر من السفع بالناصية ودعاء الزبانية إن دعانا به أو المعنى لا يستطيع أن يدعونا به ﴿لَا تُطْعَمُهُ﴾ في ترك الصلاة جملة مستأنفة كأنه في جواب إذا أصنع حين ينهى، ﴿وَأَسْجُدْ﴾ عطف على لا تطعه لفظاً وتأکید معنى ﴿وَأَقْرَبْ﴾ من الله بالصلاة روى أبو داود وغيره عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء» (٢) أمال حمزة والكسائي أو آخر هذه السورة من قوله عز وجل ليطغى إلى قوله بأن الله يرى وأمالي أبو عمرو يرى وحده وما عداه بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون بالفتح وقد ذكرنا بحث سجدة التلاوة في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة اقرأ باسم ربك (٣٣٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: التطبيق، باب: أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل (١١٣١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٣).

سورة انشقت فعند أب حنيفة رضي الله عنه اسجد أمر بسجدة التلاوة بدلالة فعله عليه الصلاة والسلام «أنه صلى الله عليه وسلم سجد في إذا السماء انشقت وقرأ»^(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة والجمهور على أنه أمر بالصلاة تسمية الكل باسم الجزء فإنه معطوف على لا تطعه عطفاً تفسيرياً بسنية السجود واقتداء بفعله صلى الله عليه وسلم وذا لا يقضتي الوجوب، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (٥٧٨).

سورة القدر

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم أرى بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ وملكها بني أمية، قال القاسم بن الفضل الهمداني فعددنا فإذا هي ألف شهر لا يزيد ولا ينقص^(١) قال الترمذي غريب وقال المزني وابن كثير منكر جداً، وأخرج ابن أبي حاتم والواحدي عن المجاهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس من السلاح في سبيل الله ألف شهر فحجب المسلمون من ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله فيها، وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجلاً يقوم حتى يصبح ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي فعمل ذلك ألف شهر فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ عملها ذلك الرجل، وروى مالك في الموطأ أنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاصر في أعمار أمته لا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر، قلت: هذا مرسل لكنه أصح ما ورد في الباب وهذا يدل على أن ليلة القدر من خصائص هذه الأمة وبه جزم بن حبيب من المالكية ونقله عن الجمهور صاحب العدة من الشافعية

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة القدر (٣٣٥٠).

ويرد عليه حديث أبي ذر عند النسائي حيث قال: قلت: يا رسول الله أكون مع الأنبياء فإذا ماتوا رفعت؟ قال: بل هي باقية. ورجح الحافظ ابن حجر كونها في الأمم الماضية، وقال ما رواه المالك بلاغاً يحتمل التأويل فلا يدفع الصريح، قلت: ما رواه مالك أصرح في الدلالة من المرفوع في حديث أبي ذر فإن لفظ المرفوع بل هي باقية يحتمل أن يكون معناه بل هي باقية بعد نبينا ﷺ لكن حديث أبي ذر يدفع قول من قال إنها لم تكن إلا في سنة واحدة في حضور النبي ﷺ وما قيل إنها رفعت بعده ﷺ وكذا يدل على تأييده ما روي عن أبي هريرة قيل: زعموا أن ليلة القدر رفعت قال كذب من قال ذلك رواه عبد الرزاق قال الراوي قلت: هي في كل شهر رمضان استقبله قال: نعم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن كناية عن غير مذكور تفخيماً وشهادة له بالعظمة المغنية عن تصريح في انتقال الذهن إليه كما عظمه بأن أسند إنزاله إلى نفسه وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي لزيادة التأكيد والتقوى أو للتخصيص ثم عظمه باعتبار وقت نزوله فقال: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يقدر الله تعالى فيها أمر السنة في عباده وبلاده إلى السنة المستقبلة، قيل: للحسين بن الفضل أليس قد قدر الله تعالى المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: نعم قيل: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر يعني إطلاع الملائكة الموكلة على الأمور في تلك الليلة على ما قدر الله أمر السنة في عباده وبلاده إلى السنة المقبلة، وقال عكرمة تقدير المقادير وإبرام الأمور في ليلة النصف من الشعبان فيها ينسخ الأحياء من الأموات فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم ويؤيده ما رواه البغوي أن رسول الله ﷺ: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له ولقد خرج اسمه في الموتى» قلت: لعل تقدير المقادير بنحو من الإنجاء أو بعضها في ليلة النصف من شعبان وتقديرها كلها وتسليمها إلى أربابها إنما هو في ليلة القدر قال الله تعالى: ﴿وَبِهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(١) قال ابن عباس يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحاج يقال يحج فلان وفلان، وروى أبو الضحى عن ابن عباس أن الله يقضي الأفضية ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر كذا ذكر البغوي، وقال الزهري سميت بها للعظمة والشرف قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرِهِ﴾^(٢) أي ما عظموه وقيل: لأن العمل الصالح فيه يكون ذا قدر عند الله وأجر جليل ومعنى نزول القرآن في

(١) سورة الدخان الآية: ٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

ليلة القدر على ما روى مفهم عن ابن عباس أنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم نزل به جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ نجوماً نجوماً في عشرين سنة فذلك قوله: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾^(١) وروي عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث مضيئ من رمضان ويروى في أول ليلة من رمضان وأنزلت توراة موسى في ست ليال مضيئ من رمضان وإنزال الإنجيل في ثلاث عشرة مضت من رمضان وأنزل زبور داود في ثمان عشرة ليلة من رمضان وإنزال القرآن على النبي ﷺ في أربعة وعشرين لست بقين بعدها» وأخرج أحمد والطبراني من حديث وائلة بن الأسقع «نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزل التوراة لست مضيئ والإنجيل لثلاث عشرة والقرآن لأربع وعشرين»^(٢) وبناء على تلك الأحاديث قال بعض العلماء إن ليلة القدر ليلة أربع وعشرين من رمضان وروي هذا القول عن ابن مسعود والشعبي والحسن وقتادة ويؤيد قولهم ما روى أحمد عن بلال مرفوعاً التمسوا ليلة القدر ليلة أربع وعشرين وفيه ابن لهيعة قال الحافظ ابن حجر أخطأ ابن لهيعة في رفعه، قلت: وتلك الأحاديث لو صحت لا تدل على أن يكون ليلة القدر في كل عام ليلة أربع وعشرين بل كونها كذلك سنة نزول القرآن إلى بيت العزة أو في سنة حكى عنه بلال.

فائدة: اختلف العلماء في تعيين ليلة القدر على نحو من أربعين قولاً والصحيح أنها ليلة منتقلة في العشر الأواخر من كل رمضان جمعاً بين الأحاديث الصحاح وإعراضاً عما يخالفها منها حديث سلمان الفارسي قال خطب رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر مبارك شهر فيه ليلة خير من ألف شهر»^(٣) وقد مر هذا الحديث في سورة البقرة وفضائل رمضان وهذا الحديث يدفع ما قيل أنها يكون في رمضان وغيره كذا ذكر قاضيخان مذهب أبي حنيفة لا يقال لعلها كانت في سنة نزول

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧٥.

(٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عمران بن داود القطان ضعفه يحيى ووثقه ابن حبان وبقية رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد في كتاب: العلم، باب: التاريخ (٩٥٩).

(٣) رواه ابن خزيمة والبيهقي في شعب الإيمان والأصبهاني في الترغيب، قال الحافظ ابن حجر، مداره على علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

انظر: كنز العمال (٢٣٧١٤).

القرآن أو عما حكى عنه سلمان خاصة في رمضان، فلا يدفع بهذا الحديث ولا بالآية لأننا نقول ورد في حديث سليمان نعوت شهر رمضان مطلقاً حيث قال: «جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوع ومن توطع فيه كان كمن أدى فريضة في غيره ومن أدى فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة وإنه شهر الصبر وشهر المواساة» وغير ذلك وليس شيء من تلك النعوت مختصاً برمضان تلك السنة فكذا هذا أو منها حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره»^(١) رواه مسلم، وقالت «كان إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»^(٢) متفق عليه وقالت: «كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه بعده» متفق عليه وقالت: «كان يجاور العشر الأواخر من رمضان ويقول: تحروا الليلة القدرية في العشر الأواخر من رمضان» رواه البخاري، ومنها حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية ثم أطلع رأسه فقال إني أعتكف العشر الأول التمس هذه الليلة ثم اعتكف العشر الأوسط ثم أتيت فقيل لي إنها في العشر الأواخر فمن اعتكف معي فليعتكف العشر الأوامر فإني أريت هذه الليلة ثم أتيتها وقد رأيتني أسجد في الماء والطين من صبيحتها فالتمسوها في كل وتر قال: فمطر السماء تلك الليلة وكان المسجد على عريش فوكف المسجد فيضرب عيني رسول الله ﷺ وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين»^(٣) متفق عليه في المعنى، وروى مسلم من حديث أبي سعيد قال اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأوسط من رمضان يلتمس ليلة القدر فلما انقضى أمر بالبناء فوقف ثم أنسيت وإنها في العشر الأواخر فأمر بالبناء فأعيد، ثم خرج على الناس فقال: «يا أيها الناس إنها كانت أريت لي ليلة القدر وإني خرجت لأخبركم فجاء رجلان معهما شيطان فنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان والتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة» قال: قلت: يا أبا سعيد إنكم أعلم بالعدد منا، قال: أجل نحن أحق بذلك منكم قال: التاسعة والسابعة والخامسة قال: إذا مضت واحدة وعشرون فالتى تليها

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الاعتكاف، باب: الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضل ليلة القدر، باب: العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الاعتكاف، باب: الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان (١١٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الاعتكاف، باب: من خرج من اعتكافه عند الصبح (٢٠٤٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الاعتكاف، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٨).

اثنتان وعشرون فهي التاسعة وإذا مضى ثلاث وعشرون فالتى تليها السابعة وإذا مضى خمس وعشرون فالتى تليها الخامسة وروى الطيالسي عن أبي سعيد مرفوعاً ليلة القدر «ليلة أربع وعشرين» ومنها حديث عبد الله بن أنيس مرفوعاً «أريت ليلة القدر ثم أنسيتها وأراني صبيحتها أسجد في الماء والطين قال فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله ﷺ يعني الفجر فانصرف وأثر الماء والطين على جبهته وأنفه»^(١) رواه مسلم وأبو داود عنه قال: قلت: يا رسول الله إن لي بادية أكون فيها فمرني بليلة أنزل فقال: إنزل ليلة ثلاث وعشرين وفي رواية عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر صبيحة إحدى وعشرين فقال: كم الليلة؟ قلت: ليل اثنتين وعشرين قال: هي الليلة أو القابلة» ومنها حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان متحرياً فليتحرها ليلة سبع وعشرين» رواه أحمد وابن المنذر معناه وحديث جابر بن سمرة نحوه أخرجه الطبراني، وحديث معاوية بن أبي سفيان عن النبي ﷺ في ليلة القدر قال: «ليلة الدرة سبع وعشرين» رواه أبو داود، بأحاديث ليلة سبع وعشرين أخذ أحمد وهي رواية عن أبي حنيفة وبه جزم أبي بن كعب وحلف عليه فقيل لأبي بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالعلامة التي أخبرنا رسول الله ﷺ: «إنها يعني الشمس تطلع يومئذ لاشعاع لها»^(٢) رواه مسلم وروى هذا القول ابن أبي شيبة عن عمر وحذيفة وأناس من الصحابة ويستدل بهذه المقالة بما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: تذاكرنا ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ «يذكركم حين طلع القمر كأنه شق جفنه» قال أبو الحسن الفارسي: أي ليلة سبع وعشرين فإن القمر يطلع فيها بتلك الصفة قال المراد به كما وقته وذا بالسابع والعشرين، وهذا الاستدلال ضعيف لأن الظاهر من الحديث أنه كما أن الشمس من صبيحتها تطلع بلا شعاع كذلك القمر في تلك الليلة يطلع بلا شعاع لا لأجل كمال وقته بل لمعنى آخر فهذه الأحاديث لا تدل إلا على كون ليلة القدر تارة ليلة سبع وعشرين لا على أنها لا تكون إلا تلك الليلة ومنها حديث ابن عمر رأى رجل ليلة القدر ليلة السابعة وعشرين فقال النبي ﷺ «أرى رؤياكم في العشرة الأواخر فاطلبوها في الوتر فيها» رواه مسلم، ومنها حديث ابن عمر مرفوعاً «فليتحرها ليلة السابعة» رواه عبد الرزاق وروى أحمد عن ابن عباس نحوه يعني السابعة بعد العشرين أو لسابعة من الليالي الباقية ومنها حديث النعمان بن بشير مرفوعاً سابعة تمضي أو سابعة تبقى رواه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً هي

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: فيمن قال ليلة إحدى وعشرين (١٣٨١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٢).

في العشرة الأواخر في تسع يمضين أو سبع يبقين وفي لفظ تسع يمضين رواه البخاري وفي لفظ للبخاري التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خاصة تبقى ومنها حديث عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحي رجلان من المسلمين فقال خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحي فلان وفلان فرفعت عسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة أو سبع يبقين» ومنها حديث أبي بكر فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها يعني ليلة القدر في تسع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث أو آخر ليلة»^(١) رواه الترمذي وروى أحمد من حديث عبادة بن الصامت نحوه منها حديث ابن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رأى ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطت في السبع الأواخر فمن كان متحرياً فليتحرها في السبع الأواخر» متفق عليه وفي رواية أن ناساً أروا ليلة القدرة في السبع الأواخر وأن ناساً أروا في العشر الأواخر فقال النبي ﷺ: «التمسوها في السبع الأواخر» ومنها عن علي مرفوعاً «إن غلبتم فلا تغلبوا في السبع البواقي» رواه أحمد، وحديث ابن عمر مرفوعاً «التمسوها في العشر الأواخر فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي» رواه مسلم ويظهر من هذه الأحاديث كلها أن ليلة القدرة تكون في العشرة الأواخر من رمضان فتارة تكون ليلة إحدى وعشرين كما ثبت من حديث أبي سعيد نحوه وتارة تكون ليلة ثلاث وعشرين كما ثبت بحديث عبد الله بن أنيس وتارة ليلة أربع وعشرين التي أنزل فيها القرآن وتارة ليلة سبع وعشرين كما ظهر على أبي بن كعب بالعلامة وتارة ليلة تاسع تبقى يعني الثانية والعشرين أو خاصة تبقى وهي السادسة والعشرين أو ثلاث تبقى وهي الثامنة والعشرين أو تسع تمضين وهي التاسعة والعشرين أو آخر ليلة وهي الثلاثين فلا تعارض في الأحاديث على هذا التأويل والله تعالى أعلم، وقيل: معنى الآية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾ ما في قوله أدراك استفهامية للإنكار والغرض منه التعظيم والتعجب وكذا في ما ليلة القدر وجملة ما ليلة القدر بتأويل المفرد مفعول ثان لأدراك والمعنى أي شيء أدراك عظمته ليلة القدر وفضلها فإن عظمتها وفضلها أكثر من أن يدرك، والجملة معترضة ثم بين الله فضلها وعظمتها بجملة متسأنفة فقال ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ ليس فيها ليلة القدر يعني أن من أحيها بالعبادة كان له أجل كثيراً كمن عمر ألف شهر بالعبادة، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في ليلة القدر (٤٩٧).

واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١) رواه البخاري عند مسلم بلفظ «من يقيم ليلة القدر فيوافقها»^(٢) وعند أحمد من حديث عبادة بن الصامت من قامها ثم وافقت له يعني قائماً بطن ليلة القدر فوافقها في نفس الأمر غفر له» ﴿نَزَّلُ﴾ وحذف أحد التائين من تنزل ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ وتحقيق الروح فيما سبق ﴿فِيهَا﴾ في تلك الليلة من السماء إلى الأرض عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان ليلة القدر ينزل جبرئيل في كوكبة من الملائكة يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل» ﴿يَاذِنُ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بتنزل وجملة تنزل خبر بعد خبر الليلة القدر بين فضله أخرى لها أو واقع مواقع التعليل للخبرية ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قدر فيها ﴿سَلَّمَ﴾ إما خبر مبتدأ محذوف أي هو سلام والجملة صفة الأمر والمعنى تنزل الملائكة والروح من أجل كل أمر هو سلام، والحمل على المبالغة نحو زيد عدل أو بحذف المضاف أي أمر هو موجب للسلامة عن كل مكروه والظاهر أن هذا الأمر هو الرحمة والبركة في أجور الأعمال والسكينة النازلة على المؤمنين الذاكرين الله تعالى وعلى هذا قوله ﴿هِيَ﴾ مبتدأ خبره ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ والضمير هي راجع إلى الليل لا مطلقاً فإنه حمل غير مفيد فإن ثبوت الليل إلى مطلع الفجر أمر معلوم بديهى بل مقيد بصفة الخبرية ونزول الملائكة أو يقال: هي مبتدأ وسلام خبر مقدم عليه والجملة خبر بعد خبر ليلة القدر وتقديم الخبر على المبتدأ لقصد الحصر أي ما هي الإسلام وخير كلها ليس فيها شر، قال الضحاك لا يقدر الله في تلك الليلة الشر ولا يقتضي الإسلام، وقال مجاهد ليلة شاملة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوء أو لا أن يحدث فيها أذى، وقيل: ما هي الإسلام لكثرة ما يسلم الملائكة على المؤمنين وعلى هذا الظرف أعني حتى مطلع الفجر إما متعلق بمفهوم سلام بمعنى تسليم يعني ما تلك الليلة إلا مقصورة على التسليم حتى مطلع الفجر أو هو ظرف مستقر خبر مبتدأ محذوف أي تلك حتى مطلع الفجر وهذه الجملة خبر آخر لليلة القدر أو متعلق يتنزل وعلى هذين التقديرين سلام هي جملة معترضة، قرأ الكسائي مطلع الفجر بكسر اللام والباقون بفتح اللام وهو إما مصدراً بمعنى الطلوع أو ظرف زمان وقت طلوعه.

فائدة: قيل: يرى في ليلة القدر كل شيء ساجداً والأنوار في كل مكان ساطعة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: قيام ليلة القدر من الإيمان (٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

ويسمع سلام وخطاب من الملائكة، قلت: وهذا أمر قد يظهر بنظر الكشف على بعض الأكابر لا على كل منهم ولا يشترط الحصول الثواب ظهور شيء فيها ولو كان ظهور تلك الأشياء أمراً كلياً أو أكثرياً لم يتصور خفاءها وإبهامها على الأمة لا سيما على الصحابة والتابعين ومن يليهم وأكابر الأولياء ولكن يشترط لحصول ثواب ليلة القدر عبادة الله تعالى كما يدل عليه قوله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً» وقوله ﷺ: «يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله».

مسألة: من أدى صلاة العشاء والفجر في تلك الليلة بالجماعة فقد أدرك ثواب تلك الليلة ومن زاد زاده الله، عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»^(١) رواه مسلم، يعني من صلى الصبح في جماعة بعدما صلى العشاء فكأنما صلى الليل كله فكل صلاة قائم مقام نصف الليل فإنهما فريضتي الليل وأما المغرب فإنها وتر النهار يستحب أن يكثر في ليلة القدر اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني لحديث عائشة قالت: قلت: يا رسول الله: «أرأيت إن علمت أي ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قل: اللهم إنك عفو الخ»^(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (٦٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٥٠).

سورة البينة

مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
 رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ
 إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾﴾

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في زمان الماضي قبل مبعث النبي ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من
 لبيان الموصول وكفرهم بالإلحاد في صفات الله تعالى وقولهم عزيز ابن الله والمسيح ابن
 الله ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ يعني عبدة الأوثان عطف على أهل الكتاب ﴿مُنْفِكِينَ﴾ زائلين متعضلين عن
 كفرهم الذي كانوا عليه، حذف صلة منفكين لدلالة صلة الذين عليه ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ﴾ لفظه
 مستقبل أريد به الماضي أي حتى أتتهم ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ يعني ما يبين الحق من الباطل وهو
 ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني محمد ﷺ بدل من البينة ﴿يَتْلُو صُحُفًا﴾ الجملة صفة لرسول الله ﷺ
 وأنه ﷺ وإن كان أمياً لكنه لما كان متلوه مما يكتب في الصحف كان كمن يتلو صحفاً أي
 مصاحف ﴿مُطَهَّرَةً﴾ من الباطل وتصرف الشياطين أو ممنوعة من مس المحدث والجنب
 والحائض، قال الله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(١) وقال: ﴿لَا
 يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٢) ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الصحف ﴿كُتِبَ﴾ مكتوب ﴿قِيمَةٌ﴾
 عادلة مستقيمة لا عوج فيها فإذا أتاهم الرسول بين لهم ضلالتهم وأزال عنهم جهلهم
 ودعاهم إلى الإيمان فانفك عن كفره من وفقه الله للإيمان وقدر له السعادة ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ
 أُوْتُوا الْكِتَابَ﴾ في الإيمان بالنبي ﷺ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ ما مصدرية والاستثناء

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٧٩.

مفرغ منصوب المحل على الظرفية متعلق بتفرق أي ما تفرقوا من أمر النبي ﷺ في وقت من الأوقات إلا بعد مجيئه وكانوا قبل ذلك مجتمعين على تصديقه منتظرين لمجيئه ﴿بَسْتَفْتَحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(١) حسداً وعناداً وجملة ما تفرق عطف على لم يكن والحاصل أن أهل الكتاب وإن كان بعضهم لمحمداً في صفات الله ونسبه الولد ليه لكنهم كانوا مجتمعين في أمر النبي ﷺ لوضوح بيان أمره في كتبهم، ولما كان صفة اجتماعهم على تصديق النبي ﷺ مختصاً بأهل الكتاب دون المشركين أفرد في هذه الآية ذكرهم لإظهار زيادة شناعة من بقي منهم على الكفر والآية الأولى لبيان حال المؤمنين من أهل الكتاب ومن المشركين والآية الثانية لبيان من بقي على الكفر من أهل الكتاب، قال البغوي وقال بعض أئمة اللغة معنى قوله منفكين هالكين من قولهم انفك صدر المرأة عند الولادة وهو أن ينفصل فلا يلتصق حتى تهلك ومعنى الآية لم يكونوا هالكين معذبين إلا بعد قيام الحجة عليهم من إرسال الرسول وإنزال الكتاب نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٢) ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعني هؤلاء الكفار كلهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قيل اللام زائدة والفعل منصوب بأن مقدرة حذف إن وزيدت اللام والجملة في محل نصب على أنه مفعول به لأمرنا أي ما أمرنا إلا بأن يعبدوا الله، وقيل المفعول به محذوف واللام لام كي والجملة في محل نصب على العلية والمعنى ما أمرنا بما أمرنا به بشيء إلا ليعبدوا، والحاصل أنهم ما أمرنا على لسان محمد ﷺ إلا بشيء حين ذاته تدل الأدلة العقلية على حسنه وقد أمرنا بذلك فيما سبق من الكتب املنزلة فعجباً من المنكرين كيف أنكروا وكيف يفرقوا فيه ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من فاعل يعبدوا ﴿لَهُ﴾ أي الله ﴿الَّذِينَ﴾ أي الاعتقاد عن الشرك بغيره ﴿حُفَاءَ﴾ حال مرادف أو متداخل لمخلصين أي مائلين عن الأديان الباطلة كلها، قال ابن عباس معناه وما أمرنا في التوراة والإنجيل إلا بإخلاص العبادة لله موحدين ﴿وَيُقِيمُوا﴾ عطف على يعبدوا ﴿الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ عند محلها ﴿وَذَلِكَ﴾ الذي أمرنا به على لسان محمد ﷺ ﴿وَيُنِزُّ الْقَيْمَةَ﴾ أي الأمة القائمة الراسخة على الحق من الأنبياء والماضيين وأتباعهم الصالحين، قال البغوي قال النضر بن شميل: سألت الخليل بن أحمد عن قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ فقال: القيمة والقيم والقائم واحد مجازاً الآية وذلك دين القيمة لله بالتوحيد، أو المعنى وذلك دين الكتب القيمة التي لا عوج فيها التي جرى ذكرها في ضمن الذين أوتوا الكتاب،

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

وقيل: معناه ذلك طريق الملة والشريعة القيمة المستقيمة، قال البغوي أضاف الدين إلى القيمة وهي لغة لاختلاف اللظين وأنت القيمة بتأويلها إلى الملة، ولما ورد ذكر المؤمنين والكافرين استأنف الله سبحانه بالوعد والوعيد للفريقين فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ اسم وخبره ما بعده ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدره من فاعل الظرف ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي شر الخلائق أجمعين حتى الكلاب والخنازير والجملة إما تذييل أو خبر لأن بعد خبر وهم ضمير الفصل، قرأ نافع وابن ذكروانالبرية في الموضوعين بالهمزة والباقون بتشديد الياء بغير همزة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ﴾ أجمعين حتى ﴿الْبَرِيَّةِ﴾ الملائكة المعصومين ومن ها هنا قالوا إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة وعوام البشر أعني المؤمنين الصالحين أرباب القلوب الصافية النفوس الزاكية أفضل من عوام الملائكة وأما غير الصالحين من المؤمنين فيلتحقون بالصالحين بعدما يتمحضون من الذنوب إما بالمغفرة أو بالعقاب ويدخلون الجنة ﴿جَزَاءُهُمْ﴾ مبتدأ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف لجزاءهم ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ﴾ أي إقامة خبر لجزائهم ﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ فاعل تجري على المجاز والجملة صفة لجنات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في جنات حال منهم في جزاءهم ﴿أَبَدًا﴾ ظرف لخالدين، قال البيضاوي فيه مبالغات تقديم المدح وذكر الجزاء المؤذن بأن ما منحوا في مقابلة ما وصفوا به والحكم عليه بأنه من عند ربهم وجمع جنات وتقيداً إضافة ووصفها بما يزداد بها نعيماً وتأكيذاً الخلود بالتأييد ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ هذا نعمة زاد من الجنات وما فيها فضل الله، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم يعط أحد من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب أي شيء أفضل من ذلك فيقول:

أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(١) متفق عليه، قلت: لعل المراد من قوله ما لم يعط أحد من خلقك ما لم يعط الملائكة وإلا فليس غير أهل الجنة إلا أهل النار ولا يجوز القول بالفضل عليهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ قال البغوي قيل: الرضا ينقسم قسمين رضي الله به ورضي عنه رضي به رباً ومدبراً ورضي عنه فيها يقضي ويقدر، وقلت: والرضى عنه على أقسام قسم منه معناه ترك الاعتراض عليه والاعتقاد بأن كل ما فعل هو الحسن في نفس الأمر وإن خفي علينا وجه حسنه وهذا القسم من الرضا واجب على العباد في كل ما قضى الله عليه من مرغوب ومكروه عنده غير أنه إن صدر عنه المعصية أو عن غيره لا يرضى عن الكفر والمعصية من حيث صدوره عن العبد وكسبه فإن صدور الكفر والمعصية عن العبد وكسبه به غير مرضي الله وإن كان صادراً بإرادة الله وخلقه ومناط التكليف في وجوب هذا القسم من الرضاء العقل والاستدلال فإن العاقل إذا لاحظ أن الله تعالى مالك للأشياء كلها والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء والاعتراض إنما يتوجه على من يتصرف في ملك بغير إذنه ولاحظ أنه تعالى حكيم لا يفعل إلا على ما اقتضاه الحكمة رضي الله به وإن اختلج شيء في صدره فذلك لأجل نقصان في عقله ودينه وبقية كفر في نفسه الأمانة بالسوء وإلى هذا القسم من الرضاء أشار السري السقطي رحمته الله إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضى عنك وقسم منه معناه كون مقتضيات الله محبوباً له مرغوباً عنده وإن كان على خلاف هواه ومنشأه العشق والمحبة بالله سبحانه فإن فعل المحبوب ومراده أحب عند المحب من مراد نفسه ومن ها هنا، قال الشاعر فإن فرحت بهجري رضيت بالضروري وقسم منه معناه بلوغ المراد أقصى ما يتمناه ويشتهي وهو المراد ها هنا ومن قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾^(٢) قال رسول الله ﷺ: «إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار» وقد مر في سورة والضحي ﷺ المذكور من الجزاء والرضوان ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ فإن الخشية ملاك الأمر والباعث على كل خير والناهي عن كل معصية وشر وجملة ذلك لمن خشي ربه في مقام التعليل بقوله تعالى: جزاءهم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن وفي رواية أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا قال: الله سماني لك؟

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٢) سورة الضحى، الآية: ٥.

قال: نعم قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم فذرفت عينه^(١) متفق عليه، قلت: وما ذكر في الحديث من حال أبي هواية عشاق، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة البينة (٤٩٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحدائق فيه وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه (٧٩٩).

سورة الزلزلة

مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴿٦﴾ لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿٧﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٩﴾﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ أي حركت حركة واضطراباً مناسباً بشأنها في العظمة ولا بقاء بها في الحكمة أو حركة ممكنة لها أو مقدرها لها، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تحركت من أسفلها واختلفوا في تلك الزلزلة هل هي بعد النفخة الثانية وقيام الناس من قبورهم أو قبل النفخة الأولى في الدنيا من أشراط الساعة؟ فاختار الحلبي وغيره الأول وابن العربي ومن معه الثاني محتجين بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾^(١) وأجاب أهل المقالة الأولى أن خرج مخرج المجاز والتمثيل لشدة الهول لا على حقيقة مستدلين بما أخرج الترمذي وصححه عن عمران ابن حصين قال: كنا مع رسول الله ﷺ فنزلت ﴿يَتَأْتِيهَا يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ الآية فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار^(٢) الحديث وله طرق في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله يوم القيامة لآدم «قم فابعث بعث النار من

(١) سورة الحج، الآية: ٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قوله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٥٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار»

ذريتك؟ فيقول: أي رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ويبقى واحد فعند ذلك يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فشق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ فقال من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد وهل أنتم في امم إلا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود» وقال أهل المقالة الثانية هذا الحديث لا يدل على أن الزلزلة يكون حين الأمر ببعث النار بل في ذلك اليوم والأمر متأخر عنها فكأنه ﷺ لما أخبر عن الزلزلة التي يكون متقدمة على النفخة الأولى ذكر ما يكون في ذلك اليوم من الأهوال العظام، قلت: وعبارة حديث الصحيحين يأبى عن هذا التأويل فإنه فيه فعند ذلك أي عند بعث النار يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها والله تعالى أعلم قلت: جاز أن يتكرر الزلزلة مرة في أشرطة الساعة ومرة بعد البعث ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ﴾ إسناد الإخراج إلى الأرض مجازي ﴿أَنْفَالَهَا﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يعني الموتى من القبور كذا أخرج الفريابي عن ابن مجاهد وعلى هذا فهي حكاية عما بعد النفخة الثانية، وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال: يعني ما فيها من الكنوز، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى الأرض فلاذ كبدها أمثال أسطوان من الذهب والفضة ويجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي ويجيء السارق يقول: في هذا قطعت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»^(١) رواه مسلم وفي الصحيحين عنه مرفوعاً «يوشك الفرات أن يحسر عن أكثر من ذهب فمن حضر فلا يأخذ منه شيئاً»^(٢) وفي رواية لمسلم عنه «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب فتقتل الناس عليه فتقتل من مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو» قلت: لعل القتال يكون في بادئ الأمر ثم يؤل الأمر إلى أن لا يأخذ أحد منهم شيئاً ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ تعجباً ﴿مَا لَهَا﴾ أي ما للأرض تزلزل هذه الزلزلة الشديدة وتلفظ ما في بطنها، قيل: المراد بالإنسان الكافر يقول ذلك حين يبعث ولم يكن يرجو البعث، وأما المؤمن فيقول هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، قال البغوي في الآية تقديم وتأخير تقديره ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فيقول الإنسان

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٠١٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في أشرطة الساعة (٢٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: خروج النار (٧١١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشرطة الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب (٢٨٩٤).

ما لها تخبر وتتكلم بما عمل عليها يومئذ بدل من إذا زلزلت والعامل فيه تحدث ويحتمل أن يكون يومئذ أصلاً وإذا اقتضى بمحذوف أي لتحاسبن إذا زلزلت يومئذ تحدث أخبارها عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول عمل كذا وكذا فذاك أخبارها»^(١) رواه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن حبان والبيهقي، وأخرج الطبراني عن ربيعة الحرثي أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض فإنها أمكم وإنه ليس من أحد عمل عليها خيراً وشرّاً إلا وهي مخبرة»، وكذا أخرج الطبراني عن مجاهد **﴿بِأَنَّ﴾** أي بسبب أن **﴿رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾** اللام بمعنى إلى يعني أوحى ربك إليها أن تخبروا بمعناها أذن لها في ذلك تشقى في العصاة، وجاز أن يكون بأن ربك بدلاً من أخبارها يقول أخبرته كذا وأخبرته هكذا أو حينئذ يكون جواباً لقول الإنسان ما لها يعني تقول أوحى ربك إلي وحكم بالزلة، وإخرج الأثقال **﴿يَوْمَئِذٍ﴾** ظرف لما بعده **﴿يَصْدُرُ﴾** أي يرجع **﴿النَّاسُ﴾** عن موقع الحساب بعد عرض **﴿أَشْنَانًا﴾** متفرقين فأخذ ذات المين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار قوله تعالى: **﴿يَوْمَئِذٍ يَنْفِرُفُرُوكَ﴾**^(٢) **﴿لِيَرَوْا﴾** متعلق بيصدر أي لكن يروا أعمالهم قال ابن عباس أي ليروا جزاء **﴿أَعْمَلْتُمْ﴾** يعني يرجعون عن الموقف لينزلوا منازلهم من الجنة أو النار وجملة يومئذ يصدر مستأنفة وقول **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾** إلى آخر السورة تفصيل ليروا، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت **﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾** كان المسلمون يرون أنهم يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوا وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير الكذبة والنظرة وأشباه ذلك وإنما وعد الله على الكبائر فأنزل الله تعالى: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾** الآية أي وزن نملة صغيرة أو أصغر من نملة **﴿خَيْرًا﴾** تميز الميثقال ذرة **﴿يَسْرُهُ﴾** قرأ هشام بإسكان الهاء في الموضعين والباقون بالإشباع فيهما أي يرى جزاءه، قال مقاتل يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكبر قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يريها لصاحبه يربي أحداكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»^(٣) متفق عليه،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إذا زلزلت (٣٣٥٣).

(٢) سورة الروم، الآية: ١٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب (١٤١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وترتيبها

(١٠١٤).

الأعمال بالنيات»^(١) فإذا فات منهم شرط فات المشروط فمثل حسناتهم كمثل صلاة بلا وضوء فإنها ليست بصلاة حقيقة بل يعد استهزاء ومعصية، ومن ثم قال العلماء: إنه من نذر بالصلاة أو بالصوم أو بالاعتكاف في حالة الكفر ثم أسلم لا يجب عليه الوفاء لأن الصلاة والسلام والاعتكاف من الكافر ليس لله خالصاً فهي كفر معصية ليس من الطاعة في شيء ولا نذر بالمعصية ﴿وَأَعْمَلُهُمْ كَسْرَابٍ يَفِيغُهُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ جِسَابًا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٣) أي يرى جزاءه إن لم يتداركه المغفرة والدليل على هذا التقييد الآيات والأحاديث الدالة على جواز مغفرة المعاصي من غير توبة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٤) وقال الله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٥) وقال: ﴿وَمَنْ يَقْطَعْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّيهِ إِلَّا الصَّالُونَ﴾^(٦) وقال: ﴿لَا تَقْطُوعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٧) ونحو ذلك وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليغفر الله يوم القيامة مغفرة يتناول لها إبليس وجاء أن يصيبه» رواه البيهقي وفي الباب أحاديث كثيرة بالغة حد التواتر، وهذه الآية حجة لأهل السنة على المرجئة في قولهم إن الله لا يعذب المؤمن وإن كان فاسقاً وإن المؤمن لا يضره سيئة كما أن الكافر لا ينفعه حسنة وقد ورد في تعذيب المؤمنين على الصغائر والكبائر آيات وأحاديث كثيرة لا يحصى يطول الكلام بذكرها فثبت أن الحق ما قال أهل السنة أن الله سبحانه إن شاء يعذب على صغيرة عدلاً وإن شاء يغفر الكبائر فضلاً، قال مقاتل الإثم الصغير في عين صاحبه أعظم من الجبال يوم القيامة، عن سعيد بن جبان قال: لما فرغ النبي ﷺ من حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيها شيء فقال النبي ﷺ: إجمعوا من وجد شيئاً ليأت به قال: فما كان إلا ساعة حتى أجمعوا ركاباً فقال النبي ﷺ: «ترون هذا فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله عز وجل فلا يذهب صغير ولا كبيرة فإنها محصاة عليه»

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١).

(٢) سورة النور، الآية: ٣٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٩.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

رواه الطبراني، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً^(١) رواه النسائي وابن ماجه وصححه ابن حبان، وعن أنس «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»^(٢) رواه البخاري ولأحمد مثله من حديث أبي سعيد بسند صحيح، قال ابن مسعود أحكم آية في كتاب الله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ وورد في الحديث الطويل، عن أنس عند مسلم أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ وقال الربيع بن خيثم مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال: حسبي قد انتهت الموعظة، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: أقراني يا رسول الله قال: اقرأ ثلاثاً من ذوات الکر قال: كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني قال: فاقراً ثلاثاً من ذات حم فقال مثل مقاله فقال: الرجل يا رسول الله اقراني سورة الجامعة فاقراً رسول الله ﷺ إذا زلزلت الأرض حتى فرغ منها فقال الرجل والذي بعثك بالحق لا أزيد عليه أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: «أفلق الرويجل مرتين»^(٣) رواه أحمد وأبو داود، وعن أنس وابن عباس قالوا: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل هو الله أحمد يعدل ثلث القرآن وقل يا أيها الكافرون ربع القرآن»^(٤) رواه الترمذي والبعثي وفي رواية عند الترمذي وابن أبي شيبة عن أنس «إذا زلزلت الأرض ربع القرآن» قال الجزري: كونها ربع القرآن لأنها مشتملة على الحسنات وهو بالنسبة إلى الحياة والموت والبعث والحساب ربع وكونها نصف القرآن لأنها مشتملة على أحوال الآخرة وأحوال الآخرة بالنسبة إلى أحوال الدنيا والآخرة نصف فهي ربع من وجه ونصف من وجه، وروي من حديث علي بسند ضعيف جداً قوله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله» والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من محقرات الذنوب (٦٤٩٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: تحزيب القرآن (١٣٩٨).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في إذا زلزلت (٢٨٩٣).

سورة العاديات

مكية هي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَنْزَلَ بِهِ نَفْعًا ﴿٤﴾
فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّمَا لِحُبِّ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَاسًا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ
رَبَّهُ يَوْمَ يَوْمِئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

أخرج البزار والدارقطني والحاكم وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً فلبث شهراً إلا يأتيه فيها خيراً فنزلت ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ قرأ أبو عمرو بالإدغام الكبير بين التاء والضاد أقسم بخيل الغزاة التي تعدو في سبيل الله كذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والكلبي وقتادة ومقاتل وأبو العالية وغيره ولهذا التأويل وبما ذكرنا من سبب النزول يظهر أن السورة مدينة لأنه لم يكن قبل الهجرة جهاد، وجاز أن يكون القسم بها بمنزلة الإخبار لوجودها في الاستقبال على تقدير كونها مكية ﴿صُبْحًا﴾ أي تضبح ضبحاً مصدر موقع الجملة التي وقعت حالاً من فاعل العاديات وهي صوت أنفاس الخيل إذا عدون، قال ابن عباس لا يضبح من الحيوانات غير الفرس والكلب والشعلب وما يضبحن إلا إذا تغير حالهم من التعب، وقال علي العاديات هي الإبل في الحج تعو من عرفة إلى مزدلفة ومن مزدلفة إلى منى وقال كانت أول غزوة في الإسلام بدر أو ما كان معنا إلا فرسان الزبير وفرس المقداد بن الأسود فكيف تكون العاديات وإليه ذهب ابن مسعود ومحمد بن كعب والسدي وعلى هذا معنى قوله ضبحاً يعني تمد أعناقها في السير مداً ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ الخيل التي توري النار إذا سارت ليلاً في أرض ذات حجارة ﴿قَدْحًا﴾ يعني تقدح أي تفك الحجارة بحوافرها قدحاً ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ قرأ أبو عمرو وخلاد بالإدغام بين التاء والضاد أي الخيل التي تغير بفرسانها على عدو والإغارة سرعة سير ﴿صُبْحًا﴾ ظرف للمغيرات أي التي تغير في وقت الصبح هذا قول أكثر المفسرين، وقال

القرظي هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع بمنى وقت الصبح وهو السنة بل الواجب أن لا يدفع حتى يصبح وقد رخص رسول الله ﷺ للنساء والضعفاء بالدفع بعد طلوع الفجر من ليلة النحر ﴿فَأَثَرُنَّ﴾ عطف على مضمون صلة اللام الموصول يعني اللاتي عدون قادرين فأغرن فأثرن أي هيجن ﴿بِهِ﴾ الباء بمعنى في والضمير عائد إلى الزمان المفهوم تضمناً من مضمون الصلة أي أثرن في ذلك الوقت أي وقت الإغارة على العدو أو إلى المكان المفهوم منه اقتضاء أي أثرن في مكان العدو ﴿نَقَعًا﴾ غباراً مفعول لأثرن ﴿فَوَسَطْنَ﴾ أي فوسطن تلك الخيل ﴿بِهِ﴾ الضمير عائد إلى النقع أي متلبساً بالنقع أو إلى الوقت أو المكان كما مر في ذلك الوقت أو المكان ﴿جَمَعًا﴾ من جموع الأعداء وجواب القسم ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أريد به الجنس نظراً إلى أكثر أفرادها حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾^(١) ﴿لِرَبِّهِ﴾ متعلق بما يبعده قدم لرعاية الفواصل ﴿لَكَوُدٍ﴾ أي لكنود لنعمة ربه بلسان مضر كذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة أو العاصي بلغة كنده أو البخيل بلغة بني مالك، قال أبو عبيدة هو قليل الخير والأرض الكنود ما لا ينبت شيئاً ﴿وَأِنَّهُ﴾ قال ابن كيسان الضمير للإنسان أي وإن الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي على كونه كفوراً عاصياً بخيلاً ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد به على نفسه عند أدنى تأمل بظهور أثره أو يشهد على نفسه ويترف بذنبه في الآخرة يقول لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وقال أكثر المفسرين ضمير إنه راجع إلى ربه يعني وإن ربه على كونه كنود الشهيد لا يعزب عنه شيء فيؤاخذ به فهو وعيد ﴿وَأِنَّهُ﴾ أي الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي المال كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾^(٢) ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لقوي مبالغ فيه فلا ينفقه في سبيل المنعم شكراً للنعمة أو المعنى البخيل شديد وعلى هذا فاللام في حب الخير للتعليل أي لأجل حب المال لبخيل وعلى الأول لام الصلاة ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ همزة الاستفهام للتعجب والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا ينظر الإنسان فلا يعلم ومعناه لينظر وليعلم الآن ما سيعلم غداً أن ربهم خبير لهم يجازيهم على ما يفعلون يوم نبعث من في القبور ويبرز ما في الصدور ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي بعث وأثير ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ من الموتى أو رد لفظ ما بمعنى من لمشاكله ما في الصدور أو لأنه في هذه الحالة مما لا يعقل لكونه موتى ملحقاً بالجمادات ﴿وَحُصِّلَ﴾ أي جمع محصلاً في الصحف أو ميز وأبرز في ﴿مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي ما في صدورهم يعني صدور جنس الإنسان من الخير والشر وتخصيص ما في الصدور بالذكر دون أعمال الجوارح لأنه

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

الأصل إذا بعثر شرط حذف جزاءه لتوسط في جملة تدل على جزائه تقديره إذا بعثر ما في القبور يعلم والجملة الشرطية معترضة للتهديد والفظاعة ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ هذه الجملة قائم مقام المفعولين ليعلم لدخول اللام على الخبر أو يقال مفعولاه محذوفان يدل عليهما هذه الجملة يعني أنا نجازيه وقت ما ذكروا بهم، ويومئذ متعلق بمضمون خبير خص ذلك اليوم بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان لأن الجزاء يقع يومئذ فيظهر كونه خبيراً يومئذ، أو يقال الخبير مجاز عن المجازي والمعنى أن ربهم يجازي بهم يومئذ كذا قال الزجاج والله تعالى أعلم.

سورة القارعة

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
 كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ
 مَوَازِينُهُ ٦ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ ﴿ فَأُمُّهُ
 هَاوِيَةٌ ٩ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠ ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١ ﴾

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ سبق بيانه في الحاققة والتاء إما لتأنيث الساعة أو للمبالغة في القرع
 ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ ﴿ الظرف إما متصف بفعل
 مضمر دلت عليه القارعة أي قرع الناس يوم يكون الناس أو مبني على الفتح لإضافته إلى
 الجملة في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي يوم يكون بيان للقارعة
 ﴿ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴾ الطير التي يتهافت في النار ﴿ الْمَبْثُوثِ ﴾ المفرق وجه الشبه كثرتهم وهو أنهم
 وتموج بعضهم في بعض وركوب بعضهم على بعض بشدة الهول ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ ﴾
 عطف على يكون ﴿ كَالْعِهْنِ ﴾ الصوف ذي الألوان لأجل اختلاف ألوان الجبال
 ﴿ الْمَنْفُوشِ ﴾ المندوف لتفرق أجزائها وتطائرها في الجو ﴿ فَأَمَّا ﴾ تفصيل لما أجمل حاله من
 الناس عطف على يكون ذكر الناس فريقين ﴿ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ جمع موزون يعني أعماله التي
 توزن معه والمراد بها الأعمال الصالحة فإنها المقصر بوجودها أو هو جمع ميزان وعلى
 هذا أيضاً المراد به كفة الحسنات من ميزانه وقد صح أن الميزان له لسان وكفتان أخرجه
 ابن المبارك في الزهد والآجري وأبو الشيخ في تفسيره عن ابن عباس، وأخرج ابن مردويه
 عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله عز وجل كفتي الميزان مثل
 السماء والأرض» وأورد الموازين بلفظ الجمع لأن من ثقلت جمع معنى وإفراد الضمير
 الراجع إليه نظراً إلى إفراد لفظه فمقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد على الآحاد
 لكن على هذا التأويل تدل الآية على كون الميزان كل رجل على حدة وجاز أن يعتبر تعدد

الموازين من حيث تعدد من يوزن أعمالهم ﴿فَهُوَ﴾ هذا أيضاً باعتبار لفظه من ﴿فِي عَيْشِكُمْ رَاضِيَةً﴾ أسند الرضى إلى العيشة مجازاً وهي صفة لصاحبها كما في ناصية كاذبة، وقيل: الفاعل ها هنا بمعنى المفعول أي عيشة مرضية كعكسه في وعداً مأتياً أو بمعنى ذات رضى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي أعماله الحسنة أو كفة حسناته وهذا يعم الكافر الذي لا حسنة له لفقد الإيمان الذي هو شرط إتيان الحسنات والمؤمن الفاسق الذي ترجحت سيئاته على حسناته بخلاف الأول يعني من ثقلت موازينه فإنه لا يكون إلا مؤمناً معصوماً أو مغفوراً أو ترجحت حسناته على سيئاته، قال القرطبي قال علماؤنا الناس في الآخرة على ثلاث طبقات فرقة متقون لا كبائر لهم توضع حسناته في الكلفة النيرة فلا ترتفع وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي وفرقة كفار توضع كفرهم وأوزارهم في الكفة المظلمة وإن كان له عمل بر كصلة الرحم ونحوها وضعت في الكفة الأخرى فلا يقاومها ويرتفع كفة الحسنات ارتفاع الفارغ الخالي، قال رسول الله ﷺ: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا تزن عند الله جناح بعوضة ثم قرأ ﴿لَا نَقِيمَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾^(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة وفرقة فساق المؤمنين يوضع حسناتهم في كفة النيرة وسيئاتهم في كفة المظلمة إن كانت كفة الحسنات أثقل دخل الجنة أو السيئات أثقل ففي مشيئة الله يعني إن شاء أدخل النار وإن شاء غفر وأدخل الجنة وإن كان مساوياً كان من أصحاب الأعراف هذا إذا كانت الكبائر بينه وبين الله وإن كان عليه تبعات اقتص من ثواب حسناته بقدرها فإن لم يوف زید عليه من أوزار من ظلمته ثم يعذب على الجميع قال أحمد بن حرث يبعث الناس يوم القيامة ثلاث فرق فرقة أغنياء بالأعمال الصالحة وفرقة الفقراء وفرقة أغنياء ثم يصيرون فقراء مفاليس بالتبعات، وقال سفيان الثوري إنك إن تلقي الله تبارك وتعالى بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته دخل النار قال وإن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقوا على الصراط يعني حتى يوفوا جزاء بعض سيئاته ويرجح حسناته فيدخل الجنة، قال السيوطي وإنما يوزن أعمال المتقي من لا سيئة عليه إظهاراً لفضله وأعمال الكافر إظهار الذلة، قلت: والمذكور في القرآن غالباً جزاء الكفار في مقابلة جزاء

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿فَلَا نَقِيمَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (٤٧٢٩)، وأخرجه

مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥).

الصلحاء المؤمنين وأما حال الذين خلطوا صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين فمسكوت عنه غالباً في القرآن فالظاهر أن المرادها هنا بمن خفت موازينه هم الكفار فهم المحكوم عليهم بقوله: ﴿فَأَمُّهُ هَكَوِيَّةٌ﴾ يعني مسكنه النار يسمى المسكن أما لأن الأصل سكن الأولاد إلى الأمهات والهاوية اسم من أسماء جهنم وهو المهواه لا يدرك إلا الله، وقال قتادة كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد يقال هو أمه، وقيل أراد رأسه يعني أنهم يهون في النار على رؤسهم قال البغوي وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح، قلت: وكذا الكفار هم المرادون في مقابلة المتقين في حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «يوفي ابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان به ملك فإن ثقلت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعده أبداً وإن خفت ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعده أبداً»^(١) وحال المخلط مسكوت في الحديث والظاهر أن الملك لا ينادي عليه شيء من الصوتين ولذلك لم يذكر.

فائدة: قال القرطبي الميزان لا يكون في حق كل أحد وإن الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا ينصب لهم ميزان وكذلك من يعجل به إلى النار بغير حساب هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيسَتَهُمْ فَيُؤَخِّدُ بِالنَّوْصَى وَالْأَقْدَامِ﴾^(٢) وقال السيوطي يحتمل تخصيص الكفار الذين يوزن أعمالهم ولا يجدون ثقلاً بالمنافقين فإنهم يقون في المسملين بعد لحوق كل مسلم أمة بما يعيدوهم يصلون ويصومون مع المؤمنين في الدنيا رياء وسمعة ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٣) الميزان، وقال الغزالي السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يوضع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً إنما هي براءة مكتوبة هذه براءة فلان بن فلان، أخرج الأصبهاني عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تنصب الموازين ويؤتون بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتون بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتون بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب لهم أجرهم بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية إنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل وذلك إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير

(١) رواه البزار وفيه صالح المري وهو مجمع على ضعفه. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: البعث، باب: ما جاء في الحساب (١٨٣٩٤).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.

حساب» وأخرج الطبراني وأبو يعلى بسند لا بأس به عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ثم يوفى بالمتصدق فينصب للحساب ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم الميزان ولا ينشر لهم ديون فيصب عليهم الأجر صباً حتى أن أهل العافية ليتمنون بالموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حيث ثواب الله لهم» وقد ذكر فيما سبق أن الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الصوفية العلية لعل المراد بأهل البلاء ها هنا أيضاً بلاء العشاق المحبين لله لرضائهم بالبلاء كرضائهم بالعطاء وكذا المراد بالبكاء في قوله ﷺ: «ما من شيء إلا وله مقدار وميزان إلا الدمعة فإنها يطفىء بها بحار من نار» رواه البيهقي من حديث معقل بن يسار، بكار أهل العشق وإلا فقد صح في الأحاديث وزن أعمال أهل البلاء كما في قوله ﷺ: «بخ بخ بخمسة ما أثقلهن في الميزان لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه» رواه النسائي وابن حبان والحاكم والبزار وأحمد والطبراني من حديث ثوبان وأبو سلمى ولا شك أن وفاة الولد من البلاء والشهادة التي ذكرت في حديث ابن عباس أيضاً من البلاء والله تعالى أعلم، فإن قيل روى أحمد بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فتمايل به الميزان فيبعث به إلى النار فإذا أدبر إذ صائح يصيح من عند الرحمن لا تعجلوا فإنه قد بقي له فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فيوضع مع الرجل حتى يميل به الميزان» وروى الحاكم وصححه وابن حبان والترمذي عنه نحوه وعن أبي سعيد وابن عباس وغيرهما ما يؤيده في عمره فكيف يخف ميزان المؤمن فإنه لا يخلو مؤمن من قول لا إله إلا الله ولو مرة واحدة في عمره؟ قلنا أحكام الآخرة كلها يعني أكثرها من القضايا المهملة في قوة الجزئية فلما تكون منها كلية والأمر منوط بفضل الله ومدار الأعمال على الإخلاص ومقداره والله أعلم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ ﴿١٧﴾ قرأ حمزة ما هي بغير الهاء وصلا فقط والباقون بالهاء للسكت في الحالين والضمير راجع إلى الهاوية والاستفهام للتهويل وجملة ما أدراك معترضة لاستعظام أمرها وقوله تعالى نار بدل من هاوية أو بيان لها أو خبر مبتدأ المحذوف أي هي ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ﴿١٨﴾ ذات حمى بلغت النهاية في الحرارة.

سورة التكاثر

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

﴿الْهَنَكُمُ﴾ أي الهكم في اللهو وهو الباطل من الأمور وما لا يعد فائدة معتبرة وشغلكم عن طاعة الله وما ينجيكم من سخطه ﴿التَّكَاثُرُ﴾ التباهي والتفاخر بكثرة المال والجاه والعدد ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ يعني حتى متم ودفنتم بالمقابر، أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «الهاكم التكاثر عن الطاعة حتى زرتم المقابر حتى يأتيكم الموت» قال قتادة كانت اليهود يتفاخرون بكثرتهم ويقولون نحن أكثر من بني فلان شغلهم ذلك حتى ماتوا فنزلت هذه الآية فيهم فعلى هذا حتى للغاية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت الآية في قبيلتين من قبائل الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما فيكم مثل فلان وفلان وقال آخرون مثل ذلك تفاخروا ثم قال: انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين يقول فيكم مثل فلان ومثل فلان ويشيرون إلى القبور، وقال الكلبي نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف وبني قصي وبني سهم قالت كل واحد نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأكثر عدداً فكثرتهم بنو عبد مناف ثم قالوا: نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوهم فقالوا هذا القبر فلان وهذا قبر فلان فكثرتهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عدداً فأنزل الله هذه الآية وعلى هاتين الروایتين معنى قوله: حتى زرتم المقابر حتى عدتكم الأموات لأجل التكاثر بالأموات بعد ما استوعبتهم عدد الأحياء فعبّر عن انتقالهم إلى ذكر الأموات بزيارة القبور مجازاً أو يحمل على زيارة القبور حقيقة حيث انطلقوا إلى المقابر بعد القبور حتى هذا للسببية، عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية

ألهاكم التكاثر قال يقول ابن آدم ما لي ما لي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»^(١) رواه البغوي وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وما له وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»^(٢) رواه البخاري، وعن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد»^(٣) رواه مسلم وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لينتهين أقوام يفخرون بأبائهم الذين ماتوا إنما هم محم من جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب»^(٤) رواه الترمذي وأبو داود، عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع بالصاع لم تملوه ليس لأحد على أحد فضل الأبدن وتقوى كفى بالرجل أن يكون بذياً فاحشاً بخيلاً» رواه أحمد والبيهقي، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إنني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون» رواه الطبراني في الأوسط ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التكاثر ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حذف مفعوله للدلالة السياق أي سوف تعلمون سوا عاقبة تفاخركم وتكاثركم حين تعذبون عليه ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرر لتأكيد الوعيد أو تنصيص بوعيد آخر وفي ثم دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول قيل الأول عند الموت أو في القبر والثاني بعد البعث، أخرج ابن جرير عن علي قال كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهم التكاثر إلى كلا سوف تعلمون في عذاب القبر ﴿كَلَّا﴾ تأكيد للردع بعد تأكيد ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ ما بين أيديكم ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي علماً كعلم الأمر المتقين الموجود عندكم وجواب لو محذوف لتفخيمه يعني لشغلكم ذلك عن غيره أو لما تكاثرتم قال قتادة كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت (٦٥١٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل الشام واليمن (٣٩٦٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (٥١٠٧).

أن الله باعث بعد الموت، قلت: يعني علماً بالغيب حاصلًا بالاستدلال ولا يجوز أن يكون ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ﴿٦﴾ جواباً للشرط لأنه محقق الوقوع بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوعد ما أنذرهم به بعد إبهامه تفخيماً لشأنه، قلت: وجاز أن يكون لو مجازاً عن إذا تعلمون علم اليقين وذلك عند الموت لترون الجحيم ولا ينفعكم علمكم حينئذ لفوت وقت التدارك، قرأ ابن عامر والكسائي لترون بضم التاء على البناء للمجهول من أريت الشيء والباقون بفتح التاء والمراد بالرؤية ها هنا المعرفة والعلم وجاز أن يكون الرؤية بالأبصار في القبور فإن الكافرين يعرضون على النار في القبور غدواً وعشياً كما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ ﴿٦٦﴾^(١) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ بفتح التاء بلا خلاف يعني ثم لترون الجحيم بعد النشور ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ منصوب على المصدرية عن غير لفظ الفعل فإن رأى وعاین بمعنى واحد وبه اندفع احتمال أن يكون الرؤية ها هنا بمعنى العلم والمعنى لترون رويته موجبة لليقين ومن ها هنا سمي عين اليقين علماً حاصلًا بالروية والمشاهدة ولا شك أن الرؤية أقوى من أسباب العلم، قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاني» أخرجه الخطيب عن أبي هريرة والطبراني عن أنس بسند حسن وروى أحمد والطبراني بسند صحيح والحاكم عن ابن عباس هذا وصى زيادة أن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت، وقيل: عين اليقين صفة لمصدر محذوف أي رؤية هي نفس اليقين مبالغة ﴿ثُمَّ لَتَشْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾ يعني لم تركتم شكر النعم وكفرتم بها قال البغوي فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، قال مقاتل كان كفار مكة في الدنيا في الخير والنعمة ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره ثم يعذبون على ترك الشكر هذا قول الحسن، وعن ابن مسعود رفعه انتهى والخطاب في الآية مخصوص بالكفار الذين ألهاكم التكاثر وجاز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ﴿٦﴾ إلى آخر السورة خطاباً عاماً للناس أجمعين كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(٢) الآية وقد مر في الحديث أن المؤمن يرى في القبر أولاً مقعداً من النار الذي أبدل منها مقعداً في الجنة ليزداد شكراً.

فائدة: السؤال عن النعيم وإن كان بدلالة سياق الآية وأحد تأويلها مختصاً بأهل التكاثر لكن ثبت بما تواتر من الأحاديث أن السؤال عام يسأل الكفار والمؤمنون، أخرج ابن

(١) سورة الإنفطار، الآية: ١٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧١.

أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «الأمن والصحة» وكذا عن ابن عباس في الآية قال: صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيما استعملوها، وأخرج الفريابي وأبو نعيم عن مجاهد في هذه الآية قال كل شيء من لذة الدنيا وعبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية أنه قال: إن الله سائل كل نعمة فيما أنعم عليه، وأخرج أحمد في الزهد عن أبي قلابة عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «ناس من أمتي يعقدون الثمن العسل بالنفي فيأكلونه» وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال لما نزلت هذه الآية قال الناس يا رسول الله عن أي النعيم نسأل وإنما هي الأسودن والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا قال: «أما إن ذلك سيكون»^(١) وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله وأي نعيم نحن فيه وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير فأوحى إليهم أليس تتخذون النعال وتشربون الماء البارد، فهذا من النعيم وعن علي رضي الله عنه قال من أكل خبز البرو كان له ظل وشرب الماء الفرات فذلك من النعيم الذي يسأل عنه، وروى الحاكم في المستدرک عن أبي هريرة في حديث مسيره ﷺ وأبي بكر وعمر إلى بيت أبي الهيثم وأكلهم الرطب واللحم وشربهم الماء قوله ﷺ: «إن هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة» فلما كبر أصحابه قال: إذا أصبتم مثل هذا وخبزتم بأيديكم فقولوا بسم الله وعلى بركة الله وإذا شبعتم فقولوا: الحمد لله الذي هو أشبعنا وأروانا أنعم علينا وأفضل فإن هذا وعن ابن عباس هذه القصة ونحوه، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تناصحوا في العلم ولا يكتم بعضكم بعضاً فإنه خيانة الرجل، في علمه أشد من خيانة في ماله وإن الله يسألکم عنه» رواه الطبراني والأصبهاني، وعن أبي الدرداء أول ما يسأل عنه العبد ما علمت فيما علمت رواه أحمد وابن المبارك وعن ابن عمر مرفوعاً «يسأل العبد عن جاهه كما يسأل عن ماله» رواه الطبراني، وعن ابن عباس ما من عبد يخطو خطوة ألا يسأل الله عنها ما أراد بها رواه أبو نعيم وعن معاذ مرفوعاً «إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه» رواه أبو نعيم وابن أبي حاتم عن الحسن مرفوعاً ما «من عبد يخطب إلا الله سائله منها ماذا أراد بها» مرسل جيد الإيناد رواه البيهقي وكلمة ثم في الآية تدل على أن السؤال بعد رؤية الجحيم، قلت وذلك لأجل أن السؤال يكون على الصراط قال الله تعالى: ﴿وَقَفُّوا لَهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(٢) وعن أبي هريرة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ألهاكم التكاثر (٣٣٥٦).

(٢) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

«لا تزول قدما عبد عن الصراط حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه فيما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه»^(١) رواه مسلم وروى الترمذي وابن مردويه ابن مسعود مثله، قال القرطبي هذه العمومات مخصوصاً بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم ألهاكم التكاثر» رواه الحاكم والبيهقي والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع.

سورة العصر

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس والدهر قيل : أقسم به لأن فيه عبرة للناظرين ، وقال ابن كيسان أراد بالعصر الليل والنهار وقال الحسن بعد زوال الشمس إلى غروبها ، وقال قتادة آخر ساعة من نهار ، وقال مقاتل صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى كما ذكرنا في سورة البقرة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أي جنسه ﴿لِرَبِّهِ خَسِيرٌ﴾ التنكير للتعظيم أي في خسر عظيم ، فإن الخسر ذهاب رأس المال والإنسان في هلاك نفسه وعمره وماله فيما لا يفيد له في حياة الأبدية .

ومن يبع أجلاً منه بعاجله بين له الغبن في بيع وفي سلم ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة القوية الباقية بالدنيا الفانية فربحت تجارتهم ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ بينهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالمعروف قال الحسن وقاتدة بالقرآن وقال مقاتل بالإيمان والتوحيد ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ بينهم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ وكف النفس عن المنكرات فالشهوات الغير المرضية لله تعالى أو بالصبر مطلقاً على الطاعات والمصائب وترك المنكرات فالمراد بالأعمال الصالحة إما مطلقاً فهو عطف الخاص على العام للمبالغة وإما مقصوراً على موجبات الكمال ، فالمراد بالمواصاة موجبات التكميل وما عدا ذلك موجبات خسر ، وروي عن إبراهيم أن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم فهو لفي نقص وتراجع إلا المؤمنين فإنهم يكتب لهم أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم فهو نظير قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (١) .

(١) سورة التين ، الآية : ٤ - ٦ .

مسألة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب من ترك كان من الخاسرين، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(١) رواه مسلم، وروى البغوي في شرح السنة عن النبي ﷺ قال: «لا يعذب الله العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلم ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة» وروى أبو داود وابن ماجه عن جرير بن عبد الله مرفوعاً نحوه وأبو داود عن أي بكر الصديق «ما من قوم يعمل فيهم المعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون إلا يوشك أن يعمهم بعقاب»^(٢) وفي الباب أحاديث كثيرة، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي (٤٣٢٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥).

سورة الهَمْزَةِ

مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي النَّطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَزْكَرَكَ مَا النَّطْمَةُ ﴿٥﴾ تَارَ اللَّهُ الْمُؤَوَّدَةَ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمْدٍ مُّتَدَدَةٍ ﴿٩﴾﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس هم المشاؤون بالنميمة المرفقون بين الأحبة الباغون للبراء العيب ومعناها واحد وهو عياب، وقال مقاتل الهمزة الذي يعيبك في الوجه واللمزة الذي يعيبك في الغيبة، وقال أبو العالية والحسن على ضده، وقال سعيد بن جبیر وقتادة الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم واللمزة الطعام فيهم، وقال ابن زيد الهمزة من يهزم الناس بيده ويضرهم واللمزة الذي يلزمهم بلسانه ويعيبهم، وقال سفيان الثوري يهزمه بلسانه ويلزم بعينه ومثله وقال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جليسه باللفظ واللمزة الذي يومض بعينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه، قلت: الهمزة في الأصل الكسر والنخس في الحديث «اللهم إني أعوذ بك من همزات الشياطين»^(١) واللمز الطعن ثم شاعا فيما ذكره هو الكسر في أعراض الناس والطعن فيهم وبناء فعله للاعتياد فلا يقال ضحكة وشجرة ولعهة وهمزة ولمزة إلا للمكسر المتعود، وأخرج ابن أبي حاتم عن عثمان بن عمر قال: ما زلنا نسمع أن ويل لكل همزة نزلت في أبي بن خلف وأخرج عن السدي قال: نزلت في أخنس بن شريق بن وهب الثقفي، وأخرج ابن جرير عن رجل من أهل الرقة قال: نزلت في جميل بن عامر وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق كان أمية بن خلف الجمحي إذا رأى رسول الله ﷺ همزة ولمزة فأنزل الله تعالى ويل لكل همزة السورة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات وأخرجه أبو داود في كتاب: الطب، باب: كيف الرقى

كلها، وقال مقاتل نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه والآية عامة بصيغتها لكل من هذه صفة وإن كانت نازلة في واحد منهم ﴿الَّذِي جَمَعَ﴾ قرأ جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بتشديد الميم على التكفير والباقون بالتخفيف والموصول إما مجرور بدل من كال أو منصوب على الذم أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي جمع ﴿مَالًا وَعَدَدًا﴾ أي أحصاه وجعله عدة للنوازل وعدة مرة بعد أخرى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ﴾ ﴿٣﴾ أن مع الجملة قائم مقام المفعولين ليحسب أي يجعله خالداً في الدنيا لا يموت مع يساره كأنه يزعم أن من لا مال له يموت بالجوع ومن كان له مال لا يموت أبداً وهذا كناية عن طول أمله وغفلته عن الموت وحبه للمال وليس على الحقيقة فإن أحداً لا يزعم أنه لا يموت أبداً وفيه تعريض بأن المخلد هو الإيمان والأعمال الصالحة دون المال، عن عبد الله بن مسعود قال: خط النبي ﷺ خطأً مربعاً وخط خطأً في الوسط خارجاً منه وخطه خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانب الذي في الوسط فقال: «هذا إنسان وهذا أجله محيط به وهذا الذي هو خارج أمله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه نهشه هذا»^(١) وعن أنس قال خط النبي ﷺ خطوطاً فقال: «هذا الأمل وهذا أجله فبينما هو كذلك إذ جاءه الخطا لأقرب» روى من المحدثين البخاري ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الخصال المذكورة من الهمزة واللمزة، وحب المال وطوال الأمل ﴿لِيُبَيِّنَنَّ﴾ جواب قسم محذوف وجاز أن يكون كلاً بمعنى حقاً مفيد المعنى القسم فعلى هذا قوله لينبذن جواب قسم مذكور ﴿فِي الْخَطْمَةِ﴾ وهي اسم من أسماء جهنم وإنما سميت به لأنها تحطم وتكسر كل ما يطرح فيها ثم بين شدة أمرها بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ﴾ ﴿٥﴾ استفهام للتفخيم والتهويل والجملة معترضة لاستعظام شأنها يعني أنت لا تدري شدة أمرها فإنها أعظم من أن يدرك أو يخيل ثم فسرها بعد الإبهام بقوله ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي نار الله أضاف إلى نفسه للتعظيم فءنها مظهر قهر الله نعوذ بالله منها وصفات الله تعالى كلها جلالية كانت أو جمالية بالغة في الكمال إلى مرتبة لا يمكن فوقها ولا يدرك قدرها ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ صفة للنار على البناء للمجهول يعني أوقدها الله تعالى وما أوقده الله تعالى لا يقدر غيره أن يطفئه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»^(٢) رواه الترمذي ﴿الَّتِي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: في الأمل وطوله (٦٤١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم (٢٥٩١).

تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ أي تبلغ إلى الأفئدة والاطلاع والبلوغ، بمعنى واحد يحكى عن العرب من اطلعت أرضنا أي بلغت، أخرج ابن المبارك عن خالد بن عمر أن بسنده إلى النبي ﷺ قال: إن النار تأكل أهلها حتى إذا طلعت إلى أفئدتهم انتهت ثم يعود كما كان ثم تستقبله فتطلع على فؤاده فهو كذلك فذلك قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿١﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾ وكذا قال القرطبي والكلبي، قلت: فذكر الفؤاد هنا للدلالة على تأييد العذاب فإن نار الدنيا إذا أحرقت أحداً تميته قبل أن تطلع على فؤاده بخلاف نار جهنم أو لأن الفؤاد ألطف ما في البدن وأشد تألماً أو لأنه محل العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال القبيحة فكأنه هو منبع نار جهنم ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ﴾ جمع الضمير رعاية لمعنى كل والظرف متعلق بما بعده ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ جملة مستأنفة كأنها في جواب ما بالهم لا يخرجون ولا يفرون فقال إنها عليهم مؤصدة أي مطبقة، كذا أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يعني مغلقة من أوصدت الباب إذا أطبقه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال: إذا ابتلى في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحداً بعذاب غيره وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن غفلة نحوه ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ الظرف متعلق بمحذوف في محل النصب على الحالية أي موثقين في عمد وجاز أن يكون متعلقاً بمؤصدة فيكون النار داخل العمدة، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عمد بضم العين والميم والآخرين بفتحها وهما جمع عمود مثل أديم وأدم وآدم قاله الفراء، وقال أبو عبيد جمع عماد مثل أهاب وأهب، قال ابن عباس أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد وفي أعناقهم السلاسل وسدت عليهم بعماد لهما الأبواب، وقال قتادة بلغنا أنها عمد يعذبون بها في النار، وقيل هي أوتاد الأطباق الذي يطبق على أهل النار أي أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممدودة وهي في قراءة عبد الله بعمد بالباء، وقال مقاتل أطبقت الأبواب عليهم ثم سدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم باب ولا يدخل عليهم ممددة صفة لعمد أي مطولة فتكون أرسخ من القصيرة، والله تعالى أعلم.

سورة الفيل

مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للنبي ﷺ والاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والغرض منه التقرير يعني قد رأيت يا محمد وهو ﷺ وإن لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها، وجاز أن يكون الرؤية بمعنى العلم والجملة الاستفهامية التي بعدها سدت مسدت مفعولي ترو، فيه إشارة إلى نظرة ﷺ وأن يفعل بأعدائه مثل ما فعل بأصحاب الفيل ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ استفهام للتعجب ولذا لم يقل ما فعل لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله وقدرته وعزة بيته وشرف نبيه ﷺ فإنها من الإرهاصات وكانت قصة الفيل توطئة للنبوة ومقدمة لظهوره وبعثته وإلا فأصحاب الفيل كما قال ابن نعيم كانوا نصارى أهل التكايب وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذلك لأنهم كانوا عبدة الأوثان، وكان قدوم الفيل يوم الأحد لثلاث عشر ليلة بقيت من المحرم وبه قال ابن عباس ومن العلماء من حكى الاتفاق عليه، وقال كل قوم يخالفه وهم وفي ذلك العام ولد النبي ﷺ بعد نحو من الشهرين في شهر ربيع الأول من تلك السنة كذا قال الأكثرون وهو الأصح وقيل: بعده بثلاثين عاماً، وقال مقاتل بأربعين عاماً وقيل: بسبعين عاماً وقال الكلبي بثلاث وعشرين سنة، والأول أصح كذا في خلاصة السير ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ وهم أبرهة ملك اليمن وأصحابه، قال الضحاك وكانت الفيلة ثمانية، وقيل: اثني عشر سوى الفيل الأعظم والذي يقال له المحمود وإنما وحد لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم وقيل: لو فاق رؤوس الآي، وقصة أصحاب الفيل على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وذكره الواقدي أن النجاشي

ملك الحبشة كان قد بعث أرباطاً إلى الأرض اليمن فغلب عليها فقام رجل يقال له أبرهة بن الصباح من رجال الحبشة فساخط أرباط في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين فكانت طائفة مع أرباط وطائفة مع أبرهة فتزاحفا فقتل أبرهة أرباطاً واجتمعت الحبشة لأبرهة وغلب على اليمن وأفرد النجاشي، ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله فبنى كنيسة بصنعاء وكتب لى النجاشي إني صنعت لك بصنعاء كنيسة لم بين لملك مثلها بيت منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب فسمع به رجل من بني مالك بن كنانة فخرج إليها ليلاً فقعده فيها ليلاً ولطخ بالعدرة قبلتها فبلغ ذلك أبرهة فحلف أبرهة ليسيرن إلى كعبة حتى يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث ليه بفيلة يقال له محمود ولم ير مثله عظيماً وقوة فبعث إليه فخرج أبرهة سائر إلى مكة فسمعت العرب بذلك فعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر مقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر ولم يقتله ووائقه ثم سار حتاى إذا دنى من بلاد خثعم خرج نقيل بن حبيب الخثعمي في خثعم واجتمع إليه قبائل اليمن فقاتلوه وأخذ نقيلاً فقال نقيل أيها الملك إني دليل بأرض العرب فاستبقاه وخرج معه يدلّه على الطريق، حتى إذا مر بالطائف خرج مسعود بن مغيث الثقفي في رجال من ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيدك ليس لك عندنا خلاف إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلّك عليه فبعثوا أبا رغال مولى لهم فخرج حتى إذا ان بالمقمس يأت أبو رغال وهو الذي يرجم قبره فبعث أبرهة من المغمس رجلاً من الحبشة يقال له الأسود يسوق إليه أموال الحرم وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير ثم إن أبرهة بعث بحناطة الحميري إلى أهل مكة فقال أسأل عن شريفها ثم أخبره أنني لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت فانطلق، حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب وقال له ما قال أبرهة فقال عبد المطلب ماله عندنا قتال فتخلى به وبين ما جاء به فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليل ﷺ فإن يمنعه فهو بيته وحرمة وأن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة فقدم عبد المطلب العسكر لطلب إبله وكان ذو نفر صديقاً فأتاه فقال له ذو نفر إلى رجل أسير ولكن سأبعثك إلى أنيس سائس الفيل فإنه لي صديق قال ذو نفر لأنيس هذا سيد القریش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في الجبال ليستأذن عليك، وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته فهبط إلى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه وقال لترجمانه قل له ما حاجتك إلى الملك؟ فقال عبد المطلب: حاجتي مائتي بعير فقال أبرهة

لقد كنت أعجبنتني حين رأيتك ولقد زهدت فيك جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه لم لا تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصابتها؟ فقال عبد المطلب أنا رب هذه الإبل وإن لهذا البيت رباً سيمنعه، قال: ما كان ليمنعه مني فأمر بإبله فردت عليه وجاء عبد المطلب وأخبر قريشاً الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرفة الحبش ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهم حماك
إن عدو البيت من عداك امنعهم أن يخربوا قراك
وقال أيضاً:

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك وانصر على آل الصليب وعابد له اليوم ألك
لا يغلبن صليبهوم ومحالهم وعدو محالك جروا هموع بلادهم
والفيل كي يسبو عيالك جهلاً وما رقبوا جلالك
إن كنت تراكهم وكبتنا فأمر ما بدالك

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وهياً جيشه وهياً فيلة وكان فيلاً لم ير مثله في العظمة والقوة، ويقال كانت معه إثني عشر فيلاً فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بإذنه وقال: ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام فبرك الفيل فبعثوه فأبى فضربوه بالمعول رأسه فأبى فأدخلوا محاجنهم تحت موائقه ففزعوه ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ففعل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك فصرفوه إلى الحرام فأبى أن يقوم، وخرج نفيل يشتد حتى صعد إلى الجبل وأرسل الله عز وجل طيراً من البحر مثل الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره مثل الحمص والعدس فلما غشين القوم أرسلناها عليهم فلم يصب تلك الحجارة أحد إلا هلك وليس كل القوم أصاب وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذين جاؤوا يتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم إلى الطريق إلى اليمن ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال وصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون كل طريق ويهلكون على كل منهل ما كان على الطريق وبعث الله إلى أبرهة داء في جسده فجعل

يتساقط أنامله كلما سقطت أنملة اتبعتها مدة من قيح ودم فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطير فيمن بقي من أصحابه وما مات حتى انصدع صدره من قبله ثم هلك، قال الواقدي وأما محمود فيل النجاشي فركض ولم يشجع على الحرم فنجا والفيل الآخر شجع يضرب أي رمى بالحصاء، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرى أصحاب الفيل أن فئة من قريش خرجوا تجاراً إلى الأرض النجاشي فدنوا من ساحل البحر ثم بيعة النصارى تسمى قريش الهيلك فنزلوا فأحجوا ناراً فاشتروا فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف فهبت الريح فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصريح إلى النجاشي فأسف غضباً للبيعة فبعث أبرهة لهدم الكعبة وقال إنه كان بمكة يومئذ سعيد الثقفي وكان مكفوف البصر بصيف بالطائف ويشتوا بمكة وكان رجلاً نبيهاً ونبيلاً يستقيم الأمور برأيه وكان خليل عبد المطلب فقال له عبد المطلب ماذا عندك هذا يوم يستغني فيه من رأيك، فقال أبو مسعود اصعد بنا إلى حراء وصعد الجبل فقال أبو مسعود لعبد المطلب اعمد إلى مائة إبل فاجعلها لله وقلدها نعلماً ثم ابعثها في الحرم لعل بعض هذا السودان يعقر منها فيعضب رب هذا البيت فيأخذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود إن لهذا البيت رباً يمنعه وقد نزل تبع ملك من اليمن صحن هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام فلما رأى تبع ذلك كساه القباطي البيض وعظمه ونحر له الجزور فنظر أبو مسعود إلى البحر فرأى شيئاً، فقال لعبد المطلب فنظر نحو البحر فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيراً بيضاً نشأت من شاطئ البحر فقال: ارفعها ببصرك أين قرارها فدارت على رؤسنا قال: هل تعرفها؟ قال: والله ما أعرفها ما هي نجدية ولا تهامية ولا عربية ولا شامية، قال: ما قدرها؟ قال: أشباه اليعاسيب في منقارها حصى كأنها حصى الخذف قد أقبلت كالليل يتبع أمام كل فرقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق فجاءت حتى حاذت بعسكر القوم ركدت فوق رؤوسهم فلما توافقت الرجال كلها أهالت الطير ما في مناقيرها على ما تحتها مكتوب في كل حجر اسم صاحبه ثم انها انضاعت راجعة من حيث جاءت فلما أصبحت تحطا من ذروة الجبل فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحداً ثم أتوا ربوة فلم يسمع لاحساً فقال بات القوم خامدين فأسبحوا نياماً فلما دنوا عن عسكر القوم فإذا هم خامدون فكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى يقع في دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقة فعمد عبد المطلب فأخذ فأساً من قوسهم فنحفر حتى أعمق من الأرض فملأه من الذهب الأحمر والجوهر وحفر لصاحبه فملأه ثم قال

لأبي مسعود هات فاختر إن شئت حفرتي وإن شئت حفرتك وإن شئت فهما لك معاً، قال أبو مسعود اختر على نفسك قال عبد المطلب إنني لم آل أن أجعل أجود المتاع في حفرتي فهو لك وجلس كل منها على حفرتة ونادى عبد المطلب في الناس فراجعوا وأصابوا من فضلها حتى ضاقوا به ذرعاً وساد عبد المطلب وأبو مسعود في أهلها في غناء من ذلك المال ودفع الله عن كعبة ﴿الَّذِي يَجْعَلُ﴾ استفهام للإنكار مثل ألم تر ﴿كَيْدَهُمْ﴾ مكرهم وسعيهم في تخريب البيت ﴿فِي تَضَلُّلٍ﴾ تضييع وإبطال ﴿وَأَرْسَلَ﴾ عطف على مضمون ألم يجعل أي جعل ﴿عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبْيَلًا﴾ صفة طير أي كثيرة متغرفة تبع بعض جماعة جماعة أخرى يقال جاءت الخيل أبايلاً من ها هنا ومن ها هنا جمع آباله وهي الحزمة الكبيرة شبهت الجماعة من الطير في تضامها كذا قال أبو عبيد، وقال الفراء لا واحد لها من لفظها، وقال الكسائي جمع أبول مثل مجهول وعجاجيل وقيل: جمع إبل ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ أي أصحاب الفيل صفة أخرى للطير ﴿بِحِجَارَةٍ﴾ كائنة ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر معرب وقيل مشتق من السجل وهو الدلو الكبير أو الأسجال وهو إرسال أو من السجل ومعناه من الجملة العذاب المكتوب لأجلهم، قال ابن عباس طيراً لها خراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب، قال عكرمة لها رؤوس كرؤس السباع، وقال الربيع لها أنياب كأنياب السبع، وقال سعيد بن جبير طير خضر لها مناقير صفر، وقال قتادة طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً، قال ابن مسعود صاحب الطير ورقهم بالحجارة وبعث الله له بها فضربت الحجارة فزادته شدة فما وقع منها حجر على رجل إلا خرج من الجانب الآخر وإن وقع في رأسه خرج من دبره ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ عطف على أرسل ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ مفعول ثان لجعل أي جعلهم كزرع وتبن أكلته الدواب فرائه وتفرقت أجزاءه شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث وقال مجاهد العصف ورق الحنطة، وقال قتادة هو التبن، وقال ابن عباس هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف، ومعنى مأكول يعني أكلته الدواب، والله تعالى أعلم.

سورة القريش

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١﴾ ﴿إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا ۝٣﴾ ﴿الْبَيْتِ ۝٤﴾ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٥﴾

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١﴾ قرأ ابن عامر لآلاف بغير ياء بعد الهمزة وأبو جعفر ليلاف بغير همزة والباقون بهمزة وياء بعدها واللام للتعجب عند الكسائي والأخفش متعلق بمحذوف أي اعجبوا لإيلاف قريش، وقال الزجاج هي مردودة إلى ما بعدها تقديره فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش، والفاء للجزاء لأن الكلام معنى الشرط إذ المعنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوا لسائر نعمته فليعبدوا لإيلاف قريش لكن يرد عليه أن ما في حيز الجزاء لا يعمل قبله فالأولى أن يقال حينئذ الفاء زائدة، وجاز أن يكون متعلقاً بما قبله في السورة السابقة كالنظمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت التالي بالذي قبله تعلقاً لا يصلح إلا به والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل وجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف أي ليتسامع الناس ذلك الإهلاك لأجلهم فيحرموهم فضل إحرام حتى ينتظم لهم إلا من في رحيلتهم فلا يجترئ عليهم أحد، ولأجل هذا التعلق المعنوي عد بعض الناس سورة الفيل وهذه السورة سورة واحدة منهم أبي بن كعب لافصل بينهما في مصحفه فاللام على هذا متعلق بجعل. وقريش هم ولد النضر بن كنانة فمن ولده النضر فهو قريش ومن لم يلد له فليس بقريش سمو قريشاً من القوش والتقرش وهو الكتسب، والجمع يقال فلان يقرش لعياله ويتقرش أي يكتسب وهم كانوا تجاراً حراصاً على جمع المال والإفضال، وسأل معاوية عن عبد الله بن عباس لم سميت قريشاً قال: الدابة في البحر من أعظم الدواب يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته وهي تأكل ولا توكل تعلق ولا تعلق، وفي القاموس قرشه أي قطعه وجمعه من ها هنا وها هنا وضم بعضه إلى بعض ومنه قريش لتجمعهم إلى الحرم

ولأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها ولأن نصر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا: اتقرش أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا: كأنه جمل قريش أي شديداً أو لأنهم كانوا يقرشون الحجاج فيسدون خلتها أو سميت القرش وهي دابة بحرية يخافها دواب البحر كلها.

فائدة: عن وائلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»^(١) رواه البغوي وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الناس تبع بقريش في هذا الشأن مسلمهم وكافرهم»^(٢) متفق عليه وعن جابر مرفوعاً «الناس تبع لقريش في الخير والشر» رواه مسلم، قلت: لعل المراد من الحديث الأول قوة استعداد قريش ومن ثم ترى أفضل الصحابة وأكثر أولياء منهم وبالأخيرين أنه تعالى لما بعث خاتم النبيين منهم فكأنهم هم المخاطبون أولاً بالشرائع والإيمان وسائر الناس تبع لهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيَلْسَنَ قَوْمِهِ لِجِبَّتِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾^(٣) وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْذَرْنَاكَ الْآفْرِيكَ﴾^(٤) فمن آمن منهم سن سنة حسنة باتباع الرسول فلهم أجرهم وأجر من تبعهم ولذا صاروا أفضل الناس بعد الأنبياء ومن كفر منهم وسلك طريق مخالفة النبي ﷺ في بدء الأمر ثم مات على ذلك فعليه إثم من كفر بعدهم كما أن قابيل أول من قتل يقسم أهل النار بضعف عذاب جهنم قسمه صحابياً أخرجه البيهقي عن ابن عمر وقد مر فيسورة والشمس في حديث أنه أشقى الناس، وعن ابن عمر مرفوعاً قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»^(٥) متفق عليه، وعن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين» رواه البخاري، قلت: المراد بالأمر الخلافة والغرض من حديث ابن عمر وجواب استخلاف قريش وليس الغرض منه الإخبار والغرض من حديث معاوية الدعاء بالسوء على من بنى من خليفة

- (١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في فضل النبي ﷺ (٣٦١٤).
- (٢) أخرجه البخاري في أول كتاب: المناقب (٣٤٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨١٨).
- (٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤.
- (٤) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
- (٥) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش (٣٥٠١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨٢٠).

قريش عادل وعن سعد عن النبي ﷺ قال: «من يرد هوان قريش أهانه الله»^(١) رواه الترمذي، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم ولا يعطها أحداً بعدهم فضل الله قريشاً أني منهم وأن النبوة فيهم وأن الحجامة فيهم وأن السقاية فيهم ونصرهم على الفيل وعبدوا الله عشر سنين لم يعبدوه غيرهم وأنزل الله فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحداً غيرهم لثلاف قريش» رواه الحاكم والطبراني والبخاري في التاريخ، وعن زبير بن العوام مثله غير أنه لم يذكر أني منهم بل ذكر أن فيهم النبوة والخلافة والحجامة والسقاية والثلاثة النصر على الفيل وعبدوا الله عشر سنين ونزلت فيهم لثلاف قريش رواه الطبراني في الأوسط ﴿لِإِنْفِهِمْ﴾ بدل من الإيلاف الأول اتفق غير أبي جعفر على أنها بياء بعد الهمزة في اللفظ دون الخط إلا عبد الوهاب بن فليح عن ابن كثير فإنه قرأ إلفهم ساكنة اللام وإطلاق الإيلاف أولاً ثم إبدال المقيد عنه بقوله ﴿رَحَلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ للتفخيم فإنه كان من أعظم نعم الله عليهم وذلك لأن الحرم كان وادياً جدياً لا زرع فيه ولا ضرع فلولا الرحلتان لهم بالتجارة لم يكن لهم مقام ولا معاش، ولولا أن جعل الله مكة حراماً محترماً بحيث يكون الناس ويتقرضون لهم بالسوء قائلين قريش سكان حرم الله ولاة بيته لم يقدروا على الرحلتين فكانوا يرتحلون رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفاً وفي الصيف إلى الشام لأنها برد فيتمارون ويتجرون ويريحون، قال عطاء عن ابن عباس إنهم كانوا في ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين وكانوا يقسمون ربحهم بين الفقير والغني حتى كان فقيرهم كغنيهم، قال الكلبي كان أول من حل السمراء من الشام ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف، قال البغوي فشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام فأخصبت بتبالة وحرش من اليمن فحملوا الطعام إلى مكة أهل الساحل من البحر على السفن وأهل البر على الإبل والحمير فألقى أهل الساحل بجدة وأهل البر بالمحصب وأخصبت أهل الشام فحملوا الطعام إلى مكة فألقوا بالأطح فامتاروا من قريب وكفاهم الله مؤونة الرحلتين وأمرهم بعبادة رب هذا البيت فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ إن كان لام لإيلاف متعلقاً بما قبله أو للتعجب فالفاء للعطف والسببية وإن كان متعلقاً بما بعده فهي زائدة أو في جواب شرط مقدر كما مر ﴿رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي الكعبة يعني الله سبحانه ذكر الله تعالى بصفة ربوبية البيت ولكون البيت باعثاً لأمنهم ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ خوف أصحاب الفيل أو التخطف بيلدهم أو في السفر بجعلهم من أصحاب الحرم، وقال الضحاك والربيع والسفيان أمنهم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل الأنصار وقريش (٣٩١٤).

من خوف انهدام فلا يصيب ببلدهم ذلك كله بدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا
وَأَنْزِلْ أَهْلَهُ مِنَ النَّارِ﴾^(١) عن أبي الحسن القزويني موقوفاً إن خاف من عدو أو غيره فقراءة
لإيلاف قريش أمان عن كل سوء ذكره الجزري في الحصن الحصين وقال مجرب، قلت
وقد أمرني شيخي وإمامي قدس الله سره السامي بقراءته في المخاوف لدفع كل سوء وبلاء
وقال مجرب، قلت: وقد جربته كثيراً والله تعالى أعلم.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

سورة الماعون

مكية وهي سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَتَّبِعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾﴾ الاستفهام للتعجب والرؤية بمعنى الإبصار والمعرفة فاقصر على مفعول واحد وهو الموصول مع الصلة، وقال في البحر الموج الاستفهام للتقرير والرؤية بمعنى العلم والموصول خبر محذوف يعني ذلك تقديره رأيت ذلك الذي يكذب بالدين، قال مقاتل نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقال السدي ومقاتل وابن كيسان هو الوليد بن مغيرة، وقال الضحاك نزلت في عمرو بن عائد المخزومي فصدر السورة على هذا الأقوال مكية وآخر السورة مدنية كذا قيل، وقال عطاء عن ابن عباس رأيت الذي يكذب بالدين نزلت في رجل من المنافقين فالموصول للعهد وقيل للجنس ﴿بِالْإِيمَانِ﴾ أي بالإسلام وبالجزاء ﴿فَذَلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو ذلك والفاء للسببية والجملة في مقام التعليل للجملة السابقة، وقيل: الفاء جزائية والفرط محذوف تقديره رأيت وعرفت الذي يكذب بالدين فإن لم تعرفه فهو ذلك ﴿الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي يقهره ويدفعه عن حقه الدع والدفع بالعنف ﴿وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ أي لا يأمر نفسه وأهله وغيره بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ الفاء جزائية يعن إذا كان عدم المبالاة باليتيم من ضعف الدين والموجب للذم والتوبيخ فالسهو عن الصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة الكفر ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام أولى بذلك ولذلك رتب عليه الويل أو للسببية على معنى فويل لهم، وإنما وضع المصلين موضع الضمير للدلالة على معاملتهم مع الخالق وساهون أي غافلون غير مباليين به، روى البغوي بسنده عن مصعب بن سعد بن

أبي وقاص عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ هم عن صلاتهم ساهون؟ قال: إضاعة الوقت وفي رواية ابن جرير وأبي يعلى قال: هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، قال أبو العالية يصلونها لمواقيتها ولا يتمون ركوعها وسجودها، وقال قتادة ساء عنها لا يبالي صلى أو لم يصل قيل لا يرجون ثواباً إن صلوا ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، وقال مجاهد غافلون فيها متهاونون بها وقال الحسن وهو الذي عليها إن صلاها رياء وإن فاتته لم يندم ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ مفاعلة من الرؤية أي يراؤون الناس أعمالهم ليردوا الثناء عليها قال عنه: «من صلى يرائي فقد أشرك ومن صام يرائي فقد أشرك ومن تصدق يرائي فقد أشرك» رواه أحمد عن شداد بن أوس ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال قطرب الماعون في الأصل الشيء القليل والمرادها هنا الزكاة كذا روي عن علي وابن عمر والحسن وقتادة والضحاك وإنما سمي الزكاة ماعوناً لكونها قليلاً من الكثير، وقال ابن مسعود الماعون الفاس والدلو والقدر وأشبه ذلك وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وقال مجاهد الماعون العارية، وقال عكرمة أعلاها الزكاة المفروضة وأدناها عارية المتاع، وقال محمد بن كعب والكلبي الماعون المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم، وقيل: الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء والملح والنار، قال قلت يا رسول الله هذا الماء فما بال الملح والنار؟ قال: «يا حميراء من أعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما أنضجت تلك النار من أعطى ملحاً فكأنم تصدقت بجميع ما طيب فلك الملح ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أحياها»^(١) رواه ابن ماجه، وأخرج ابن المنذر من طريق أبي طلحة عن ابن عباس قال قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الخ نزلت في المنافقين كانوا يراؤون المؤمنين بصلواتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعون العارية، قال في المدارك روي عن أنس والحسن قالا الحمد لله الذي قا عن صلاتهم ساهون ولم يفل في صلاتهم لأن معنى عن سهو ترك وإعراض عنها وقلة التفات إليها وذلك فعل المنافقين ومعنى فيما يقع في الصلاة من حديث النفس ووسوسة الشيطان والحكم في ذلك التعوذ ودفع الوسوسة ما استطاع والعفو فيما لم يستطع عن عثمان بن أبي العاص قال: قلت: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بين صلاتي وبين قراءتي يلبسها

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الرهون، باب: المسلمون شركاء في ثلاث (٢٤٧٤)، وهو ضعيف

لضعف علي بن زيد بن جدعان.

علي؟ فقال رسول الله ﷺ ذاك شيطان يقال لها خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً ففعلت ذلك فأذهبه الله عني»^(١) رواه مسلم، وعن القاسم بن محمد أن رجلاً سأله فقال: إني آهَمُ في صلاتي فيكثر ذلك علي فقال: «امض في صلاتك فإنه لم يذهب ذلك عنك حتى تنصرف وتقول ما أتممت صلاتي» والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة (٢٢٠٣).

سورة الكوثر

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾

﴿١﴾

روى مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بينا يظهرنا إذا أغفا إغفاه ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال: أنزلت علي آناً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير هو حوض يرد عليه أمتي يوم القيامة أنيته عدو النجوم فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه أمتي فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك»^(١) وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن أبي أيوب قال لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا إن هذا الصابىء قد بتر الليلة فأنزل الله تعالى إنا أعطيناك الكوثر وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج، وأخرج ابن جرير عن شهر بن عطية قال: كان عقبه بن أبي معيط يقول لا يبقى لمحمد ولد وهو أبتَر فأنزل الله فيه إن شانتك هو الأبتَر وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة في قوله فصل لربك وانحر قال أنزلت يوم الحديبية أتاه جبرئيل فقال انحر وارجع فقام فخطب خطبة القصر والنحر ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرها وفيه غرابة شديدة، وأخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش أنت سيد أهل المدينة ألا ترى إلى هذا المتصبر المتبزم من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة قال: أنتم خير منه فنزلت إن شانتك هو الأبتَر، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال البسملة آية من كل سورة سوى براءة (٤٠٠).

أوحى إلى النبي ﷺ قالت قريش بتر محمد منا فنزلت إن شانتك هو الأبر، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل بتر فلان فلما مات ولد النبي ﷺ قال العاص بن وائل: بتر محمد فنزلت، وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علي بن الحسين وسمى الولد القاسم، وأخرج البيهقي في الدلائل عن مجاهد قال فنزلت في العاص بن وائل قال أنا شأني محمد، وذكر البغوي أن العاص بن وائل السهيمي رأى النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا: من الذي تحدثت معه قال ذلك الأبر يعني النبي ﷺ وكان قد توفي ابن رسول الله ﷺ من خديجة، وذكر محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ قال دعوه فإنه رجل أبر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله هذه السورة، قلت: والصحيح عندي أن نزول إنا أعطيناك الكوثر لم ين عند وفاة ابن النبي ﷺ فإن القاسم مات بمكة، قبل الهجرة وفي رواية قبل البعثة وما روى عن محمد بن علي فهو من رواية جابر الجعفي وهو كذاب وإبراهيم مات سنة عشر جزم به الواقدي وقال يوم الثلاثاء بعشر خلون من ربيع الأول كذا في سبيل الرشاد والصحيح في نزول هذه السورة رواية مسلم عن أنس ورواية البزار عن ابن عباس حين قدم كعب بن الأشرف مكة والله أعلم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾ قال أهل اللغة الكوثر فوعل من الكثرة كنوفل من النفل والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير في القدر والخطر كوثر ومن ها هنا ما روى البخاري ومن طريق أبي بشر وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ قال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه إياه فعلى هذا حمل ابن عباس اللام في الكوثر للجنس وزعم أن الحوض فرد من أفراده وكذا من قال هو النبوة والقرآن والأولى حمل اللام على العهد تفسيره بما فسر به النبي ﷺ كما ذكرنا حديث مسلم عن أنس وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت يدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أزفر قلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله»^(١) وعند أحمد والترمذي عنه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: في الحوض (٦٥٧٨).

مرفوعاً قال: «هو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وفيه طيور أعناقها كأعناق الجزر قال عمر رضي الله عنه يا رسول الله إنها لناعمة قال: أكلها أنعم منها يا عمر^(١) وأخرج الطبراني عن أسامة بن زيد أن امرأة حمزة بن عبد المطلب قالت يا رسول الله إنك أعطيت نهراً في الجنة تدعى الكوثر قال: «أجل وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ هو ما بين أيلة وصنعاء فيه أباريق مثل عدد النجوم» وأخرج الطبراني عن حذيفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال: نهر في الجنة أجوف فيه آنية من الذهب والفضة لا يعلمها إلا الله تعالى، وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الكوثر نهر في الجنة حافته من ذهب والماء يجري على اللؤلؤ» الحديث^(٢) وأخرج البخاري عن عائشة أنها سألت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت: نهر أعطاه الله تعالى نبيكم صلى الله عليه وسلم ذكر الحوض في رواية بضع وخمسين صحابياً الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس والحسن بن علي وحمزة بن عبد المطلب وعائشة وأم سلمة وأبو هريرة وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف وجابر بن عبد الله وغيرهم، وسرد السيوطي في البدور السافرة الأحاديث الواردة فيه نحواً من سبعين ﴿فَصَلِّ﴾ الفاء للسببية يعني فصل شكر الله تعالى على أما أعطاك فإن الصلاة جامعة لأقسام الشكر باللسان والقلب والجوارح، وقيل معناه دم على الصلاة ﴿لِرَبِّكَ﴾ خالصاً بوجهه خلافاً لمن يصلون وينحرون بغير الله وخلافاً لمن يراؤون فيها ﴿وَأَنْحَرْ﴾ البدن التي هي خيار أموال العرب وتصدق على اليتامى والمساكين خلافاً لمن يدعوني اليتامى والمساكين ويمنعون الماعون فهذه السورة كالمقابلة لسورة المقدمة، قال عكرمة وعطاء وقتادة فصل لربك صلاة العيد يوم النحر ونحر نسكك فعلى هذا يثبت به وجوب صلاة العيد والأضحية، وقال سعيد بن جبير فصل الصلاة المفروضة بجمع وانحر البدن بمنى، وروي عن ابن الجوزاء عن ابن عباس قال فصل لربك وانحر وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر ﴿إِنَّكَ شَانِتُكَ﴾ عدوك ومبغضك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي لا عقب له بمعنى أنه لا يعقبه ذكر حسن ويعقبه اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين فلا يرد ما قيل أن العاص بن وائل كان له عقب وهو عمرو وهشام فكيف يثبت له البتر وانقطاع الولد وأن عمرو وهشام أسلما فقد انقطعت بينه وبينهما حتى لا يرثان فهم من أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة طير الجنة (٢٥٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكوثر (٣٣٦١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب: صفة الجنة (٤٣٣٤).

وأزواجه أمهاتهم، وذكر خبر أن معرفاً باللام وإيراد ضمير الفصل للدلالة على الحصر يعني لست بأبتر فإنه يبقى ذكرك مع ذكر الله تعالى أبدأ ويدوم حسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة والآخرة خير لك من الأولى ويبقى ذكر المؤمنين من أمتك على السنة الملائكة والمؤمنين في قولهم اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والله تعالى أعلم.

سورة الكافرون

مكية وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا اَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا اَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا اَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا اَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ ﴿٦﴾﴾

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا: هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهك سنة قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي، وأخرج عبد الرزاق عن وهب بلفظ قالت قريش: إن شرك أن يعقبك عاماً وترجع في ديننا عاماً وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن ميناء لقي الوليد بن مغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ خطاب لجماعة مخصوصة سالوا المسالمة قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿لَا اَعْبُدُ ﴿٢﴾﴾ أبداً ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٣﴾﴾ غير الله تعالى من الأوثان نفي لموافقتهم في العبادة في المستقبل من الزمان حتى يطابق السؤال لأن سؤالهم كان من المسالمة والمصالحة في الاستقبال مع ظهور مباينة النبي ﷺ الكفار في الحال وكما قال البيضاوي أن لا لا يدخل على المضارع بمعنى الاستقبال كما أن ما لا يدخل إلا على المضارع بمعنى الحال ﴿وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُونَ ﴿٤﴾﴾ فيما يستقبل لأنه في مقابلة لا أعبد ﴿مَا اَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾ أورد ما موضع من للمطابقة أو لأن المراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا أنتم عابدون الحق، وقيل ما مصدرية ﴿وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا اَعْبُدُ ﴿٦﴾﴾ وَلَا اَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٦﴾﴾ قرأ هشام عابدون في الموضعين وعابد بالإمالة والباقون بالفتح قال أكثر أهل المعاني إن القرآن نزلت بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم وعلى هذا مذاهبهم التكرار لإرادة

التوكيد والإفهام كما أن من مذاهب الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز فهذا تكرير للتأكيد، وقال القبيبي تكرار الكلام لتكرار الوقت وذلك أنهم قالوا إن شرك أن تدخل دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً فنزلت السورة كأنه نفي المشاركة في الوقتين، وقيل: كلمتان الأوليان بمعنى الذي والآخريان مصدريتان فالمقصود نفي المشاركة من حيث المعبودون حيث كيفية العبادة ﴿لَكَرُّ دِينِكُمْ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركونه أبداً فهو أخبار كقوله تعالى ﴿وَلِي دِينٍ﴾ أي ديني الذي أنا عليه لا أرفضه أبداً إن شاء الله تعالى فليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد بل تذييل وتأکید لما سبق وتقديم الخبر للحصر فلا يحكم بكون الآية منسوخة بآية القتال ولا يجوز تفسيره بالمشاركة وتقرير كل من الفريقين الآخر على دينه لأن النبي ﷺ لم يزل يدعوهم إلى الإسلام ما زال الكفار على إيذائه وإيذاء أصحابه وجاز أن يكون المعنى لكم جزاء أعمالكم ولي جزاء أعمالتي، قرأ نافع وحفص وهشام لي دين والباقون بإسكانها وهي رواية مشهورة عن البزي، وقال الدالاني وبه أخذ وقد مر في حديث أنس وابن عباس في تفسير إذا زلزلت قوله ﷺ قال: «يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن» وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «نعم لسورتان هما تقرأن في الركعتين، قبل الفجر الكافرون والأخلص» رواه ابن هشام، وعن فروة بن نوفل بن معاوية عن أبيه أنه قال يا رسول الله علمي شيئاً أقوله إذا أويت إلى فراشي قال: اقرأ قل يا أيها الكافرون فإنها براءة من الشرك^(١) رواه الترمذي وأبو داود والدارمي وعن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «أتحب يا جبير إذا خرجت في سفر تكون أمثل أصحابك هيئة وأكثر زاداً؟ فقلت: نعم بأبي أنت وأمي قال: فاقرأ هذه السورة الخمس قل يا أيها الكافرون وإذا جاء نصر الله وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وافتح كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم واختتم قراءتك بها» قال جبير: وكنت غنياً وكثيراً لمال فكنت أخرج في سفر فأكون أبذلهم هيئة وأقلهم زاداً فما نزلت منذ علمت من رسول الله ﷺ وقرأت بهن أكون أحسنهم هيئة وأكثرهم زاداً حتى أرجع من سفري» رواه أبو يعلى، وعن علي قال: لدغت النبي ﷺ عقرب فدعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ قل يا أيها الكافرون وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول عند

سورة النصر

مدنية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح بعث خالد بن وليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله ثم أمر بالسلاح فرفع عنهم فدخلوا في الدين فأنزل الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي إظهاره إياك على أعدائك وعلى تقدير نزولها السورة بعد فتح مكة يعني يوم الفتح فإذا ها هنا بمعنى إذ كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾^(٢) ﴿وَالْفَتْحُ﴾ يعني فتح مكة، روى الطبراني، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح هذا ما وعدني ربي ثم قرأ إذا جاء نصر الله والفتح. وكانت قصة الفتح على ما ذكر أصحاب الأخبار أن رسول الله ﷺ لما صالح قريشاً عام الحديبية على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيه الناس وأنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه فدخلت بنو بكر في عقد قريش وخزاعة في عقد رسول الله ﷺ وكان بينهما شر قديم، ثم إن بني نفاثة من بني بكر عدت على خزاعة فخرج نوفل بن معاوية الديلمي منهم حتى بيت خزاعة موضع أسفل مكة وقتلواهم حتى دخلوا الحرم وما تركوا القتال وأمدت قريش بني بكر بالسلاح وقتل بعضهم معهم ليلاً مستخفياً منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وشيبة بن عثمان وخويطب بن عبد العزى مع عبيدهم ثم ندمت قريش

(١) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٦.

على نقض العهد ولام بعضهم بعضاً وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين ركباً بعد القتال إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه أخبر رسول الله ﷺ يوقفه بني نفاثة وخزاعة قبل بلوغ الخبر، وقال ينقضون العهد لأمر يريد الله قالت عائشة خير قال: خير روى محمد بن عمرو عنها والطبراني عن ميمونة نحوها ولما قدم عمرو بن سالم قام رسول الله ﷺ يجرد رداءه ويقول: «لا نصرت إن لم أنصرك يا عمرو وبما أنصرت به نفسي» وذلك في شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية فأرسل رسول الله ﷺ حمزة إلى قريش يخبرهم بين أمور ثلاثة أن أدوا دية قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً أو من خلف من نقض الصلح وهم بنو نفاثة أو ينبذ إليكم على سواء فاختلف قول قريش ثم آل أمرهم إن نبذ الصلح ورجع حمزة بالنبذ، وشاور النبي ﷺ أبا بكر وعمرو فأشار أبو بكر بالصلح واللين وقال هم قومك حتى رأى أنه سيتبعني وأشار عمر بالحرب وقال هم رأس الكفر زعموا أنك ساحر كاهن كذاب ولم يدع شيئاً مما كان يقولونه وقال لا تذلل العرب حتى يذل أهل مكة فاختر النبي ﷺ رأي عمر فخير رسول الله ﷺ مخفياً أمره وحرص العرب فجاء أسلم وغفار ومزنية وحرفية وأشجع وسليم فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه في الطريق والمسلمون عشرة آلاف، وقيل: اثنا عشر ألفاً ويجمع بأن العشرة حين الخروج من المدينة وتلاحق به ألفان ثم ندم قريش على نبذ الصلح فبعث أبا سفيان ودخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه وقالت: هو فراش رسول الله ﷺ لقد أصابك يا بنية بعدي شر قالت: هداني الله للإسلام وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام وتعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟ فقام من عندها، فدخل على رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه وأن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر فكلمه فقال: والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به فدخل على عليّ وعنده فاطمة والحسن فقال: يا علي إنك أمس القوم مني رحيماً أشفع لنا إلى رسول الله ﷺ فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله ﷺ ما يستطيع أحد أن يكلمه، فالتفت إلى فاطمة فقال هل لك أن تأمري بنيتك هذا فيجبر بين الناس فأبت فقال: يا أبا الحسن اشتد الأمر علي فانصحتني فقال: والله لا أعلم شيئاً يغنيك لكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال وترى ذلك مغنياً عني شيئاً قال لا ولكن لا أجد غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ثم ركب بيته فانطلق وقدم على قريش وقضى القصة قالوا والله إن أراد على إلا أن

لعب لك فاستخلف النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وقيل أبا ذر الغفاري وهو الصحيح رواه الطبراني. خرج رسول الله ﷺ الأربعاء لعشر خلون من رمضان سنة ثمان من الهجرة وقيل غير ذلك وقال رسول الله ﷺ: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش» روى البخاري عن علي يقول بعثني رسول الله ﷺ أنا وزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوا منها قال فانطلقنا بنا خيلنا حتى أتينا روضة فإذا نحن بالطعينة قلنا أخرجي الكتاب قالت ما معي كتاب فقلنا لتخرجي الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن بلتعة إلى الناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ إني كنت امرأً ملصقاً في قريش وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم فأحببت إذا فاتني ذلك من أنسب فيهم أن اتخذوا عندهم هذا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه قد شهد بدرًا وما يدريك يا عمر أن الله تعالى عز وجل اطلع على من شهد بدرًا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فرقت عينا عمر فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إلى قوله ﴿سَوَاءٌ السَّبِيلُ﴾^(١) وصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه فلما بلغ الكديد أظفر وأظفروا فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر، وخرج العباس بن عبد المطلب مهاجراً فلقية بالجحفة وكان قبل مقيماً بمكة على سقاية برضاه ولقيه بالأبواء أبو سفيان بن الحارث ابن عمه وابنه جعفر بن أبي سفيان وأسلما قبل دخول مكة، قيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أمية بن عمته عاتكة فأعرض رسول الله ﷺ عنهما وقال: لا حاجة لي بهما فقد هتكا عرضي وقالوا لي ما قالوا فألجؤوا وكلمت أم سلمة فيهما فأذن لهما فلما كان بالقددير عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل وراية النبي ﷺ مع الزبير، ثم نزل بمر الظهران عشاء وقد عميت الأخبار عن قريش فخرج تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقة يتجسسون الأخبار وأمر النبي ﷺ أصحابه فأوقدوا عشر آلاف ناراً وقال العباس بن عبد المطلب ليلتذوا واصباح قريش والله لئن دخل النبي ﷺ مكة عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر فخرج عباس على بغلة رسول الله ﷺ ليرى خطاباً أو صاحب لبن أو ذا حاجة يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيستأمنونه قبل أن يدخلها عليهم عنوة فسمع عباس صوت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح (٤٢٧٤).

أبي سفيان يقول والله ما رأيت كالليل نيراناً، فقال عباس ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ قد جاء بما لا قبل لكم به فقال: ما الحيلة؟ فقال عباس يا أبا سفيان لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى أتى بك رسول الله ﷺ فتستأمنه فرجع فكلما مرا بنا نظروا إليه وقالوا هذا عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ حتى مرا بنار عمر فلما رأى عمر أبا سفيان قام عمر فقال: هذا أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منه بغير عهد ولا عقد فاشتد نحر رسول الله ﷺ فدخل عباس مع أبي سفيان على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف ولو كان من بني كعب ما قلت هذا قال: مهلاً يا عباس لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك فلما أصبح عذابه عباس إلى رسول الله ﷺ قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئاً بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن أن تعلم أنني رسول الله قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه ففي نفسي منها شيء، قال عباس ويلك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله قبل أن يضرب عنقك فشهد شهادة الحق وأسلم وأسلم حكيم وبدل قبل أبي سفيان هذا رواية إسحاق بن راهويه بسند صحيح. وعند الطبراني أن رسول الله ﷺ قال يعني يا عباد الله إن أبا سفيان بالأراك فخذوه وعند ابن أبي شيبة إن أبا سفيان وأصحابه أخذهم حرس رسول الله ﷺ من الأنصار وكان الحرس تلك الليلة عمر فقال احبسوه فحبسوه حتى أصبح وعند ابن أبي شيبة قال أبو سفيان دلوني على العباس وفي رواية فيهم عباس فذهب به إلى رسول الله ﷺ إلى آخر القصة وقال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن» فصرخ أبو سفيان في المسجد بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به وأخبر بما أتى به من الأمان فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ولما أسلم حكيم بن حزام وبدل بن ورقا وبايعاه بعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش يدعوهم إلى الإسلام وبعث رسول الله ﷺ الزبير وأعطاه الراية وأمره على خيل المهاجرين والأنصار وأمره أن يركز راية بأعلى مكة بالحجون، وقال لا تبرح حتى أمرتك ومن ثم دخل رسول الله ﷺ وضربت هناك قبة وأمر خالد بن وليد فيمن أسلم من قضاوته وبني سليم أن يدخل من أسفل مكة وبها بنو بكر قد استغفرتهم قريش وبنو الحارث بن عبد مناف ومن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة وقال النبي ﷺ لخالد

والزبير حين بعثهما لا تقاتلا إلا من قالتكم وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء وأعطاه رسول الله ﷺ راية فقال سعد حين توجه داخلاً اليوم يوم الملحمة اليوم يستحل الحرمه، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله أسمع ما قال سعد بن عبادة من أين يكون له في قريش صولة؟ فقال رسول الله ﷺ لعلي أدركه فخذ الراية فكن أنت تدخل بها فذهب علي بالراية حتى غرزاها عند الركن، وروى أبو يعلى عن الزبير أن النبي ﷺ دفع الراية إليه فدخل مكة بلوائين فلم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير فقال: وأما خالد بن الوليد فلما دخل من أسفل مكة منعه من كان هناك من المشركين قريش وغيرهم أن تستهروا له السلاح ورموه بالنبل وقالوا لا تدخلها ما عنوة فصاح خالد في أصحابه فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرون رجلاً من قريش وأربعة من هذيل. وقال ابن إسحاق أصيب من المشركين اثني أو ثلاثة عشر وانهمزوا أقبح الانهزام حتى قتلوا بالحروة وهم مولون من كل وجه وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون ولم يقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد ورجلان يقال لهما كرز بن جابر الفهري وجيش بن خالد بن ربيعة كانا في خيل خالد بن الوليد فشدنا عنه وسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمراءه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا بمكة أن لا تقتلوا أحد إلا من قاتلهم إلا نفر أسمائهم فأمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة عبد الله بن أبي سرح كان أسلم ثم ارتد فشفع فيه عثمان يوم الفتح فحقن دمه وأسلم بعد ذلك وعكرمة بن أبي جهل فقيل إسلامه وحويرث بن كان يؤذي رسول الله ﷺ ونحن نرهب حين هاجرت إلى المدينة فقتله علي ومقيس بن صبابه كان أسلم، ثم أتى علي رجل من الأنصار فقتله وكان الأنصاري قتل أخاه هشاماً خطأ في غزوة ذي قردة ظنه من العدو فجاء مقيس فأخذ الدية ثم ارتد فقتله غيلة بن عبد الله رجل من قومه وهبار بن الأسود كان شديد الأذى للمسلمين وعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ فتحس بها فاسقطت ولم يزل ذلك المرض بها حتى ماتت أسلم يوم الفتح فعفا عنه رسول الله ﷺ والحارث بن الطلائع الخزاعي قتله على ذكره... أو معشر وكعب بن الزبير الشاعر كان يهجو فأسلم ومدح رسول الله ﷺ ذكره الحاكم ووحش ابن حرب قاتل بن حمزة فهرب إلى الطائف ثم جاء فأسلم وعبد الله بن حنظل كان اسمه عبد الحرث كان قد أسلم وسماه رسول الله ﷺ عبد الله وبعثه ساعياً وبعث معه رجلاً من خزاعة وكان يصنع له طعاماً ويخدمه فنزلاً منزلاً وأمره أن يذبح له ويصنع طعاماً وقام نصف النهار فاستيقظ ولم يضع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد وهرب إلى مكة وكانت له

فتيتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه فقتلت يوم الفتح إحداهما وهربت الأخرى فقتله سعيد بن حري المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه وأسلمت التي هربت وسارة مولاة عمر بن هاشم كانت مغنية نواحة بمكة وهي التي وجد معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة أسلمت عنها وهرب صفوان بن أمية إلى جدة ليركب منها حمزة عم رسول الله ﷺ أسلمت فعفى عنها وهرب صفوان بن أمية إلى جدة ليركب منها إلى اليمن فاستأمن له عمير بن وهب فأتى رسول الله ﷺ اجعلني في أمري بالخيار إل شهرين فخيره رسول الله ﷺ إلى أربعة أشهر ثم أسلم بعد ذلك ودخل رسول الله ﷺ مكة وعلى رأسه سقاء، رواه أحمد ومسلم وأربعة في الصحيحين على رأسه المغفر وجمع بأنه كان على رأسه المغفر ثم نزع المغفر ولبس العمامة وكان يقرأ سورة الفتح يرجع صوته بالقراءة كذا في الصحيحين فنزل رسول الله ﷺ ومعه أم سلمة وميمونة زوجته في قبة من آدم بالحجون لخيف بني كنانة حيث تقاسم قريش وكنانة على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ فقيل: ألا تنزل منزلك من الشعب؟ فقال: هل ترك لنا عقيل منزلاً؟ وقد باع عقيل منزل رسول الله ﷺ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة فقيل فأنزل في بعض بيوت مكة غير ما ذلك فأبى وقال: لا أدخل البيوت وكان يأتي في المسجد لكل صلاة من الحجون فمكث في منزله ساعة من النهار فاغتسل وسترته فاطمة وصلى ثمان ركعات سبحة الضحى^(١)، رواه مسلم. وعند البخاري عن أم هانئ أنه ﷺ اغتسل في بيتها وصلى ثم ركب راحلة وأتى الكعبة واستلم الركن بمحجته وكبر وكبر المسلمون حتى ارتجت مكة تكبيراً وجعل رسول الله ﷺ يسير إليهم أن أسكنوا والمشركون فوق الجبال ينظرون ثم طاف بالبيت على راحلته سبعاً يستلم الركن بمحجته وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصعة بالرصاص وكان هبل أعظمها وهو وجاه الكعبة على بابها وأساف ونائله حيث ينحرون ويذبحون فجعل رسول الله ﷺ كلما مر بصنم منها يشير إليه ويطنع في عينه ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) فما يشير بصنم إلا سقط بوجهه أو بقضاه من غير أن يمسه، وأراد فضالة بن عمر الليثي قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف فلما دنى منه قال يا فضالة قال نعم قال ماذا كنت تحدث به نفسك قال لا شيء كنت أذكر الله فضحك رسول الله ﷺ وقال استغفر الله ثم وضع يده على صدره فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صري حتى لم يكن شيء أحب إلي منه فلما فرغ من طوافه نزل عن راحلته على أيدي الرجال لم يجد مناخاً في

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: تستر المغتسل بثوب ونحوه (٢٧٨٣).

المسجد وأناخ البعير خارج المسجد ثم انتهى إلى مقام وهو لاحق بالكعبة والدرع عليه والمغفر وعمامة بين كتفيه فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها، وقال لولا أن يغلب بنو عبد المطلب فنزعت منها دلواً فنزعه عباس ويقال الحارث بن عبد المطلب دلواً فشرب منه وتوضأ المسلمون يبتدرون بوضوئه يصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون ما رأينا ملكاً قط أبلغ منه فلا سمعنا به أمر بهبل فسر وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ اجلس فجلست إلى جنب الكعبة فصعد رسول الله ﷺ ثم قال يا علي اصعد على منكبي ففعلت فلما نهض بي خيل إلي لو شئت نلت أفق السماء فصعدت فوق الكعبة فقال أنقض صنمهم الأكبر وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد إلى الأرض فقال عالجه ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً فرميت به، فأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتي بمفتاح الكعبة فقال عثمان هو عند أمي فأرسل إليها فقالت لا واللوات والعزى لا أدفعه إليك أبداً فقال لها عثمان لا لات ولا عزى إن لم تفعلني قتلت أنا وأخي فأبطأ عثمان ورسول الله ﷺ ينتظره فبعث أبا بكر وعمر فلما سمعت صوت أبي بكر وعمر قالت يا بني خذ المفتاح فإن تأخذ أنت أحب إلي من أن يأخذونه هم عدوي، فأخذه عثمان فجاء به رسول الله ﷺ فتناول رسول الله ﷺ منه المفتاح، ففتح الكعبة بيده وكان هو طلحة يقولون لا يفتح الكعبة إلا هم فأمر رسول الله ﷺ عمر بإزالة الصور عن البيت قبل دخوله فجرد المسلمون في الأزر وأخذ الولاء وارتجزوا على زمزم ويغسلون الكعبة ظهرها وبطنها فلم يدعوا أثراً من المشركين إلا محوه وغسلوه فدخل رسول الله ﷺ الكعبة هو وأسامة بن زيد وطلحة وأغلقوا عليهم الباب فجعل رسول الله ﷺ عموداً عن يمينه وعمودين عن يساره وثلاثة أعمدة نحو باب البيت ورائه بينه وبين الجدار ثلاثة أزرع وذراعين فصلى ركعتين، ثم خرج وصلى ركعتين قبل القبلة وقال: «هذه القبلة» ثم قام على باب البيت قال: «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إن كل مأثرة ودم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين وأول دم أضعه دم ربيعة بن الرحاح إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا في قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمدة الدية المغلظة مائة ناقة منها أربعون في بطونها أولادها ولا وصية لوارث وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر ولا يحل لامرأة أن تعطي من مال زوجها إلا بإذنه والمسلمون يد واحد على من سواهم ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملتين ولا جلب ولا جنب ولا يؤخذ صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وأفنيهم ولا تنكح امرأة على عمتها ولا على خالتها والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ولا تسافر امرأة

إلا مع ذي محرم ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح وأنهاكم عن صوم يومين يوم الفطر ويوم الأضحى وعن اللبستين لا يحتبى في ثوب واحد ولا يشتمل الصماء، يا معشر قريش إن الله قد ذهب عنكم الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس ابن آدم وآدم خلق من تراب، ثم تلا: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ الآية يا أهل مكة ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خير أخ كريم وابن آخر كريم قال: لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء» فأعتقهم رسول الله ﷺ فخرجوا كما نشروا من القبور، وروى البخاري عن أبي هريرة إن عام الفتح قتلت خزاعة رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية فقام رسول الله ﷺ فقال: إن الله قد حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسوله والمؤمنين إلا وأنا لم تحل لأحد قبلي ولا يحل لأحد بعدي وإنما حلت لي ساعة من نهار ألا وإنما ساعتى هذه حرام لا يختلى شوكتها ولا يعضد شجرتها ولا يلتقط ساقطها إلا من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما يؤدي وإما يقاد فقال له رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاة اكتب لي يا رسول الله فقال: اكتبوا له، وقام رجل من قريش فقال يا رسول الله الأذخر قال ألا إلا ذخر وفي رواية قام رجل فقال: يا رسول الله إني قد عاهرت في الجاهلية، فقال ﷺ من عاهر بامرأة لا يملكها أو أمة قوم آخرين ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له ولا يرث ولا يورث ولاء خالكم إلا قد عرفتموها أقول قولى هذا وأستغفر الله لي ولكم» ونادى منادى رسول الله ﷺ بمكة من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يدع ما في بيته صنماً إلا كسره فلما حانت الظهر أمر بلالاً أن يؤذن بالظهر يومئذ فوق الكعبة يغبط بذلك المشركون وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فسر وجوههم وتعيبوا وأبو سفيان وخالد بن أسيد وحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة فقال خالد بن أسيد لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون يسمع هذا وقال الحارث أما والله لو أعلم، أنه محق لأتبعه وقال بعض بني سعيد بن العاص لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة وقال أبو سفيان لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا، فأتى جبرائيل بما قالوا فأخبرهم رسول الله ﷺ بما قالوا فقالوا: نشهد أنك رسول الله ﷺ فأسلم أهل مكة ورمى بعض المسلمين أبا قحافة فشجه فأخذت قلادة أسماء بنت أبي بكر فأدركه أبو بكر وهو يستدمي فمسح الدم على وجهه وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال هلا تركت الشيخ حتى آتية فمسح صدره فأسلم وكان رأس أبي قحافة ولحيته كالشقامة فقال ﷺ: «غبروا هذا الشيء وجنبوه السواد» فجلس رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه يأخذ عن الناس العبيعة على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وحده وأن محمداً عبده

ورسوله فجاء الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم ولما فرغ عن بيعة الرجال بايع النساء قالت عائشة والله ما مست يد رسول الله ﷺ امرأة قط ما كان يبايعهن إلا كلاماً^(١). وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا منه حتى يرى البيت فرفع يديه وجعل يحمد الله تعالى ويذكره ويدعو بما شاء الله أن يدعوه والأنصار تحته فقال بعضهم لبعض أما الرجل فأذكرته رغبة في قربته ورأفة في عشيرته فجاء الوحي فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله قال: قلت كذا قالوا: نعم، قال: «فحاشا وكلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم المحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا للضنين بالله وبرسوله فقال رسول الله ﷺ: «فإن الله ورسوله بعد ردتكم بصدقاتكم» واستقرض رسول الله من ثلاثة نفر من قريش خمسين ألف درهم من صفوان بن أمية وأربعين ألف درهم من عبد الله بن ربيعة وأربعين ألف من حويطب بن عبد العزى فقسمها بين أهل الضعف من أصحابه فلما فتح الله هوازن ردها، وقال إنما جزاء السلف الحمد والأداء وقال رسول الله ﷺ: «لا تغزى مكة بعد اليوم»^(٢) وقال: «لا هجرة بعد الفتح»^(٣) وروى أبو يعلى وأبو نعيم عن ابن عباس قال: لما فتح مكة إن إبليس أن أنه فاجتمعت ذريته فقال أيئسوا أن ترد أمة محمد إلى الشرك وروى بن أبي شيبه عن مكحول لما دخل رسول الله ﷺ مكة تلقته الجن يرمونه بالشر فقال جبرائيل عليه السلام: «تعوذ يا محمد بهؤلاء الكلمات أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما نزلنا من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما بث في الأرض وما يخرج منها ومن شر الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارق يطرق بخير يا رحمن»، وروى البيهقي عن ابن أبي بزي قال: لما فتح مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهاً وتدعو بالويل فقيل يا رسول الله: «رأينا عجوزاً شمطاء حبشية تخمش وجهها وتدعو بالويل فقال تلك قائلة أيئست أن تعبد ببلدكم هذا أبداً ونزلت يوم الفتح ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف،

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: كيفية بيته النساء (٤٣٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء قال النبي ﷺ يوم فتح مكة «إن هذه لا تغزى بعد اليوم» (١٦١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير (٦٣٠٧).

وروي أنه جاء جبرائيل فقال: ما دام هذا البيت أوليته من لبناته قائمة فإن المفتاح والسدانة في آل عثمان فكان المفتاح معه فلما مات دفعه إلى أخيه شيبه فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسع عشرة ليلة يقصر الصلاة، رواه البخاري وفي رواية أبي داود سبع عشرة وعند الترمذي والبخاري ثمان عشر، وجه الجمع أنه تسع عشر مع يوم الدخول والخروج وسبع عشر بإسقاطهما وثمان عشر من حيث الساعات وما روي خمس عشرة فضعفها النووي في الخلاصة ولما فتح الله مكة قالت العرب بعضهم لبعض إذا ظفر محمد يا أهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين وهو قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ جملة يدخلون حال من مفعول رأيت أن كان بمعنى روية البصر وإلا فمفعوله الثاني ﴿أَفْوَاجاً﴾ حال من فاعل يدخلون قال مقاتل وعكرمة أراد بالناس أهل اليمن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أمتكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً للإيمان والحكمة يمانية والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم»^(١) متفق عليه وجواب إذا جاء قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي ملتبساً بحمد ربك يعني قل سبحان الله وبحمده، متعجباً حامداً لما تيسر الله لك ما لم يخطر ببال أحد أن يفتح عنوة وقد منعها الله من أصحاب الفيل عن أنس قال: «لما دخل رسول الله ﷺ مكة استشرفه الناس فوضع رأسه ﷺ على رحله متخشعاً» رواه الحاكم بسند جيد، وعن أبي هريرة نحوه بلفظ ليمس وسط رحلة ويقرب منها تواضعاً حتى رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثم قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة» رواه أبو يعلى ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ تواضعاً وهضماً لنفسك واستغفاراً لعملك واستدراكاً لما فات منك الأفضل باختيار الفاضل شفقة على الأمة أو المعنى استغفر لأمتك قال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» وفي رواية «أكثر من سبعين مرة» وفي رواية «مائة مرة»^(٢) رواه البخاري والنسائي وابن ماجه والطبراني وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وأنس وشداد بن أوس وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق وهذا من سنة الدعاء ولا بد لغير النبي ﷺ تقديم الصلاة على النبي ﷺ أيضاً على استغفار ﴿إِنَّكُمْ﴾ لم يزل ﴿كَانَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قدوم الأشعريين وأهل اليمن (٢٨٩٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه (٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٦٣٠٧).

تَوَابًا ﴿ للمستغفرين منذ خلق المكلفين، روى الثعلبي أن رسول الله ﷺ لما قرأها بكى عباس فقال ﷺ ما يبكيك؟ فقال نعت نفسك إليك، فقال إنه لكما تقول. قال البيضاوي وجه الاستدلال بالسورة على نعي رسول الله ﷺ دلالتها على تمام الدعوة وكمال أمر الدين كقوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ وَبَيْنَكُمْ﴾^(١) الآية أو لأن الأمر بالاستغفار تنبيه له على دنو الأجل، وروى البخاري عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم لم يدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني فقال: ما تقول إذا جاء نصر الله والفتح حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وقال بعضهم لا ندري ولم يقل بعضهم شيئاً قال لي ابن عباس كذلك تقول قلت لا قال فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة فذاك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً قال عمر ما أعلم إلا مات^(٢). أخرج أحمد عن ابن عباس قال لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال: رسول الله ﷺ نعت إلي نفسي أخرج الترمذي من حديث أنس «إذا جاء نصر الله والفتح ربع القرآن»^(٣) وروى البخاري عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثُر في ركوعه وسجوده سبحانه اللهم وبحمدك اللهم اغفر بتأول^(٤)، وروى مسلم عنها قالت: كان يكثُر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه قال أخبرني ربي أنني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً^(٥). قال الحسن أعلمه قد اقترب أجله فأمر بالتسييح والتوبة ليختم له بالزيادة في العمل الصالح، قال قتادة ومقاتل عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة ستين، والله أعلم.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٢٨٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في إذا زلزلت (٢٨٩٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: التسييح والدعاء في السجود (٨١٧).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

سورة الذهب

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾

روى الشيخان في الصحيحين أنه لما نزلت قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾ جمع رسول الله ﷺ أقاربه فأنذرهم وفي رواية عند البخاري وغيره سعد على الصفا فنادى فاجتمعت إليه قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو ومصبحكم أو ممسيكم أما كنتم مصدقي؟ قالوا: بلى قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تباً لك ألهذا جمعتنا وأخذ حجراً ليرميه فنزلت: ﴿تَبَّتْ﴾^(١) التبا بخسران يؤدي إلى الهلاك أي هلكت ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي نفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾^(٢) وقيل إنما خصت بالذكر لما أخذ حجر الرمي وقيل أراد بها دنياه وآخرته، وقيل: أراد ماله وملكه يقال فلان قليل ذات يد. قرأ ابن كثير أبي لهب بإسكان الهاء والباقون بفتحها واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، قال مقاتل كنى بالذهب لحسنه وإشراق وجهه وإنما ذكرها هنا بالكنية لاستكراه ذكر اسمه ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله ومجانسة قوله ذات لهب ﴿وَتَبَّ﴾ إخبار بعد إخبار للتأكيد أو الأولى دعائية والثاني إخبارية والتعبير بالماضي لتحقيق وقوعه، قال ابن مسعود لما دعا رسول الله ﷺ أقر بآه إلى الله عز وجل قال أبو لهب إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإنني أفتدي نفسي بمالي وولدي فأنزل الله تعالى ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار يعني ما يدفع

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المسد (٤٩٧٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾ (٢٠٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

عنه عذاب ما جمع من المال أو أي شيء يغني عنه ماله وكان صاحب ما ومواش ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ من المال والولد عن عائشة مرفوعاً «أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم كسبكم»^(١) رواه البخاري في التاريخ والترمذي، وقد افترس ولده عتبة أسد في طريق الشام كما ذكرنا في سورة عبس ومات أبو لهب بالعدس بعد وقعة بدر بأيام معدودة وترك ثلاثاً حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودا حتى دفنوه أو عده الله تعالى بالنار فقال ﴿سَيَصَلَّى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي تلتهب جملة مستأنفة أو في مقام التعليل لقوله ما أغنى اتفق القراءة على فتحة هاء لهب ها هنا لرعاية القوافي ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ عطف على المستكن في سيصلي سوغه الفصل أو مبتدأه بعده خبره وهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قرأ عاصم بالنصب على الذم والشتم والباقون بالرفع على أنه خير مبتدأ، أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق عن رجل من همدان يقال له يزيد أن امرأة أبي لهب كانت تلتقى في طريق النبي ﷺ الشوك والعضاة لتعقرهم فنزلت وكذا روي عن الضحاك، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله وهي رواية عطية عن ابن عباس وقال قتادة ومجاهد والسدي كانت تمشي بالنميمة وتنقل الحديث فتلقي العداوة بين الناس وتوقد ناراً كما توقد الحطب ناراً وقال سعيد بن جبيرة حمالة الخطايا قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾^(٢) ﴿فِي جِيدِهَا﴾ عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ خبر لامراته بعد خبر على تقدير كونه مبتدأ أو حال منه على تقدير كونه فاعلاً سيصلي، قال ابن عباس وعروة بن الزبير المراد به سلسلة قتلت من حديد قتلاً محكماً ذرعها سبعون ذراعاً يدخل في فمها ويخرج من دبرها ويكون سائرهما في عنقها والمسد ما قتل وأحكم من أي شيء كان وروى الأعمش عن مجاهد من مسد أي من حديد، وقال الشعبي ومقاتل من ليف مقتول وذلك الليف هو الحبل الذي كانت تحتطب به فبينما هي ذات يوم حاملة حزمة فأعيت فقعدت على حجر تستريح فأتاها ملك فجذبها من خلفها فأهلكها، وقال ابن زيد حبل من شجر ينبت باليمن يقال له مسد وقال قتادة هي قلادة قال الحسن كانت خوزات في عنقها، وقال سعيد بن المسيب كانت لها قلادة في عنقها فاخرة فقالت لا نفقها في عداوة محمد ﷺ، قلت: فإن كان المراد بثبوت حبل كائناً من مسد أي حديد في جيدها في الآخرة فهي إما خبر لامراته بعد خبر إن كان مبتدأ أو حال منه إن كان فاعلاً سيصلي وحمالة الحطب على تقدير النصب يكون معترضة للذم ولا يجوز أن يكون في جيدها حبل من مسد حالاً من

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأحكام، باب: ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده (١٣٥٦).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

الضمير المستكن في حمالة الحطب لعدم اتحاد زمان الحال حينئذ لأن حمل الحطب كان في الدنيا إلا أن يقال معنى حمالة الحطب أنها تحمل حطب جهنم كالزقوم والضريع أو ما يوقد به جهنم جزاء لما كانت تحمل الحطب في الدنيا بعداوة النبي ﷺ وأصحابه كذا ذكر البيضاوي، لكن لم ينقل هذا التأويل من السلف وأن المراد به ثبوت جبل في عنقها في الدنيا فحينئذ إما خبر مبتدأ محذوف أي هي أو خبر بعد خبر لا مرآته أو حال من الضمير المستكن في حمالة الحطب بلا إشكال والظاهر على هذا التأويل أن يكون في الكلام على الحقيقة وما قال الشعبي فهو مستبعد جداً لكونها وزوجها في بيت عز وثروة وجدة، والله تعالى أعلم...

سورة الإخلاص

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَوْمَ يُولَدُ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

أخرج الترمذي والحاكم وابن خزيمة من طريق أبي العالية، عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ إلى آخر السورة^(١)، وأخرج الطبراني وابن جبير مثله من حديث جابر بن عبد الله فبناء على هذين الروایتين قيل السورة مكية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف وحييء بن أخطب فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ إلى آخرها، وأخرج ابن جرير عن قتادة وابن المنذر عن سعيد بن جبیر مثله، وذكر البغوي قول الضحاک وقاتدة ومقاتل جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا صف لنا ربك لعننا نؤمن بك فإن الله أنزل نعتهم في التوراة فأخبرنا من أي شيء هو وهل يأكل ويشرب ممن ورث ومن يرثه فأنزل الله هذه السورة، وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون وإبليس من لهب النار والسماء من دخان والأرض من زبد الماء فأخبرنا عن ربك فلم يجبههم، فأتاه جبرائيل بهذه السورة وبناء على هذا الروايات قيل السورة مدنية، وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال قادة الأحزاب أنسب لنا ربك فأتاه جبرائيل بهذه السورة وعلى هذا الرواية يرتفع التعارض ويظهر أن السورة مدنية والماد بالمشركين من حديث أبي بن كعب هم قادة الأحزاب ولعل اليهود وقادة الأحزاب من المشركين كلا الفريقين

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤).

سألوا عن الله تعالى حين نزلت السورة، وذكر البغوي عن أبي الزبيان وأبي صالح عن ابن عباس أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر إلى ما تدعوننا يا محمد قال إلى الله قال صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة فأهلك الله إربد بالصاعقة وعامراً بالطاعون قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدٌ هُوَ﴾ الضمير إما للشأن والجملة الواقعة بعدها خبر له ولا حاجة إلى العائد لأنه هي هو وأما عائد إلى ما سأل عنه يعني الذي سألتموني هو ﴿اللَّهُ﴾ خبر لهو ﴿أَحَدٌ﴾ بدل من الله أو خبر ثان لهو أصله وحد بمعنى واحد أبدلت الواو همزة وفي قراءة ابن مسعود قل هو الله لواحد وكذا قرأ عمرو بن الخطاب وعلى تقدير كون الضمير للشأن، وكون الله أحد مبتدأ وخبر فالكلام ليس على ظاهره لأن الله علم للجزء الحقيقي لا يكون إلا واحداً يمتنع فرض صدقه على كثيرين كزيد فيلزم الاستدراك ولا يفيد الكلام فالواجب أن يراد بلفظ الله معنى كلياً يعني مستحقاً للعبادة لكل من سواه وذلك الاستحقاق لا يتصور إلا بإفاضة الوجود وتوابعه على ما عدها وذلك الإفاضة لا يتصور إلا من الذات الواجب وجوده وصفاته كما له الممتنع عليه صفات النقص والزوال المباين للممكنات في حقيقة ذاته وصفاته لأن اقتضاء وجود غيره فرع اقتضاء وجوده في نفسه وما لا يقتضي وجوده في نفسه كيف يقتضي وجود غيره سواء كان ذلك الغير جوهرًا أو عرضاً أو فعلاً من أفعال العباد وذلك معنى الوجوب والنقص والزوال ومثابته الممكنات ينافي الوجود واستحقاق العابدة، فمعنى الجملة المستحق للعبادة على الإطلاق الواجب لذاته وجوده وصفاته الكاملة الممتنع عليه صفات النقص والزوال واحد لا شريك له وحيث أن أفاد الكلام فائدة تامة غير أنه على هذا التأويل لا يطابق الجواب السؤال لأنهم لم يسألوا النبي ﷺ عن كونه تعالى واحداً أو متكثراً فإن النبي ﷺ كان يدعوهم بأعلى صوته إلى التوحيد وقول لا إله إلا الله بل سألوه، عن حقيقة الذاتية وقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك أمن الذهب هو أم من فضة أو نحو ذلك، وكذا إن كان الضمير عائداً إلى المسؤول عنه لا جائز أن يقال معنى الجملة أنه واحد غير متكرر فإنه لا يطابق السؤال فالواجب على كلا التأويلين أن يكون المراد بأحد ما يكون منزهاً عن أنحاء التركيب والتعدد وما يستلزم أحدهما من الجسمية والتمحيض والمشاركة لشيء من الأشياء في الحقيقة والمثابته لشيء من الأشياء في صفة من صفات الكمال وإذا لم يشابهه أحد في الذات ولا في صفة من الصفات لا يكون له ند ولا ضد ولا مثل ومن هنا قالت الصوفية العلية أحديته تعالى وعدم مثابته أحد له تعالى في صفة من الصفات يقتضي أن لا يشاركه أحد في الوجود فإنه أصل

الصفات والحياة التي هي أم الصفات وأمامها من العلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والتكوين فرع للوجود بالمعنى المصدرى فهو أمر انتزاعي مترتب عليه، ومن ثم قالوا: يعني لا إله إلا الله موجود إلا الله فالموجود الحقيقي في الخارج لي إلا الله تعالى وما عداه من الممكنات الموجودة متصفة بوجوده كالظل لوجوده في الخارج أو هو كالظل للخارج الحقيقي وكذا الحال في العلم والقدرة وسائر الصفات، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾^(١) يعني الثابت المتحقق المتأصل في وجوده وصفاته وأن ما يدعون من دونه هو الباطل يعني اللا شيء في نفسه وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٢) فصفات الممكنات إنما يشارك صفات الواجب تعالى اشتراكاً اسماً لا اشتراكاً حقيقياً ومن لا يفهم كلام الصوفية فعليه التشبث بأذيالهم ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾^(٣) ففي جملة واحدة تم الإشارة إلى مباحث الذات والصفات كلها في كلمة قل إشارة إلى النبوة والتبليغ وإعجاز الآية شاهد على النبوة فكفى بقل هو الله أحد عن المجلدات وإن بقي الكلام في مثل أن صفاته تعالى عين ذاته أو زائدة عليها فلا محذور فيه ولا يتعلق به غرض بل البحث عن مثل هذه الأبحاث الفلسفة يقضي إلى المهلكة، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤) فإذا لم يؤت البشر العلم بحقيقة الروح وهو من الخلائق فأني له العلم بذات الخالق وصفاته إلا أعجز عن درك إدراكه... والبحث عنه إشراك والسبيل إليه المعية الحبيبة لا غير، عن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن متنازع في القدر فغضب حتى أحمر وجهه حتى كأنما فقيء في وجنتيه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أبهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبله حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»^(٥) رواه الترمذي وروى ابن ماجه نحوه، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾^(٦) قال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير الصمد الذي لا خوف له كذا أخرج ابن جرير عن بريدة ألا أعلمه إلا قد رفعه، قلت لعله مجاز مما لا ينفذ إليه العقول والأوهام ولا يدركه الإفهام

(١) سورة الحج، الآية: ٦.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣ - ٥٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء في التشديد في الخوض في القدر (٢١٣٣).

وقال الشعبي الذي لا يأكل ولا يشرب وقيل تفسيره وما بعده ولذا روى أبو العالية عن أبي بن كعب وقال أبو الوائل شقيق بن سلمة هو السيد الذي قد انتهى سؤدده وهي رواية عن أبي طلحة عن ابن عباس يعني الذي قد كمل في جميع أنواع السؤدد وعن سعيد بن جبير هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وقيل هو السيد المقصود في الحوائج، قال السدي هو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب يقال صمدته إذا قصدته، قال قتادة الصمد الباقي بعد فناء خلقه وقال عكرمة الصمد الذي ليس فوقه أحد وهو قول علي عليه السلام وقال الربيع الصمد الذي لا يعتره الآفات، قال مقاتل بن حبان الذي لا عيب فيه، قلت: وعندي معناه الحقيقي المقصود قال في القاموس الصمد القصد بالتحريك السيد لأنه يقصد وإدخال اللام عليه لإفادة كونه في أجل درجات الصمدية وأعلها وأكملها فإن الناس قد يقصدون غير الله سبحانه من الدنيا وما فيها لفساد رأيهم وعدم اهتدائهم إلى مرتبة حق اليقين فكل ما ذكر في أقوال السلف من المعاني فهي تعبيرات عن لوازمه لأن المقصود على الإطلاق من يحتاج كل ما عداه إليه ولا يحتاج هو إلى غيره في شيء من الأشياء فيكون البتة جامعاً لجميع الكمالات وأنواع السؤدد ومنزهاً عن العيوب وأن تعتره الآفات غير محتاج إلى الأكل والشرب قديماً بما لم يولد غير مجانس لأحد حتى يلد مثله لا يكون فوقه بل ليس مثله أحد فيكون البتة بحيث لا ينفذ إليه فهم وإدراك ولما كانت الجملة السابقة تغنيه عن هذه الجملة وعن الجمل الثلاث اللاحقة، وهذه الجملة وما بعدها كالتأكيد للأولى أوردت لزيادة الاهتمام من قبيل إيراد الخاص بعد العام للمبالغة في التنزيه والتصريح بالرد على المخاطبين المنكرين المشركين في القصد والعبادة غيره تعالى القائلين باتخاذ الله تعالى البنات والبنين بغيرهم لم يذكر العاطف على هذه الجملة ولا على ما بعدها وكرر اسم الله تعالى للإشعار بأن لم يتصف به لم يستحق الألوهية وأن المقصديجب كأن لا يكون غيره تعالى، ومن ثم قالت الصوفية معنى لا إله إلا الله لا مقصود إلا الله وقالوا ما هو مقصد لك فهو معبود لك فإن المرء لا يزال يلقي نفسه في كمال التذلل التحصيل مقصوده والعبادة عبارة عن كمال التذلل فالصوفية العلية يذكرون النفي والإثبات مع ملاحظة نفي مقصودية ما عدا الله ويجتهدون فيه غاية الاجتهاد حتى يزول عن صدورهم كون غيره تعالى مقصود بوجه من الوجوه والله المسير لكل عسير ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ كما زعمت المشركون أن الملائكة بنات الله واليهود بأن عزيز ابن الله والنصارى بأن المسيح ابن الله لاستحالة المجانسة وعدم الاقتضاء إلى من يعينه أو يخلف عنه لاستحالة الاحتياج والفناء عليه تعالى، أورد بلفظ الماضي وإن كان عدم توالده أبداً رداً

على ما قالوا ولمطابقة قوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن الحديث ينافي الألوهية ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي مكافياً ومماثلاً، قرأ حفص كفووا بضم الفاء وفتح الواو وحمزة بإسكان الفاء مع الهمزة في الوصل فإذا وقف إبدال الهمزة واواً مفتوحة اتباعاً للخط والقياس أن يلقي حركتها على الفاء والباقون بضم الفاء مع الهمزة أحد اسم يكن وكفووا خبره والظرف متعلق بكفووا قدم الخبر على الاسم والظرف التعلق بالخبر عليه للاهتمام لأن المقصد تنزيه الله تعالى ونفي المكافاة عنه تعالى الدعاية الفواصل ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكن في كفووا وأن يكون خبراً أو كفوواً حال من أحد أورد الجمل الثلاث منتسقات بالعطف لأن المقصد منها نفي أقسام الأمثال وتنزيهه عن كل ما يتصف به فهي كجمله واحدة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي يقول لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقلوه اتخذ الله ولدأ وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»^(١).

فصل: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»^(٢) رواه مسلم، ورواه البخاري عن أبي سعيد ومثله في حديث ابن عباس وأنس وذكرناه في تفسير سورة الزلزال، وعن عائشة أن النبي ﷺ: «بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلواتهم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال سلوه لأي شيء تصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأها فقال النبي ﷺ أخبروه أن الله يحبه»^(٣) متفق عليه، وعن أنس قال رجل يا رسول الله إني أحب هذه السورة قل هو الله أحد قال: «إن حبك إياها أدخلك الجنة»^(٤) رواه الترمذي وروى البخاري معناه، وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد فقال:

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿اللَّهُ الْأَكْمَدُ﴾ (٤٩٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١٣).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (٢٨٩٦).

وجبت قلت: ما وجبت؟ قال: «الجنة»^(١) رواه مالك والترمذي والنسائي، وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ مائة مرة قل هو الله أحد إذا كان يوم القيامة يقول له الرب يا عبدي ادخل على يمينك الجنة»، رواه الترمذي، وقال: حسن غريب، وعنه عن النبي ﷺ قال: «من قرأ كل يوم مائة مرة قل هو الله أحد محي عنه ذنوب خمسين إلا أن يكون عليه دين» رواه الترمذي والدارمي، وفي رواية خمسين مرة ولم يذكر إلا أن يكون عليه دين وعن سعيد بن المسيب مرسلًا عن النبي ﷺ قال: «من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بني له قصر في الجنة ومن قرأ عشرين مرة بني له قصران في الجنة ومن قرأها ثلاثين مرة بني له بها ثلاثة قصور في الجنة» فقال عمر بن الخطاب والله يا رسول الله إذا لتكثرن قصورنا فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك» والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (٢٨٩٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: الفضل في قراءة قل هو الله أحد (٩٨٨).

سورة الفلق

مدنية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

أخرج البيهقي في دلائل النبوة من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: مرض رسول الله ﷺ مرضاً شديداً فأتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه ما ترى؟ قال: طب قال: ما طبه؟ قال: سحر قال: من سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي قال: أين هو؟ قال: في شرك فلان تحت صخرة في ركية فأتوا الركية فانزحوا وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكدية وأحرقها، فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث عمار بن ياسر في نفر فأتوا الركية فإذا ماءها مثل ماء الحناء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الكدية وأحرقوها فإذا فيها وتد فيه أحد عشرة عقدة وأنزلت عليه هاتان السورتان فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة قل أعوذ برب الفلق قل أعوذ برب الناس. وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق أبي جعفر الرازي عن أنس قال صنعت اليهود لرسول الله ﷺ شيئاً فأصابه من ذلك وجع شديد فدخل عليه أصحابه فظنوا أنه ألما به فأتاه جبرائيل بالمعوذتين فعوذ بهما فخرج إلى الصحابة صحيحاً وله شاهد في الصحيحين بدون نزول السورة، وذكر البغوي قول ابن عباس وعائشة كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذوا مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان مشطة فأعطاهم اليهود فسحروا فيها وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت السورتان، وروى البغوي بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ طب حتى أنه ليخيل أنه قد صنع شيئاً وما صنعه وأنه دعا ربه، ثم قال: إن الله أفتاني فيما استفتيته فيه فقالت عائشة وما ذلك يا رسول الله قال جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وقع؟ فقال أحدهما لصاحبه ما وقع الرجل؟ قال الآخر

مطوب قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم قال: فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فأين هو؟ قال: في ذروان بير بني زريق قالت عائشة فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة فقال وا لكان ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين فقلت: يا رسول الله فلا أخرجته قال: أما أنا قد شفاني الله كرهت أن أثير على الناس شراً قال البغوي وروي أنه كان تحت صخرة في البير فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطية، وروي البغوي بسنده عن يزيد بن أرقم قال سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك إياها قال فأتاه جبرائيل فقال: «إن رجلاً من اليهود سحرك فعقد لك عقداً فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها كلما حل عقد وجد لذلك خفة فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط عن عقال فما ذكر ذلك اليهودي ولأراه في وجهه، وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عائشة أن يهودياً سحر النبي ﷺ في أحد عشر عقدة في وتر دسه في بير فمرض النبي ﷺ ونزلت معوذتان وأخبره جبرائيل بموضع السحر فأسل علياً فجاء به فقرأها عليه فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة وروي أنه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاث ليال ونزلت المعوذتين، وروي مسلم عن أبي سعيد أن جبرائيل أتى النبي ﷺ فقال يا محمد اشتكيت فقال نعم قال بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك^(١) قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي فلق الصبح وهو قول جابر الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة من قوله تعالى: ﴿قَالَ الْإِصْبَاحُ﴾^(٢) وقيل: فالق الحب والنوى بالشطا والسحاب بالماء والأرض بالعيون والأرحام بالأولاد، وقال الضحاك يعني الفلق وهي رواية الوالبي عن ابن عباس والمشهور هو الأول وقال أكثر المفسرين وهي رواية عن ابن عباس أنه سجن في جهنم رواه ابن جرير وقال الكلبي واد في جهنم وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفلق جب في جهنم مغطى» وأخرج ابن جرير والبيهقي عند عبد الجبار الخولاني قال قدم علينا رجل من أصحاب رسول الله ﷺ في دمشق فرأى ما فيه الناس من الدنيا قال وما يغني عنهم أليس ورائهم الفلق قالوا: وما الفلق؟ قال: جب في النار إذا فتح هرب منه أهل النار، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا وأيضاً عن عمرو بن عتبة قال: الفلق بير في جهنم إذا سعرت جهنم فمنه تسعر جهنم لتتأذى منه كما يتأذى بنو آدم من جهنم عليها الغطاء فإذا اكشفت عنه خرجت منه نار

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقى (٢١٨٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

تصيح منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه، وأخرج ابن أبي حاتم وابن جبر عن كعب قال الفلق بيت في جهنم إذا فتح صاح أهل النار من شدة حره، وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن علي عن آبائه الكرام الفلق جب في قعر جهنم، وإنما خص ذكر الله سبحانه في الاستعاذة بهذه الصفة لأن جهنم والفلق الذي هو أشد من أجزائه لما كان أدهى الأدهي وأعظم الأشياء شر مخالقة وربّه أقدر على دفع كل شر وإن كان المراد بالفلق الصبح فالصبح واقع ومظهر الشرور غسق الليل فربه قادر على دفع كل شر فذكره تعالى بهذه الصفة داع إلى دفع الشرور والله أعلم ﴿وَمِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (٢) أي من شرك كل مخلوق فإن الممكن لا يخلو من شر لأن العدم داخل في ماهيته غير أنه كلما استضاء بالتجليات الذاتية والصفاتية زال شره وتبدل بالخير أولئك يبذل الله سيئاتهم حسنات، وقال ﷺ: «أسلم شيطاني فلا يأمرني إلا بخير»^(١) قال البيضاوي خص عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشر فيه فإن عالم الأمر خير كله وشر عالم الخلق إما اختياري لازم كالكفر متعدد كالظلم وإما طبعي كإحراق النار وإهلاك السموم ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾ الغسق معناه الامتلاء قال الله تعالى: ﴿إِنِّي غَسَقَ اللَّيْلِ﴾^(٢) أي امتلاؤها ظلمة ويقال غسق العين إذا متلت دمعاً وغسق القمر إذا امتلأ نوراً، وفي القاموس الغاسق القمر والليل إذا غاب الشفق والفسوق والإغساق الإظلام، وقيل: معناه السيلان غسق الليل الضباب ظلامه وغسق العين سيلان دمه وغسق القمر سرعة سيره وقيل الغسق البرد سمي الليل غاسقاً لأنها أبرد من النهار والقمر غاسقاً لكونه أبرد من الشمس ولهذا يقال للقمر الزمهير، والمراد بالغاسق ها هنا القمر لحديث عائشة قالت أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر غاسق إذا وقب^(٣)، رواه البغوي بسنده فعلى هذا التقدير معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذا دخل في الخسوف وأخذ في الغيوبة فإن القمر لا يتخسف إلا عند امتلاء نور الليلة البدر، قال ابن عباس والحسن ومجاهد المراد به الليل إذا أقبل ودخل سواده في ضوء النهار، وقال ابن زيد المراد به الثريا إذا أسقطت يقال الانتظام تكثر عند وقوعها وترفع عند طلوعها ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ يعني النفوس السواحر والنساء الساحرات اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين ويسحرن

(١) روى بمعناه البزار وفيه من ضعف.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: عصمته ﷺ من القرين (١٣٨٥٨).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المعوذتين (٣٣٦٦).

النبي ﷺ، قال أبو عبيد بناته بأمره ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي إذا أظهر حسده وعمل في الإضرار بمقتضى حسده وإنما قيد به لأن ضرر الحسد قبل ذلك يعود إلى نفس الحاسد لا غتمامه لسرور غيره ولا يتجاوز إلى المحسود إنما خص هذه الأشياء بالذكر بعد التعميم بقوله من شر ما خلق لكون دخل هذه الأشياء الثلاثة في هذا الشر المخصوص أعين سحر النبي ﷺ ووسوسة شيطان الجن أعني إبليس وشيطان الإنس أعني إبليس وشيطان الإنس أعني لبيد بن الأعصم، أورد النفائث بصيغة الجمع ولام العهد بخلاف غاسق وحاسد حيث أوردهما منكرأ إذا الغرض في الاستعاذة ملاحظة بنات لبيد بالتخصيص والتعین بخلاف غاسق وحاسد فإن الغرض هناك استعاذة من شر أي غاسق وحاسد كان لأن حساد النبي ﷺ كانوا أكثر من أن يحصى وكانوا دائمين في السحد فاستعاذ منهم على وجه يامن من شرهم في المستقبل أيضاً، عن عقبه بن عامر قال قلت يا رسول الله اقرأ سورة هود وسورة يوسف قال: «لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من قل أعوذ برب الفلق» رواه أحمد والنسائي والدارمي والله تعالى أعلم.

سورة الناس

مدنية وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيَةِ
وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ خالقهم ومربيهم ومصالح أمورهم ﴿مَلِكِ
النَّاسِ ﴿١﴾﴾ مالكهم ومدبر أمورهم ﴿إِلَهِ النَّاسِ ﴿٢﴾﴾ معبودهم هما عطف بيان لرب
الناس فإن المربي قد يطلق على الوالد ورب الدار ويطلق على المالك وهو لا يكون ملكاً
ولا معبوداً والملك قد يطلق على السلطان وهو لا يكون معبوداً مستحقاً للعبادة، واللام
في الناس للعهد والمراد به النبي ﷺ وأتباعه وتخصيصهم بالذكر مع كونه تعالى رباً وملكاً
والهياً بكل شيء لإظهار شرفهم ولأن المقصود بإنزال السورتين دفع شر السحر وغيره، عن
النبي ﷺ وعن أتباعه لأن من حق الرب والملك والإله حفظ المربوب والمملوك والعائد
عن الشر قال غوث الثقلين:

أيدركني ضيم وأنت ظهري أأظلم في الدنيا وأنت نصري

فعار على حامي الحمى وهو قادر إذا ضاع في البیداء عقال بعيري

والكفار وإن كانوا مربوبين مملوكين لكن لعدم اعترافهم به غير مستحقين للحماية
ولذا قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب الله مولانا ولا مولى لكم وتكرير الناس بالإظهار من
غير إضمار لأن عطف البيان موضوع للبيان وفي الإظهار زيادة البيان وللإشعار بشرف
النبي ﷺ وأتباعه، وقال البيضاوي ولما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضار
البدنية هي تعم الإنسان وغيره والاستعاذة في هذه السورة من الإضرار التي تعرض النفوس
البشرية وتخصها عمم الإضافة ثمة وخصصها بالناس ها هنا فكأنه قال أعوذ من شر

الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم، وقيل وجه التكرير لفظ الناس أن المراد بالناس الأول الأطفال ومعنى الربوبية يدل عليه وبالثاني الشاب المجاهدين في سبيل الله ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه وبالثالث الشيوخ المنقطعين إلى الله تعالى ولفظ الإله المنبىء عن العبادة يدل عليه وبالرابع الصالحون إذ الشيطان حريص على عداوتهم وبالخامس المفسدون لعطفه على معوذ منه وفي ذكر أطفال المؤمنين والرجال الصالحين استجلاب للرحمة واستدفاع للعذاب، قال رسول الله ﷺ: «لولا رجال ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لَصُبَّ عَلَيْكُمْ اللَّعْنَةُ» رواه أبو يعقوب والبزار والبيهقي من حديث أبي هريرة وله شاهد مرسل أخرجه أبو نعيم عن الزهري، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّو تَعَلَّمُوهُمْ﴾^(١) الآية، قال البيضاوي في هذا النظم دلالة على أنه تعالى حقيق بالإعادة قادر عليها غير ممنوع عنها وإشعار على مراتب الناظر في العارف فإنه يعلم أو لا بما يرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له رباً ثم بعد النظر يتحقق أنه غني عن الكل ذوات كل شيء ملكه ومصارف أمورهم منه فهو الملك الحق ثم يستدل على أنه هو المستحق للعبادة ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ الوسواس اسم بمعنى الوسوسة وهو الصوت الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع كالزلزال والمراد ها هنا الموسوس يعني الشيطان على طريقة المبالغة أو بتقدير المضاف أي ذي الوسواس كذا قال الزجاج ﴿الْحَنَاسِ﴾ صفة للوسواس يعني الشيطان لأن عادته أن يخنس أي تأخر عند ذكر الله تعالى، عن عبد الله بن شقيق قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من آدمي إلا بقلبه بيتان في أحدهما الملك وفي الآخر الشيطان فإذا ذكر الله خنس وإذا لم يذكر الله وضع الشيطان منقاره في قلبه ووسوس له» رواه أبو يعقوب وروى أبو يعقوب عن أنس عنه ﷺ نحوه ﴿الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ إذا لم يذكر الله والموصول في محل الجر عل أنه صفة بعد صفة للوسواس وجاز أن يكون منصوباً على الذم أو مرفوعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَأ بُدْأُ﴾^(٢) بيان للوسواس أو الذي فالوسوسة فعل من الجنة والناس جميعاً قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾^(٣) الآية أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يستعيز من شر الجن والإنس جميعاً. فإن قيل: الناس لا يوسوسون في صدور الناس إنما هي فعل الجن؟ قلنا: الناس أيضاً يوسوسون بمعنى يليق بهم يقولون أقوالاً يرتكز في صدور الناس منها الوسوسة أو

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

هو متعلق بيوسوس أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة والناس، قال الكلبي هو بيان للناس من قوله في صدور الناس وأراد بالناس هناك ما يعم القبيلتين الجن ناساً كما سموا رجالاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَكُمْ رِجَالٌ مِّنَ الَّذِينَ يُوذُونَ رِجَالِكُم مِّنَ الَّذِينَ﴾^(١) قال البغوي فقد ذكر من بعض العرب أنه قال وهو يحدث جاء قوم من الجن فوقفوا فقليل من أنتم قالوا أناس من الجن وهذا معنى قول الفراء، وجاز أن يكون من الجنة بياناً للوسواس ويكون الناس هنا معطوفاً على الوسواس والمعنى أعوذ برب الناس من شر الشيطان الموسوس من الجنة ومن شر الناس، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس»^(٢) رواه مسلم ورواه أحمد بلفظ قال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك سوراً ما أنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في القرآن بمثلها؟ قلت: بلى قال: قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس» وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»^(٣) متفق عليه، وعن عقبة بن عامر بينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين الجحفة والأبواء إذا غشينا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بأعوذ برب الفلق وأعوذ برب الناس ويقول يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما»^(٤) رواه أبو داود، وعن عبد الله بن حبيب قال: خرجنا في ليلة مطيرة وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ ما دركناه فقال: قل قلت ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تصبح وحين تمشي ثلاث مرات يكفيك من كل شيء»^(٥) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي، وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وامسح عنه بيده رجاء بركتها رواه البغوي.

(١) سورة الجن، الآية: ٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة المعوذتين (٨١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل المعوذات (٥٠١٦).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: في المعوذتين (١٤٦٢).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: أحاديث شتى من أبواب الدعوات، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٤).

فصل في فضائل القرآن العظيم

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١) رواه البخاري ومسلم وزاد البيهقي في الأسماء «وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله القرآن يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل أتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»^(٢) متفق عليه، وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاث تحت العرش يوم القيامة القرآن يحاج العباد له ظهر وبطن والأمانة والرحم ينادي إلا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» رواه البغوي في شرح السنة، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر الآية تقرأها»^(٣) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول الرب تبارك وتعالى: «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه»^(٤) رواه الترمذي والدارمي والبيهقي، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولا همزة حرف وميم حرف»^(٥) رواه الترمذي والدارمي وقال الترمذي حسن صحيح غريب إسناد، وعن الحارث الأعور قال: مررت بالمسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي رضي الله عنه فأخبرته قال أو قد فعلوها قلت نعم قال وإما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول ألا إنها ستكون فتنة قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيب في القراءة (١٤٦٣).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٣٠٠٣).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في من قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر (٢٩١٠).

غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا يزيغ الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا ينقضي عجائبه هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنوا به من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم» رواه الترمذي والدارمي، وعن معاذ الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن وعمل به بما فيه ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذي عمل بهذا»^(١) رواه أحمد وأبو داود، وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو جعل القرآن في أهاب ثم ألقى في النار ما احترق» رواه الدارمي وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره وأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشعفه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار»^(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي، وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من التسبيح والتكبير والتسبيح أفضل من الصدقة والصدقة أفضل من الصوم والصوم جنة من النار» وعن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «قراءة الرجل القرآن في غير المصحف ألف درجة وقراءته في المصحف المضعف ذلك ألفي درجة» وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء قيل: يا رسول الله ما جلاء ذلك؟ قال كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن» روى الأحاديث الثلاثة البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»^(٣) متفق عليه، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء يعني الصوت بالقرآن، يجهر به» متفق عليه، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٤) رواه البخاري، وعن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والعجمي فقال: «اقرأوا فكل حسن

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (١٤٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل قارئ القرآن (٢٩٠٤)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل من تعلم القرآن وعلمه (٢١٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن (٥٠٢٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرًا فَوَلَّكُم مَّا أَوْجَرْتُمْ يَدَيْ﴾ (٧٥٢٧).

وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه رواه أبو داود والبيهقي يعني يتعجلون» ثوابه في الدنيا، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرأ القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابيين وسيجيء بعدي قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» رواه البيهقي وابن رزين وعن عبيدة المليكي رضي الله عنه وكانت له صحبة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن واتلوه حق تلاوته من آناء الليل والنهار وأفشوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلكم تفلحون ولا تعجلوا ثوابه فإن له ثواباً» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير الدواء القرآن»^(١) رواه ابن ماجه وفي اللفظ «القرآن هو الدواء» وروي عن ابن مسعود «عليكم بالشفائين العسل والقرآن» وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رجلاً شكى النبي صلى الله عليه وسلم وجع حلقه قال عليك بقراءة القرآن» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني أشتكى صدري قال: اقرأ القرآن بقول الله تعالى (شفاء لما في الصدور)، وعن طلحة بن مطرف رضي الله عنه قال كان يقال: إذ اقرأ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة رواه أبو عبيدة والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: الاستشفاء بالقرآن (٣٥٠١)، وإسناده ضعيف لأن في إسناده الحارث الأعور.

المحتويات

٥	سورة الحاقة
١٨	سورة المعارج
٣٠	سورة نوح
٣٩	سورة الجن
٦٣	سورة المزمل
٨٨	سورة المدثر
١٠٢	سورة القيامة
١١٤	سورة الدهر
١٣٢	سورة المرسلات
١٤٠	سورة النبأ
١٥٤	سورة النزاعات
١٦٧	سورة عبس
١٧٤	سورة التكويد
١٨٤	سورة الانفطار
١٨٨	سورة المطفين
١٩٩	سورة الانشقاق
٢٠٦	سورة البروج
٢١٣	سورة الطارق
٢١٦	سورة الأعلى

٢٢٣	سورة الغاشية
٢٢٨	سورة الفجر
٢٤٠	سورة البلد
٢٤٥	سورة الشمس
٢٥٠	سورة الليل
٢٥٨	سورة الضحى
٢٦٧	سورة الشرح
٢٧٣	سورة التين
٢٧٧	سورة العلق
٢٨٧	سورة القدر
٢٩٥	سورة البينة
٣٠٠	سورة الزلزلة
٣٠٦	سورة العاديات
٣٠٩	سورة القارعة
٣١٣	سورة التكاثر
٣١٨	سورة العصر
٣٢٠	سورة الهُمَزَة
٣٢٣	سورة الفيل
٣٢٨	سورة القريش
٣٣٢	سورة الماعون
٣٣٥	سورة الكوثر
٣٣٩	سورة الكافرون

٣٤١	سورة النصر
٣٥٢	سورة الذهب
٣٥٥	سورة الإخلاص
٣٦١	سورة الفلق
٣٦٥	سورة الناس

طَبَعَ عَلَى مَطْبَعِ
وَلَدِ عَمِيْنِ وَالْمُرَاتِبِ الْعَرَبِيِّ